سماحة المرجع الديني آية الله العظمى
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الحادي عشر

سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار القارئ

بسم الله الرحمن الرحیم

من هدى القرآن

كاتب:

آیت الله سید محمد تقی مدرسی

نشرت فی الطباعة:

دار محبی الحسین (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

من هدی القرآن المجلد ۱۱

اشاره

سرشناسه:مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور:من هدی القرآن/ محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر:تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری:ج ۱۸

شابک:۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-
۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-
۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷--۱۸ ؛ ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی:فهرستنویسی قبلی

یادداشت:عربی

یادداشت:کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت:کتابنامه

موضوع:تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره:BP۹۸/م ۴م ۸ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی:۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی:م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص :۱

اشاره

الجزء الحادی عشر

اشاره

سوره فاطر

اشاره

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

فضل السوره:

جاء فی الحدیث عن الامام الصادق علیه السلام قال :

«الحمدین-حمد سبأ و حمد فاطر-من قرأهما فی لیله لم یزل فی لیلته فی حفظ اللّه و کلاءته فمن قرأهما فی نهاره لم یصبه فی نهاره مکروه،و أعطی من خیر الدنیا و خیر الآخره ما لم یخطر علی قلبه و لم یبلغ مناه» (نور الثقلین/ج(۴)ص(۳۴۵))

ص:۳

الإطار العام

اسم السوره:

اتخذ اسمها من فاتحتها التی شرعت بحمد اللّه علی ما فطر السموات و الأرض.

تذکرنا سوره فاطر بمحامد ربنا الکریم الذی فطر السموات و الأرض، و جعل الملائکه رسلا،و أتقن الصنع،و أحسن التدبیر،و هو العزیز الحکیم.

و لان معرفه الربّ ینبوع کلّ خیر،و أصل کلّ فضیله و خلق کریم،فإنّ القرآن یشفی صدور المؤمنین من أوساخ الغفله،ببیان أسماء اللّه و کریم فعاله و واسع رحمته.

فله الملک و التدبیر فما فتحه من رحمه لا ممسک لها،و ما أمسکها فلا مرسل لها.

و ضلاله البشر عن هذه الحقیقه تدعوه إلی الشرک باللّه العظیم،و یذکّر القرآن الناس جمیعا بأنّ فاطر السموات و الأرض و مبتدعهما بدء هو الذی یرزق الإنسان

منهما،فهو الحقيق بالعباده وحده لا اله الا هو فانى يؤفكون! و لكى يعرف البشر ربه يحتاج إلى إزاله حواجز مثل:حب الدنيا و الغرور بها، و اتباع المضلّين المغرورين بها،و اتباع الشيطان أو عدم الحذر الكافى منه،و يذكّرنا القرآن بأنّ وعد اللّه(بالجزاء)حقّ،فعلينا إذا تجاوز هذه الحواجز،و يبين جزاء الكفّار و حسن جزاء الصالحين.

و بعد أن يبصّرنا السياق بحاجز تزيين الأعمال(و لعله العاده السيئه)يعود ليذكّرنا بربنا العزيز تمهيدا لبيان محور هام(و لعله الأساسى)فى هذه السوره.ما هو ذلك المحور؟ يتطلّع الإنسان نحو العزّه و الغنى،و لكنه يضلّ-عاده-الطريق و بدل أن يحصل عليهما بالإيمان باللّه و العمل الصالح،تراه يؤمن بالشركاء المزعومين،و يمكر السيئات،و يذكرنا القرآن بأنّ الأنداد لا يملكون قطميرا،و أنّ المكر السىء لا يحيق الا بأهله،و أنّ السبيل القويم لبلوغ الطموح المشروع فى العزّه و الغنى هو سبيل اللّه، و معرفه أنّه الفاطر الرازق العزيز الغنى،و أنّه المالك الحق،و أنّه الحكيم الذى يجازى كلا بعمله،و أنّه يحب الصالحين..و خلاصه المحور:تبصير البشر بالسبيل القويم لبلوغ تطلّعاته المشروعه.

هكذا يذكّر السياق بأنّ اللّه أرسل الرياح لتثير السحاب،و ينزل الغيث حيث يشاء فيحيى به الأرض بإذنه،فهو الرزّاق أو ليس الزرع و الضرع من الغيث؟ و هكذا ينتشر الناس فى يوم البعث للحساب.

و من أراد العزّه فلله العزه جميعا(هكذا ينبغى الحصول على العزه،و هى أعظم طموح عند البشر،لأنّها تعنى الأمن و السلامه و الذكر الحسن عند الرب لا عند الطغاه و الأنداد).

ص:۶

و لكن كيف؟و من هو الـذى يعزّه اللّه؟ الجواب:صـاحب الكلم الطيّب و العمل الصالـح،أمّا المكر السـيء فيمحقه و لا يجنى منه إلاّ البوار! منذ أن كنّا نطفه أو جنينا،الى الولاده،و حتى زياده العمر و نقصانه،كلّ ذلک بيد اللّه،و هو مسـجّل فى كتاب،و هو عند اللّه يسير(فلما ذا نطلب الغنى من غيره؟أو ليس خلقنا و أجلنا بيده،فلو قصّر أعمارنا ماذا تنفعنا العزّه أو الغنى؟!).

و بيـده الملـک.أنظر إلى هـذين البحرين،أحـدهما ملـح أجـاج،و الثـانى عـذب فرات.إنّهما لا يسـتويان(فلا يسـتوى الصالـح و لا المسـيء)و لكن مع ذلک يرزقنا اللّه منهما لحما طريّا،و حليه نلبسـها،و ذلّل ظهرهما للسـفن الماخره،لتنقل البضائع،و لتهـدينا إلى نعمه فنشكره بها.

و هو الـذى يولـج الليـل فى النهـار،و يولـج النهار فى الليل،و سـخّر الشـمس و القمر،و حـدّد مسـيرتهما،فهو المالک حقّا،بينما لا يملک الشركاء المزعومون من قطمير(فلا بد أن نبحث عن الغنى عند ربّنا المالک،و ليس عند الطغاه و المترفين).

و هم لا يكشـفون الكرب عند الشدائد،فلا يسـمعون الدعاء،و لا يستجيبون لو سمعوا،و لا ينفعون يوم القيامه،و لا أحد أفضل من الخبير ينقل النبأ.

و يؤكد السياق على فقر البشر-كل البشر-الى ربه،و أنّ اللّه هو الغنى(فلا يجوز الخضوع لهذا و ذاک طلبا لغناه).

و هل هنالک فقر أعظم من أنّ اللّه إن يشأ يذهبهم جميعا و يأت بآخرين بيسر؟

ص:٧

(و يبدو أنّ المحور الثانى الذى يتحدث عنه القرآن هنا بتفصيل،و هو محور المسؤوليه،يتّصل بالمحور الاول،إذ أنّ معرفه الإنسان بأنّه مجازى بعمله يجعله بعيدا عن المكر السىء، مندفعا نحو العمل الصالح،يبلغ أهدافه بالسعى و الاجتهاد عبر المناهج السليمه).

لا ـ أحد يحمل عن أحد ثقل أعماله و وزرها حتى و لو كان ذا قربى(و لا يفهم هذه الحقيقه و يخشى ذنبه الا من يخشى ربّه بالغيب و يقيم الصلاه و يتزكى)و انما ينذر الرسول من يخشى اللّه و يقيم الصلاه و يتزكى،و انما يتزكى لنفسه.

(و يجب ان يكون مفهوما و بوضوح هذا الأمر:إنّه لا ـ يستوى الكافر و المؤمن الصالح،إذ هذه المعرفه تساهم كثيرا فى اختيار المنهج السليم لبلوغ الاهداف).

مَا يَسْتَوِى الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ (فلا يستوى الكافر و المؤمن) وَ لاَ الظُّلُمٰاتُ وَ لاَ النُّورُ (فأين الضلاله و أين الهدى) وَ لاَ الظِّلُّ وَ لاَ الْحَرُورُ (السلام و الأمن و العافيه خير من الحرب و الخوف و المرض) وَ مٰا يَسْتَوِى الْأَحْيٰاءُ (الذين يستمعون كلام اللّه و يحيون به) وَ لاَ الْأَمْوٰاتُ.

و ان اللّه بعث الرسول منذرا بعذاب نكير يصيب المكذبين كما أرسل فى كلّ أمه نذيرا و مبشرا الصالحين بأنّ لهم أجرا حسنا.

(و المحور الثالث فى السوره فيما يبدو هو الاشاره إلى اختلاف ألوان الجبال، و ألوان البشر و الدواب و الانعام،و وعى العلماء لإشارات هذا الاختلاف،و أنّهم المصطفون الذين أورثهم اللّه الكتاب على اختلاف مستوياتهم،و جزاءهم الحسن عند ربهم،و لعله يتصل بالمحور الأول فى بيان نموذج حىّ عمن اتبع رضوان ربه فهداه اللّه إلى السبيل القويم للعزه و الغنى و الجزاء الحسن).

ألا ترى إلى الغيث حين ينزل من السماء يخرج اللّه به ثمرات مختلفا ألوانها (إنّ فى ذلك لآيه على التدبير و حسن التقدير و دقه النظم،و أنّ اللّه مهيمن على الخليقه).

و إذا نظرت إلى الجبال رأيت فيها جددا بيضا و حمرا و غرابيب سود(و هى تشهد بطبقات الصخور فى الأرض ذات الطبيعه المختلفه،و تشهد أيضا على السيطره التامه).

و هكذا الناس و الدواب و الانعام كل منها مختلف ألوانه(و اختلاف اللون مع وحده الخصائص يشهد على حسن التدبير،كما يشهد على أنّ الخليقه تختلف، و هكذا الناس ليسوا سواء فى درجاتهم،فليس سواء عالم و جهول) إِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ،و إنّ الذين يتاجرون مع اللّه بتلاوه الكتاب،و إقامه الصلاه، و الإنفاق فى سبيله سرا و علانيه فان تجارتهم لن تبور،و إنّ اللّه يزيدهم من فضله، و هو غفور و شكور.

و الكتاب الذى أنزل على الرسول حق و يصدّق الذى بين يديه،و قد أورثه اللّه الذين اصطفاهم من عباده(و هم ورثه الأنبياء من علماء أهل بيت الرسول(ص)) فمنهم ظالم لنفسه(إذ لم يتحمل علم الكتاب كما ينبغى،بل خلط عملا صالحا و آخر سيئا)و منهم مقتصد(قد حمل الكتاب بقدر مناسب و هو العالم الربانى الذى يصوم نهاره و يقوم ليله)و منهم سابق بالخيرات(و هو الإمام الذى بلغ حقّ اليقين).

و جزاؤهم جميعا جنات عدن يدخلونها يحلّون فيها أساور من ذهب و لؤلؤا،و هم يحمدون اللّه على ما أذهب عنهم الحزن،بينما الكفّار يخلّدون فى العذاب الشديد، و لا ينفعهم الصراخ،و يقال لهم:ألم نعمركم ما يكفيكم للتذكره،و أرسلنا

إليكم النذير؟ (و يعود السياق لبيان أسماء اللّه الحسنى،مما يوجب علينا تقواه و الحذر من عقابه).

فاللّه يعلم غيب السموات و الأرض،و يعلم ما فى الصدور(فعلى الإنسان مراقبته علانيه و سرا)و هو الذى يستبدل قوما بآخرين،و ان عاقبه الكفر مقت و خسار،و أمّا الشركاء المزعومون(لا يقدرون على نجاتهم من عذاب اللّه،لأنّهم لا يملكون شيئا)فهم لم يخلقوا شيئا من الأرض،و ليسوا مؤثّرين فى تدبير السموات، و لم يحصلوا على تخويل من اللّه بإداره شؤون الخلق،و إنما يعدون أنفسهم غرورا، و اللّه يمسك السموات و الأرض و يمنعهما من الزوال(فما الذى يصنعه الطغاه و المترفون؟).

(و لعل الآيات الأخيره من السوره إعاده تأكيد على محاورها)ببيان أنّهم أقسموا باللّه انهم يبادرون الى قبول النذير و أكثر من غيرهم،و لكنهم ازدادوا نفورا بعد أن جاءهم النذير(و السبب أنهم كانوا يريدون العزّه بالكفر و الاستكبار،و يريدون المال بالمكر،أمّا الكفر فقد أورثهم المقت و الصغار،و اما المكر فقد أورثهم الفقر و عاد عليهم بالخسران)و لا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله.

(و ينذرهم السياق بأنّهم يتعرّضون لعاقبه الكفّار من قبلهم)فهل ينتظرون ذلك المصير الذى جرت عليه سنن اللّه التى لا تبديل فيها و لا تحويل؟!دعهم يسيرون فى الأرض لينظروا عاقبه الظالمين من قبلهم.

(و تختم السوره التى تركزت فى بيان تدبير اللّه للخلق ببيان أنّ اللّه لَوْ يُؤَاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ،وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا

جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (بعض يعذبهم و بعض يغفر لهم).

و خلاصه القول فی إطار هـذه السوره:إنها تدور حول فكره أساسيه و مؤثّره فی تربيه الإنسان و تزكيته،و هی إنّ اللّه هو المهيمن عليه،و هو الذی يدبّر أموره و شؤون الكون،ذلك أنّ الإنسان الذی يشـهد بذلك ليس فقط يطمئنّ إلی رحاب ربّه، و إنّما أيضـا يدفعه هذا الشعور إلی أن يحدّد تصرفاته و سلوكه وفق مناهج اللّه سبحانه و تعالی.

و هناك ايحاء آخر لهذه الفكره،و هو ان لا يطمئنّ البشر إلی رخاء،و لا ييأس عند ضراء.

ص:١١

[سوره فاطر (٣۵): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فٰاطِرِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ جٰاعِلِ اَلْمَلاٰئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ يَزِيدُ فِي اَلْخَلْقِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مٰا يَفْتَحِ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (٢) يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ اَللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ (٣) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۴) يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ اَلْغَرُورُ (۵) إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمٰا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحٰابِ اَلسَّعِيرِ (۶) اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اَللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ فَلاٰ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرٰاتٍ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ (٨)

اللغه

١[فاطر]:الفطر الشق عن الشيء بإظهاره للحس،و فاطر السماوات خالقها.

٣[فأنى تؤفكون]:أى كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال،من أفك بمعنى انصرف،و منه يسمى الإفك إفكا لأنّه صرف للكلام عن الحقيقه إلى خلاف الواقع.

ص:١٢

الملائكه رسل اللّه

هدى من الآيات:

عند ما نتذكر أنّ ربّنا حميد-بكل المحامد الكريمه-أو ليس قد فطر السموات و الأرض،و استوى على عرش القدره حيث جعل الملائكه رسلا(لتدبير الأمور) عندئذ يهدينا الرب إلى أنّ مقاليد الأمور بيده،فإذا فتح للناس رحمه فلا أحد يمسكها،و إذا أمسكها فلا أحد يرسلها،فهو العزيز الحكيم،و هو الذى يرزق الناس من السموات و الأرض،و من نعمه الظاهره رسالاته التى يكذّب بها الناس عاده، و لكنّ الأمور ترجع إلى اللّه سبحانه فلا يجوز أن نغترّ بزينه الدنيا أو بتضليل الغرور، و يحذرنا الربّ من الشيطان،و يدعونا إلى عداوته،لأنّه يدعو حزبه إلى عذاب السعير.

هكذا نتلوا فى الدرس الأوّل من سوره فاطر التذكره بالأصول الثلاثه:

التوحيد،و الرساله،و اليوم الآخر.

ص:۱۴

بینات من الآیات:

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ نزلت البسمله مع جبرئیل کلّما نزلت سوره،و کان الأصحاب یعلمون نهایه السوره إذا نزلت البسمله.

و قد أکدنا:ان اسم اللّه یعنی الصفات الجلالیه و الجمالیه التی یذکر بها، کصفه العزه،و القدره،و العظمه من الصفات الجلالیه،و صفه الرحمه،و الغفران، و الخلق،و الرزق من الصفات الجمالیه،و لقد خلق ربّنا بهذه و تلک الخلیقه،فلو لا رحمه اللّه،و قدرته،و علمه ما وجدت.

فلو کان ربنا مقتدرا،و لم یکن رحیما،لم یکن لیخلق الخلق،و لماذا یخلقه؟ بلی.لقد خلقنا برحمته فقال تعالی:« وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّکَ لَجَعَلَ النّٰاسَ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لاٰ یَزٰالُونَ مُخْتَلِفِینَ* إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَ لِذٰلِکَ خَلَقَهُمْ ». (۱)

و فی الحدیث عن أبی بصیر عن أبی عبد الله علیه السلام قال :سألته عن الآیه فقال:

«خلقهم لیفعلوا ما یستوجبون به رحمه اللّه فیرحمهم » (۲)و هکذا علی البشر التوسل الی اللّه بأسمائه الحسنی،و البسمله أعظمها،فبرحمته التی وسعت کلّ شیء(الرحمن)و برحمته الدائمه التی لا تزول(الرحیم)نستعین فی أعمالنا.

(۱) اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ

۱- ۱) هود/(۱۱۸-۱۱۹).

۲- ۲) نور الثقلین/ج(۲)ص(۴۰۴).

لا حمد لأحد،إلّا مجازا،اما الحمد حقّا فهو للّه،الخالق الرازق.

و قد يفتتن الإنسان بحمد ما سواه،لأنّه تسبّب فى وصول نعمه إليه،و يغفل عن حمد ربه الذى وهب له الكينونه الأولى،و لا تزال نعمه تترى عليه بما لا يحصيها العادّون.

أمّا الذاكرون ربّهم فيقولون:الحمد للّه بجميع محامده كلّها على جميع نعمه كلّها،و الحمد للّه كما هو أهله،و يستحقه حمدا كثيرا كما يحبّ ربّنا و يرضى.

و أوّل ما نحمد ربّنا عليه أنّه خلقنا،و خلق السموات و الأرض.

فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الفطر فى اللغه هو الانشقاق،و قد قال ربنا فى سوره(الملك):«اَلَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً مٰا تَرىٰ فِی خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ ».

و فطر اللّه السموات و الأرض من العدم،و أنشأهما من غير مثال يحتذى به،أو خلق يخلق على شاكلته.لقد انشقّ جدار الظلام الأبدى بإذن اللّه عن هذه الخلائق التى لا تحصى و لا تحد.و لعل الكلمه توحى بمعنى الإبداع،و الإنشاء، و التكوّن من دون أصل سابق،أو ماده قديمه،حسبما ذكر بعض المفسرين.

و قد جاء فى هذا المعنى

عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال :

«أنشأ الخلق إنشاء،و ابتدأه ابتداء،بلا رويه أجالها،و لا تجربه استفادها، و لا حركه أحدثها،و لا همامه نفس اضطرب فيها.أحال الأشياء لأوقاتها،و لأم بين مختلفاتها،و غرّز غرائزها،و ألزمها أشباحها،عالما بها قبل ابتدائها،محيطا

بحدودها و انتهائها،عارفا بقرائنها و أحنائها،ثم انشأ-سبحانه-فتق الأجواء، و شقّ الأرجاء،و سكائك الهواء » (۱)و ربما توحى الكلمه أيضا:بان اللّه فتق السموات بعد أن كانت رتقا،أى كانت كتله متراصه،فحدث فيها انفجار عظيم من هيبه اللّه،يعبر عنه-سبحانه -بقوله:« ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ وَ هِيَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ » (۲)فكانت السموات و الأرض،و لعلّ الآيه التاليه تشير إلى ذلك:« أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ كٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا ». (۳)

و تقول بعض النظريات العلميه الحديثه:إنّ الكون كان سديما (۴)،فتكونت منه الشموس بما لا يعلمون.

جٰاعِلِ الْمَلاٰئِكَهِ رُسُلاً الملائكه:هى القوى العالمه،الشاعره،المطيعه للّه،و بعضهم موكّلون بالخليقه،فللسماء ملك،و للشمس ملك،و للبحر ملك،و للريح ملك،و للمطر ملك،و للإنسان ملائكه حفظه و كتبه.

و بما أنّ هذه السوره تذكّرنا بتدبير اللّه-سبحانه و تعالى- للسموات و الأرض كان مناسبا الإشاره إلى الملائكه الموكلين به،لكى لا يزعم البعض أنّ الملائكه قوى مستقله فيعبدوهم من دون اللّه،كما عبد بعضهم الشمس،و بعض القمر، و بعض النجوم،و..و...

۱- ۳) نهج البلاغه/خ(۱)ص(۴۰).

۲- ۴) فصلت/(۱۱).

۳- ۵) الأنبياء/(۳۰).

۴- ۶) السديم:هو الغبار الكثيف.

هكذا نستوحی من کلمه«رسلا»انهم مجرد حمله للأوامر إلی حیث یجری تنفیذها بإذن اللّه و بحوله و قوته.

و کلمه«رسلا»لا تعنی الاختصاص بالرساله التشریعیه،التی منها(التوراه و الإنجیل و الزبور و صحف إبراهیم و قرآن محمد)و لکنّ الملائکه تتنزل بإذن ربها من کلّ أمر،فی سائر شؤون الخلیقه.

أُولِی أَجْنِحَهٍ مَثْنیٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ

جاء فی الأثر عن طلحه باسناده،یرفعه إلی النبی-صلّی اللّه علیه و آله- قال :

«الملائکه علی ثلاثه أجزاء،فجزء لهم جناحان،و جزء لهم ثلاثه أجنحه، و جزء لهم أربعه أجنحه » (۱)و لبعض الملائکه أکثر من ذلک بکثیر،

یقول الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام فی صفه الملائکه :

«ان للّه تبارک و تعالی ملائکه لو أنّ ملکا منهم هبط إلی الأرض ما وسعته، لعظم خلقته،و کثره أجنحته،و منهم من لو کلّفت الجنّ و الانس أن یصفوه ما وصفوه،لبعد ما بین مفاصله،و حسن ترکیب صورته،و کیف یوصف من ملائکته من سبعمائه عام ما بین منکبه و شحمه أذنیه،و منهم من حدّ الأفق بجناح من أجنحته دون عظم بدنه » (۲) یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مٰا یَشٰاءُ

ص:۱۸

۱- ۷) تفسیر نور الثقلین/ج(۴)ص(۳۴۶).

۲- ۸) نور الثقلین ج(۴)ص(۳۴۶).

و قد أكدنا القول فى سوره سابقه:ان الكون فى حاله توسّع دائم و مستمر،و هذه الآيه توحى بأنّ يد اللّه مطلقه،و أنّ بيده البداء.

إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [۲]و ما نراه من صنوف الخلائق،و عجيب صنعها،و عظيم تقديرها،و تدبير شؤونها،يهدينا إلى أنّ خالقها مقتدر لا يعجزه شىء،مما يزيدنا ثقه به و اطمئنانا لتدبيره،و سكينه فى القلب تساعدنا على تقلّبات الحياه،فلا نقنط بالبلاء،و لا نستريح عند الرخاء،و لا نطمئنّ إلى الدنيا و أسبابها التى لا تثبت على حال.

مٰا يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلاٰ مُمْسِکَ لَهٰا فإنّ رحمه اللّه لا أحد يستطيع أن يمنعها عنك إذا قدّرت لك.

وَ مٰا يُمْسِکْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَکِيمُ عزيز لأنه قادر،و حكيم يرسل لمن يشاء و يمسك عمن يشاء،كيفما يشاء بحكمه و ليس عبثا.

[۳]يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ فهو الذى خلقنا،و هو الذى يرزقنا،و فى آيات قرآنيه قال اللّه سبحانه و تعالى:

إنّه خلق الكون فى يومين،و قدّر الأقوات فى أربعه أيّام،مما يهدينا إلى أنّ الذى خلقنا فى يومين أعطى ضعف الوقت للرزق،فلم الخوف إذا من توقّف رزقه؟ فهل من خالق غير اللّه يرزقنا،من الذى وزّع الثروات فى الأرض،و من الذى

وهب لمنطقه أرضا زراعيه،و لأخرى معادن أودعها ضمير الأرض منذ ملايين السنين ليستفيد منها الإنسان الآن و غدا.

و ثقه البشر برزق ربه كفيله بسد أبواب الشيطان التى يلج منها لتضليله إذ يصوّر له أنّ الآخرين يرزقونه.

و لعل هذه الثقه تدفعه إلى البحث عن الرزق فى حقول الطبيعه،و يسعى فى مناكب الأرض يحرثها،و يثير دفائنها،و يسخّر طاقاتها لمصلحته،و لا يجلس فى انتظار الآخرين أن يرزقوه أو يطعموه.

و هكذا تكون الفكره المستوحاه من الآيه أوّلا تساهم فى تزكيه النفس،بينما تساهم الفكره الثانيه فى بناء الحضاره بالاعتماد على رزق اللّه،و تفجير الطاقات المهيأه للإنسان.

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ أين تذهبون؟!و إلى أى إفك و كذبه يدفعكم شياطين الجن و الانس الذين يوحون إليكم بأنّهم رازقوكم.

[۴] وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فى الآيات القرآنيه تأكيدات كثيره على هذه الفكره:و نستوحى من ذلك:أنّ آراء الناس ليست مقياسا سليما لمعرفه الحق،ذلك أنّ الإنسان يجعل-عاده-آراء الآخرين مقياسا،فيقول:ما دام الناس يقولون:هذا كذب فهو كذلك،و من هنا يؤكد ربّنا:« وَ مٰا أَكْثَرُ النّٰاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ »و ان أكثر الناس قاوموا رسالات اللّه فأظهرها اللّه بالرغم من ذلك.

وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ و هكـذا أكّد السـياق أنّ الرازق هو اللّه،و أنّ آراء النـاس ليست مقياسا،و أنّ الأمور لا تعود إلى هـذا أو ذاك،ممن يتخـذهم النـاس أنـدادا من دون اللّه،بـل إلى اللّه ترجع الأـمور،و هناك يكون الحساب عادلا حيث يجازى المحسـن جزاء الضعف، و لا يعاقب المسىء الا بمثل عمله.

[۵]ثم يؤكد اللّه هذه الحقيقه فيقول:

يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ إنّما يكـذّب الناس برساله اللّه لأنّهم عبـدوا الـدنيا و ما فيها من مباهـج و زينه، فبعض غرّتهم الدنيا مباشـره كالطغـاه و السـلاطين و كثير من النـاس،و بعض غرّهم المغرورون بالـدنيا من هؤلاء،و إنّما أهلك هؤلاء السـذج اتباعهم لأولئك من دون لذه أو شهوه.

فترى أدعيـاء الـدين و العلم يسـتخدمهم السـلاطين للتغرير بالبسـطاء من النـاس فيسـلبون منهم دينهم و دنياهم،و إنّما يرفل بالنعم الطغاه و أعوانهم،و لا يبقى للضعفاء سوى الضلاله و الغرور.

فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ الْغَرُورُ و قيل ان الغرور:هو الشيطان.

[۶]للإنسان عـدوّان:عـدو داخلى و هو النفس،و عدو خارجى و هو الشـيطان، و على الإنسان أن يتخذ موقفا واضـحا من الشـيطان لكى يتميّز نداءه التضليلى عن داعى اللّه،ذلك أنّ الإنسان يملك فى نفسه قوتين متضادتين هما:العقل و الهوى،

و یؤید العقل الملائکه بینما الهوی یدعمه الشیطان،و فی الحدیث:ان کل شخص موکل به ثلاث و ثلاثون ملکا،و مثلهم من الشیاطین.

و من مکر الشیطان بالإنسان خلط الأوراق علیه،حتی لا یمیّز هذا عن ذلک، فتراه یلبس الباطل بالحق،و یوسوس فی الصدور حتی یتشابه الحق بالباطل،و لکن إذا عرف الإنسان أنّ فی قلبه شیطانا یسعی لاغوائه،و اتخذه عدوا تمیّز العقل عن الهوی فی نفسه،و أمکنه معرفه طبیعه دواعیه النفسیه هل هی من عقله أو من هواه.

و فی الروایات :«انظر أیّهما أقرب الی نفسک فخالفه »لأنّ الأقرب الی النفس أقرب الی الشیطان.

إِنَّ الشَّیْطٰانَ لَکُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا علما انه یأتی بعض الأحیان فی صوره الناصح،انه عدو مبین،یأتی لک من تسع و تسعین بابا من الخیر کی یوقعک فی المائه.انه عدو و قد آلی علی نفسه ان یضل بنی آدم،و یدخلهم معه النار.

هکذا تناصح الصالحون بألا یغفل ابن آدم عن عدوه الخطر و هو الشیطان،فهذا

الامام جعفر بن محمد الصادق علیه السلام حین یأتی الیه رجل و یقول له:بأبی أنت و أمّی عظنی موعظه یقول له:

«ان کان الشیطان عدوا فالغفله لماذا؟! » (۱)

و جاء فی حدیث ان اللّه اوحی إلی کلیمه موسی بن عمران علیه السلام،و کان من بین وصایاه:

۱- ۹) المصدر/ص(۳۵۱).

«ما دمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره » (۱)و خطوره هذا العدو اللدود انه لا يرضيه شیء إلّا إذا أوقع فريسته فی نار السعير مباشره.

إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ ممن يطيعونه...

لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ [۷] اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ و عذاب الدنيا مهما كان لا يبلغ شده عذاب الآخره،فعلی العاقل أن يحتمل صعوبات الدنيا لكی يتجنب عذاب الآخره، كمن يهرب من النار عبر طريق شائک يدمی رجله،بلی.أن ينجو من النار علی حساب رجله أفضل من أن يلتهمه سعيرها.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ لماذا يؤكّد القرآن علی المغفره للذين آمنوا و عملوا الصالحات؟ ربما لأنّ المغفره للمذنب،و أبناء آدم-عاده-يذنبون فإذا عرفوا غفران اللّه عظم الأمل فی قلوبهم حيث يقول لهم الربّ:ما دمتم تعملون الصالحات فسوف يغفر لكم ذنوبكم.

ص:۲۳

۱- ۱۰) المصدر.

[8]ثم يؤكد القرآن على أنّ الشيطان يزيّن الأعمال السيئه للإنسان حتى يراها صالحه.

أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً يزينه له الشيطان،فيراه حسنا،ذلك أنّ الإنسان يحب نفسه و لا يحب أن يقال عن عمله أنّه سيء،و هكذا تتكرس الخطايا عنده،إذ تنقلب مقاييسه و قيمه فبعد ان كان يتحاشاها أضحى اليوم يراها حسنه.

و بالنسبه الى هذا الرجل يصعب عليه الإقلاع من الذنوب فضله اللّه.

يقول الحديث المأثور عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله :

«بينما موسى جالسا،إذ أقبل إبليس و عليه برنس ذو ألوان،فلما دنى من موسى خلع البرنس،و قام الى موسى فسلم عليه،فقال له موسى:من أنت؟قال:

أنا إبليس،قال:أنت فلا قرّب اللّه دارك،قال:انى انما جئت لأسلم لمكانك من اللّه،فقال له موسى:فما هذا البرنس؟قال:به اختطف قلوب بنى آدم،فقال له موسى فأخبرنى بالذنب الذى إذا أذنبه أبن آدم استحوذت عليه؟قال:إذا أعجبته نفسه،و استكثر عمله،و صغر فى عينه ذنبه » (1)فَإِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فاللّه يضل هذا الإنسان الذى يبرر أعماله الفاسده،فيسلب عقله،و يتركه فى ظلمات لا يبصر،و يهدى اللّه الذين آمنوا و عملوا الصالحات بما صبروا و أطاعوا.

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ

1- 11) المصدر/ص(352).

حين لا يؤمنون بك.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

ص:٢٥

[سوره فاطر (۳۵): الآیات ۹ الی ۱۲]

اشاره

وَ اَللّٰهُ اَلَّذِی أَرْسَلَ اَلرِّیٰاحَ فَتُثِیرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ إِلیٰ بَلَدٍ مَیِّتٍ فَأَحْیَیْنٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا کَذٰلِکَ اَلنُّشُورُ (۹) مَنْ کٰانَ یُرِیدُ اَلْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ جَمِیعاً إِلَیْهِ یَصْعَدُ اَلْکَلِمُ اَلطَّیِّبُ وَ اَلْعَمَلُ اَلصّٰالِحُ یَرْفَعُهُ وَ اَلَّذِینَ یَمْکُرُونَ اَلسَّیِّئٰاتِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ وَ مَکْرُ أُولٰئِکَ هُوَ یَبُورُ (۱۰) وَ اَللّٰهُ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَکُمْ أَزْوٰاجاً وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثیٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ مٰا یُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ یُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِکَ عَلَی اَللّٰهِ یَسِیرٌ (۱۱) وَ مٰا یَسْتَوِی اَلْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ مِنْ کُلٍّ تَأْکُلُونَ لَحْماً طَرِیًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْیَةً تَلْبَسُونَهٰا وَ تَرَی اَلْفُلْکَ فِیهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۲)

اللغه

۱۰[یبور]:من بار إذا فسد،أی أنّ مکرهم یفسد و لا ینفذ.

ص:۲۶

۱۲[مواخر]:جمع ماخره،یقال مخرت السفینه الماء إذا شقته لتسیر.

ص:۲۷

للّه العزه جميعا

هدى من الآيات:

فى إطار تبيان تدبير اللّه لأمور السموات و الأرض،و تكريس حاله السكينه فى نفوس المؤمنين به،يربط السياق هنا بين سنن اللّه فى الخليقه و بين سننه فى حياه البشر.

و يدعونا الى إلقاء نظره فاحصه الى السحاب الذى تحمله الرياح،و تبعثه الى البلاد الميته فيحييها،ثم نظره الى حياه الإنسان و ما يختلج فى قلبه من نزعات و تطلعات،فكل شخص يريد أن يصبح عزيزا،منيع الجانب،و لكن البعض قد يخطئ الطريق،فلا يعرف أنّ العزه الحقيقيه إنّما هى عند اللّه عزّ و جل،و إنّ المعراج إليه هو الإيمان و العمل الصالح،و يدفعه هذا الخطأ الى اصطناع المكائد و مكر،و لا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله فلا يحصل على عزه و لا غنى.

إنّ ربنا سبحانه يذكّرنا بأيّام ضعفنا:من الذى قوّانا؟أو لم نك نطفه من منىّ

یمنی؟من الذی سوّانا فعدلنا؟ إنّ الربّ الذی جعل من النطفه المهینه إنسانا سویّا،هو الذی یعزّ من یشاء، و یذلّ من یرید،و یتصل الحدیث عن العزّه بالحدیث عن البحرین هذا عذب فرات سائغ شرابه،و هذا ملح أجاج،و مع أنّهما لا یستویان،إلاّ أنّ اللّه یرزق العباد منهما جمیعا بحیث یستخرجون لحما طریّا کما یستخدمونهما لمصلحه النقل فیهما عبر السفن.

و کل ذلک الحدیث یربطه سبحانه باللیل و النهار:فمن یولج النهار فی اللیل، و یولج اللیل فی النهار؟!أو لیس اللّه،فلما ذا نطلب العزه عند غیره؟!

بینات من الآیات:

[۹]إنّ المؤمن یجعل الحیاه مدرسه،و یجول ببصره فی أرجائها لیزداد وعیا و هدی،و من أکثر تجلیّات الحیاه روعه ساعه انبثاقها عند ما یأمر اللّه الریاح لتحمل السحب الثقیله بالبرکات الی موات الأرض حیث یحیط السکون بکلّ شیء فیحییها الرب بها.

وَ اللّٰهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ فَتُثِیرُ سَحٰاباً الریاح تثیر السحاب،کما یثیر الزارع الأرض للزرع،فترسله کیفما یشاء اللّه.

فَسُقْنٰاهُ إِلیٰ بَلَدٍ مَیِّتٍ و کلمه«فسقناه»تدل علی أنّ ربنا هو الذی یدبّر الغیث فیرسله الی بلد میت فیحییه،و سقایه الغیث لیست فوضی انما هی خاضعه لعمل بنی آدم،فلیس مطر سنه أقلّ من مطر سنه أخری فی بلد،و لکن عمل البشر هو الذی یزیده أو ینقصه

تماما،و ما الرياح الى وسيله لان اللّه أجرى الأمور بأسبابها.

فَأَحْيَيْنٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا تعالى إلى أرض موات لتجد البشر صرعى الجوع،و الأحياء فى ضمور،و أديم الأرض يشكو العطش،فإذا أنزل عليها الربّ الماء اهتزت،و دبّت الحيويه فى الإنسان،و انتعش الأحياء.إنّ هذا مظهر من مظاهر انبثاق الحياه.

كَذٰلِكَ النُّشُورُ [١٠]و كما الأرض يحييها الربّ بالغيث،و كما الأموات ينشرهم كيف يشاء يوم القيامه،كذلك المجتمع المتخلّف الذى يحيط به سكون المقابر يحييه ربّنا بعزّته، فإذا أراد المجتمع الاستقلال و التقدم و العزّه و بالتالى الحياه فعليه أن يعرج الى اللّه بالعمل الصالح و الكلم الطيب.

هذه قدره اللّه أن جعل-هذا البلد الذى مات فيه كل شىء-ينبض بالحياه، فكيف يكفرون بالبعث و النشور،أ فلا يؤمنون بأنّ ربنا قادر على أن ينزّل مثل هذا المطر على أجداثهم،فتنمو فيها الحياه،مثلما ينمو الزرع،و يخرج الناس من قبورهم كما تخرج النباتات؟!و قد دلت بعض الروايات على هذه الفكره ان اللّه يمطر السماء أربعين صباحا،فتنبت الأجسام فتكون الأرض كما رحم الام.

مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً لا عند الشركاء أو ليس(من اعتز بغير اللّه ذلّ)؟! إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ

الکلم الطیب هو العقیده الصالحه،لأنّ الکلمه فی القرآن لا تدل علی اللفظ، بل علی ما ورائها من معنی،کما قال ربنا سبحانه: «مَثَلًا کَلِمَهً طَیِّبَهً کَشَجَرَهٍ طَیِّبَهٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ» و قد فسّرت هذه الآیه بالقیاده الرسالیه،و لا ریب ان سنام العقیده الصالحه و مظهر صدق الإنسان فی إیمانه هو التسلیم للقیاده الإلهیه(الولایه)و الکلم الطیب یصعد الی الرب و یصعد معه صاحبه معنویا.أو لیس الإیمان هو أثقل ما فی میزان العبد،و ما عبد اللّه بمثل التوحید؟! و لا ریب ان الکلم الطیب-کما الشجره الطیبه- تنتشر فروعها فی کل أفق،فمن العقیده الصحیحه یشعّ التسامح و الحب و نبذ العصبیات و الأفکار الیائسه و السلبیه،و کل أولئک یقرّب العبد الی ربه زلفی.

کما أنّ العمل الصالح یرتفع الی اللّه و یرتفع صاحبه به فیتقرب الیه، و بالکلم الطیب و العمل الصالح یصل المجتمع الی العزّه الالهیه.

و قد ذکر للعمل الصالح تفسیران:

التفسیر الأوّل:إنّ العمل الصالح یرفعه الکلم الطیب (۱)فالعقیده الطیبه ترفع العمل الصالح،لأنّ عامل الحسنه بلا إیمان لا یقبل منه « إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ ».

التفسیر الثانی:إنّ العقیده الصادقه و الکلم الطیب یرفعه العمل الصالح، فالعمل الصالح بمثابه الأجنحه للطیر.

و تتجلّی هذه الحقیقه فی الحیاه الاجتماعیه بأنّ الکلمه الطیبه و العمل الصالح

۱- ۱) التفسیر الکبیر:الامام الفخر الرازی ج(۲۶)ص(۸).

يرفعان المجتمع الى الأعلى دائما حيث العزّه الإلهيه.كيف يتم ذلك؟ كما القارب يسير مع التيار كذلك الحياه تسير مع السنن الحاكمه عليها،فمن مشى مع تلك السنن حملته الحياه إلى الأعلى،و من عارضها خاب سعيه و بارت خطته.

فالحقد و البغضاء و التهمه و العداوه تفصم عرى المجتمع،و قد بنى اللّه الحياه على أساس الوحده لا التفرقه،فتيار الحياه يجرى باتجاه التجمع،و هل يصعد ذلك التيار إليه سبحانه؟!كلّا...إنما الصاعد إليه الحب و التعاون و الإيثار.

إنّ الكون قائم على أساس البناء لا الهدم،و إنّ الذى يبنى يتقدم على الذى يهدم لأنّ سنن اللّه تؤيد الذين يبنون،و يخطئ أولئك الذين يمكرون السيئات، و يعتقدون أنّ باستطاعتهم أن يتقدموا بها،فليس هؤلاء فقط لا يصعدون الى اللّه، و لا ينالون من عزّه اللّه شيئا،بل لهم عذاب شديد.

وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئٰاتِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ المكر هو الحيله،و من يعيش عليها لا يفلح.

وَ مَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ عملك الصالح يرفعه الربّ،و مكر أولئك ينزّله،و يبور أى يفسد،و كثير من الناس الذين يبتزّون الناس،كالمهر بين و المحتالين،نجدهم ربما يربحون مره ربحا خياليّا،و لكنهم بالتالى يخسرون.

و العزّه يعنى أن تبحث عن الطريق القويم،فتمشى فيه،و آنئذ سوف تجد أنّ سنن الحياه كلها تخدمك.

[۱۱]و يؤكـد السـياق شـمول تدبير اللّه لشؤون الإنسان،و يبيّن كيف تجرى تقلّبات حياه البشـر على كفّ تقدير اللّه سـبحانه،فلقد خلقنا من تراب أوّلا ثم من نطفه ثم خلق لنا أزواجا،و رزقنا ذريه،لا نعرف جنس الحمل و لا تقديراته.

وَ اللّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً حتى تستأنسوا الى بعضكم.

وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاّ بِعِلْمِهِ لأنّك فى لحظات الجنس قـد لا تفكر فى شـىء،و لكنّ اللّه يعلم ما تحمل كلّ أنثى.أ هو ذكر أم أنثى،كما يعلم ماذا يؤول اليه مصيره.

وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّ فِى كِتابٍ كم يكون عمر هـذا المولود؟و هل سـيعمر طويلا؟أو يباغته الأجل فى عزّ طفولته أو ريعان شبابه؟كل هذه التساؤلات فى كتاب عند اللّه،لا يضل ربى و لا ينسى.

إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ هذه الأمور ليست عسيره عند اللّه كما هى عسيره عندك.

[۱۲] وَ ما يَسْتَوِى الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ الفرات و الأجاج تأكيد لشده العذوبه و لشده الملوحه.

وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَهً تَلْبَسُونَها

من الماء العذب و المالح تأكلون لحما و تستخرجون حليه،و قد وقف المفسرون طويلا حائرين،كيف يمكن استخراج الحليه من الماء العذب الفرات،فجاء العلم و أثبت إمكانيه تربيه اللؤلؤ فى الأنهار.

وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ فى عموم الماء،عذبه و مالحه،من أجل أمرين:

الأوّل:

لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لأنّ السفينه لم تزل أفضل وسيله لنقل البضائع بين الشعوب.

الثانى:

وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ حيث ان النعم وسيله للكمال المعنوى المتمثل فى شكر اللّه.

ص:۳۴

[سوره فاطر (۳۵): الآیات ۱۳ الی ۲۳]

اشاره

یُولِجُ اَللَّیْلَ فِی اَلنَّهٰارِ وَ یُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِی اَللَّیْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ لَهُ اَلْمُلْکُ وَ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ (۱۳) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ یَسْمَعُوا دُعٰاءَکُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَکُمْ وَ یَوْمَ اَلْقِیٰامَةِ یَکْفُرُونَ بِشِرْکِکُمْ وَ لاٰ یُنَبِّئُکَ مِثْلُ خَبِیرٍ (۱۴) یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰاءُ إِلَی اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلْغَنِیُّ اَلْحَمِیدُ (۱۵) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ (۱۶) وَ مٰا ذٰلِکَ عَلَی اَللّٰهِ بِعَزِیزٍ (۱۷) وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلیٰ حِمْلِهٰا لاٰ یُحْمَلْ مِنْهُ شَیْءٌ وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ إِنَّمٰا تُنْذِرُ اَلَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ مَنْ تَزَکّٰی فَإِنَّمٰا یَتَزَکّٰی لِنَفْسِهِ وَ إِلَی اَللّٰهِ اَلْمَصِیرُ (۱۸) وَ مٰا یَسْتَوِی اَلْأَعْمیٰ وَ اَلْبَصِیرُ (۱۹) وَ لاَ اَلظُّلُمٰاتُ وَ لاَ اَلنُّورُ (۲۰) وَ لاَ اَلظِّلُّ وَ لاَ اَلْحَرُورُ (۲۱) وَ مٰا یَسْتَوِی اَلْأَحْیٰاءُ وَ لاَ اَلْأَمْوٰاتُ إِنَّ اَللّٰهَ یُسْمِعُ مَنْ یَشٰاءُ وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِی اَلْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلاّٰ نَذِیرٌ (۲۳)

اللغه

۱۳.[قطمیر]:هو قشر النواه أی اللفّات التی فوقها.

ص:۳۵

أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللّهِ

هدى من الآيات:

يتشبث الإنسان ببعض الخيوط الواهيه(العنكبوتيه)،و يترك ذلك الحبل المتين الذى لا بد أن يعتصم به،و تذكّرنا آيات القرآن بأنّ مدبّر السموات و الأرض هو اللّه،فهو الذى يولج الليل فى النهار،و يولج النهار فى الليل،و سخّر الشمس و القمر،و أنّ له الملك،فلما ذا لا ندعوه،بينما الذين يدعونهم من الشركاء لا يملكون حتى بمقدار قطمير.

و بالذات عند الضراء،حيث يتحسّس البشر بضعفه الحقيقى،لا يعقل هؤلاء الأنداد شيئا إذ لا يسمعون النداء،و لو سمعوا لم يستجيبوا.

أمّا يوم القيامه فهؤلاء لا يشفعون لأحد إذ يكفرون بالمشركين.

ثم يؤكد ربنا هذه الحقيقه قائلا:«يَا أَيُّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللّهِ وَ اللّهُ هُوَ

الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »لماذا؟ لأنه يستطيع بأقل من لحظه واحده أن يفنيكم عن أخركم،و ينشئ مكانكم مجموعه بشريّه جديده، و هل هناک فقر أكبر من هذا الفقر؟فالإنسان فی وجوده و فی استمرار بقائه يحتاج الی ربه،و هل هناک غنی أكبر من غنی الرب،الذی لو شاء أذهبكم،و أتی بخلق جديد؟و هذا هيّن عليه و يسير.

ثم يحدثنا السياق عن مسئوليه الإنسان أمام ربه عن جميع أعماله،و انه لا يستوی عند اللّه الصالح و الكافر،كما لا يستوی الأعمی و البصير،و لا الظلمات و لا النور،و لا الظل و لا الحرور،و لا الأحياء و الأموات.

فلا يجوز الاعتماد علی الأنداد للهروب من المسؤوليه كما لا يمكن القاؤها علی الآخرين.

و إنّما جاء الرسول نذيرا(بأنّ السيئات تستتبع عقابا)و هو بالتالی لا يحمل من تبعات أمته شيئا.

بينات من الآيات:

[۱۳] يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ الليل و النهار يلج أحدهما فی صاحبه بصوره مستمره،بسبب حركه الأرض حول الشمس.

قال بعض المفسرين:إنّ كلمه«يولج»تدل علی الاستمرار،لأنّه فی كل لحظه يتم إيلاج،ففی هذه الساعه حكم الليل فی أحد البلدان،و بعد دقيقتين سيحلّ الليل علی بلد آخر،و فی المقابل يحلّ النهار علی بلد فی نفس الوقت،و الظهر

فی بلد ثالث.

و هناک تفسیر آخر یحتمله الکلام هو إنّ اللیل و النهار یأخذ أحدهما من الآخر فی فصول السنه فمره یکون اللیل أطول و مرّه النهار.

وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی الشمس و القمر یجریان،و لکن لیس إلی ما لا نهایه،و کذب من قال:إنّ الشمس و القمر أبدیان،کلا..فشمسنا هذه مثلا-فی حاله الکهوله،و کلّ ما فی الکون یؤکد علی النهایه،فهذه الإنفجارات الهائله فی الشمس شاهد علی تناقصها بشکل دائم،و الإنفجارات التی نسمعها بین الفینه و الأخری لبعض الشموس تؤکد لنا أنه لا بد من نهایه لشمسنا أیضا.

ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ من الذی أولج اللیل فی النهار،و أولج النهار فی اللیل،و من الذی سخّر الشمس و القمر،کل یجری لأجل مسمی؟إنّه اللّه ربکم،و هو المالک حقّا.

وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ القطمیر هو قشر النواه الرقیق،و ما یملک الذین تدعون من دونه مثلها.

[۱۴] إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ یَسْمَعُوا دُعٰاءَکُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَکُمْ فکیف یسمعون نجواکم أو سرکم،أو حین تدعونهم فی الظلمات؟و لو افترضنا أنهم سمعوا دعاءکم لم یستجیبوا لکم،لأنهم لا یملکون دفع الضر عن أنفسهم، فکیف بجلب الخیر لکم؟!

ص:۳۹

وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ الملائكه و الأنبياء كعيسى و الأولياء الصالحون سيكفرون بشرككم،و سيتبرأون منكم و من عبادتكم لهم،كما يكفر الأنداد بكم و بشرككم.

وَ لاٰ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ الخبير هو الذى خبر الشىء،و عرف أبعاده،و من أخبر من الرب و هو الخالق المحيط بكل شىء علما؟ [۱۵]إنّ الإحساس بالغنى الذى يسمّيه القرآن بالاستغناء،و الذى يدعو صاحبه إلى البطر و الطغيان،إنّه مرض خطير،إذ يجعل الإنسان يعيش الوهم،و لا يعايش الحقائق،لذلك يذكّرنا ربّنا بواقع العجز المحيط بنا.

يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ و من أشد فقرا منّا،و قد أركزنا الربّ فى العجز و الضعف و المسكنه،لأنّ كلّ شىء عندنا منه سبحانه.

يقول الإمام الحسين(عليه السلام)فى تضرعه المخصوص بيوم عرفه:

«إلهى!أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى » وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ الغنى عاده ما يكون مع اللؤم،و لكنّ اللّه غنى حميد،فهو غنى و يعطى من غناه للآخرين،و هو غنى لا يبخل على الآخرين،بل« لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزٰائِنَ رَحْمَهِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَهَ الْإِنْفٰاقِ » (۱)و هو حميد يحمد على غناه.

۱- ۱) الإسراء/(۱۰۰).

[۱۶]و من آیات فقرنا نحن البشر قدره اللّه المحیطه بنا حیث یهلکنا إذا شاء و یستبدل بنا غیرنا.

إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ [۱۷]یستطیع أن یذهبکم جمیعا،و یستبدلکم بغیرکم،یخلقهم بیسر،لأنّه لا یمارس فی خلقه علاجا و لا یمسّه لغوب، إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ .

و فی الحدیث عن الامام الصادق-علیه السلام-قال :

«خلق اللّه المشیئه قبل الأشیاء،ثمّ خلق الأشیاء بالمشیئه » (۱)فعند ما یشاء شیئا فقد حدث الشیء،

و فی الأثر :«أمره بین الکاف و النون. » وَ مٰا ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ بِعَزِیزٍ لنفترض أنّ اللّه سبحانه و تعالی شاءت مشیئته المطلقه-التی لا یحدّها شیء- أن ینهی وجود الکون کلّه.هل یسأله أحد عن ذلک؟کلا...

فاللّه یفیض نور الوجود من ینبوع رحمته الواسعه لحظه بلحظه،و لو توقّف هذا الفیض لحظه واحده لتوقّف کلّ شیء،فهل نحن أغنیاء أم ربنا الحمید؟! ماذا نستلهم من هذه الحقائق،و کیف ینبغی أن تنعکس علی أنفسنا و سلوکنا؟

۱- ۲) التوحید للصدوق/ص(۳۳۹).

الجواب:

١/لأنّ اللّه غنى حميد فهو يفيض سيبه على الخليقه،إلا إذا عصوه و غيّروا ما بأنفسهم بغيا و ظلما،و هنالك يجازى الظالمين جزاء وافيا،و لا يتحمّل أحد ثقل الجريمه عن أحد،فلا ينفع إلقاء المسؤوليه على الآخرين فى محكمه العدل.

٢/إنّ من يعمل الصالحات يجازيه اللّه فهو إذا يعمل لنفسه.

[١٨] وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ الوزر:الحمل الثقيل،و الوزاره:النفس البشريه التى حملت ثقلا.

و معنى هذه الآيه:إنّه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.لماذا؟ لأنّ تلك النفس لها ثقلها و حملها،فلا تستطيع أن تتحمّل حمل نفسه.

وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلىٰ حِمْلِهٰا لاٰ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ و قد قال اللّه عن لسان الكافرين: «وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِينَ مِنْ خَطٰايٰاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ» (١).

إنّك إن تدع إنسانا ما أن يحمل عنك مسئوليتك،فلن يحمل منها شيئا،لأنّ كلّ إنسان يأتى و هو يحمل ما يكفيه من المسؤوليه،و يجب ان يتحدى الضغوط و الأهواء.

١- ٣) العنكبوت/(١٢).

إنّک مسئول عن عمرک و شبابک،و یقظتک و نومک،و سعیک و خمولک،و إیمانک و کفرک،فعلینا أن نعقد العزم علی حمل مسئولیاتنا بقوّه حتی یأتینا الیقین.

و لکن کیف نفهم هذه الحقیقه الکبری؟ بما یلی:

۱-نخشی ربنا بالغیب.

إِنَّمٰا تُنْذِرُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ لاننا ما دمنا لا نؤمن بالغیب فلن نفهم الحقائق.

۲-نقیم الصلاه.

وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ ۳-نزکّی أنفسنا.

وَ مَنْ تَزَکّٰی فَإِنَّمٰا یَتَزَکّٰی لِنَفْسِهِ وَ إِلَی اللّٰهِ الْمَصِیرُ فاذا آمنت بالغیب،و أقمت الصلاه،و ربّیت نفسک،فأنت وحدک المستفید.

[۲۲-۱۹]فی الدنیا نری الناس بعین واحده،من یتزکی و من لا یتزکی، و من قام اللیل و من نام،إنّک تراهم سواء،و لکنهم یختلفون عند ربهم.

و القرآن یؤکد لنا هذه الحقیقه فی آیات کثیره من القرآن،فالذی زوّده اللّه بالبصیره،و أصبح یری الحقائق بهدی الرب،یختلف عمّن هو أعمی،قد ترک بصیرته لهواه،و هدی اللّه لضلاله إبلیس.

ص:۴۳

وَ مٰا یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ فالذی انتفع بنور عقله یعیش فی ضیاء الوحی،أو لیس شرط الرؤیه وجود بصر عند الإنسان و وجود نور علی الطبیعه؟کذلک المؤمن مزوّد بنور العقل،و یعیش فی عالم النور نور الرساله الالهیه،بینما الآخر تلفّه ظلمات الجاهلیه.

وَ لاَ الظُّلُمٰاتُ وَ لاَ النُّورُ و الذی یعیش فی النور بصیرا تطمئنّ نفسه،و یقیه اللّه من الکوارث و المصائب، فهو فی ظلّ اللّه ینعم بالسلامه،بینما الآخر یلفحه الحرور و هو الحر الشدید.

وَ لاَ الظِّلُّ وَ لاَ الْحَرُورُ و المؤمن حی لأنّه یستفید من الإنذار فیجتنب المخاطر،بینما الکافر میّت لا یتفاعل مع محیطه.

وَ مٰا یَسْتَوِی الْأَحْیٰاءُ وَ لاَ الْأَمْوٰاتُ إِنَّ اللّٰهَ یُسْمِعُ مَنْ یَشٰاءُ القلب الحی یسمع کلام اللّه.

وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِی الْقُبُورِ أمّا القلب المیت الذی تراکمت علیه الآثام،و اختفی فی قبر الذنوب، فإنّک لا تستطیع أن تسمعه.

[۲۳] إِنْ أَنْتَ إِلاّٰ نَذِیرٌ لأنّ هدف الرساله لیس أکثر من الإنذار،أمّا أن تسمع لهذا الإنذار أو لا تسمع

فتلك مسئوليتك.

لا تنتظر أن يجبرك أحد على الإيمان،بل أنت الذى يجب أن تسعى نحو الهدى.

ص:۴۵

[سوره فاطر (۳۵): الآيات ۲۴ الی ۳۲]

اشاره

إِنّا أَرْسَلْناکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّ خَلا فِیها نَذِیرٌ (۲۴) وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَیِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْکِتابِ اَلْمُنِیرِ (۲۵) ثُمَّ أَخَذْتُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَکَیْفَ کانَ نَکِیرِ (۲۶) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّهَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً
فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَ مِنَ اَلْجِبالِ جُدَدٌ بِیضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِیبُ سُودٌ (۲۷) وَ مِنَ اَلنّاسِ وَ اَلدَّوابِّ وَ
اَلْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ کَذلِکَ إِنَّما یَخْشَی اَللّهَ مِنْ عِبادِهِ اَلْعُلَماءُ إِنَّ اَللّهَ عَزِیزٌ غَفُورٌ (۲۸) إِنَّ اَلَّذِینَ یَتْلُونَ کِتابَ اَللّهِ وَ أَقامُوا اَلصَّلاةَ
وَ أَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِیَةً یَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (۲۹) لِیُوَفِّیَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَکُورٌ (۳۰) وَ
اَلَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ مِنَ اَلْکِتابِ هُوَ اَلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ إِنَّ اَللّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِیرٌ بَصِیرٌ (۳۱) ثُمَّ أَوْرَثْنَا اَلْکِتابَ اَلَّذِینَ اِصْطَفَیْنا مِنْ
عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیْراتِ بِإِذْنِ اَللّهِ ذلِکَ هُوَ اَلْفَضْلُ اَلْکَبِیرُ (۳۲)

اللغه

۲۷[جدد بیض و حمر]:مفردها جده کغرف و غرفت،و المراد بها الطرق.

[و غرابیب سود]:الغربیب الشدید السواد الذی یشبه لون و سمی الغراب غرابا لشدّه سواده.

ص:۴۶

هدى من الآيات:

إرسال الرسل،و تكـذيب الكفّار بهم،و نزول العـذاب عليهم بسـبب التكـذيب، هى من سـنن اللّه فى الخليقه،فبالرغم من أنّ هـذه السـنن قد لا تبدو واضـحه وضوح سائر السـنن و الأنظمه إلاّ أنّها لا تشذّ عن سائر السنن فى تكرارها على ذات النسق، فمن السنن ما تقع يوميّا،و منها ما تقع كلّ قرن مره مثلا،و منها ما تقع عند حوادث معينه.

فالرساله من تلك السنن،إذ يرسل اللّه رسولا بين فتره و أخرى حسب حاجه البشر.

و مع هـذه السـنه تتكرر حقيقه تـاريخيه حتى تكاد تكون سـنه و هى:إنّ الرساله الجديـده تصـطدم بعقبات نفسـيه و اجتماعيه من القوم الذين أرسل الرسول إليهم، فتراهم يرفضونها سريعا.

أمّا السنه الأخرى فهى أن ينتقم اللّه لرسالته من أولئك الذين خالفوها،فيبعث عليهم عذابا يبيدهم عن بكره أبيهم.

هذه فكره تدور حولها آيات هذا الدرس،و أمّا الفكره الثانيه فهى:إنّ العلم الحق يدعو الى الإيمان الحق.

بينات من الآيات:

[۲۴]ليس غريبا أن يبعث الرسول بالحق،لأنّ اللّه إنّما خلق أساس الكون بالحق،فالسـنن و الأنظمه الطبيعيه حق،و الحالات المتغيره التى تخضع لهـذه الأنظمه حق أيضا،و شـهوات الإنسان و عقله حق،و أرسل الربّ رسوله بالحق ليكشف الحق و يهـدى إليه،فهى رساله تتكيف مع الإنسان و الطبيعه،و تجرى على ذات النهج.

إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّٰ خَلاٰ فِيهٰا نَذِيرٌ هذه سنه،لأنّ اللّه لم يجعل أمّه إلاّ و لها نذير،يبعثه فى أمّها.

[۲۵]و من الحقائق التى تكاد تكون سنه،تكذيب الأمم لرسلهم.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ و هى الشواهد و الحجج التى لا ريب فيها لشده وضوحها.

وَ بِالزُّبُرِ و هى الكتب المنزله على الرسل المحتويه على مجموعه المعارف الالهيه،الهدى و البينات و المفصلات.

ص:۴۹

وَ بِالْكِتٰابِ الْمُنِيرِ أى البصائر.و لعل فرقه مع الزبر أنّه خصوص البينات المحكمات من الكتب، بينما الزبر هى المتشابهات و المجملات.

و مع أنّ الرسل أرسلوا بهذه الرسالات الثلاث،مع ذلك كذّبتهم الأمم.

فإذن يا من تبلّغون رسالات اللّه!لا تستوحشوا من تكذيب الناس،إنّ تكذيبهم عاده جرت قبل أن تحملوا رسالتكم،فلا بد أن تعرفوا أنّ ما سيجرى عليكم هو أن يكذّبكم قومكم كما كذّب الأوّلون،و لكنّ اللّه سيظهرها عليهم،طوعا أو كرها.

[۲۶] ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ و هذه سنّه أيضا.

و نكير اللّه لهم:أى عذاب شديد يستأصلهم به. أ فلا يعتبرون بتاريخهم، و يعرفون شده إنكار اللّه لمنهجهم فى التكذيب؟!
[۲۷]من أبرز ما يثير عقل الإنسان،و يجعله يغوص فى أعماق الحقائق، الاختلافات التى تبرز فى الطبيعه مما يزيدنا وعيا بتدبير اللّه،و استوائه على عرش القدره،لأنّ إداره الأمور المختلفه التى يقوم كلّ واحد منها بأداء وظيفه معينه، و التنسيق بينها و بين غيرها من الأمور أكبر شهاده على الخبره و القدره.

و يبدو أنّ السياق هنا يذكّرنا بهذا الاختلاف ثم يبين بأنّ الذين يخشون ربهم هم العلماء.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً

ماء المطر واحد إلاّ أنّ اللّه ينبت به ثمرات مختلفا ألوانها.

فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها اللون هو الجانب الظاهر من الاختلاف،و لكنّه يعكس جوانبا أخرى هى:

الاختلاف فى الطعم،و اللون،و الفائده،و رغبات الناس إليها.

و نترك الحقول و السهول فنصل إلى الجبال،فيقول اللّه فيها:

وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ الجدد من الجاده،و هى الخطه أو الطريقه.

وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ بين الأسود و الأبيض ألوان تتفاوت من جبل إلى آخر،بل حتى فى الجبل الواحد تختلف الألوان أعلاه عن أسفله عن جوانبه.

و هذه الآيه ربما تدل على طبقات الأرض التى تتجلّى فى الجبال.

و غربيب:الشديد السواد،و منه سمّى الغراب لسواده.

[٢٨] وَ مِنَ النّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كما الجبال و اختلاف ألوانها كذلك بالنسبه إلى الإنسان و الحيوان،فالإنسان تتفاوت ألوانه بشكل واضح و جلى،و كذا الحيوان فالماعز مثلا تتفاوت ألوانه من الأسود إلى الأبيض.

كَذٰلِكَ

هذا الاختلاف یدل علی الدقه و الحکمه،فربّک الذی یخلق الحیوان بشکل مختلف جعل فیه أجهزه تتکیّف و اختلافها،فإنّک إذ تری الهرّه تری کلّ شیء ینسجم مع ترکیبها،فیخلق فی عین الهرّه جهازا یکبر و یصغر حسب النور و الظلام، فتری بؤبؤه عینها تصبح مستدیره صباحا،الی أن تتحول شیئا فشیئا الی شکل هلال الی شکل خیط یشع نورا فی الظلام،حتی أنّک تستطیع أن تعرف الوقت من عین الهرّه.

إنّ الذی خلق بؤبؤه الهرّه خلق جهازا فی رأس النعامه لینظّم ضغط الدم فیه،إذ أنّها لو عدمت هذا الجهاز لانفجر دماغها حالما تنکسه الی أسفل إذ یصل الضغط فی دماغها آنئذ إلی ثلاثمائه درجه،و لکن وجود هذا الجهاز یکیّف الضغط فیه، فکلّما نکّست رأسها کلّما خفّ الضغط بسبب هذا الجهاز الدقیق حتی یبقی الضغط علی دماغها بدرجه واحده سواء کان رأسها أعلی عن الأرض بسته أمتار أو کان فوق التراب مباشره.

و هکذا فإنّنا لو تعمّقنا فی الخلیقه لعرفنا وحده التدبیر فی اختلاف الصنع،و لکن من الذی یفهم هذه الحقیقه حتی یعرف ربه فیخشاه،إنّهم العلماء.

إِنَّمٰا یَخْشَی اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ و الخشیه هی میراث العلم،

جاء فی الحدیث:

عن أبی عبد الله-علیه السلام -:

إنّ من العباده شده الخوف من اللّه-عزّ و جل-یقول اللّه-عزّ و جل:

« إِنَّمٰا یَخْشَی اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ » (۱).

ص:۵۲

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین/ج(۴)ص(۳۵۹).

و فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام قال :

«...و حسبک من العلم أن تخشی اللّه » (۱)إِنَّ اللّهَ عَزِیزٌ غَفُورٌ عزیز بقدرته،غفور للجاهلین.

[۲۹]و استطرادا للحدیث عن العلماء یتحدث اللّه عمن هو العالم؟ العالم له صفات أربع هی:

۱- إِنَّ الَّذِینَ یَتْلُونَ کِتابَ اللّهِ أی یستوحون علمهم من کتاب اللّه،أو یمنهجونه حسب کتاب اللّه.

۲- وَ أَقامُوا الصَّلاهَ أی یقیمون الصلاه بحدودها و مواقیتها،بحیث تنهی عن الفحشاء و المنکر.

۳- وَ أَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِیَهً سرّا لأنّه بعید عن الریاء و الجبت،و علانیه لأنّه تحد للطاغوت،فهم یتحدون بالإنفاق جبت أنفسهم و طاغوت زمانهم.

و لکل شیء إنفاق و زکاه،فزکاه العلم نشره،و زکاه الجاه بذله،و زکاه المال العطاء.

۱- ۲) بحار الأنوار/ج(۲)/ص(۴۸).

۴- يَرْجُونَ تِجٰارَةً لَنْ تَبُورَ يرجون من اللّه فكاك رقابهم من النار،و هل تبور تجاره أحد مع اللّه العزيز الغفور؟ و نستوحى من مجمل الآيات فى هذا السياق خصوصا من هذه الآيه و التى سبقت فى بيان عاقبه المكر و انه يؤول الى البوار« وَ مَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ »نستوحى:أنّ على الإنسان أن يختار الطريق السليم فى بلوغ أهدافه المشروعه حتى ينجح(لأنّ إلى اللّه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه)أمّا الذين يختارون الطرق الملتويه، و يريدون بلوغ أهدافهم بالمكر و الحيله فإنّ سعيهم يضيع،و عاقبتهم البوار.

و لعل السياق يعالج وسواسا شيطانيا حيث يدعو البشر أبدا الى اختيار الطريق الأسهل و الأقرب الى الكسب حتى و لو كان على حساب القيم أو حقوق الآخرين، و يوحى الى الإنسان أنّ العمل الصالح لا ينفع أو أنّ نفعه قليل،بينما يؤكد القرآن على أنّ اللّه يبارك فى العمل الصالح و النّيه الصادقه.

[۳۰] لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ كامله،بل:

وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ غفور يغفر زلاّتهم،و شكور لما قدّموه من عمل يرجون به وجه اللّه،عارفين أنّه يعوّضهم خيرا مما أنفقوا حيث يدخلهم الجنه دار ضيافته.

[۳۱]من صفات المؤمنين التصديق بكل الكتب.

ص:۵۴

وَ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ من الکتب الاخری.

إِنَّ اللّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِیرٌ بَصِیرٌ [۳۲]و لکن هناک أجیال من العلماء یسمّون بعلماء الوراثه و لیس علماء التجربه و المعاناه.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا من هم هؤلاء الذین اصطفاهم الرب لحمل کتابه؟یبدو من السیاق أنّهم العلماء،و لذلک

جاء فی الحدیث الشریف :

«العلماء ورثه الأنبیاء » فإذا:المصطفون طبقه العلماء من أمه محمد-صلّی اللّه علیه و آله-و الاصطفاء هنا لیس شخصیا حتی یشبه اجتباء الأنبیاء و الائمه علیهم السلام،بل بتحمیل الرساله لأمه من الناس لمجمل الخصال التی فیهم و لمکان وجود السابقین بالخیرات بینهم،و هم أئمه الهدی علیهم السلام.

جاء فی الأثر عن الإمام الصادق-علیه السلام -:

«الظالم لنفسه منّا من لا یعرف حقّ الإمام،و المقتصد منّا من یعرف حقّ الامام،و السابق بالخیرات هو الإمام،و هؤلاء کلّهم مغفور لهم » (۱)

۱- ۳) نور الثقلین/ج(۴)ص(۳۶۵).

و نعرف من ذلـک أنّ الظـالم هنـا مغفور له لأـنّ ظلم نفسه لاـ یبلغ درجه دعوه الناس إلی الضـلال،بل فیه ما فی الناس من زلّات یطهرها بحسناته،و هو ظالم لنفسه إذا قیس بالمقتصد،و السابق بالخیرات هو من عرف واجبه باعتباره وارث علم الکتاب،

و قد روی عن الامام الباقر علیه السلام أنّه قال -بعد أن سئل عن الآیه و عن معنی الظالم لنفسه فیها-:

«من استوت حسناته و سیئاته منّا-أهل البیت-فهو الظالم لنفسه،فقلت:

المقتصـد منکم؟ قـال:العابـد للّه فی الحـالین حتی یـأتیه الیقین فقلت:فمن السـابق منکم بـالخیرات؟قال:من دعا-و اللّه-الی سبیل ربه،و أمر بالمعروف،و نهی عن المنکر،و لم یکن للمضلین عضدا،و لا للخائنین خصیما،و لم یرض بحکم الفاسقین،الا من خاف علی نفسـه و دینـه و لـم یجـد أعوانـا » (1)و نستوحی من هـذا النص:أنّ لـذریه رسول اللّه(ص)المصـطفین للقیـاده مسئولیات أکبر،فالظالم نفسه منهم هو الذی تستوی حسناته و سیئاته،و لا یدعو الی ضلال کما

جاء فی حدیث آخر :

«الظالم لنفسه الذی لا یدعو الناس الی ضلال و لا هدی » و لعل فی کلمه«لنفسه»شهاده علی ظلم لا یتجاوز نفسه الی الآخرین.

أمّا الشاهـد علی أنّ الآیه تعنی مثل هؤلاء فهو الآیه التالیه التی تـدل علی أنّ جمیع هؤلاء فی الجنه...هکـذا اسـتدل الإمام الرضا-علیه السلام-للمأمون العباسی حینما سأله عن الآیه.لنستمع الی تحاورهما:

حضر الرضا علیه السلام مجلس المأمون بمرو-و قد اجتمع فی مجلسه جماعه من علماء أهل

۱- ۴) المصدر/ص(۳۹۴).

العراق و خراسان-فقال المأمون:أخبرونی عن معنی هذه الآیه:« ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنَا مِنْ عِبَادِنَا »فقالت العلماء:أراد اللّه بذلک الأمه کلّها، فقال المأمون:ما تقول یا أبا الحسن؟فقال الرضا علیه السلام :

لا- أقول کما قالوا،و لکنی أقول:أراد اللّه عزّ و جل بذلک العتره الطاهره، فقال المأمون:و کیف عنی العتره من دون الأمه؟فقال الرضا علیه السلام :إنّه لو أراد الأمه لکانت بأجمعها فی الجنه،لقول اللّه عزّ و جل:« فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَیْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ »ثم جمعهم کلّهم فی الجنه فقال:« جَنّاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَهَا یُحَلَّوْنَ فِیهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ »الآیه، فصارت الوراثه للعتره الطاهره لا لغیرهم (۱) فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ تساوت حسناته و سیئاته،

و فی حدیث مأثور عن أبی الدرداء عن رسول اللّه- صلّی اللّه علیه و آله -فی هذه الآیه فی مصیر الظالم لنفسه قال:

أمّا السابق فیدخل الجنه بغیر حساب،و أمّا المقتصد فیحاسب حسابا یسیرا، و أمّا الظالم لنفسه فیحبس فی المقام ثم یدخل الجنه،فهم الذین« قَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ » (۲) وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ و هو الذی یصوم نهاره،و یقوم لیله-کما جاء فی الحدیث السابق-.

وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَیْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ

ص:۵۷

۱- ۵) المصدر/ص(۳۶۵).

۲- ۶) المصدر/ص(۳۶۵).

و هو الإمام.

ذٰلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ السبق بالخیرات.

و هـذا التفسـیر للآیه یتنـاسب و السیاق،و تؤیّده أحـادیث کثیره عن النبی و أصـحابه،حتی قـال الشوکـانی بعـد ذکرهـا:و هـذه الأحادیث یقوّی بعضها بعضا، و یجب المصیر إلیها،و یدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه علی الکافر،و یؤیّدها ما

أخرجه الطبرانی و ابن مردویه و البیهقی فی البعث عن أسـامه بن زیـد «فمنهم ظـالم لنفسه...الآیه»قـال:قال رسول اللّه-صـلّی اللّه علیه و آله و سلم-:

«کلّهم فی هذه الأمه،و کلّهم فی الجنه » (1)و هناک تفسیران آخران:

أولهما:أنّ المراد بالظالم هو الکافر.

الثانی:أنّ المراد مجموع الامه.

و هذا مخالف لاجتماعهم فی الجنه مع أنّ بعضهم من أهل الکبائر و من وعد اللّه لهم بالنار.

ص:58

1- 7) تفسیر فتح القدیر المجلد/ج(4)/ص(352).

[سوره فاطر (٣۵): الآيات ٣٣ الی ۴١]

اشاره

جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣) وَ قالُوا اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣۴) اَلَّذِی أَحَلَّنا دارَ اَلْمُقامَهِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣۵) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِی كُلَّ كَفُورٍ (٣۶) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ اَلَّذِی كُنّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ اَلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اَللّهَ عالِمُ غَيْبِ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ اَلصُّدُورِ (٣٨) هُوَ اَلَّذِی جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِی اَلْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ اَلْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّ مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ اَلْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّ خَساراً (٣٩) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِی اَلسَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلی بَيِّنَهٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ اَلظّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّ غُرُوراً (۴٠) إِنَّ اَللّهَ يُمْسِكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴١)

اللغه

٣۵[لغوب]:هو المشقه فی طلب المعاش و نحو ذلک.

ص:۵٩

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ

هدی من الآیات:

بین البشر و بین التحسّس بالآخره حجاب الغرور،إذ یمنع هذا الحجاب من أن یضحی الإیمان بالآخره جزءا من معادله البشر النفسیه.

و الإنسان یشعر فی قراره نفسه بضروره التخلص من العذاب،و إیجاد حاله من الأمن و السلام المستقبلی لنفسه.

و لکن قد یرفع هذا الخطر بالعمل و السعی الجاد،و قد یرفع هذا الخطر بالتمنی و الأحلام فیصنع لنفسه تعویضا نفسیا عن الواقع،و لکن یزیل القرآن هذه التمنّیات،و یعطینا صوره حقیقیه عن ذلک الیوم الرهیب حین نقف أمام ربّنا الجبّار،و یصور مشاهد الآخره حتی لکأننا نراها،ثم یضع الإنسان أمام وجدانه.

و فی هذه الآیات تذکره لعمر الإنسان فی الحیاه بأنّه کان کافیا لامتحانه.

ص:۶۱

بینات من الآیات:

[۳۳]ما هو جزاء المصطفین من عباد اللّه الـذین أورثوا الکتاب؟ جَنّٰاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَهٰا یُحَلَّوْنَ فِیهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِیهٰا حَرِیرٌ یحلون:ای یتحلّون بها،فلقد حرّم اللّه علیهم الذهب و الحریر فی الدنیا، و عوّضهم فی الآخره.

و قد جاء فی الحدیث عن الامام الباقر علیه السلام عن رسول اللّه(ص) :

إذا دخـل المؤمن فی منـازله فی الجنه،وضع علی رأسه تـاج الملـک و الکرامه، و ألبس حلل الـذهب و الفضه،و الیاقوت و الـدر منظومـا فی الإکلیـل تحت التاج، و ألبس سـبعین حله حریر بألوان مختلفه منسوجه بالـذهب و الفضه و اللؤلؤ و الیاقوت الأحمر،و ذلـک قوله:« یُحَلَّوْنَ فِیهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِیهٰا حَرِیرٌ » (۱)[۳۴]و بالاضافه الی هـذه النعم المادیه هناک نعم معنویه اخری هی نعمه الأحساس بالرضی الذی یعبرون عنه بالحمد للّه.

وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ما هو الحزن؟ الحزن یتعدّد بتعدّد الظروف،فمن الحزن القلق و الهم،کقوله تعالی لام

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۳۶۶).

موسی علیه السلام :« وَ لاٰ تَخٰافِی وَ لاٰ تَحْزَنِی »،و من الحزن الخوف من الفزع الأکبر،کقوله تعالی:« لاٰ یَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَکْبَرُ »،و من الحزن القلق من الهزیمه،کقوله تعالی:

« وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ »...و اللّه یذهب کلّ ذلک عنهم،لأنّهم قد حزنوا علی ذنوبهم فی الدنیا،

و قد ورد فی الحدیث :«إنّ المؤمن فی الدنیا حزین » أی قلق من ذنبه.

إِنَّ رَبَّنٰا لَغَفُورٌ شَکُورٌ فالغفران یکون عند الذنب،و الشکر یکون للنعمه،فربّنا سبحانه یغفر لهم ما أذنبوا،و یشکر لهم ما عملوا.

[۳۵] اَلَّذِی أَحَلَّنٰا دٰارَ الْمُقٰامَهِ مِنْ فَضْلِهِ أی الدار التی یستقر فیها الإنسان،و ربما تفید هذه الآیه معنی الخلود،لأنّ الدنیا لیست دار مقامه بل هی دار انتقال.

لاٰ یَمَسُّنٰا فِیهٰا نَصَبٌ وَ لاٰ یَمَسُّنٰا فِیهٰا لُغُوبٌ جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم:إنّ النصب هو العناء،و اللغوب هو الکسل و الضجر.

و فی نهج البلاغه :

«...و أکرم أسماعهم من أن تسمع حسیس نار أبدا،و صان أجسادهم أن تلقی لغوبا و نصبا » (۱)

ص:۶۳

۱- ۲) نهج/ط(۱۸۳)/ص(۲۶۸).

و قد شوّقتنا النصوص الى دار ضيافه ربّنا ببيان جانب من نعمها،

فقد جاء فی حدیث مفصّل عن رسول اللّه(ص) :

«فتخرج علیه زوجته الحوراء من خیمتها تمشی مقبله و حولها و صفاؤها یحجبنها، علیها سبعون حله منسوجه بالیاقوت و اللؤلؤ و الزبرجد صبغن بمسک و عنبر،و علی رأسها تاج الکرامه،و فی رجلها نعلان من ذهب مکللان بالیاقوت و اللؤلؤ شراکهما یاقوت أحمر،فإذا دنت من ولیّ اللّه،و همّ(ان)یقوم لها شوقا تقول له:یا ولی اللّه لیس هذا یوم تعب و لا نصب و لا تقم،أنا لک و أنت لی » (۱)هکذا یسقط التعب و النصب من الإنسان المؤمن حتی بمقدار القیام لاستقبال زوجته من الحور العین.

[۳۶]هذا عن الذین آمنوا فما هو جزاء الذین کفروا؟ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ نٰارُ جَهَنَّمَ لاٰ یُقْضیٰ عَلَیْهِمْ فَیَمُوتُوا جاء فی النصوص انه فی یوم القیامه یذبح الموت بین الجنه و النار فی صوره شاه، فلا أهل الجنه یموتون،و لا أهل النار،بل کلّهم مخلّدون،و أعظم بعقاب یبقی أبدا.

إنّ قلیله کثیر،و ضعیفه شدید،فکیف بعذاب النار المتناهی شده و سعیرا؟! و قد جرت سنه اللّه فی عالمنا الیوم أنّ الجسم یتکیّف مع الصعوبات،و أنّ لکلّ شیء أجل وحده،و کلّما اقترب من نهایته خفّ،بید أنّ عذاب اللّه لا أجل له،فلا یخفف أبدا،و لا یتکیّف الجسم معه،بل یبقی یتألّم معه أبدا(نعوذ باللّه العظیم منه).

ص:۶۴

۱- ۳) نور الثقلین/ج(۴)ص(۳۶۷).

وَ لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذٰابِهٰا كَذٰلِكَ نَجْزِی كُلَّ كَفُورٍ و هنا يذكر السياق صفتين لجهنم،و يقابلهما بمثلهما للجنه:

الاولى:الخلود« لاٰ يُقْضىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا »و الثانيه:الشده« لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ » و قد ذكر صفتان مقابلتان للجنه:الراحه،و الخلود.

[۳۷]و لأنّ العذاب شديد و مستمر فإنهم لا ينفكّون يحاولون التخلص منه للنجاه،فتراهم يرفعون أصواتهم يطلبون العوده إلى الدنيا ليعملوا صالحا.

وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهٰا رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً غَيْرَ الَّذِی كُنّٰا نَعْمَلُ كلّ إنسان فی الدنيا يدّعی أنّه يعمل صالحا،و لكن حينما يواجه العذاب الشديد هناك يعرف بل و يعترف بأنّ أعماله كانت غير صالحه.

إنّ هؤلاء يصطرخون،و الاصطراخ أعظم الصراخ:أن أخرجنا ربّنا نعمل صالحا غير الذی كنّا نعمل،فيجيبهم اللّه:

أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مٰا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أی عمّرناكم فی الدنيا بقدر يكفی للتذكّر،فلم تتذكروا،و جاءكم النذير فلم تتذكروا.

قد اختلفت أقوال المفسرين فی النذير:هل هو الرسول و القرآن أم هو الشيب و موت الأقارب و تقادم السنّ أم هو كمال العقل و البلوغ.

و يبدو أنّ الكلمه مطلقه،و توحی بأنّ الإنسان ينذر بالتالی بطريقه أو بأخرى،

و أنّ اللّه لا يتوفّاه حتى يكتمل امتحانه.

فَذُوقُوا فَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ لماذا الاختلاف فى الآجال؟فبعض يعيش عشرين عاما،و بعضهم أربعين، و بعضهم ستين...؟ الشاعر إقبال اللاهورى أجاب على ذلك و قال:إنّ اختلاف آجال الناس مرتبط بحكمه وجودهم فى الدنيا،و هو تهيئه الإنسان للجنه،و كأنّ الدنيا مدرسه، يدخلها الناس تمهيدا لدخول الجنه.

فبعض الناس ينجحون من أوّل امتحان،و بعضهم لا ينجحون فى الامتحان الأوّل فيدخلون الامتحان الثانى،و هكذا فان اختلاف الناس فى آجالهم هو بسبب مدى استعدادهم،و تقبلهم و نجاحهم و هذه النظريه جميله الا انها لا توافق القرآن الكريم،لان الدنيا كما هى مدرسه تهيؤ المؤمنين لدخول الجنه،فهى فى نفس الوقت مهوى يسقط الكفار منه الى النار.

و فى بصائر القرآن الدنيا دار ابتلاء فيه فقط قاعه امتحان و ليست مدرسه.

و لعل الآيه هذه تشير الى أنّ اختلاف الآجال يرتبط بهذه الكلمه(الابتلاء) فالدنيا فرصه للتذكره،و كلّ شخص يعمّ بقدر التذكر(حسب ظروفه،و بنيه شخصيته)فإذا انتهت الفرصه فإنّ الحكمه الرئيسيه من بقائه تنتهى،بلى.هناك حكم أخرى:كاستدراج الكفّار ليزدادوا كفرا،و إطاله عمر المؤمنين ليزدادوا ثوابا، و كأن يكون وجود شخص مفيدا لابتلاء الآخرين،و اللّه العالم.

و اختلفت الروايات فى تحديد العمر فى قوله:« أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ »فقالت بعض

الروايات:إنّها لذوى الثمانيه عشر سنه،و فى روايه أخرى:إنّها لذوى الأربعين سنه،و فى روايه ثالثه:انها لذوى الستين.

و لعل ما قلناه آنفا فى اختلاف الناس فى التذكّر يجمع بين النصوص.

[۳۸] إِنَّ اللّٰهَ عٰالِمُ غَيْبِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ إنّ اللّه عالم غيبك،و يعلم سرّك و ما يكنّ صدرك،كما هو عـالم بغيب السـموات و الأـرض،فهو ليس بحـاجه الى امتحانك،و لكن إنّما هى فرصه يعطيها اللّه لكى تجرّب نفسك،و تمتحن إرادتك.

[۳۹] هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاٰئِفَ فِى الْأَرْضِ أى جعـل بعضـكم يخلف بعضا،و لعل هـذه الآيه تـدلّ على أنّ الأمم تنتهى،و أنّ لها آجالا كما للناس آجال محدده.

و أما مقياس آجال الأمم و المجتمعات فهو كما قال ربّنا سبحانه:

فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ نتيجه الكفر على صاحبها.

وَ لاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّٰ مَقْتاً يبغضهم اللّه و يمقتهم.

وَ لاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّٰ خَسٰاراً خساره فى الدنيا و الآخره.

ص:۶۷

[۴٠]يظلّ الشرك باللّه الحجاب الكبير الذى يفصلنا عن ربّنا،و يمنع عنّا خيرات عباده اللّه وحده،و يذكّر السياق بأنّ الشركاء لا يملكون حقّ العباده لأنّهم لم يخلقوا شيئا من الأرض،و لا ساهموا فى تدبير السموات،و لا أذن لهم ربّ الأرض و السماء بقياده الناس...فبأىّ حقّ يتسلطون على رقاب الناس،و لماذا يخضع لهم الناس؟! قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَرُونِى ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ حتى يتسلطوا باسمه على الناس.

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّماواتِ لا نجد قدرتهم تتجلّى فى السماء،كأن يديروا الشمس و القمر.

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَهٍ مِنْهُ أمرناكم بأن تتبعوهم بأن أنزلنا عليكم كتابا يأمركم بأن تتبعوهم.

بَلْ إِنْ يَعِدُ الظّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّ غُرُوراً فإنّ مشكله الإنسان التى تمنعه من الوصول الى الحقيقه هى حجاب الغرور و التمنيات،و على الإنسان أن يخرقه حتى يتقرّب الى ربّه.

و ربما توحى خاتمه الآيه بأنّ الظالمين-الشركاء و التابعين-كلّ واحد منهم يضلّ الآخر،فالمضل يعد متّبعيه بأنّه سوف يحمل خطاياهم،و ما هو بحامل من خطاياهم من شىء،و المضلّلون يعدون مضليهم بالولاء و الانتصار لهم،فكلّ واحد

منهم يمنّى الآخر،و ما هذه الأمنيات سوى الغرور بذاته،لأنّه لا أحد ينفع أحدا يوم القيامه،و يتبرأ الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا.

[۴۱]يحيط بأولئك الشركاء و المشركون بهم الغرور،إذ لم يخلقوا شيئا من الأرض،و لم يكن لهم شرک فی تدبير السموات،بينما اللّه الواحد استوى على عرش العلم و الملك،و هو يمسك السموات و الأرض لكى لا تزولا،و لا شىء قادر على المحافظه عليها لو تركها الرب.

إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ و السؤال:ما هو معنى الزوال؟ ۱-لا ريب أنّ النظام الذى يحافظ على الوجود بحاجه الى منظّم،و التدبير بحاجه الى مدبّر،و اللّه هو المدبّر الذى لو تركها فسد النظام،و زالت السموات و الأرض بفساده.

۲-و إذا تعمّقنا قليلا و عرفنا شيئا من الفيزياء الحديثه،و كيف أنّ نظام دوران الإلكترون حول محور البروتون-فى مملكه الذره العظيمه و المتناهيه فى صغر الحجم-قائم على الحركه،حتى قالوا:إنّ الحركه لو توقّفت لتلاشى الوجود،عرفنا أنّ(قيام)كلّ شىء إنّما هو باللّه عبر أنوار قدسه التى يفيض بها كلّ خير على الخلائق.

وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَكَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ و لكن لماذا لا يسمح اللّه للسموات و الأرض بالزوال مع كثره المعاصى التى يرتكبها العباد؟

إِنَّهُ کٰانَ حَلِیماً لا یبادر بإنزال العقوبه علی العصاه،بل یؤخّرهم لأجل مسمّی،و فی آخر آیه من هذه السوره تبیان لذلک.

غَفُوراً یعفو عن کثیر من السیئات فلا یعاقب علیها أبدا.

ص:٧٠

[سوره فاطر (۳۵): الآیات ۴۲ الی ۴۵]

اشاره

وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدىٰ مِنْ إِحْدَى اَلْأُمَمِ فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً (۴۲) اِسْتِكْبٰاراً
فِي اَلْأَرْضِ وَ مَكْرَ اَلسَّيِّئِ وَ لاٰ يَحِيقُ اَلْمَكْرُ اَلسَّيِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ سُنَّتَ اَلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اَللّٰهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ
لِسُنَّتِ اَللّٰهِ تَحْوِيلاً (۴۳) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ
لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي اَلْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ عَلِيماً قَدِيراً (۴۴) وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِهٰا
مِنْ دَابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِيراً (۴۵)

ص:۷۱

وَ لاٰ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ

هدى من الآيات:

بـالرغم من أنّ كفّـار قريش و مثلهم سـائر الكفّار كانوا بفطرتهم يعرفون مـدى حاجتهم الى الوحى،و يمنّون أنفسـهم بأن يكونوا أهـدى من إحـدى الأـمم لو بعث فيهم نبى مرسل،إلاّ أنّهم حين منّ اللّه عليهم بنعمه الرسول كفروا به.لماذا؟ لأنّهم استكبروا فى الأرض،و مكروا مكرا سيّئا.

و بعـد أن ينـذرهم الربّ بـأنّ المكر السـىء لاـ يحيـط بالتـالى إلاّ بصاحبه،يـذكّرهم بمصـير الغابرين الـذين جرت سـنه اللّه فيهم بالـدمار،و لاـ تبـديل فى سـنن اللّه و لاـ تحويـل،و يـدعوهم للسـير فى الأـرض لينظروا كيف فعل اللّه بالظالمين،و أين انتهى بهم اسـتكبارهم و مكرهم السـىء مع أنّهم كـانوا أشـدّ منهم قوّه،و ينبّههم القرآن بـأنّهم لاـ يسـتطيعون الفرار من حكومه اللّه،و أنّه لا يعجزه شىء بل هو العليم القدير.

ص:٧٢

و يختم سوره فاطر بأنّ اللّه يمهل الظالمين الى أجل مسمّى ثم يأخذهم،و لولا ذلك لما ترك على ظهر الأرض من دابه بما فعل الظالمون!

بينات من الآيات:

[۴۲]ضمير البشر أكبر شاهد على الحقّ و صدق رسالات اللّه التى نزلت بالحق،و كلّ إنسان يتمنّى أن يكون صالحا لولا أنّ دواعى الفساد تضلّه.

وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ لعل تأكيد القسم ب« جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ »كان تعبيرا عن مدى رسوخ فطره الإيمان فى النفوس،أو أنّه يعبّر عن مدى النفاق الّذى كانوا يعيشونه، و إنما أقسموا لتغطيه ما أضمروه من المكر و الاستكبار،كما قال ربنا سبحانه عن المنافقين:« وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لاٰ تُقْسِمُوا طٰاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ ». (۱)

و هذه السنه جاريه عند الناس اليوم أيضا،فتراهم يقولون:إنّنا لا نمتلك قياده و إمام حقّ نتبعه،و عند ما يرسل اللّه إليهم الإمام الحق إذا هم يتملّصون من المسؤوليه،و لا يتبعونه،كما الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى،إذ قالوا لنبيّ لهم:ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل اللّه فلما بعث اللّه إليهم طالوت ملكا،قالوا:

أنّى يكون له الملك علينا و نحن أحقّ بالملك منه،و لم يؤت سعه من المال.

و التعبير القرآنى:« أَهْدىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ »ربما يعنى:سنكون أهدى من تلك الأمّه التى تعتبر أهدى أمّه،و لم يقولوا:سنكون أهدى من سائر الأمم،مبالغه

ص:۷۳

۱- ۱) النور/(۵۳).

وَ لاٰ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ الخطط الفاسده سوف تكون لها انعكاسات على الواقع الاجتماعى،بيد أنّ أثرها الأبلغ سيكون على صانعها.

و الكلمه هذه ذروه ما نفهمه من البلاغه،إذ ذكّرنا الربّ بأنّ المكر السيء «يحيط»بصاحبه من جميع جوانبه،و هذا أبلغ من القول أنّه يلحق به أو يصيبه،لأنّ صاحب المكر يزعم أنّه قادر على الفرار من عاقبه عمله،و لكنّه يحيق به فلا يقدر هروبا،ثم أنّ القرآن عبّر«بأهله»و لعل السبب يكمن فى أنّ كلّ العاملين مكرا ليسوا بأهله،بل بعضهم ممّن تعمّده و اتخذه سبيلا،ثم إنّ الحصر يفيد أنّ الذى يمكر بهم ينجون عاده من المكر على حساب أهله،و قد قالوا:«من حفر بئرا لأخيه وقع فيه».

و كيف يمكن أن نكتشف هذه الحقيقه؟ يقول ربّنا:انظروا إلى التاريخ،فالتاريخ يحكى سنن اللّه التى لاٰ تتبدّل و لا تتحوّل،و يتساءل:هل هم ينتظرون عاقبه مثل عاقبتهم؟! فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ كيف أنّهم أهلكوا بما كسبوا،و كيف حاق مكرهم بهم.

فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً على مرّ العصور،السنّه هى السنّه فى الغابر و الحاضر،لن تتبدل،و لن تتحول، بأن يستطيع أحد أن يدفعها عن نفسه إلى غيره.

ص:۷۴

فی تزکیه أنفسهم.

و ربما یکون قولهم هذا ردا علی الیهود الذین کانوا یعیّرون المشرکین،و یهدّدونهم بنبیّ لهم یکسر أصنامهم،فعرّضوا بهم و قالوا:لو جاءنا رسول سنکون أهدی منکم.

فَلَمّا جاءَهُمْ نَذِیرٌ ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً أی کانوا نافرین من قبل،فازدادوا نفورا علی نفورهم. لماذا؟لأنّ الإنسان قبل أن تأتیه الحجه یکون عنده عذر لکفره،لأنّ اللّه قال:« وَ ما کُنّا مُعَذِّبِینَ حَتّی نَبْعَثَ رَسُولاً » (۱)و عند ما تأتیه الحجه تراه یکفر بالحجه.

[۴۳]و مشکله هؤلاء أنّهم استکبروا،تکریسا لاناتیتهم،و قالوا:أبعث اللّه بشرا رسولا؟!ما له یأکل الطعام،و یمشی فی الأسواق؟!إنّه لیس رجلاـ من القریتین عظیما فی ماله،و إنّه لو نؤمن به نتخطّف من أرضنا،فاستکبروا فی الأرض،بحثا عن سلطه طاغیه،و ثروه عریضه،و شهره واسعه.

و لقد قلنا مرارا:ان التکبّر و مظهره الاستکبار أخطر حاجب بین البشر و بین الإیمان بالحقائق.

اِسْتِکْباراً فِی الْأَرْضِ وَ مَکْرَ السَّیِّئِ قال الرازی عن المکر السیء:إنّه إضافه الجنس الی نوعه،کما یقال علم الفقه و حرفه الحداده،و تحقیقه أن یقال:معناه و مکروا مکرا سیّئا ثم عرّف لظهور مکرهم ثم ترک التعریف باللام و أضیف الی السیء لکون السوء فیه أبین الأمور. (۲).

۱- ۲) الإسراء/(۱۵).

۲- ۳) التفسیر الکبیر عند تفسیر الآیه.

وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَحْوِيلاً [۴۴]و الدليل على عدم تبديل سنّه اللّه أو تحويلا تجارب التاريخ.

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِی الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً كقوم عاد الذين قال اللّه فی حقّهم:« وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاهُمْ فِيمٰا إِنْ مَكَّنّٰاكُمْ فِيهِ » (۱).

وَ مٰا كٰانَ اللّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَیْءٍ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی الْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ عَلِيماً قَدِيراً لا يحد قدرته المطلقه شیء،إنه كان عليما بمن يعصی،قادرا علی أخذه أخذ عزيز مقتدر.

و لكن لماذا لا يؤاخذ اللّه أهل الأرض بألوان العذاب و هم يعصونه ليل نهار؟ الجواب:

أوّلا:لأنّ اللّه عفو غفور،فيعفو عن كثير من الذنوب.

ثانيا:لأنّه حليم يعطيهم فرصه بعد فرصه حتی إذا انقضی أجلهم أخذهم بظلمهم.

ص:۷۶

۱- ۴) الأحقاف/(۲۶).

[۴۵] وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى يؤخّر انتقامه إلى أجل مكتوب،لا يستقدمون عنه ساعه و لا يستأخرون.

فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِيراً بصير بما يناسبهم من الجزاء:كيف و كم و متى.

ص:۷۷

سوره یس

اشاره

ص:۷۹

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضل السوره:

۱-فی کتاب ثواب الأعمال باسناده الی أبی عبد الله علیه السلام قال :

«إنّ لکلّ شیء قلبا،و إنّ قلب القرآن یس،و من قرأها قبل أن ینام أو فی نهاره قبل أن یمسی کان فی نهاره من المحفوظین و المرزوقین حتی یمسی،و من قرأها فی لیله قبل أن ینام وکّل اللّه به ألف ملک یحفظونه من شرّ کلّ شیطان رجیم و من کل آفه،و إن مات فی یومه أدخله اللّه الجنه،و حضر غسله ثلاثون ألف ملک کلهم یستغفرون له و یشیعونه إلی قبره بالاستغفار،فإذا دخل فی لحده کانوا فی جوف قبره یعبدون اللّه و ثواب عبادتهم له،و فسح له فی قبره مدّ بصره،و أومن من ضغطه القبر،و لم یزل فی قبره نور ساطع الی عنان السماء إلی أن یخرجه اللّه من قبره،فإذا أخرجه لم یزل ملائکه اللّه یشیّعونه و یحدّثونه و یضحکون فی وجهه

و يبشـرونه بكـل خير حتى يجوزونه على الصـراط و الميزان و يوقفونه من اللّه موقفا لا يكون عنـد اللّه خلق أقرب منه إلّا ملائكه اللّه المقربون و أنبياؤه المرسـلون،و هو مع النبيين واقف بين يـدى اللّه،لا يحزن مع من يحزن و لا يهتم مع من يهتم و لا يجزع مع من يجزع،ثم يقول له الربّ تبارك و تعالى:اشـفع عبدى أشفّعك فى جميع ما تشفع،و سلنى أعطك عبدى جميع ما تسأل،فيسأل فيعطى،و يشـفع فيشفّع و لا يحاسب و لا يوقف مع من يوقف،و لا يزلّ مع من يزل،و لا يكتب بخطيئه و لا بشىء من سوء عمله،و يعطى كتابه منشورا حتى يهبط من عنـد اللّه،فيقول الناس بأجمعهم:سـبحان اللّه ما كان لهـذا العبـد من خطيئه واحده!و يكون من رفقاء محمد(ص) (۱)»

عن أنس بن مالك قال:قال رسول اللّه(ص) :

«من دخل المقابر فقرأ سوره يس خفّف اللّه عنهم يومئذ،و كان له بعدد من فيها حسنات » (۲)

ص:۸۲

۱- ۱) تفسير نور الثقلين/ج(۴)/ص(۳۷۲).

۲- ۲) المصدر.

الإطار العام

الاسم:

اتخذ اسم السوره من الكلمه الأولى فيها التى قالوا إنّها اسم لنبينا الأكرم محمد(ص)،و لعلها ترمز اليه كما ترمز اليه كلمه(طه)و اللّه العالم.

الإطار العام:

بعد القسم بالشأن العظيم الذى هو للقرآن الحكيم،يخاطب ربنا سيد الخلائق (يس)محمد(ص)بأنّه من المرسلين،و أنّه على صراط مستقيم،و أنّ الكتاب تنزيل من ربّ غفور رحيم،و يهدف إنذار قوم جاهلين بما أنذر آباؤهم من قبل،ثم أضحت قلوب أكثرهم كالصخر لا تقبل الإيمان.أ رأيت الذى وضعت على عنقه الأغلال،حتى أصبح مقمحا،مرفوع الرأس الى الأعلى حتى لا يرى شيئا؟هل يقدر على النظر؟!أم الذى وضع سد منيع أمامه و خلفه،و حجبت بصره غشاوه فهل يبصر؟!كلاّ...كذلك لا ينتفع هؤلاء بالإنذار،فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا

يؤمنون.

فلمن القرآن إذا؟ إنّما هو ينـذر من يتبع الـذكر،و يهتـدى و يطيع آيات القرآن،و يخشـى الرحمن بالغيب،و هذا يتجنب المهالك التى تنذر بها،و يبشـره اللّه بمغفره لذنوبه السابقه و هفواته،و بأجر فيه الرزق و الكرامه،و يأتى كمال الجزاء فى الآخره،حيث يحى اللّه الموتى،و قد كتب من قبل ما قدموه لحياتهم هناك و ما خلّفوه وراءهم من آثار، و كلّ شىء قد أحصى فى إمام مبين.

(و هذه الرساله جاءت على سنّه رسالات اللّه السابقه)و يضـرب القرآن مثلا من أصـحاب القريه حين جاءها المرسلون،ثم يمضى فى بيان شـبهاتهم الواهيه، و يردّها أولا:على لسان الأنبياء،و ثانيا:على لسان واحـد ممن هـداهم اللّه للإيمان،و أدخله جنته فقال:يا ليـت قـومى يعلمـون،و أهلـك اللّـه قـومه مـن بعــده بصــيحه،و تحسّـ ر على العبـاد الـذين لاـ يبعـث إليهـم رسـول إلاـ كـانوا به يستهزءون،دون أن يعتبروا بمصير السابقين الذين سوف يحضرهم اللّه و إياهم لديه.

و يذكّرنا القرآن بآيات اللّه لعلنا نهتدى إليه و نتبع رسله:فمن الأرض الميته التى يحيها(بالغيث)و يخرج منها حبا فمنه يأكلون،إلى الجنـات ذات الثمرات المختلفه،الى الليل و النهار و الشـمس التى تجرى لمسـتقر لها،الى القمر الـذى يجرى فى منازله حتى يعود كالعرجون القديم،الى التدبير اللطيف للشمس و القمر،الى وسائل النقل من سفن و أنعام البر.

و يـذكّرنا بـأنّه يحفظهم من غضب الأـمواج برحمته و حتى يقضوا آجالهم،و ترى أنّ الرب الرحيم يريـد لهم الخيرات أيضا حين يأمرهم بالتقوى(ليحفظهم من عواقب

الـذنب)و لكنهم يعرضون بـالرغم من تواتر الآيـات،و تراهم يبررون بخلهم بأنّه كيف ننفق على من لو شاء اللّه أطعمه(مما عكس فكرهم و قيمهم المـاديه) و يتسـاءلون باسـتهزاء:مـتى هـذا الوعـد بـالجزاء(لمـاذا يتـأخر)ان كنتم صـادقين؟! (بلى.إنّه آت و مـاذا ينتظرون و ماذا يسـتعجلون)ما ينتظرون إلاّ صـيحه واحـده تأخـذهم و هـم سادرون فى بحر الجدل العقيم،و هنالك لا يسـمح لهم الوقت بالتوصـيه،و لاـ هم يعودون الى أهلهم مرّه ثـانيه(و يبقون فى عـالم الـبرزخ حتى يوم النشور)فـإذا نفـخ فى الصور فـإذا هم يخرجون من القبور، و يتوجهون الى ربهم (و بـدل التسـاؤل المشوب بالسـخريه تراهم)يقولون:يا ويلتنا من بعثنا من مرقـدنا؟ (إنّه اللّه المقتـدر فيعترفون و يقولون:)هـذ ما وعد الرحمن(من النشور)و صدق المرسـلون(حين أنذروا بذلك اليوم الرهيب)و هنالك الحكم العـدل الـذى يشـمل كل الحاضـرين(و يصوّر السـياق بعض مشاهد الجزاء)فأصـحاب الجنه فى شـغل فاكهون، بينما يمتاز المجرمون الى النـار،و يحـاكم الرب عبيـده قائلاـ: أَ لَمْ أَعْهَـدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُـدُوا الشَّيْطٰانَ ؟!هو عـدوّكم،و صـراطه منحرف عن الصـراط الإلهى المسـتقيم، و إنّه قـد أضلّ كثيرا منهم و أوردهم النار،أ فلا اعتبرتـم بمصـيرهم؟!و اليوم أدخلوا جهنم تلك التى وعدتم إياها،(و بعد أن يصوّر لنا جانبا من عذاب جهنم يقول:) و لو كنّا نريد لجزيناهم فى الدنيا،فطمسـنا على أعينهم و مسـخناهم(و فعلا يفعل اللّه ببعضهم فلا يقدرون منعه)فمن يطوّل عمره ينكّسه فى الخلق.أ فلا تعقلون(إنّه قادر على أن يصيبهم بمثل ذلك).

و يعطف القرآن الحـديث عن الآخره-بعـد أن خشـعت النفوس الطيبه بتصوير مشاهد منها-يعطفه الى ردّ شـبهاتهم حول الرسول فيقول:و ما علّمناه الشـعر(و لا يتناسب حـديثه و الشـعر أبـدا) إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ ،و يهـدف إنذار من يملك قلبا حيّا،أمّا بالنسبه إلى غيرهم فلكى يتم الحجه عليهم(و يذكّرنا السياق بالتوحيد

الذی هو أساس کل عقیده صالحه،فمن آمن باللّه حقا لم یطع الشرکاء الموهومین، بل أطاع الرسول الذی أمر اللّه بطاعته فقط) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَیْدِینٰا أَنْعٰاماً (ثم خولناهم التصرف فیها،و جعلناها ذلولا یسخرونها) فَهُمْ لَهٰا مٰالِکُونَ ؟!(و بعد ذکر نعم اللّه یوجههم إلی الشکر الذی من أبرز معانیه الإیمان باللّه و طاعه رسوله و لکنهم أشرکوا) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَهً (و هم یریدون جبر نقصهم بها) لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ (و الواقع أنّ العکس هو الصحیح)و الآلهه لا یستطیعون نصرهم بل إنّ المشرکین لهم جند محضرون.

(و یخاطب السیاق الرسول لیثبت فؤاده و لینذر الکفّار)و یقول:لا یحزنک ما یقولون لک.إنّ اللّه یعلم سرهم و علنهم.

(و یعود السیاق الی الإیمان بالآخره،و کیف یکفر بها هذا الإنسان الذی أسبغ الربّ علیه النعم،و یخاصم فیها بکل صلافه)أ فلا یری الإنسان أنّه مخلوق من نطفه (مهینه)فإذا به یصبح خصیما للّه؟!(یتقلّب فی نعم اللّه و یجادل فی آیاته!) و یضرب مثلا(فیأخذ عظما یفتته و یقول:) مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ؟! قُلْ:

یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ (فیعلم أین ذهبت ذرأت جسد هذا الشخص أو ذاک)و هو الذی جعل من الشجر الأخضر نارا لکم توقدون علیها(مع أنّ النار باطنه فیها)و هو الذی خلق السموات و الأرض فهل یعجزه إرجاع البشر؟! کلاّ..) إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (و تعالی عما یصفه الجاهلون بالنقص و العجز،کلاّ...هو العلیّ المقتدر علی بعث الإنسان)و إلیه ترجعون.

و کلمه أخیره:

لقد ذکرت النصوص:أنّ(یس)قلب القرآن،و هی-بحق-غرّه السور

المكيه التى جاءت فيها حقائق الرساله بصوره مركزه،مما يجعلها ركيزه الحياه للإنسان المسلم،لأنّها حوت خلاصه دروس الحياه،و حكمه المرسلين،و متطلبات الحضاره.

ص:٨٧

[سوره يس (۳۶): الآيات ۱ الى ۱۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . يس (۱) وَ اَلْقُرْآنِ اَلْحَكِيمِ (۲) إِنَّكَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۳) عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴) تَنْزِيلَ اَلْعَزِيزِ اَلرَّحِيمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ اَلْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۷) إِنّٰا جَعَلْنٰا فِي أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً فَهِيَ إِلَى اَلْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ (۹) وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۱۰) إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اِتَّبَعَ اَلذِّكْرَ وَ خَشِيَ اَلرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (۱۱) إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِ اَلْمَوْتىٰ وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ (۱۲)

اللغه

۸ مُقْمَحُونَ :من قمح بمعنى رفع رأسه إلى فوق، فإنّ الأغلال لمّا امتدت إلى تحت أذقانهم رفعت رؤوسهم إلى السماء حتى لا يتمكّنون من النظر أمامهم.

[فأغشيناهم]:جعلنا على أبصارهم غشاوه تمنعهم عن الإبصار.

ص:۸۸

إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ

هدی من الآیات:

یقسم السیاق-فی البدء-بما یستدل به علی صدق رساله النبی(ص)و أنّه من لدن ربّ عزیز رحیم،یقسم بالقرآن الحکیم الذی هو الـدلیل الأظهر علی رسالات اللّه،ثم بعدئذ یبین ملامح المجتمع الجاهلی الذی جاء الکتاب لإصـلاحه.إنّه الاعرق فی الکفر حیث أنّ أکثرهم محکوم علیهم بعـدم الإیمـان(لعنـادهم)و قـد جعلت الأغلال فی أعنـاقهم فهی الی الأذقـان،و جعلوا بین السـدّین من أمامهم و من خلفهم،و حجبت أعینهم بالغشاوه،فهم لا یؤمنون بک سواء أنـذرتهم أم لم تنذرهم.أ و لیس شـرط الاسـتجابه حاله الخشوع فی القلب؟و لکن دعهم فسوف یحیی اللّه الموتی،و قد سجلت علیهم أعمالهم،و کلّ شیء أحصاه ربّنا فی إمام مبین.

(و لعـل ذکر هـذه الحقیقه یهـدف بیان دور البشـر فی الهـدایه، و أنّها لیست کرها علیه،بل اللّه یضل أقواما عانـدوا و جحـدوا أو غفلوا عن الذکر).

ص:۹۰

بينات من الآيات:

باسم اللّه،بذلک النور القدسی،الذی خلقه اللّه خلقا،ثم خلق الأشیاء به، برحمته التی وسعت کل شیء،و برحمته التی لم تزل و لا تزال نزدلف الی سوره یس المبارکه.

[۱]إنّ القرآن معجزه البلاغه،فهـذا الکتاب الحکیم ترکیب من هذه الأحرف التی لعلها تشیر الیه،و هی فی ذات الوقت رموز بین اللّه و أولیائه المقربین.

یس و قد ذکرت النصوص أنّها اسم من أسماء النبی(ص)

فقد روی عن الإمام أبو الحسن الرضا علیه السلام فی حوار بینه و بین الخلیفه العبّاسی المأمون أنّه قال:

أخبرونی عن قول اللّه تعالی: «یس وَ الْقُرْآنِ الْحَکِیمِ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ» فمن عنی بقوله(یس)؟قالت العلماء:یس محمد(ص)لم یشک فیه أحد.

قال أبو الحسن:فإنّ اللّه تعالی أعطی محمدا و آل محمد من ذلک فضلا لا یبلغ أحد کنه وصفه إلاّ من عقله،و ذلک أنّ اللّه عزّ و جلّ لم یسلّم علی أحد إلاّ علی الأنبیاء(صلوات اللّه علیهم)فقال تبارک و تعالی: «سَلاٰمٌ عَلیٰ نُوحٍ فِی الْعٰالَمِینَ» و قال:« سَلاٰمٌ عَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ »و قال:« سَلاٰمٌ عَلیٰ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ » و لم یقل:

سلام علی آل نوح،و لم یقل سلام علی آل إبراهیم،و لم یقل سلام علی آل موسی و هارون،و قال: سَلاٰمٌ عَلیٰ إِلْ یٰاسِینَ یعنی آل محمد(ص).

فقال المأمون:قد علمت أنّ فی معدن النبوه شرح هذا و بیانه (۱)

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۳۷۵).

و لعل معرفه الأحرف المتقطعه فى فواتح السور تعتبر مفاتيح لفهم أسرار كتاب اللّه.

[۲]القسم يربط-اعتباريا-بين حقيقه يرد التأكيد عليها،و حقيقه مؤكده فعلا،فإذا حلفت باللّه سبحانه على أنّك تفى بوعدك،فقد ربطت بين إيمانك باللّه كحقيقه ثابته،و بين الوفاء بالوعد تريد التأكيد عليه.

و إذا كانت هنالك صله حقيقيه بين أمرين،و كان أحدهما شاهد صدق على الثانى،فإنّ القسم يكون أبلغ و آكد،و لعل كلّ ما فى القرآن من حلف هو من هذا النوع.أ ليس القرآن كتاب حقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه؟و هكذا ينبغى البحث دائما عمّا يوصل بين طرفى القسم،و هو فى الأكثر صله الحجه و الشهاده.

و هنا يحلف الذكر بالقرآن الحكيم على رساله النبى.أو ليس القرآن أكبر شاهد على رسالته؟أو ليس المعجزه التى لا تفنى و لا تنتهى غرائبه،الجديد أبدا الذى يسبق الحياه دائما.

وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ترى أيّ صفه فى القرآن تجعله أكبر شاهد على الرساله؟هل هى بلاغته التى أخرست العرب الذين زهوا ببلاغتهم و سمّوا أنفسهم عربا لأنّهم أعربوا عمّا يختلج فى ضمائرهم؟ أم لأنّه جاء على يد نبىّ أمىّ ما عهد القراءه و الكتابه؟ أم لأنّه تنبّأ بالمستقبل فلما تحققت أنباؤه عرف الناس صدقه؟

ص:۹۲

أم لأنّه أنبت حضاره ربانيّه فى أرض الجاهليه العريقه؟ كل تلك الصفات شواهد صدق الرساله إلّا أنّ الصفه الأسمى للقرآن حكمته.

ما هى هذه الحكمه التى يحلف بها الربّ هنا ليستدل على أنّ محمدا(ص)من المرسلين؟ لا يزال«العلم»الشاهد العظيم عند كل الناس على صدق أو كذب أصحاب الدعوات الجديده،و القرآن فتح أمام البشريه و لا يزال آفاق المعرفه:

عرّفهم بربهم حتى وجده العارفون،و جالسه الذاكرون،و استأنس به المريدون.

عرّفهم بأنفسهم حتى بصروا عيوبها،و ميّزوا بين فجورها و تقواها،و اجتهدوا فى تزكيتها و تنميه المواهب فيها.

عرّفهم بالسنن الإلهيه فى الأمم الغابره حتى أخذوا بأسباب التقدم،و تمسّكوا بأهداب التكامل و الفلاح.

عرّفهم بمناهج المعرفه،و سبل السلام،و مفاتيح النجاح،و وسائل القرب الى اللّه.

فأيّ شهاده أكبر على صدق الرساله من ذات الرسالات،و على صدق الرسول من أنّه يحملها و يطبقها؟ و القرآن ليس فقط كتاب علم بل هو أيضا كتاب حكمه،و الحكمه-كما يبدو لى-العلم النافع الذى بلغ فى تكامله و نضجه مبلغا يجعله مؤثرا فى سلوك البشر،و مغيرا الحياه،و صانعا للحضاره.

ص:٩٣

دعنا نضرب مثلا:علم قياده السياره قد يكون نظريا،فهو مجرد علم،و قد يتحول الى مهاره عمليه.ألا يختلفان؟ (۱)و لكن أين الاختلاف؟إنّما فی أنّ دراسه قیاده السیاره فی معهد مرحله أوّلیه فی علم القیاده،أمّا إذا تدرّب الإنسان علیها بلغ العلم مرحلته النهائیه،و القرآن ذلک الکتاب الحکیم الذی یشفی الصدور،و یبعث الهمم،و یعطی البصائر،و یکمل العقل،و یضع الشرائع السلیمه،...فهو لیس علم الحیاه بل هو الحیاه.

[۳]الرساله حقیقه لا ینکرها إلاّ المعاندون،و قد أرسل اللّه أنبیاءه-علیهم السلام-حتی لم یکن إنکار الرساله أصلا یجدی أحدا نفعا،و لعل التعبیر القرآنی هنا یوحی بهذه الحقیقه إذ قال:

إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ فلست بدعا من الرسل،و إنّما أنت واحد من أولئک الکرام الذین بلّغوا عن اللّه،و أنت تصدقهم،و هم بشّروا بک... و هذا بدوره شهاده علی صدق الرسول.

[۴]و شهاده أخری علی ذلک أنّ الرسول علی الصراط المستقیم،استقامه النفس بالعقل،و استقامه السلوک بالشرع،و استقامه القول بالصدق،و استقامه العمل بالصلاح.

فإذا ضلّت المذاهب فی ربهم فإنّ الرسول یهدی الإنسان إلی اللّه بما یتفق مع الفطره و العقل،و حین یبلغ العبد معرفه الرب لا یبقی لدیه ریب فی صدق الرساله.

و إذا تطرّفت المذاهب فأهمل بعضها العقل و أهمل البعض البدن،فإنّ الرسول

---

۱ - ۲) اننا نستخدم کلمه العلم عاده فی الجانب النظری بینما نستخدم للجانب العملی کلمات مثل الفن و المهاره و التدریب و التقنیه.

على طريق مستقيم وسط،لم يهمل جانبا على حساب جانب.

و إذا كانت الأهواء تسيّر الناس ذات اليمين و ذات الشمال فإنّ ضغوط المجتمع و الإقتصاد و السياسه تتكسّر على صمود الرسول ثم تتلاشى أمام استقامته التى تحدّت إغراء الشمس و القمر.

إنّ استقامه رساله النبى و سلوكه تشهد على أنّه ينطق عن الوحى،و أنّه مؤيد بالغيب.

عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ [۵]بماذا أنزل اللّه الرساله؟و أىّ اسم يعكسه كتابه؟أو ليس الكتاب دليل صاحبه؟ القرآن تجلّ لاسم العزّه التى تعنى فيما تعنى المقدره و الهيمنه،كما لاسم الرحمه،لأنّ رحمه ربّنا اقتضت إنقاذ البشر من براثن الضلاله و الشرك.

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ و نستوحى من الآيه أنّ القرآن سيهزم المبادئ الباطله عاجلا أم آجلا، لأنّه تنزيل العزيز الذى يؤيد بعزته رسالاته،و يعكس هذا استمرار انتشار نور الإسلام فى الأرض بالرغم من كل العقبات التى يجعلها أمامه الطغاه.

[۶]أمّا هدف الرساله فهو إنذار قوم غافلين،ما أتاهم من قبل الرسول من نذير.

لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ

ص:۹۵

و قـد فسّـِر أغلب المفسـرين هذه الآيه بأنّ أولئك القوم لم ينذر آباؤهم من قبل،مما يخالف قوله سـبحانه:« وَ إِنْ مِنْ أَمَّةٍ إِلاّ خَلاٰ فِيهٰا نَذِيرٌ » (١)و هناك تفسير آخر يجعل حرف(ما)موصوله فيكون معناه تقريبا:«لتنذر قوما بما أنذر آباؤهم من العذاب».

و سواء أخـذنا بهـذا التفسـير أو ذاك فانّ من المعلوم أنّ قوم الرسول لم ينذروا منذ فتره طويله،فهم لم ينذروا من قبله،و نجد هذا المعنى فى آيه أخرى:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ » (٢)و لكن هل يعنى ذلك أنّهم لم ينذروا أبدا؟كلّا...

[٧]و يـذكر السياق بالتحـديات التى يواجههـا النبى-كسائر الرسل-فى طريق الـدعوه،فسوف لا يؤمن هؤلاء الناس،و سوف يقوم صراع مرير بينه و بينهم،و يسـتمر الصراع حتى يبتلى المؤمنون و حتى يأذن اللّه بالنصر المبين! لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ و هكذا لا ينبغى الخضوع للتيار الاجتماعى إذ عدم إيمان الأكثريه ليس دليلا على نقص فى حجج الرساله بل فى وعيهم.

و تعطينا الآيه دفعه معنويه لنمضى قدما فى حمل الدعوه دون أن نهن أمام رفض الأكثريه أو كفرهم بها.

[٨]و لكن لمـاذا لاـ يؤمن بها أكثرهم؟ لأنّ تراكم المعاصـى على قلوبهم،و علاقاتهم الاجتماعيه القائمه على الظلم و الاسـتبعاد،و تخلّفهم و انشدادهم الى عادات مجتمعهم و تقاليد آبائهم الضالين،كلّ

ص:٩٦

١- ٣) فاطر/(٢۴).

٢- ۴) سبأ/(۴۴).

أولئک تشکّل أغلالا فی أعناقهم.

إِنّا جَعَلْنا فِی أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً الشهوات غل،و عادات المجتمع أغلال،و التکبّر و الحسد و العصبيات أغلال.

فَهِیَ إِلَی الْأَذْقانِ لعل معناه:أنّ الأغلال عريضه بحيث تأخذ بمجامع أعناقهم و تبلغ الأذقان، و نستوحی من ذلک أنّ عبوديتهم شامله.

فَهُمْ مُقْمَحُونَ أ رأيت الفرس حينما يسحب لجامه کيف يرفع رأسه؟قالوا:إنّ ذلک هو المقمح،و هو لا يملک قدره الرؤيه،کما لا يستطيع الحرکه.

[۹]و يمضی السياق فی بيان شقاء هؤلاء الغافلين الذين سدّت منافذ عقولهم (لعله بسبب الأغلال المکبلين بها)فأمامهم سد و من خلفهم سد،و عيونهم محجوبه،فلا ينشطون للتحرک بسبب السدين،و لا هم يبصرون بأعينهم شيئا.

وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فلا يقدرون علی التقدم،و لا يمکنهم التراجع عن الغی،و هم قد أحيطوا بعقبات تصدهم عن السبيل بما اکتسبوا من آثام.

فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ لقد أحاطت بهم خطيئاتهم و غشيتهم فلا يبصرون أنّهم محاطون بالسدود،ذلک

أنّ الـذنوب التى يرتكبهـا الإنسـان تخلّف آثارها على الواقع الخارجى،و تتحول إلى سـدود أمام هـدايه البشـر و سـعادته.أ رأيت الـذى انتمى الى حزب كـافر،و عمـل مـن أجـل انتشـار مبـادئه الضـاله،و تربيـه جيـل مـن النـاس عليها.هـل يقـدر على الخلاـص منه؟!كلا...بل يضـحى مثله مثل دوده القزّ التى تصـنع الشرنقه ثم تموت فيها، و هكذا الذى أعان ظالما حتى سيطر على البلاد.إنّه يصبح أسير عمله،و كثيرا ما يسلّطه اللّه عليه،و يقتل بسيف البغى الذى سلّه على الناس.

و لعل السدّين هنا إشاره الى آثار الجرائم الخارجيه،بينما الأغلال تشـير الى الآثار النفسـيه لها،حيث يزين الشيطان للنفس أعمالها حتى تغدو ملكات يصعب تجاوزها.

أمّـا الغشـاوه فهى الظلمات التى تحيط بالقلب،فينطفئ فيه الضـمير،و يخبو نور العقل،و لا يحسّ البشـر أنّه واقع فى المهلكه،بل قد يزعم أنّه على صراط مستقيم.

[۱۰]و عنـد مـا تتراكم الأغلاـل الغليظه حول القلب الغافـل،و تحيـط بصـاحبه سـدود الجريمه،و تغشـاه ظلمـات الجهل،يصل إلى الدرك الأسفل فلا ينتفع بالإنذار و يكون مثل قلبه مثل جسم مريض لا يستجيب للدواء،فلا يرجى شفاؤه.

وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ إنّ هـذه العـاقبه السوء تنتظر كـلّ أولئـك الـذين يغفلون عن ربهم فيختطفهم الشيطان،و يسترسلون مع الأهواء و الظروف حتى تحيط بهم أغلال العاده العصبيه،و العزه بالإثم،و سدود النظام الفاسد اقتصاديا و سياسـيا و ثقافيـا، و تغشـاهم ظلمـات الجهـاله،و لاـ ينفعهم آنئـذ الإنـذار.و على البشـر أن يتجنّب الخطوه الأـولى الـتى تقوده الى الهاويه،لأنه كلما هبط أكثر كلما كانت جاذبيه الهاويه

ص:۹۸

أقوى.

[۱۱]و السبيل الى النجاه من الحلقات المتداخله للشقاء يمرّ عبر محاربه الجبت و جهاد الطاغوت،و بالتالى اتقاء الأغلال و السدود.

كيف؟ أوّلا:باتباع الذكر الذى هو القرآن الكريم،و ذلك بأن يكون قرار الإنسان مع نفسه إتباع الحق الذى يذكّر به الوحى و يعرفه العقل.

إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ و لعل استخدام لفظه الذكر هنا كان للإشاره الى مصدرى المعرفه:الوحى و العقل،اللذين ينتهيان- بالتالى-الى نور واحد،فالوحى يثير العقل،و العقل يصدّق الوحى،و الإنسان يتبع ذلك الذكر،و أولئك الذين عوّدوا أنفسهم على اتباع الحق هم الذين ينتفعون بالإنذار،لأنّ نظرتهم موضوعيه،و منهجهم الفكرى سليم، و لا يملكون حجابا يمنعهم عن فهم الحقائق.

ثانيا:بخشيه اللّه و رجاء رحمته،حتى يحاربوا بذلك جبت أنفسهم،و يفكّوا عن قلوبهم أغلال العصبيه و العناد و الكبر و العزه بالإثم.

إنّ خشيه اللّه تضىء فى القلب مصباحا يرى به الحقائق.أو ليست خشيه الناس أو خوف الفقر أو الحذر من الطبيعه تنكّس القلب،و تدع رؤيته مقلوبه؟ كذلك تضحى خشيه اللّه وسيله الهدى،لأنّ من يخشى ربه بالغيب لا يخاف شيئا.

وَ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ

ص:۹۹

لعل ذكر كلمه الرحمن هنا يهدف إيجاد حاله من التوازن بين الخشيه و الرجاء، فهو اللّه أرحم الراحمين و خشيته لا تبلغ درجه القنوط من رحمته،أنّى كثرت الخطايا و عظمت الذنوب.

فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ إنّ من أبعاد المغفره تجاوز آثار الذنوب فى الواقع الخارجى أو على النفس.إنّ السلطات الظالمه،و النظام الاقتصادى الفاسد،و الأنظمه الاجتماعيه المتخلفه كلّها من آثار الذنوب،و حين نتبع نهج اللّه،و نطيع أولياءه،فإنّ اللّه سبحانه ينصرنا على الطغاه و المترفين،و يسنّ لنا شرائع سمحاء قائمه على أسس العدل و الإحسان،كما ينزع من أفئدتنا حب الشهوات،و يعيننا على العادات السيئه.

إنّ المغفره بشرى عظيمه،فطوبى لمن غفر اللّه له ذنوبه،و هى تمهّد للأجر الكريم فى الدنيا بحياه فاضله تعمها السعاده و الفلاح،و برضوان اللّه و جناته فى الآخره.

[۱۲]إنّ أعظم إنذار يستجيب له المخبتون و لا ينتفع به الغافلون،هو النشور حيث يحيى اللّه بقدرته التى لا تحد الموتى جميعا،بعد أن سجّل عليهم للحساب أعمالهم التى فعلوها فى حياتهم و قدموها لتستقبلهم عند الموت،أو التى خلفوها وراءهم من سنه حسنه أو سنه سيئه.

إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتىٰ إنّه وعد صادق.

وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا

ص:۱۰۰

من أعمال صالحه تتجسد ثمّه جنات و حور عين،أو ذنوب تتجسد ثمّه نيرانا و حيّات.

وَ آثارَهُمْ فالصدقات الجاريه،و العلم الذى يهتدى به الناس، و الأولاد الصالحون،هى الروافد المستمره التى تنمّى حسنات المؤمن بعد موته،بينما كتب الضلال،و سنن الظلم و الانحراف،و التربيه الفاسده للأبناء،تلا حق الفاسق حتى بعد وفاته.

هكذا

روى عن النبى محمد(ص) :

«من سنّ سنّه حسنه كان له أجرها و أجر من عمل بها،من غير أن ينقص من أجر العامل شىء،و من سنّ سنه سيئه فعليه وزرها وزر من عمل بها » (۱)وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ ما هو ذاك الإمام الذى أحصى اللّه كلّ شىء فيه؟هل هو اللوح المحفوظ؟أم طائر كلّ شخص الذى ألزمه اللّه فى عنقه،و يلقاه يوم القيامه منشورا؟أم هو إمام الحق أو إمام الضلال اللذين يتبعهما الناس؟ لعل القرآن الحكيم يشير إلى كل ذلك و أكثر،إذ أنّ كلمات القرآن لا تتحدد فى إطار السياق فقط،بل تتجاوزها لبيان حقائق الخليقه،بلى.يكون ذكر هذه الحقيقه هنا و تلك هناك بمناسبه موضوعات السياق.

أمّا الحقيقه التى نستوحيها من الآيه فهى:إنّ لكل شىء إماما تتمثّل فيه

۱- ۵) تفسير الرازى/ج(۲۶)/ص(۴۶).

خصائصه بصوره متكامله،فالأنبياء و أوصياؤهم-أئمه الرشاد-تتمثل فيهم كلّ صفات الخير و الفضيله،بينما الفراعنه و الطغاه -أئمه الكفر-تتجسد فيهم كلّ صفات الرذيله و الشر.

و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن أئمه الهدى تفسير هذه الآيه الكريمه بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث روى عنه عليه السلام قوله :

«أنا و اللّه الإمام المبين،أبين الحقّ من الباطل،ورثته من رسول اللّه » (1).

ص:۱۰۲

۱- ۶) عن نور الثقلين/ج(۴)/ص(۳۷۹).

[سوره يس (٣۶): الآيات ١٣ الى ٣٢]

اشاره

وَ اِضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحٰابَ اَلْقَرْيَهِ إِذْ جٰاءَهَا اَلْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمُ اِثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمٰا فَعَزَّزْنٰا بِثٰالِثٍ فَقٰالُوا إِنّٰا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١۴) قٰالُوا مٰا أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا وَ مٰا أَنْزَلَ اَلرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ تَكْذِبُونَ (١۵) قٰالُوا رَبُّنٰا يَعْلَمُ إِنّٰا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١۶) وَ مٰا عَلَيْنٰا إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (١٧) قٰالُوا إِنّٰا تَطَيَّرْنٰا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ (١٨) قٰالُوا طٰائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَا اَلْمَدِينَهِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا قَوْمِ اِتَّبِعُوا اَلْمُرْسَلِينَ (٢٠) اِتَّبِعُوا مَنْ لاٰ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ اَلَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَهً إِنْ يُرِدْنِ اَلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاٰ تُغْنِ عَنِّي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٢۴) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢۵) قِيلَ اُدْخُلِ اَلْجَنَّهَ قٰالَ يٰا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢۶) بِمٰا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ اَلْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا كُنّٰا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَهً وٰاحِدَهً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ (٢٩) يٰا حَسْرَهً عَلَى اَلْعِبٰادِ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ اَلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلٌّ لَمّٰا جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ (٣٢)

اللغه

١٨ تَطَيَّرْنٰا :تشأمنا بواسطتكم فنخاف أن يصيبنا شؤمكم فنقع فى البلاء من طالعكم السيء.

ص:١٠٣

٣١[القرون]:الجيل و الأمه باعتبار تقارن أعمارهم.

ص:١٠٤

هدى من الآيات:

حين تتراكم حجب الغفله على الأفئده لا ينتفع أصحابها بالنذر،كذلك قال ربّنا آنفا،و هو الآن يضرب مثلا من أصحاب القريه التى جاءها المرسلون فلم يؤمن أغلبهم،بل قالوا:ما أنتم إلاّ بشر مثلنا،و لم ينفعهم أنّ اللّه يشهد على صدق الرسل،و أنّهم مسئولون عن موقفهم،و ليس النذر،و بالغوا فى التكذيب،إذ تطيّروا بالرسل،و تشاءموا من دعوتهم،و لكن الرسل استقاموا فى تحدّيهم لأولئك الجاهلين،بالرغم من توعّدهم بأنهم سوف يرجمونهم إن لم ينتهوا من دعوتهم، بأغلظ ما يمكن،فقال الرسل:إنّ تشؤّمهم إنّما هو من أنفسهم،و تهديدهم بالعذاب لا يلويهم عن تذكيرهم،و إنّه لدليل على توغّلهم فى الجريمه.

و هناك انتشرت الدعوه فجاء رجل من أقصى المدينه يسعى(لينذر قومه قبل ان يحلّ بهم العذاب لتكذيبهم الرسل)فنصح قومه إشفاقا عليهم باتباع المرسلين، الذين تدل على صدقهم حجتان:الأولى:أنهم لا يسألونهم أجرا،و الثانيه:أنّهم

مهتـدون،و ذكّرهـم بربهـم بـأبلغ صـوره.أو ليس هـو الـذى فطرهـم،فلمـا ذا ينكرونـه؟!أو ليس المرجع إليـه،فلـم لاـ يرجـونه أو يخافونه؟!أم يعتمدون على الآلهه التى لا تضـرّ و لا تنفع،و لا تمنع عذاب اللّه عنهم؟!إنّها الضـلاله الواضحه(ثم تحداهم بكل عزم و قال:)إنّى آمنت بربّكم فاسـمعون(لقـد أخـذ الرجل و عـذّب ثم قتل ثم أحرق،و لكنّ السـياق يتجاوز كلّ ما حـدث الى العاقبه فيقول:)قيل له:

ادخل الجنه(و بقى حنين هـذا الصّدّيق الى بعد استشـهاده،فتراه يقول و هو يدخل الجنه:) يَا لَيْتَ قَوْمِی يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِی رَبِّی وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُكْرَمِینَ .

بينات من الآيات:

[۱۳]قصه المرسلين الثلاثه الى قريه(أنطاكيه)التى جعلت قلب سوره (يس)التى هى بدورها قلب القرآن تتمثّل فيها الحقائق التاليه:

أولاـ:توجز مفصّ‌لات الصـراع الرسـالى مع الجـاهليه،حيث نرى فيهـا جانبـا من حوار الرسـل مع الأـمم الغـاويه،و حججهم البـالغه عليهم،و شبهات الكفار و ردود المرسلين عليها،و سائر فصول الصراع المعروفه،فهى-بالتالى-تجمع جمله الحقائق التى ذكّرت بها آيات الكتاب فى هذا الحقل.

ثانيا:تمثّلت فيها سنّه اللّه فى الإنذار،و عاده الجاهليين فى الإنكار،و اللتين ذكرت بهما آيات الدرس الآنف،و هكذا تكون القصه حجه على الحقائق التى بيّنها القرآن فى فاتحه السوره.

ثالثا:إنّ سوره يس تبيّن واقع الجاهليين العرب و هو قريب جـدا من واقع أصـحاب القريه(فى أنطاكيه)ذلك لقرب العهد الزمنى،و تشابه الرسالتين(رساله اللّه الى عيسى عليه السلام و رسالته لمحمد(ص))و هكذا وجب أن نستخلص منها العبره ربما

أكثر من أىّ قصه أخرى.

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا إنّ هذا المثل ينطبق على مثلهم،لأنهما من نوع واحد و حزب واحد.

أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ أين كانت هذه القريه،و من هم المرسلون إليها؟ قالوا:إنّها كانت أنطاكيه ثانيه حواضر الروم،و الواقعه اليوم فى تركيا على حدود سوريا(١٠٠ كيلومتر الى حلب تقريبا)و قريبه من ميناء الاسكندريه على البحر الأبيض(٦٠ كيلومتر تقريبا)و هى لا-زالت كبيره،إلاّ-أنّها فى ذلك اليوم كانت أكبر،و يحترمها المسيحيون لأنّ بولس و برنابا و آخرين زاروها.

أمّا قصه الرساله فلم يختلف المفسّرون فيها إلاّ فى بعض التفاصيل،و هى باختصار:

إنّ عيسى-عليه السلام-بعث اثنين من الحواريين الى تلك القريه بالرساله، فلما بلغاها وجدا فى أقصاها حبيب النجار فدعياه الى الرساله فآمن،و لما دخلا المدينه دعوا الناس فآمن بعضهم،و مرّ بهما الملك ذات يوم فكبّرا(و يبدو أنهما لم يجدا طريقا لدعوته غير ذلك)فحبسهما الملك،و بعث عيسى-عليه السلام- الرسول الثالث لتعزيز موقف الأوّلين (و لعله كان وصيّه شمعون)فتقرّب الى الملك حتى استخلصه فحدثه عن شأن الرسولين،و طلب منه أن يسمع منهما الحجه،فلما أظهرا حجتهما بإبراء الأكمه و إحياء الموتى(حيث أنّ ابن الملك أو ابن واحد من حاشيته كان قد مات قبل أسبوع فأحياه اللّه بدعائهما)آمن الملك و بعض قومه،

إلّا أنّ الغلبه كانت للمكذبين الذين أهلكهم اللّه بصيحه واحده.

و هكذا يرتفع الاختلاف الظاهر بين روايات التفسير التى تنتقل أنّ الملك آمن، و بين ظاهر الآيه التى تنبّأنا بهلاك أولئك القوم،ذلك أنّ إيمان الملك-حسب هذه الروايه التى نقلها الفخر الرازى-لم يؤثّر فى الطبقات المسرفه من قومه،فأنزل اللّه عليهم العذاب،و اللّه العالم.

[۱۴]و ليس المهم أن نعرف تفاصيل القصص القرآنيه،إنّما المهم أن نتدبّر فى الجوانب التى يخبرنا ربنا عنها،لأنّها هى التى تنفعنا،و تجرى علينا سنن اللّه فيها كما جرت على الأولين.

و هكذا كذّب أولئك الغافلون اثنين من المرسلين فعزّز اللّه دينه بالثالث.

إِذْ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ هل كانا رسولين من عند اللّه مباشره؟أم كانا من عند المسيح روح اللّه-عليه السلام-كما تروى التواريخ؟و إذا كيف يقول ربنا سبحانه:«أرسلنا»؟ ربما كانا نبيّن-كما هارون مع موسى،و يحيى مع عيسى-إلّا أنّ المفروض عليهما كان طاعه عيسى-عليه السلام-باعتباره من أولى العزم.

و لعل رسول عيسى-عليه السلام-يعتبر عند اللّه رسوله، لأنّ عيسى إنّما أرسلهما بإذن اللّه،أو ربما بأمر مباشر من اللّه،فهما بالتالى رسولان من عند اللّه.

فَكَذَّبُوهُمٰا بالرغم من أنّ البعض آمن بهما-كالصّدّيق حبيب النجار الذى جاء ينذر قومه

من أقصى المدينه-إلاّ أنّ الأغلب كان قد كذّب بالرسولين،لأنهم قد حقّ القول عليهم.

فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ لقد عزّز اللّه دينه الحق بالرسول الثالث،الذى قالوا:إنّه كان شمعون وصى عيسى.

فَقالُوا إِنّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ لا يتعرّض السياق لبيان الآيات التى تقول الروايات أنّها ظهرت على أيديهم، مثل إبراء الأكمه و إحياء الموتى،فهل لأنها لم تكن ضروريه،إذ أنّهم عرفوا صدقهم من خلال أقوالهم،و ما دعوا اليه من حقائق،و من خلال سلوكهم و استقامتهم؟أم لأنّ ظهور الآيات على أيدى الرسل كانت سنّه لا تحتاج الى مزيد بيان؟ لعل القوم كانوا مستبصرين فأغواهم الشيطان،و أنّ دعوه الرسل جاءت لتذكيرهم بالحقائق التى آمنوا بها من قبل فلم تكن بحاجه الى آيات جديده،و اللّه العالم.

[١٥]أمّا شبهه قومهم فكانت تتلخّص فى أنّه كيف يبعث اللّه بشيرا رسولا، و بالتالى لماذا نطيعكم و أنتم مثلنا؟ قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا ثم تمادوا فى الغىّ حيث لم ينكروا فقط رساله هؤلاء بل كفروا بكلّ رساله، و قالوا:

وَ مٰا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ لا رسالتكم و لا رساله غيركم.و هكذا ازدادوا كفرا و طغيانا،و لكن لماذا جيء باسم الرحمن هنا؟هل لأنّ الرسل ذكروا هذا الاسم و هم يبيّنون لهم أنّ ربهم لا يتركهم بلا رساله،لأنه واسع الرحمه شديد العطف،فقال الكفار كلاّ...ما أنزل الرحمن؟أم لأنّهم زعموا أنّ رحمه اللّه تأبى إنزال التكاليف الشاقّه عليهم بالرساله؟ يبدو أنّ الأوّل أقرب،فيكون جوابهم مضمرا فى حديث أنفسهم.

إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ تَكْذِبُونَ فلأن أصل الرساله مرفوض عندهم فإنّ دعوه الرسل تكون-بزعمهم-مجرد كذب،و لعل هذه الآيه تدلّ على أنّ الرسل كانوا ينطقون عن اللّه مباشره.

[۱۶]اللّه تعالى أكبر شاهد على صدق رسله.أ و لم يودع فى ضمير كلّ إنسان عقلا يهديه الى الحق؟أولا يظهر على أيدى رسله الآيات؟!أو لا ينصرهم؟أ فلا تدل استقامتهم على صدقهم،أنّهم واثقون تماما من أنّهم مرسلون و أنّهم لصادقون؟ قٰالُوا رَبُّنٰا يَعْلَمُ إِنّٰا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ و لكن لا يعنى تحمّلهم لمسؤوليه الرساله أنّهم مسئولون عن موقف الناس،إنّما جزاؤهم على ربّهم.

[۱۷] وَ مٰا عَلَيْنٰا إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ فإذا أبلغنا كم الرساله بوضوح تام فقد انتهى دورنا و بدأ دوركم.

و نستوحى من الآيه:أنّ البشر مسئول عن معرفه الهدى،و لا يحقّ له أن يبرّر

ص:۱۱۰

جرائمه بـأنه لم يكن مهتـديا للحـق،كلاّـ..إذا ظهرت دعـوه الى الحـق فعليـك أن تتفكّر من دون عصـبيه أو عزه،و ترى هـل هى صادقه أم لا.

[١٨]يغفى الجاهليّون على حرير التبريرات غارقين فى شهواتهم،فإذا جاءهم نذير و قدم لهم الوعيد بأنّ عاقبه غفلتهم الدمار،فإنّهم يتشاءمون منه،و يزعمون أنّه يكدرّ عليهم صـفو معيشتهم،فمثلهم مثل مريض،تفشّى فى جسده مرض السرطان،و هو لا يدرى،فإذا أخبره الطبيب و حذّره من مغبّه غفلته ثار عليه، و قال:إنّک منکّد،لماذا أنت سلبى؟ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ تشاءموا منهم،و زعموا أنّ بيان سلبياتهم،و الدعوه الى إصلاح الفاسد من حياتهم،هو سبب الإزعاج عندهم.

و احتمـل بعض المفسـرين أن يكون قـد نزل عليهم البلاـء عنـد بلاـغ الرسل،كما نزلت على فرعون و قومه آيات الـدم و السـنين و.و.،و يبدو أنّنا لسنا بحاجه الى مثل هذا الفرض.

لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ هكـذا بلغ عنـادهم أسـفل درک له حين هـدّدوا المرسـلين بالرجم لو لم يكفّوا عن دعوتهم،و سواء كان الرجم هو جراحـات اللسـان التى لاـ تلتئم،حيث توعّـدوهم بتلفيق التهم المختلفه و رجمهم بهـا،كعـاده الطغاه و المترفين دائما،أم كان معنى الرجم هو الرضخ بالحجاره حتى الموت،فإنّ ذلک دليل على هزيمتهم أمام حجه المرسلين فتوسّلوا بإرهابهم.

ص:١١١

وَ لَيَمَسَّنَّكَمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ و ماذا فوق الرجم(لو كان معناه الرضخ بالحجاره)من عذاب ذى ألم؟ لعلّهم هدّدوهم بالقتل بأبشع صوره.

[۱۹]و عكس جواب المرسلين سكينه الحق،و طمأنينه الثقه بنصر اللّه،إذ لم يهنوا و لم يحزنوا بل كشفوا لهم الحقائق دون لبس و من دون استخدام ألفاظ نابيه.

قٰالُوا طٰائِرُكُمْ مَعَكُمْ كان شؤمهم فى أنفسهم السلبيه،فى عنادهم،و تعصّبهم لباطلهم،و فى أعمالهم التى جرّت الويلات إليهم.أ رأيت الفيروس مستقر فى جسد المريض أم فى كلام الطبيب؟أو رأيت الذى ينهى أحدا من الوقوع فى بئر محفوره فى طريقه؟هل الخطر كامن فى نهيه أم فى غفله من يمشى؟ المجتمع الفاسد الذى يمشى على حرف الهاويه،و يهدّده السقوط فى أيّه لحظه، طائره المشؤوم إنّما هو طبقيته،و ظلم أفراده بعضهم البعض،و إسرافه،و ليس فى دعوه المنذرين.

أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ فإذا ذكّرتم بما يهدّدكم من أخطار،فهل هذا يسمّى طائرا عندكم؟! و قال المفسرون:إنّ هذه الكلمه بمثابه إجابه عن تهديدهم بالرجم و العذاب، أى:هل تعذّبوننا لأننا ذكّرناكم؟ و يبدو لى أنّ محور كلام الكفار هو التطيّر،و أنّ محور كلام الأنبياء هو الجواب

ص:۱۱۲

عن هذا التطيّر.

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ فإسرافكم هو السبب فى الشؤم الذى أصابكم،و لعل هذه الآيه تتشابه و قوله سبحانه:« وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا أُتْرِفُوا فِيهِ ». (۱)

و ذهب البعض الى أنّ الإسراف هنا بمعنى الإسراف فى الجريمه و الظلم،و أنّه يتصل بتهديد الرجم.

[۲۰]و هنا تدخل المسرح صوره جديده،هى انعكاس الرساله على قلب واع و نفس زكيه،ذلك الرجل المؤمن الذى وجد قومه أشرفوا على الهلاك بكفرهم، فسارع إليهم يحذّرهم مغبّه رفض الرساله.

وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَهِ رَجُلٌ يَسْعىٰ جاء فى الروايات أنّه الصّدّيق حبيب النجار،الذى بلغته الرساله بالرغم من أنّه كان فى أقصى المدينه،و بادر الى النصيحه مع أنّه كان-حسب الروايات- راعيا،و لعل كلمه« أَقْصَا الْمَدِينَهِ »تشير الى طبقته الدانيه عند أولئك القوم،كما تشير الى موقعه الجغرافى مما تدل على انتشار الرساله فى صفوف بعض المستضعفين، الذين بالرغم من انهم كانوا يعيشون فى أقاصى المدينه،و ليس فى أعاليها حملوا مشعل الرساله بكل قوّه.

و لعل تنكير كلمه الرجل للدلاله على اكتمال صفات الرجوله فيه من الهمه العاليه،و الحزم الشديد،و القول الثابت،كقوله سبحانه:

۱- ۱) هود/(۱۱۶).

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ».

و ربما سعى الرجل سعيا لاهتمامه البالغ بالإنذار،و حرصه الشديد على سلامه قومه،و هكذا يحرص أصحاب النفوس الطيبه على أمن الناس،و يتفانون فى إبلاغ رسالات اللّه لإنقاذهم من عذابه المحتوم.

قٰالَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ لقد كان الرجل منهم،و خاطبهم بما يتناسب و مقام النصيحه،إذ قال:

«يا قوم»،و كشف منذ البدء عن إيمانه حين أمرهم باتباع المرسلين.

و روى أنه كان واحدا من الصّدّيقين الثلاثه فى التاريخ،فلقد

جاء فى كتاب «الدر المنثور»:أخرج أبو داود و أبو نعيم و ابن عساكر و الديلمى عن أبى ليلى قال:

قال رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-:

الصّديقون ثلاثه:حبيب النجار(مؤمن آل ياسين)الذى قٰالَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ »،و حزقيل(مؤمن آل فرعون)الذى قال:« أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّهُ »،و على بن أبى طالب،و هو أفضلهم (1) [21]و مضى الصّدّيق حبيب النجار فى سرد حجج المرسلين قائلا:

اِتَّبِعُوا مَنْ لاٰ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً فلا يمكن أن يتهموا بالكذب ابتغاء الأجر،فهم ليسوا سحره و مشعوذين،و لا طلاب كراسى و سياسيين،و لا أصحاب ثروه و مترفين،فلما ذا يكذبون،و إنّما يفترى الكذب-خصوصا فى مثل هذه الدعاوى العظيمه-من يطلب أجرا من أىّ

۱- ۱) راجع تفسير الميزان/ج(۱۷)/ص(۸۳).

نوع كانت،و سيره الأنبياء كما نمط دعوتهم يشهد لهم بالنزاهه التامه.

وَ هُمْ مُهْتَدُونَ بلى.قد يدّعى البعض دعاوى كاذبه بجهل أو جنون،و حاشا رسل اللّه من ذلك،إنّ رصانه دعوتهم،و كمال عقولهم،و حسن سلوكهم و سيرتهم،و وضوح خطهم،و استقامتهم على الطريق برغم الصعاب،كلّ أولئك شواهد حكمتهم و أنّهم مهتدون.

ثم إنّ مبادره الرسول-أىّ رسول-بالعمل بما يدعو الناس اليه من مكارم الأخلاق،و حسن الفعال تشهد على صدقه.

[۲۲]ثم إنّ محتوى دعوه المرسلين شاهد صدق لهم، فهم يدعوننا الى اللّه الذى أخذ علينا ميثاقا فى عالم الذر بالايمان به،اللّه الذى أودع قلوب البشر فطره الإيمان به،اللّه الذى تابع نعمه علينا،و تأمرنا عقولنا بضروره شكره؟ إنّ دعوه الأنبياء ليست الى أنفسهم و لا الى عنصر أو حزب أو طائفه،إنّما هى الى اللّه الذى لا شك فيه،و الذى فطر الجميع على سواء.

وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إذا كانت هذه حقيقه رسالات النبيين فلما ذا نكفر بهم؟!و ماذا يملك من فقد ربه الذى خلقه و اليه المعاد؟! و هكذا نجد هذا الصّدّيق العظيم لم يدع فقط الى اتباع المرسلين،بل شارك فى الدعوه الى محتوى رسالاتهم،و هو التوحيد.

ص:۱۱۵

[۲۳]ثم ندّد بالشركاء المزعومين،و بيّن أنّ أساس عبادتهم باطل:

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً فاذا خضع لسلطه سياسيه أو اجتماعيه أو اقتصاديه من دون اللّه،فلكى تعطيه الأمن و السلام،و لكى توفّر له الحمايه من ذنوبه أمام غضب الرب،فهل تفعل الآلهه شيئا من ذلك؟!كلاّ...

إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاٰ تُغْنِ عَنِّى شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يُنْقِذُونِ فلا يخفف العذاب عنه بسبب عبادته للآلهه من دونه،بل ذات العباده جريمه نكراء يعاقب عليها اللّه،و لا تستطيع الآلهه إنقاذ المشرك منه.

[۲۴] إِنِّى إِذاً لَفِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ لو تركت عباده الفاطر الذى اليه النشور،و القاهر على عباده،الى عباده الآلهه التى لا تضر و لا تنفع.

و الضلال المبين هو:الضلال الواضح الذى لا ريب فى ضلالته.

[۲۵]ثم أعلن للملأ جبهته التى انتمى إليها،و تحدّاهم بإعلان براءته منهم، فقال:

إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ و لعله أبلغهم بذلك بعد أن رفض المعاندون قبول نصيحته،و هدّدوه بإنزال العقوبه عليه كما هدّدوا المرسلين من قبل،و لكنه استقام،و أمرهم بأن يسمعوا شهادته بوحدانيه الرب بلا لبس.

ص:۱۱۶

و لا ریب أنّ من الحجج البلیغه علی صحه الدعوه إیمان صاحبها الذی لا یتزلزل،و تحدیه العالم بها.

[۲۷-۲۶]و فعلا نفّذوا التهدید الأرعن بحقه،فوطئوه بأرجلهم حتی مات، حسب قول،و حسب قول آخر أنّهم رجموه حتی قتلوه.

فأدخله اللّه الجنه،و حینما همّ بدخولها تمنّی لو کان قومه معه:

قِیلَ ادْخُلِ الْجَنَّهَ قٰالَ یٰا لَیْتَ قَوْمِی یَعْلَمُونَ* بِمٰا غَفَرَ لِی رَبِّی وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُکْرَمِینَ

و جاء فی الحدیث عن الرسول(صلّی اللّه علیه و آله) أنه قال عن مؤمن یس:

«إنّه نصح لهم فی حیاته و بعد موته » (۱)و هکذا الشهداء یتمنّون لو یعادوا الی الدنیا لیخبروا أهلها بما للشهید من مغفره و کرامه.

[۲۸]مضی الصدیق حبیب النجار شهیدا الی ربه،و لم یلبث قومه الجبارون من بعده إلاّ قلیلا حتی أهلکهم اللّه،و لکن کیف تمّ هلاکهم؟ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمٰاءِ من الملائکه أو ما أشبه،و لعلّ ذکر«السماء»هنا للدلاله علی أنّ الأمر المهم کان ینزل من السماء.

وَ مٰا کُنّٰا مُنْزِلِینَ

۱- ۳) تفسیر نمونه/ج(۱۲)/ص(۳۵).

فمـا كان ينبغى لرب العزه أن يبعث جنـدا لمثل هـذا القوم.أليس قـد تحقّق الهـدف من دون ذلك؟ [۲۹]فبماذا تمّ هلاكهم؟إنّما بصيحه واحده جعلتهم-فى لحظه-كالرماد الخامد،لا حسّ و لا حركه و لا حراره.

إِنْ كانَتْ إِلّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ [۳۰]و يعقب السياق على هذه القصه التى لخّصت تجارب الرسالات تقريبا قائلا:

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ إنّها تستدعى الحسرات،حتى أنّ كلّ شخص يكون فى مثل هذا الموقع لا بد أن يتحسّر،أنّ اللّه خلق عباده ليرحمهم،و أكرمهم بالإراده و الحريه،فاختاروا طريق الهلاک،فبعث إليهم الرسل لينـذرهم من مغبّه أعمالهم،و لكنهم استهزءوا بهم، و عرّضوا أنفسهم للهلاک الذى يجرّ الحسرات.كيف ضيّعوا فرصتهم الأخيره بالاستهزاء؟!و كيف أصبحوا و قود جهنم،و كان من المرتقب أن يكونوا ضيوف الرحمن فى الجنه؟! ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ و لعل الاستهزاء هو أشدّ ألوان الكفر،و أبعد سبل الضلاله،حيث يعيش صاحبه حاله العبثيه و اللاّهتمام،و مثله فى هـذا المقام مثل الطبيب الـذى ينصح المريض بالدواء،و يحذّره من الهلاک،فبدل أن يشكره المريض،و يبادر الى تنفيذ أوامره تراه يضحک منه.أو ليس مثل هـذا الرجل يستدعى الإشفاق و الحسرات؟!

[۳۱]و هم يغفلون عن مصير الغابرين الذين أهلكهم اللّه بكفرهم و استهزائهم، و لم يبق منهم سوى العبره.

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ و أعظم ما فى الغابرين من أسباب الموعظه أنّهم قد ضيّعوا فرصتهم الوحيده، و أنّهم لا يرجعون أبدا إلى أهلهم.

أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ ألا نقف على أطلالهم،و نتساءل:أين الذين عمّروها و عاشوا فى ظلّها،و هل يعودون يوما ليروا آثار الدمار الذى لحق ببلادهم،أو ليخبرونا ماذا كان مصيرهم؟ كلاّ...

[۳۲]بلى.سوف يجتمع الناس كلّهم فى يوم الحسره ليحاسبوا حسابا عسيرا، ثم ليجازوا جزاء وافيا.

وَ إِنْ كُلٌّ لَمّٰا جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ قالوا:إنّ حرف«و إن»هنا أصلها إنّ بالتشديد،و إنّ كلمه«لمّا»جاءت للتأكيد،و هكذا يكون التأكيد يتبع التأكيد:«إن»للتأكيد،و«كلّ»تفيد معنى التأكيد أيضا،و«لمّا»و الجميع تأكيد أيضا.

و قال البعض:«إن»نافيه و«لمّا»بمعنى إلاّ،كما يقول القائل:نشدتك باللّه لما فعلت،أى إلاّ فعلت.

و يجوز أن يكون معنى«لمّا»هو التوقّع،و فيه معنى النفى أيضا،أى لم يقع

حتی الآن و سوف یقع.

و کلمه أخیره:

تقول آخر الدراسات التی بحثت عوامل نشوء الحرب العالمیتین: إنّ البشریه- انساقت إلیها انسیاقا،فلا أحد من القاده المتحاربین کان یریدها حربا مدمره لا تبقی و لا تذر،و لکنّهم کمن ینحشر فی الزحام یدفع و یدفع و لا یجد سبیلا للخلاص،انحشروا فیها بلا إراده و وعی.

کذلک حین تتراکم سلبیات الأمم تتفجر فی صور شتی،منها:الحروب التی یجازی اللّه بها العباد.أو لم یقل ربنا سبحانه:« قُلْ هُوَ الْقٰادِرُ عَلیٰ أَنْ یَبْعَثَ عَلَیْکُمْ عَذٰاباً مِنْ فَوْقِکُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِکُمْ أَوْ یَلْبِسَکُمْ شِیَعاً وَ یُذِیقَ بَعْضَکُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » (1).

و هکذا تلاشت قوه هتلر و الیابان،و تأخّرت أوروبا حتی أضحت القوه الثالثه.لماذا؟ للجرائم التی ارتکبت بشأن الإنسانیه،و للانحراف الکبیر عن سنن اللّه التی لا تتغیّر.

و الیوم کیف یذر الرب العزیز الحکیم هذه الجرائم ترتکب بحق خلقه؟!هذا الظلم العریض،و هذا الاستضعاف الشامل،مئات الملایین من خلق اللّه یظلمهم حفنه من المستکبرین،فهل یهمل اللّه عباده؟! کلّا...و لکنه یملی لهم إنّ کیده متین،فإن لم یرجعوا عن غیّهم،و یعتبروا

1- 4) الانعام/(65).

بمصـير القرون التى كـانت من قبلهم-كيف أهلكهم اللّه فلم يرجع منهم أحـد أبـدا -فإنّ ترسانـات الأسـلحه لا بـد أن تثور يوما لتصب الحمم على رؤوس صانعهـا و الساكتين عنهم من الناس،أو يخسف اللّه بهم الأرض،أو يسـقط عليهم من السـماء كسـفا،أو ينشر فيهم وباء كوباء الايدز فلا يستطيعون ردّه.

إذا علينا جميعا أن نعى رساله ربنا العزيز الرحيم،و نأخذ إنذاره مأخذ الجدّ، و الاّ فساعه الجزاء رهيبه،و لا ينفع يومئذ الندم،كما لا تنفع التوبه شيئا.

ص:١٢١

[سوره یس (۳۶): الآیات ۳۳ الی ۴۴]

اشاره

وَ آيَةٌ لَهُمُ اَلْأَرْضُ اَلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (۳۳) وَ جَعَلْنٰا فِيهٰا جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ وَ فَجَّرْنٰا فِيهٰا مِنَ اَلْعُيُونِ (۳۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ (۳۵) سُبْحٰانَ اَلَّذِي خَلَقَ اَلْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا مِمّٰا تُنْبِتُ اَلْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّٰا لاٰ يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ آيَةٌ لَهُمُ اَللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ اَلنَّهٰارَ فَإِذٰا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ اَلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ اَلْعَزِيزِ اَلْعَلِيمِ (۳۸) وَ اَلْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ حَتّٰى عٰادَ كَالْعُرْجُونِ اَلْقَدِيمِ (۳۹) لاَ اَلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰا أَنْ تُدْرِكَ اَلْقَمَرَ وَ لاَ اَللَّيْلُ سٰابِقُ اَلنَّهٰارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۴۰) وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنّٰا حَمَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي اَلْفُلْكِ اَلْمَشْحُونِ (۴۱) وَ خَلَقْنٰا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مٰا يَرْكَبُونَ (۴۲) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاٰ صَرِيخَ لَهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْقَذُونَ (۴۳) إِلاّٰ رَحْمَةً مِنّٰا وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ (۴۴)

اللغه

۳۹[کالعرجون القدیم]:العرجون هو العذق الیابس المقوس.

ص:۱۲۲

ذٰلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ

هدی من الآیات:

بعد أن تهیّأت النفوس الطیبه،لتلقّی آیات اللّه،و ذلک بذکر العاقبه السوءی التی تعرّض لها أصحاب القلوب المغلقه،یشرع القرآن بالتذکیر باللّه عبر آیاته، و أوّلها آیه الحیاه التی یبثها الربّ فی الأرض المیته(کما یحیی بالرساله القلوب) و یخرج منها الحب(الذی یشکل أعظم طعام البشر)کما یجعل فیها جنات ذات أشجار النخیل(المتنوعه الفوائد)و کروم العنب(الذی هو من الثمرات المفیده کما التمر)و فجّر اللّه الأرض عیونا تجری بالبرکات،و الأهداف الثلاثه منها هی:أن یستفید منها البشر رزقا،و لیصنع فیها ما یشاء من حاجاته،و لکی یشکر ربّه.

(و بعد آیه الحیاه)یذکّرنا الربّ بآیاته-سبحانه-فی الخلیقه،و من أروعها آیه الزوجیه التی تشمل البشر و الأحیاء و غیرهما(مما تدلنا علی أنّ ربنا منزّه عن الحاجه).

(و من طعام البشر و نظام حياته القائم على أساس التزاوج،الى بيان آيات ربنا فى الآفاق)هذا الليل كيف يسلخ منه النهار(مما يدل على أنّ أوّل ما خلقه اللّه هو النهار،ثم سلخه فكان الليل)فإذا هم مظلمون.

و الشمس(التى هى محور منظومتنا)تجرى بسهوله و يسر(و لكن ضمن خطه مرسومه،و الى نهايه معلومه تستقر عندها)ذلك تقدير العزيز العليم(الذى رسم للشمس مدارها بعلمه،و سخّرها بعزته).

أمّا القمر فقد قدّره اللّه أيضا(كما قدّر الشمس)ضمن منازل يجرى عبرها يوميا حتى عاد فى نهايه الشهر كما العرجون القديم،ذابلا مصفرّا.

و كلّما تعمّقنا فى الخليقه ظهرت آثار التقدير و التدبير أكثر فأكثر،فلا الشمس يجوز لها أن تسارع حتى تكون كالقمر فى سرعه حركته(فإنّ مدار الشمس سنوى و مدار القمر شهرى)و لا الليل(الذى يحتوى القمر عاده)يسبق النهار،و يتجاوز حدوده،بل كلّ جرم يسير بسرعه معينه فى مداره المرسوم له.

(و هكذا يستطيع البشر أن يطمئنّ الى النظام المحيط به،و أن ينظّم حياته وفقه بدقّه متناهيه،و أن يبنى حضارته على هذا الأساس).

و هناك نعمه أخرى ضروريه لسعاده الإنسان و حضارته،هى نعمه السفن التى هى آيه إلهيه.إنّها لآيه تهدينا الى ربنا،و تعرّفنا بعزّته و رحمته،فهى تمخر فى البحار،و تحمل الناس و البضائع الكثيره،أمّا فى البر فقد خلق اللّه لنا الأنعام التى تشبه السفن.

(و ليس تسخير السفن أو الانعام من صنع البشر،لأنّه إذا لم يهىء اللّه الأمور للاستفاده منها فلن يقدر البشر على ذلك)و دليل ذلك أنّه:لو أراد اللّه إغراقهم

فهل يغيثهم أحد أو يقدر على إنقاذهم؟كلّا...

بينات من الآيات:

[۳۳]لأنّ القلب الغافل كالصخره الصماء لا يتنفع بالآيات شيئا،فإنّ المنهج السليم هو إنذاره بتنبيهه،و ذلك أوّلا:ببيان عاقبه الغفله،و ثانيا:بتخويفه بمصير الغابرين الرهيب،و ثالثا:بتصوير مشهد من العذاب الأليم الذى ينتظره...كذلك ابتدأت سوره يس بإنذار مبين،مما خشعت به القلوب الطيبه و تهيّأت لاستقبال نور الإيمان الذى تحمله آيات اللّه فى النفس و فى الخليقه.

و أولى الآيات هى هذه الحياه التى يبعثها الرب فى الأرض الميته،و هى شبيهه بحياه الإيمان التى ينفخها القرآن بالتذكره بآيات اللّه.

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا موت الأرض منها،و لكنّ حياتها من اللّه،كذلك الغفله من الإنسان بيد أنّ إيمانه باللّه.

و الحياه أروع ما نشاهده فى الطبيعه،إنّنا نحبها لأنّنا أحياء بها و لا نرضى بمفارقه الحياه،و إنّنا نكرمها و نعظمها لما فيها من آيات القدره و الجمال.

و يذكرنا الربّ بالحياه التى يبعثها فى الأرض الميته لعلنا نزداد معرفه بقدره ربنا على إحيائنا مره أخرى للحساب و الجزاء.

وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ أو ليس الحبّ أكثر طعام أهل العالم،و زراعه القمح تعتمد على المطر أكثر من

أيّ زراعه أخرى؟ [٣۴]و من آيات اللّه الأشجار التى تظلّل الأرض،و من الأشجار التى يستفيد منها البشر-و بالذات فى المحيط العربى-النخيل،التى تدخل فى صناعه الأدوات المنزليه،كما و يبنى بها البيوت،و يتخذ من ثمرتها طعاما و إداما و سكرا،و يحتفظ بها من أيام ينعها إلى سائر أيّام السنه،و تهدى من بلد الى بلد، و هى فى ذات الوقت أفضل طعام للإنسان،لأنّ فيها أكثر ما يحتاجه الجسد من مواد،حتى روى انها بمثابه عمّه الإنسان،

فعن الرسول الأعظم(ص)قال :

«أكرموا عمتكم النخله » وَ جَعَلْنا فِيها جَنّاتٍ إنّ الأشجار يحتاج بعضها الى بعضها،و لعله لذلك تذكر بصوره مجموعه «جنات»و قد وفّر اللّه لتنميه الأشجار مئات السنن الطبيعيه،من خصوبه الأرض الى حراره الجو الى وجود الماء و اعتدال الرياح و الأمطار و.و.،و هكذا نسب اللّه جعل البساتين الى نفسه.

مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ و العنب-كما التمر-يحفظ لغير موسمه فى صوره زبيب،و هو ذو فوائد غذائيه كبيره،و لعل عدم ذكر الكرم لقله فائدته بالقياس الى النحيل،و التقارن بين النخيل ذات الارتفاع الكبير،و الكرم الذى هو زرع يثير الإعجاب.كيف أنّ اللّه يصنع من هذه ثمرا و من ذاك عنبا،و هما متشابهان بالرغم من اختلاف أصلهما، فهذه شجره باسقه و ذاك زرع مفروش على الأرض أو على ما يعرشون.

ص:١٢٧

وَ فَجَّرْنٰا فِيهٰا مِنَ الْعُيُونِ أو لا- ينظرون الى شبكه القنوات المنتظمه تحت الأرض،و الأحواض التى تجتمع إليها مياه القنوات؟!ثم اختلاف المستويات على الأرض،مما يساعد على تفجّر العيون من الأرض لترويها،و يبعث منظرها الخلاّب الى معرفه الرب و شكره.

[۳۵]إنّ التناسق بين حاجات البشر و صنع اللّه فى الطبيعه دليل دقّه التقدير، و حسن التدبير،فالبشر بحاجه الى رزق يأتيه رغدا،و الى هامش من الحريه يستفيد منها فى تنويع مصادر غذائه و إظهار إبداعه و فنّه،كما يحتاج الى تنميه وعيه و معرفته،و السكينه النفسيه...و كل تلك الحاجات متكامله فى الجنات و العيون.

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ فيقضوا حاجاتهم الماديه الى الطعام.

وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ من تنويع فى الطعام،و الاستفاده من الماء و الأشجار فى بناء البيوت و أدوات المنزل.

أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ فتطمئن نفوسهم بمعرفه الرب و حبّه و الثقه به،مما يعتبر غذاء أساسيا لروحهم و عقولهم و إرادتهم،و هى أعظم من أجسامهم.

[۳۶]و من الطعام و الحاجات الأقرب الى حياه البشر ينساب السياق الى أبرز

ص:۱۲۸

وجوه الحاجه فى الخليقه،فالناس و الحيوانات و سائر الأشياء خلقت أزواجا بحيث يحتاج بعضها الى بعض،لنعرف أنّها مخلوقه مدبّر أمرها،و نعلم-بالتالى-أنّ خالقها مقدّس عن الحاجه،فهو الربّ السبحان الذى خلق الأزواج كلّها لتكون آيه تعاليه عن العجز.

سُبْحٰانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا و هكذا كلّما فى الطبيعه من عناصر و نقاط ضعف شاهده على حاجتها الى خالق مدبّر،أو ليس الضعيف لا يخلق نفسه،و لا يدبّر أمره؟!و لو خلق نفسه لأكملها، و لو دبّرها لأغناها،و لكنّ اللّه-سبحانه-أركز الخلائق فى الضعف،و أحوجها الى بعضها،لتشهد بأنّ خالقها غنى مقتدر،و لو افترضنا فى خالقها ضعفا لرجع الخالق مخلوقا،و لصدق فيه ما صدق فى سائر المخلوقات من الحاجه الى مدبّر أعلى منه.

و هكذا افتتحت الآيه بتسبيح اللّه،لأنها تذكّرنا بعجز المخلوقات،بينما الآيات السابقه كانت تذكّرنا بآيات القوه فيها.

و سبحان-كما قالوا-علم دال على التسبيح،و تقديره سبّح تسبيح الذى خلق الأزواج.

مِمّٰا تُنْبِتُ الْأَرْضُ فقد خلق النباتات أزواجا،منها ما كانت معروفه لدى نزول القرآن،و منها ما كشفه تقدّم العلم اليوم من أنّ فى كل النباتات ذكرا و أنثى،و أنّه قد يتم تلاقحهما بفعل البشر-كما يتم تلقيح النخيل مثلا-و قد تلقّحهما الرياح أو النحل أو ما أشبه.

ص:١٢٩

وَ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ حيث الحاجه الى الزوج عميقه الجذور فى النفس و فى الجسم،و هى تعكس ضعف البشر حيث لا يكتمل الواحد إلاّ بكفئه،حتى و لو طغى فى الأرض فإنه يعيش محتاجا الى زوجه،و قد تجمح به الرغبه حتى تفقد صوابه،و قد قال نابليون-الذى طغى فى الأرض-مره لولده:أنت تحكم العالم،قال:و كيف؟قال:لأنّك تحكم أمّك و أمّك تحكمنى.

و كم يروى التاريخ لنا قصصا عن الجبابره الذين كانوا يركعون أمام نسائهم.

أو ليس ذلك دليل ضعفهم،و أنّهم ليسوا آلهه كما يزعمون؟!و هذا فرعون يربّى عدوّه فى بيته-بالرغم من تخوّفه منه-لأن زوجته طلبت منه ذلك فانقاد لها، و ثبت للعالم أنّ من يزعم أنّه الرب الأعلى تحكمه زوجته.

وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ فحتى الموجودات الأخرى يكمّل بعضها بعضا،ابتداء من الذره المتناهيه فى الصغر-التى تتركب من بروتون و إلكترون-و حتى المجرات المتناهيه فى الاتساع.

و لا يزال علم البشر دون مستوى معرفه كلّ خصائص الزوجيه.

و كلما تعمّقنا فى معرفه حاجه الأزواج الى بعضهم كلما عرفنا دقه التدبير، و سلامه النظم،و قوه الهيمنه على الخليقه،و بالتالى كانت لدينا فرصه معرفه ربنا أكثر فأكثر.

[٣٧]دعونا ننظر الى هذا الأفق العريض الذى يتسع أمامنا بلا حدود نعرفها،

لا ـ لکی نخشی من آیاته،و لا ـ لکی نتمّع بجمال ما فیه،و لکن لنزداد وعیا به و من خلاله بأنفسنا،فهذا اللیل یلبسه ربنا الحکیم ثیاب النهار بما یسبغ علیه من ضوء الشمس و دفئها و حرکتها،ثم یسلخه منه فیعود کما کان،مظلما هادئا إلاّ من رواسب النهار.إنّ فی ذلک لآیه،دعونا نبصرها.

وَ آیَهٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ تعالوا ننظر هذه المره الی اللیل حین الغروب کما ننظر الی الذبیحه حین یسلخ جلدها،لنبصر ید القدره الإلهیه کیف تفعل ذلک بلطف و بإتقان و بنظام دقیق.

[۳۸]و آیه النهار هی هذه الکره الناریه الملتهبه التی نسمّیها بالشمس،و التی هی أکبر من بنتها الأرض،ملیون و مائتی ألف مره.کیف تجری فی السماء بیسر و بدقه،فی حرکه مستقیمه نحو مستقرّها النهائی،عند نجمه(وغا)البعیده و تستقرّ فی یوم حیث تکوّر،ثم یلقی بها فی جهنم فتصرخ من حرّها.

وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها من الذی سخّرها و سیّرها فی سبیلها المحدّد لا تتخطّی بوصه واحده؟!إنّه اللّه المهیمن بعزّته علی الخلیقه،و المدبّر بعلمه أمورها بدقه.

ذلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ [۳۹]أمّا القمر الذی یدور فی فلکه من منزل لمنزل،بدقه متناهیه تجعل علماء الهیئه یعرفون مسیرته حتی بعد مأه ألف عام،فهو آیه اللیل التی تجعلنا نزداد إیمانا بسلطان ربنا.

وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ

لعل هذه المنازل هی المحطات الیومیه التی یکبر ثم یصغر القمر عندها فی کل لیله،منذ ولادته هلالا حتی تغیّبه فی المحاق.

حَتّٰی عٰادَ کَالْعُرْجُونِ الْقَدِیمِ هل اثار انتباهک یوما بقیه عرجون علی النخل،بعد أن قطف ثمره،و بقی أصله فی أعلی النخل مصفرّا ذابلا؟کذلک منظر القمر فی أخریات اللیل عند نهایه الشهر.

إنّ حرکه الشمس و القمر المتناهیه فی وقتها حتی أنّها لو حسبت بجزء من ملیون جزء من الثانیه لما وجدت فیها اختلافا،إنّها لآیه النظام العجیب الذی یجری علیه هذا الکون،و القدره الإلهیه التی تضبطها،و هو فی ذات الوقت دلیلنا الی ضبط الوقت و تحدید الزمن.

و الزمن هو أعظم مقیاس لحضاره الإنسان،فکلّما زاد ضبطه و احترامه کلّما تقدّم البشر فی حقول المدنیّه.

[۴۰]و ثبات نظم الموجودات دلیل هیمنه الربّ العزیز،فهذه الشمس تجری فی بروجها الإثنی عشر کلّ عام مره(علی أنّ الذی یجری هو کوکب الأرض فی الحقیقه،إلا أنّ ذلک هو ما یتراءی لنا،و نعبّر عنه بالتالی حسب ما نری فنقول:

طلعت الشمس و غربت و زالت،و إنّما أرضنا هی التی تدور علیها).

لاَ الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَهٰا أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ فالقمر یدور فی منازله کل شهر مره،بینما الشمس کلّ سنه مره،و لا ینبغی للشمس أن تتسارع سرعه القمر فتتری علینا الفصول الأربعه فی شهر واحد.

ص:۱۳۲

وَ لاَ اللَّيْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ فلا تدخل ساعات الليل فى النهار،حتى يتقلّص النهار،إلاّ بقدر و حسب نظام ثابت منذ ملايين السنين،و هكذا تكون حركه الشمس من المشرق الى المغرب ثابته.

و لعل الآيه أشارت أوّلا الى ثبات نظام الدوره السنويه للشمس،ثم أشارت الى ثبات نظام الليل و النهار.

وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ كل من الشمس و القمر و الكواكب و النجوم تتحرك بسرعه فى أفلاكها،و لكن دون أن تحيد عن النظام القائم قيد شعره.أو ليس فى ذلک دليلا على عزه الرب، و دقه صنعه،و حسن تدبيره،و لطف إجرائه للسنن التى قدّرها؟! و الفلك هو الجسم الدائرى،و هكذا تكون فى الآيه إشاره الى الحركه الدائريه للأجرام السماويه.

و إذا أخذنا الشمس مثلا لهذه الأجرام نجدها تتحرك فى أفلاک مختلفه،فهى تدور حول نفسها كلّ خمسه و عشرين يوما دوره واحده،و تدور مع سائر كواكب المجره التى هى فيها بسرعه مليون و مائه و ثلاثين ألف كيلومترا تقريبا فى الساعه الواحده،و هى تجرى فى ذات الوقت نحو مستقرها بسرعه اثنين و سبعين ألف و اربعمائه كيلومترا فى الساعه الواحده،و فى ذات الوقت تدور اقمارها حولها بنظام ثابت و دقيق،و تتحرّک سائر الأجرام فى هذا الفضاء الرحيب،كلّ فى فلک دون أن يصطدم الواحد بالآخر.أ فلا يهدينا ذلک كلّه الى ربنا العزيز الرحيم؟!

ص:۱۳۳

و هكذا دبّر اللّه شؤون مملكته العظيمه،أحيا الأرض بالغيث و رزق الإنسان منها،و نظم شؤونه بثبات نظام الأرض و الشمس و القمر،و أعطى للإنسان فرصه التكامل عبر النظام الذى هو ركيزه أساسيه من ركائز الحضاره.

[۴۱]و يذكّرنا السياق بالركيزه الثانيه،و هى وسائل النقل،فلو لا قدره البشر على الانتقال بنفسه و ببضاعته لما استطاع أن يبنى حضاره،و أعظم وسائل النقل هى السفن،فمن أقدم العصور و حتى اليوم كان متن الماء صهوه السفن المختلفه التى حملت الإنسان و المواد أكثر من جميع الوسائل الأخرى،و لا تزال السفن أفضل الوسائل و أرخصها و أكثرها شيوعا،و لذلك لا بد أن تكون للدوله المستقله منافذ على البحر،و الدول المهدده التى لا تملك مثل ذلك تعانى الكثير من الصعاب.

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنّٰا حَمَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ إنّ اللّه-و ليس الإنسان-سخّر الفلك لحمل البشر عبر المحيطات.و لعل كلمه«ذريتهم»تعنى أمثالهم و نظائرهم،ذلك لأنّه ليس كلّ الناس يركبون السفن،و قال البعض:إنّ معناها أطفالهم،لأنّ الطفل رمز الحنان،و حمله فى السفينه يعكس منتهى رحمه اللّه بالإنسان،على أنّه كان من الصعب على الأطفال ركوب الأنعام.

و أكّد السياق على أنّ السفينه مملوءه بالبضائع،لأنّ الفلك المشحون أقرب الى الغرق لثقله،و أظهر دلاله على نعمه اللّه حيث حمل الإنسان و حاجاته مره واحده.

[۴۲]و خلق اللّه للإنسان ما يشبه السفينه من الدواب التى تحمله من بلد لبلد.

وَ خَلَقْنٰا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مٰا يَرْكَبُونَ

من الـذى خلق الأنعـام،و سخّرها لنا؟أو ليس اللّه؟!فلما ذا الكفر به، و التمرّد على سلطانه؟! [۴۳]إنّ العوامل الغيبيه التى تؤثّر فى الظواهر الماديه تفقد الإنسان قدره الدفاع عن نفسه،فلا تزال أمواج البحار تبتلع المزيد من ضحايا العواصف الهوج، و لا تزال حوادث مثل انفجار تشيلنجر التى سماها صانعوها ب(التحدى)تذكّر الإنسان بأنّ قدرته محدوده و هى مستمده من اللّه،و انه إذا غضب اللّه عليه فلا أحد بقادر على أن ينقذه.

إنّـك إذا ذهبت الى مكتب من مكاتب التأمين فى كالفورنيا فى أمريكا،و طلبت منهم التأمين ضد كل الاخطار،فإنّهم يقولون:بلى.و لكن إذا ابتلع البحر هذه الولايه-كما يتوقع بعض علماء الجيولوجيا-فإنّنا و إياكم سوف نكون معا ضحايا تلك الزلازل.

وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاٰ صَرِيخَ لَهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْقَذُونَ و لعل قاع البحر الميت فى أرض فلسطين ينطوى على بعض آثار قوم لوط الـذين انقلبت قراهم بفعل حركه بسيطه لجناح جبرائيل-عليه السلام-فمن يقدر على أن يغيث مثل هؤلاء غير رحمه اللّه؟! و قبل أيّام حينما احترقت مساحات شاسعه من غابات الصين،لم تستطع إخمادها الوسائل البشريه،و إنّما أطفأها هطول الأمطار الطبيعيه.

لا أحد يغيث من غضب اللّه عليه،و ليس من الممكن إنقاذهم حتى و لو وجد من يهرع لإنقاذهم.

[۴۴]بلی.رحمه اللّه التی تتجلّی عند الکوارث،و تنقذ البعض بصوره عجیبه، هی الملجأ الوحید عند غضب الجبار.

إِلاّٰ رَحْمَهً مِنّٰا و عاده ما نجد بقایا لکوارث طبیعیه أنقذت بما نسمیه(الصدفه)فسیاره کبیره تنقلب،و یموت جمیع رکابها،غیر طفل رضیع،أو سفینه ضخمه تغرق،و لا ینقذ منها إلاّ رجال معدودون،یتعلّقون بخشبه،أو یبتلع زلزال قریه،و لکن عجوزه خاویه تستخرج من تحت الأنقاض بعد عشره أیّام سالمه،و حتی عند هلاک ثمود و عاد و قوم لوط و قوم نوح،بقی الرجال الصالحون یروون لنا تلک المثلات،و لیکونوا شهودا علی أنّ الأمور بید اللّه.

وَ مَتٰاعاً إِلیٰ حِینٍ الذین أنقذوا من هذه الحادثه لیسوا أنصاف آلهه،بل إنّما تأخّرت آجالهم لحین،فإذا جاء أجلهم فإن أبسط الأسباب کفیل بهلاکهم.

ص:۱۳۶

[سوره يس (۳۶): الآيات ۴۵ الى ۵۹]

اشاره

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اِتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ
(۴۶) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اَللّهُ قالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اَللّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ
(۴۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) ما يَنْظُرُونَ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلا يَسْتَطِيعُونَ
تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰) وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ اَلْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ
مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ اَلرَّحْمنُ وَ صَدَقَ اَلْمُرْسَلُونَ (۵۲) إِنْ كانَتْ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (۵۳) فَالْيَوْمَ لا
تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴) إِنَّ أَصْحابَ اَلْجَنَّةِ اَلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ
عَلَى اَلْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (۵۶) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (۵۷) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸) وَ اِمْتازُوا اَلْيَوْمَ أَيُّهَا اَلْمُجْرِمُونَ
(۵۹)

اللغه

۴۹[يخصمون]:يختصمون فى أمورهم،من خصّم و أصله اختصم.

۵۱[الأجداث]:جمع جدث و هو القبر.

[ينسلون]:يخرجون سراعا إلى الموقف،فإنّ النسول هو الإسراع فى الخروج.

ص:۱۳۷

۵۶[الأرائک]:جمع أریکه و هی السریر الذی یصنع للعروس.

۵۹[امتازوا]:انفصلوا عن جماعه المؤمنین.

ص:۱۳۸

هٰذٰا مٰا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

هدى من الآيات:

بعـد أن ذكّرتنا الآيات بربنا العزيز الرحيم،جاءت تفنّـد شـبهات الكفّار (لنتحصن ضـدّها)فإذا قيل لهم:اتقوا عـذاب الدنيا و عقاب الآـخره،و جيء إليهـم بالآيـات أعرضـوا،و إذا قيـل لهـم: أنفقـوا برّروا بخلهـم بـأنّ اللّه لـو شـاء أطعـم الفقراء (و إذا خوّفـوا بالساعه)يقولون:متى هذا الوعد؟(و لكى تخشع القلوب،و تستعد لفهم الحقائق،و تنقشع عنها سحب الغفله،يذكّر السياق بالساعه،و يقـول:)مـاذا ينتظر هؤلاـء(و مـاذا يسـتعجلون؟)إنّهـا ليسـت إلاّـ صـيحه واحـده تأخـذهم و هم فى جـدالهم الفـارغ(حـول حقـائق الرسـاله)فتأتيهم بغته بحيث لا يسـتطيعون كتابه توصـيه و لا إلى أهلهم يرجعون(و بعـد أن يمكثوا ما شاء اللّه فى القبور)ينفـخ فى الصور فإذا هم يخرجون من أجـداثهم،و بصـيحه واحـده تراهم حاضـرين أمام ربهم (و هم يزعمون أنّهم كانوا نياما)و يتساءلون: مَنْ بَعَثَنٰا مِنْ مَرْقَدِنٰا ؟!فيأتيهم الجواب: هٰذٰا مٰا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ،و يكشف السياق عن مشهدين من

مشاهـد القيـامه،بعـد أن يثبت عـداله الجزاء:فهنـا ترى أصـحاب الجنه فی شـغل (يتلـذذون و هم)فاكهون،بينما ينفصل المجرمون عنهم.

بينات من الآيات:

[۴۵]بصائر القرآن تهـدی الی أنّ حياه البشـر هی نتيجه ثقافته و سـلوكه، عقيدته و عمله،و هكذا تجعل-هذه البصائر-لكل ظاهره أو حدث سـببا متصـلا بإراده البشـر و اختياره،و بعكسـها تماما أفكار الجاهليه-قديمها و حديثها-فهی تفضل فی ربط حياه البشـر بسـلوكه،لأنّهـا لاـ تؤمن بالغيب،و لا تعترف بإله يقـدّر و يـدبّر،بربّ يهيمن و يسيّر،فلا تقـدر علی ربط ما يجری علی الإنسان بما يفعله، فـإذا أصـيب المؤمن بمرض أو فقر أو ذله،فتّش عن سـبب ذلـك،و عـاده يجـده فی ذنب ارتكبه فعـاقبه اللّه بـذلك البلاء ليطهره،بينما يبقی الكافر سادرا فی غيّه،إذ لا يعتقـد بأنّ هناك مدبرا لشؤون العباد،و بالتالی ينسب كلّ شـیء للصدفه،أو لأسـباب ظاهره لا تغنيه علما،و لا تفيده حكمه و رشدا.

و هكذا كانت ثقافه المؤمنين عقلانيه،و ثقافه غيرهم جاهليه،أنّی زعموا العلميّه و العقلانيّه.

و هكذا نری السـياق القرآنی هنا يذكّر بالتقوی بعد سـرد آيات الرحمن،لأنّ معرفه الرب و سلطانه هی صله الربط بين عمل البشر و جزائه.

أمّا الكفّار فإنّهم يعرضون إذا أمروا بالتقوی،لأنّهم لا يؤمنون بربّ يدبّر شؤونهم،فلا يعلمون أن ما يصيبهم من ضرّاء و بأساء فإنّما بما كسبت أيديهم، فكيف يتقونهما؟ وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مٰا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ

من عذاب الدنيا،من صيحه واحده تصيبكم كما أصابت قوم المرسلين فى أنطاكيه،من غرق أو حرب أو أىّ بلاء آخر.

وَ مٰا خَلْفَكُمْ من عذاب الآخره الذى لا يبقى و لا يذر.

و فى الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-أنّه قال :

«اتّقوا ما بين أيديكم من الذنوب،و ما خلفكم من العقوبه » (۱)لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فإذا اتقيتم العذاب باجتناب المعاصى فإنّ ذلك يوفّر لكم فرصه رحمه اللّه.

[۴۶]و لكنّهم يعرضون لجهلهم بربهم،و لا ينتفعون بالآيات التى تترى عليهم،و كلّها تنطق بضروره التقوى.

وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَهٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ و هل تنفع الآيات من يعرض عنها؟ [۴۷]و يضرب السياق الأمثال لإعراضهم عن آيات التقوى،و المعاذير التى يلقونها أمام من يأمرهم بها،فحين يؤمرون بالإنفاق على الفقراء،تراهم يزعمون أنّ اللّه-سبحانه و تعالى-قد خلق بعض الناس أغنياء و بعضهم فقراء،بعضهم

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)/ص(۳۸۹).

ساده و البعض عبیدا،فلا ینبغی السعی لردم الفجوه بین الطبقات،أو لتحقیق المساواه بین الناس.هکذا یبرّرون استئثارهم بالخیرات فی کل عصر،فالمستکبرون یزعمون أنّ تخلّف البلاد المستضعفه شأن مفروض علیهم من اللّه،أمّا تقدّمهم الاقتصادی فإنّه من أنفسهم،و الطبقات المترفه تزعم أنّ غناهم آت من سعیهم، أمّا فقر الآخرین فهو من ربهم.

وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ و سواء کان القائل هو اللّه،أو المؤمنون الناطقون عن ربّهم،فإنّ إجابتهم واحده و هی الرفض،و لکن ألا یعلمون أنّ ما بأیدیهم من الغنی هو-فی الواقع- رزق اللّه،و لو شاء اللّه لمنعهم منه؟أو لا ینظرون الی أنّ توزیع المعادن علی أقطار الأرض تمّ بأمر اللّه،و أنّ خصوبه الأرض کانت بأمر اللّه،و حتی توفر المناخ المناسب لنموّ الصناعه کان بإذن اللّه؟و لو تدبّر کلّ غنیّ فی الأسباب الخفیّه لنموّ ثروته لرأی ید الغیب وراءها،فأولی بهم الإنفاق ممّا رزقهم اللّه،ما دام اللّه یأمر به،و هو الذی استخلفهم فیما رزقهم لیبتلیهم به.ألاّ یرون أنّ کلّ شیء فی عالم الإنسان یوحی بأنّه جاء لهذه الدنیا لکی یمتحن؟فقد جعل اللّه امتحان الفقیر بالغنی لیری هل یصبر،و امتحان الغنی بالفقیر لیعلم من ینفق و من یبخل،و افتتن العالم بالجاهل و أمره بأن یعلّمه کما ابتلی الجاهل بالعالم و أمره بأن یتعلّم منه، و جعل الحکّام فتنه للناس و افتتن الناس بحکامهم و قال عزّ من قائل:« وَ جَعَلْنٰا بَعْضَکُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَهً أَ تَصْبِرُونَ وَ کٰانَ رَبُّکَ بَصِیراً » (١).

و لکنّ الکفّار زعموا أنّ غناهم و عدم الفقراء أمر حتمی من عند اللّه.

قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا

١- ٢) الفرقان/(٢٠).

و هكـذا خـاطب الكفّار الـذين آمنوا لأنّهم الـذين أمروهم بالإنفاق،و لأنّهم المؤمنون باللّه،فكان الأحرى بهم-حسب زعمهم-أن يؤمنوا بالقدر،فقالوا:

أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ أَطْعَمَهُ و لم يقولوا أ ننفق،لأنّهم منعوا عن الفقراء حتى الطعام الـذى هو حق كـل حى،فكيف بالإنسان الكريم عند ربه.

أنظر الى مـدى إمعـانهم فى البخـل،و الإعراض عن التقـوى؟بلى.اللّه يطعم من يشـاء من رزقه الواسع،و لكنّه جعـل رزق هؤلاء الفقراء على أيديكم،لينظر كيف تعملون،و هو القائل-حسب

حديث قدسى -:

«المـال مـالى،و الفقراء عيـالى،و الأغنيـاء وكلائى،و خيرهم خيرهم لعيالى » ثم أنّ ربنا سبحانه أكرم بنى آدم فجعلهم أحرارا فى الـدنيا،و وفّر فى الأرض ما يزيد على رزقهم،إلاّ أنّ كسل البعض عن السـعى بأفكار جاهليه،و استئثار البعض برزق الآخرين تحت مظله من القوانين الجـائره،هما السـببان الرئيسـيان لانتشار الفقر،و من أساليب محاربه الفقر نبـذ الثقافه الجاهليه،و إصـلاح الأنظمه الجائره،و الإنفاق واحد من أهمّ السبل لمحاربه الفقر لأنّه علاج فورى،و وسيله مستقبليه أيضا لتوزيع الثروه و تدويرها و تحريك الطاقات بها.

و لكن الكفّار جمّدوا الثروه،و زعموا أنّها حقّهم الإلهى بل قالوا لمن أمرهم بالإنفاق:

إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ لأنّكم تريدون تغيير سنن اللّه،و جعل الفقراء أغنياء،و هم قد خلقوا فقراء.

ص:۱۴۳

و ترک السیاق لقارئ القرآن الحکم علی هذه العقلیه،و لا ریب أنّه یحکم علیها بالضلال المبین،و لذلک احتار المفسرون فی معرفه قائل هذه الکلمه،فمنهم من قال:إنّهم الکفّار،و منهم من قال:بل هم المؤمنون قالوها للکفار،و قال بعضهم:

بل اللّه قالها للکفّار.

و الظاهر أنّها کلمه الکفّار للمؤمنین،و لکنّها تردّ علیهم بطبعها،فبمجرد أن یقول المجنون للذی یأمره بالحکمه:إنّک مجنون،نعرف أنّ المتکلم بنفسه مجنون.

ألیس کذلک؟هکذا نعرف ضلاله الکفار بمجرد أنّهم یقولون لمن یأمرهم بالإنفاق:

إنّک فی ضلال مبین،کلاّ...إنّهم هم فی ضلال مبین! [۴۸]من التبریرات النفسیه التی یتشبّث بها الکفّار هو استبعاد الجزاء زمانیا،و نجد فی آیات الذکر ردّ هذه الشبهه بکلمات بلیغه نافذه،فالجزاء لیس لعبا حتی یستخفّ به،إنّه الساعه التی ثقلت فیّ السموات و الأرض،فما ذا ینتظرون؟و بهم یستهزءون؟ وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا الْوَعْدُ و بالرغم من أنّ کلمه«متی»أصلا للاستفهام، إلاّ أنّها هنا جاءت للاستنکار بدلیل قولهم:

إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ فهم کانوا یتوقّعون جزاء عاجلا بعد أن أنذروا بالعذاب،و أمروا باتقاء ما بین أیدیهم من عذاب الدنیا،و ما خلفهم من عذاب الآخره.

[۴۹]إنّ النفس البشریه لا تری بطبعها إلاّ ما أمامها من الحقائق المشهوده،

و لاـ تتـأثّر بالمسـتقبل البعيـد حتى و لو كان من الحقائق المعلومه يقينا،و بضـغط من الشـهوات العاجله،و بوساوس إبليس تعرض النفس عن الغيب للشـهود،و عن المسـتقبل للحاضر،و لا بد من تصوير الغيب،و إبراز مشاهد من المستقبل حتى تهتّم النفس بها،و لعـل منهـج القرآن فى تصـوير مشاهـد البعث و الجزاء باسـتثاره قوه الظن و الخيـال يتم لهـذه الغـايه،فهو ليس مجرد أسـلوب فى البيـان،بـل هو منهـج علمى لإصـلاح النفس،و إيجـاد التوازن بين قوه الشـهود و حقائق الغيب،و إنّما المؤمنون الـذين يستشـرفون المستقبل،و ينظرون الى الغيب بقوه الظن،و يستثيرون كوامن الخوف و الرجاء بالتذكره الذاتيه.

و السياق هنا يصوّر جانبا من مشاهد الهلاك ثم النشور و الجنه و النار.

مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ إنّهم يستعجلون العذاب،و يقولون:متى هذا الوعد؟بلى.و لكنّهم ينتظرون بـذلك أمرا عظيما،إذا جاء لا يمكن ردّه أو تأجيله،فإنّما هو صـيحه واحده لا ثانيه لها،لأنّها القاضـيه،و هى تعمّهم بالأخذ بغته فى وقت تراهم يخوضون فى جدليّاتهم التى لا تغنى شيئا.

و الإنسـان يتمنّى-عـاده-لـو يغيّر الحقـائق بالجـدل،زاعمـا أنّه لو نفى شـيئا فـإنّه ينتفى أو أنّه لو أسـكت صـاحب الحق فـإنّ الحق يزول،كلاّ...فحتى فى حاله جدالهم و خصامهم تأخذهم الصيحه.

[۵۰]و المباغته سريعه الى درجه أنّها تمنعهم من أن يخلّفوا وصيّتهم،بالرغم من أنّهم لا يعودون الى أهلهم فهم أحوج ما يكونون الى التوصيه.

فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً

بأىّ شكل كانت التوصيه قولا أو إشاره،و إذ لا يستطيعون حتى التوصيه و هى أسهل الأشياء،و أشدّها ضروره،فهم لا يستطيعون-بالطبع-إصلاح ما أفسدوه من واقعهم! وَ لاٰ إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ فهم ليسوا على سفر سرعان ما يعودون منه حتى لا يحتاجوا الى وصيه.

و يبدو أنّ الآيات تصوّر مشهد العذاب الدنيوى المتمثل فى الهلاك بالصيحه، مثل ما أصاب الذين كذبوا بالمرسلين الثلاثه فى القصه الماضيه.

و قال البعض:إنّها تصوّر قيام الساعه...و الساعه أدهى و أمرّ،و

جاء فى الحديث عن الرسول-صلّى اللّه عليه و آله -:

«تقوم الساعه و الرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، و الرجل يرفع أكلته الى فيه،فما تصل الى فيه حتى تقوم!و الرجل يليط حوضه (۱)ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم » (۲)و لعل الحديث القرآنى يشمل الجزاء بصفه عامه فى الدنيا بعذاب الاستئصال أو فى الآخره عند قيام الساعه.

[۵۱]و يمكث الكفّار فى قبورهم ما شاء اللّه،حتى ينفخ فى الصور الملك الكريم إسرافيل،و بمجرد النفخ تراهم يسرعون الى ربهم حيث وضع الميزان العادل.

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذٰا هُمْ مِنَ الْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

ص:۱۴۶

۱- ۳) يسوّى حوضه بالطين حتى لا يتسرب منه الماء.

۲- ۴) نور الثقلين/ج(۴)/ص(۳۸۸).

و نجد فی بعض الآیات أنّهم عند النفخ قیام ینظرون،بلی.فهم قیام فی لحظه، و لکن سرعان ما یتحرکون حیث یرید اللّه.

و نقل عن الرغب فی مفرداته:إنّ النسل فی الأصل الانفصال،و إنّما سمّی ولد الإنسان نسلا لأنّه ینفصل عنه.و لعلنا نستوحی من هذا أنّ القبر یضحی کرحم الأم ینسل منه أبناء آدم نسلا.

[۵۲]و هنالک یعترف هذا الإنسان الخصیم الذی استهزأ بکلّ المرسلین، و أعرض عن کلّ الآیات،و ینادی بالویل لنفسه،و یزعم أنّه کان نائما، و یتساءل:أیّه قدره استطاعت بعثه من محلّ نومه بعد طول الرقاد؟! قٰالُوا یٰا وَیْلَنٰا مَنْ بَعَثَنٰا مِنْ مَرْقَدِنٰا و هنالک یأتیه النداء من الملائکه:

هٰذٰا مٰا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ إنّه اللّه الذی أنجز وعده،لیرحم عباده المؤمنین،« إِنَّهُ کٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِیًّا ».

و یمکن أن یکون القائل هم الکفّار،فیکون اعترافا منهم بوعد اللّه،و یمکن ألاّ یکون لهذه الکلمه أساسا قائل خاص بل یکون مقتضی المقام هذا المقال، سواء وجد قائل أم لم یوجد.

وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ الذین أنبأوا عن الرحمن وعده.

إنّ سوره یس قلب القرآن،و هو یعبّر عن ضمیر الخلیقه،الذی یتمثل فی رحمه

اللّه،و لعله لذلک تتکرر کلمه«الرحمن»فیها.

[۵۳]بصیحه أهلک القوم جمیعا،و بصیحه ابتعثوا جمیعا،و بصیحه یحضرون فی مقام الحساب عند ربهم.

إِنْ کٰانَتْ إِلاّٰ صَیْحَهً وٰاحِدَهً فَإِذٰا هُمْ جَمِیعٌ لَدَیْنٰا مُحْضَرُونَ و یبدو أنّ التعبیر هنا یوحی بما یوحیه قوله-سبحانه-فی خاتم السوره:« إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ »و لکن هذا التعبیر جاء فی مقام الشده فناسب الحدیث الصیحه،و هی تدل علی سرعه نفاذ أمره،و أنّ کلّ شیء مستجیب لإرادته.

[۵۴]هنالک یتجلّی العدل الإلهی الذی قامت به الخلیقه جمیعا،فلا یظلم أحد شیئا،بل حتی جزائهم إنّما هو ذات أعمالهم التی تتجسد،فإن کانت صالحه فهی الجنات و الفواکه و حور العین،و إن کانت الأخری فعذاب شدید.

فَالْیَوْمَ لاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً و اللّه لیس بظلام للعبید،لا فی ذلک الیوم و لا فی أیّ یوم،بلی.إنّه أعطی الحریه المحدوده للناس فی الدنیا لیبتلیهم بها فظلموا أنفسهم،و لو لا أنّه جعل دار البقاء(الآخره)و جعل فیها جزاء وافیا للظالم و المظلوم لما سمح لأحد بظلم أحد حتی فی الدنیا،لأنّه لیس بظلاّم للعبید،و أساسا إنّنا نعرف وجود الدار الآخره من خلال معرفتنا بأمرین:أوّلا:إنّ اللّه عزیز رحیم فلا یمکن أن یظلم بحضرته أحد من عباده دون أن یغیثه،ثانیا:إنّه قد یدع الظالم یوغل فی ظلمه فی الدنیا فنعرف أنّ هناک دارا أخری یجازی فیها الظالم و ینتصر منه للمظلوم.

وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فإن كان هنالك جزاء سيء فهو أعمالكم التی تجسّدت.أ رأيت الذی يشرب ماءا قذرا فيمرض،هل ظلمه الطبيب الذی نهاه و حذّره من العاقبه،أم أنّ مرضه هو ذات الماء القذر الذی شربه؟ [۵۵]أمّا أصحاب الجنه الذين فازوا بصحبه الجنه و امتلاكها و وراثتها فی الدنيا بأعمالهم،فهم فی شغل عما يجری فی الطرف الآخر عند أهل النار فلا يحزنهم شیء ما ثمه و لا يفزعهم.

إِنَّ أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ الْيَوْمَ فِی شُغُلٍ فٰاكِهُونَ و الشغل بذاته نعمه لأنّه ينشّط الجسم،و ينفس عن النفس،إلاّ أنّ الإشتغال بما يفكّه أعظم نعمه و أشدّ راحه.

[۵۶]بماذا يشتغل هؤلاء فی الجنه،و كيف يقضون ساعاتهم التی لا تنتهی، و لماذا لا يملّون...؟ يبدو أنّ أعظم اللذات الجسديه و الروحيه الإشتغال بالأزواج المطهره،لأنّه إنس معنوی،و سكن روحی،و لذّه جسديه مركّزه.

هُمْ وَ أَزْوٰاجُهُمْ فِی ظِلاٰلٍ عَلَى الْأَرٰائِكِ مُتَّكِؤُنَ فهم فی ظلال يحسون بالسكن،و هم علی الأرائك يستريحون بلا تعب،و هم متكئون لأنّه لا يشغلهم شیء يتحفّزون لأدائه،فهم فی كامل الراحه،و

قد روی عن رسول اللّه-صلّی اللّه عليه و آله-قوله(عن صفه أهل الجنه) :

«و المؤمن ساعه مع الحوراء،و ساعه مع الآدميّه،و ساعه يخلو بنفسه على الأرائك متكئا ينظر بعض المؤمنين إلى بعض » (1)

[57]و بعد لذّه الإنس مع الأزواج فى مقعد مريح تأتى لذّه الطعام،و أفضل الطعام ما يتفكّه به الفرد بعد قضاء حاجته الضروريه من الطعام،لأنّ أصحاب الجنه لا يعدمون الطعام حتى يحسّوا بالجوع و يتألّموا به حينا من الوقت مثلما البشر فى الدنيا.

لَهُمْ فِيهٰا فٰاكِهَهٌ وَ لَهُمْ مٰا يَدَّعُونَ فكل ما تشتهيه أنفسهم يجدونه أمامهم.

[58]و أعظم النعم جميعا نعمه الحضور عند ربّ الرحمه الحنّان الكريم،فأيّ نعمه أسمى من الجلوس عند المليك المقتدر،و تلقّى السلام القولى منه،بالاضافه الى حاله السلام التى يعيشون فيها،ذلك ان حاله الأمن و السكينه و السلام الفعلى هى من نعم الجسم غالبا بينما السلام القولى نعمه للروح أيضا.

سَلاٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [59]و لا يشترك فى مهرجان النعم المتنوعه أولئك المجرمون،الذين يفصلون عن النعم،و أيّ حرمان أعظم من طردهم عن مائده الكريم حقّا؟!أيّ ربّ رحمن و أيّ مائده غنيه؟!يا للخساره الكبرى خسارتهم.

وَ امْتٰازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ

جاء فى تفسير على بن إبراهيم حول هذه الآيه :

ص:150

1- 5) المصدر/ج(4)/ص(390).

إذا جمع اللّه الخلق يوم القيـامه،بقوا قيامـا على أقـدامهم حتى يلجمهم العرق،فينادون:يا ربّ حاسـبنا و لو إلى النار،قال فيبعث اللّه عزّ و جـلّ رياحـا فتضـرب بينهم،و ينادى مناد:« اِمْتٰازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » فيميّز بينهم،فصار المجرمون فى النار،و من كان فى قلبه الإيمان صار إلى الجنه (۱)

ص:۱۵۱

۱- ۶) المصدر/ص(۲۹۰).

[سوره يس (٣۶): الآيات ۶٠ الى ٧٠]

اشاره

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا اَلشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶٠) وَ أَنِ اُعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶٢) هذِهِ جَهَنَّمُ اَلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶٣) اِصْلَوْهَا اَلْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴) اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا اَلصِّراطَ فَأَنّى يُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (۶٧) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي اَلْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (۶٨) وَ ما عَلَّمْناهُ اَلشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ اَلْقَوْلُ عَلَى اَلْكافِرِينَ (٧٠)

اللغه

۶٢[جبلا]:خلقا.

۶۶[لطمسنا]:أى لأعميناهم،يقال طمس على عينه إذا محاها حتى لم يبق منها أثر.

۶٧[لمسخناهم]:قلب الصوره إلى خلقه مشوّهه كما المسخ إلى قرده و خنازير.

ص:١۵٢

۶۸[ننکسه فی الخلق]:ننکّس قواه و خلقته فیصیر بعد القوه ضعیفا،و بعد العقل خرفا،و بعد النضاره ذابلا،و بعد العلم جاهلا،و هکذا فهو راجع الی حاله الطفوله و الضعف.

ص:۱۵۳

وَ أَنِ اعْبُدُونِی هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ

هدی من الآیات:

لقد أکّد اللّه عهده مع بنی آدم بألاّ یعبدوا الشیطان لأنّه عدو مبین،و أن یخلصوا عبادتهم للّه ربّ العالمین،لیکونوا علی صراط اللّه المستقیم،(و دلیل عداوه الشیطان أنّه:)أضلّ خلقا کثیرا(حتی ظهر انحرافهم و هلکوا و أمسوا عبره لنا)و لکنّ الناس لم یکونوا یعقلون ذلک(ثم استحقوا بعد العذاب فی الدنیا النار،و قیل لهم:) ادخلوا جهنم،و أصلوا بنارها،و هنالک(لا یمکنهم الجدل بل:)یختم اللّه علی أفواههم،و یستنطق أیدیهم،و یشهد علیهم أرجلهم بأعمالهم.

(و إنّ نعمه الهدایه من اللّه کما نعمه العین و الأذن و الإحساس)و لو شاء اللّه لأمحی أعینهم حتی یتبادروا الی الصراط فلا یبصرونه،أو یمسخهم و هم فی مکانهم حتی لا یقدرون علی التقدم أو العوده.

(و شاهد آخر علی أنّ الهدی من اللّه العقل الذی یسلبه اللّه ممّن یعمّر حتی یعود

طفلا)فمن بلغ من العمر أرذله نكّسه اللّه فى الخلق.أ فلا يعقلون؟ (و كذلك الرساله من اللّه و هى ليست شعرا)فاللّه لم يعلم نبيّه شعرا و لا- ينبغى له(فالشعر يحتوى على ثقافه باطله و غامضه،و هى تبرير و تكريس للواقع الفاسد، بينما الكتاب بخلاف ذلك كلّه)فما جاء الرسول إلّا بالذكر(الذى تصدّقه الفطره و العقل)و قرآن مبين(واضح لا غموض فيه)و هو نذير لمن كان له قلب حى(فهو تحدّ للفساد و الطغيان)و هو بالتالى حجه على الكافرين.

بينات من الآيات:

[۶۰]حينما نشر اللّه ذريه آدم فى صوره(ذر)و قال لهم:أ لست بربّكم؟ فقالوا:بلى،أخذ منهم عهدا بعبادته،و رفض الأنداد من دونه.

و هكذا عند ما فطرهم على معرفته،و أودع ضمائرهم عقولا تهديهم الى ربهم.

ثم بعد ذلك بعث إليهم رسله منذرين و مبشرين،يستأدونهم ميثاقه، و يستثيرون عقولهم بالتذكره به سبحانه،و كان فى ذلك عهد اللّه الى بنى آدم بعبادته،و ترك عباده الشيطان،و لكن هل يمكن أن تجتمع عباده اللّه مع عباده الشيطان؟ كلّا...فلا بدّ من رفض الشيطان لتتمّ عباده الرحمن.

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا اَلشَّيْطٰانَ أين هو الشيطان؟إنّه يجرى مع ابن آدم مجرى الدم،و لكنّ القلب ينتبه بإذن اللّه و بما ألهمه الربّ من فجوره و تقواه الى وجوده و يميّز وسواس الشيطان عن وحى العقل.

ص:۱۵۵

و عند ما يعقد الإنسان العزم على محاربه الشيطان يتميّز فى قلبه أكثر فأكثر نداء الغوايه عن فطره الهدايه.

ثم يـأتيه الوحى عبر رسـل اللّه و رسالاـته لتتمّ الحجه عليه،فـإذا بنـداء الرحمن فى قلبه يلتقى بنـدائه على لسـان النبى و كتاب اللّه الذى أرسل به.

و هكذا يمتلك كل شخص مقياسين لمعرفه الشيطان.الاول:ما بقلبه من العقل،و الثانى:ما أوحى به الرسل.

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ يسـعى الشـيطان لخداع البشـر بأنّه صديقه،و أنّ ما يشـير إليه من الضـلاله محض نصيحه،و قد يسترسل البعض معه بحجه أنّهم خـدعوا به،و لكن ربّنا يقول:إنّه عـدو واضـح،و لا عـذر لأحد فى اتباع عدوّه،إلاّ إذا خدع نفسه،و سـرّ عداوته أنّه يأمر بما يعلم الإنسان أنّه مضر.

أولاـ يأمر بالإسـراف و التبـذير،و بالفحشاء و المنكر،و بالاعتـداء و الظلم و البغى،مما يسـتقبحه البشـر؟!الا أقل عنـد ما يصـدر من الآخرين،و مما يرفض أىّ عاقل نسبته إليه.

كلّنا نعرف أنّ مآسـى البشـريه آتيه من الظلم و العـدوان و الاستئثار و البخل و الكسل و الاختلاف،و نحن جميعا نعرف أنّ ذلك هو من وحى الشيطان.أ فلا نتخذه عدوا؟! و عباده الشيطان لا تعنى السجود له،إنّما طاعته بوعى،و التسليم التام لإغوائه.

ص:۱۵۶

و تتجسّد عباده الشیطان فی طاعه أولیائه من سلاطین الجور،و طغاه السلطه و الثروه.

و یقول الفخر الرازی فی قوله:« لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ »معناه:لا تطیعوه، بدلیل أنّ المنهی عنه لیس هو السجود له فحسب،بل الانقیاد لأمره و الطاعه له، فالطاعه عباده،لا یقال:فنکون نحن مأمورین بعباده الأمراء حیث أمرنا بطاعتهم فی قوله تعالی:« أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ »لأنّا نقول:طاعتهم إذا کانت بأمر اللّه لا تکون إلاّ عباده للّه و طاعه له،و أضاف:و إنّما عباده الأمراء هو طاعتهم فیما لم یأذن اللّه فیه. (۱)

[۶۱]رفض عباده الشیطان تهیأ لعباده اللّه، بل مجرد الکفر بالأنداد عباده اللّه،کما أنّ من ضیّع عباده الرحمن وقع فی شرک الشیطان،لذلک قارنت الآیات بین رفض هذه و الالتزام بتلک،کقوله سبحانه:« فَمَنْ یَکْفُرْ بِالطّٰاغُوتِ وَ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَهِ الْوُثْقیٰ » (۲)و هنا یقول ربّنا:

وَ أَنِ اعْبُدُونِی هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ و استقامه الصراط نابعه من أن اللّه الذی رسمه لنا تعالی عن المیول التی تضلّل البشر یمنه و یسارا،و عن الجهل الذی یتطرّف صاحبه ناحیه الإفراط أو التفریط.

و من أبرز مظاهر الاستقامه فی الصراط أنّ المؤمنین یؤیّدون علی السیر فیه، متحدّین ضغوط الهوی و الشهوه و السلطه و الثروه و التزییف و التلبیس بإذن ربهم.

۱- ۱) التفسیر الکبیر للفخر الرازی/ج(۲۶)/ص(۹۶).

۲- ۲) البقره/(۲۵۶).المصدر.

و لعل الفرق بين القويم و المستقيم يكن فى أنّ المستقيم يوحى بأنّ صاحبه يستقيم عليه متحدّيا عوامل الانحراف.

و عباده اللّه تعنى طاعته،و طاعته لا تتجزأ،فمن صلّى دون أن يؤتى الزكاه، أو خضع للإسلام فى شؤونه الشخصيه دون نظامه الاقتصادى و السياسى،فإنّه لا يعبد اللّه،بل إنّه يعبد الشيطان.

إنّ جذر الشرك باللّه هو الاستسلام أمام الضغط أنّى كان مصدره،و هذا يخص فقط موارد الضغط،و إنّما المؤمن الذى يتحدّى الضغط،أمّا من جعل القرآن عضين فقال:نؤمن ببعض و نكفر ببعض،و أراد أن يؤمن فقط بما يتفق و مصالحه، و أمّا عند ما تضرب مصالحه يذهب معها فإنّه بالذات الذى يحاربه القرآن.

فالقرآن لا يواجه إلاّ قليلا أولئك الذين يكفرون بالدين رأسا،و إنّما يحادد فى الأكثر أولئك الذين يشركون باللّه،فيخضعون لشهواتهم و سلاطينهم و المترفين، و يخدعون أنفسهم بعباده اللّه فيما لا تتنافى و مصالحهم و شهواتهم و كبرائهم.

[۶۲]عند ما يتعظ المرء بتجارب غيره يهتدى الى الطريق،و إنّما ينتفع بها من يعقلها و يجعلها وسيله لإثاره دفائن عقله،و كوامن فطرته.

و إنّ من أظهر الحقائق التى يعقلها من شاء الهدى هى:أنّ بعض الناس فى ضلال،فأنّى ذهبت،و أىّ شخص سألت،قال لك:إنّ بعض الناس على خطأ، و لكن لا تقودهم هذه الحقيقه الى معرفه حقيقتين أخريين هما:أولا:إنّه كما أضلّ الشيطان كثيرا من الناس كذلك يضلنا فلنحذر منه،و ثانيا:ماذا كانت عاقبه الضالين.أو ليس الهلاك؟!فلما ذا لا نعتبر بذلك؟! وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً

ص:۱۵۸

فإذا كان الشيطان قد نجح فى إضلال خلق كثير منكم فلما ذا لا يحذر منه؟! أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ فهذا فريق أضلّه الشيطان،و هداه الى سبيل البوار، و أهلكه أمام أعينكم،ثم لم يصبح عبره لفريق آخر،و هكذا استمر الشيطان يضلّ منكم فئاما بعد فئام، دون أن يعقل اللاحقون،و يعتبروا بمصير الغابرين.

بينما كان مقتضى وجود العقل عند البشر هو أن يستفيد منه فى تحديد طريق النجاه،و تجنّب سبل الهلاك.

و من أبرز ما يستفيده العاقل من مصير الغابرين كيفيه إضلال الشيطان لهم، ذلك أنّ الشيطان ليس خلقا غريبا يقتحم عليك بينك حتى تتحذر منه،كلّا...إنّه فى عروقك،فى أعماق فؤادك،فى أقرب الأصدقاء إليك،فى زوجك و أخيك،فى تربيه أمّك و أبيك،فى كلمات معلمّك،و حتى فى توجيهات من نصب نفسه عالم دين،و أولئك الذين هلكوا جاءهم الشيطان من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و شمائلهم،و شبّه لهم،و زيّن لهم،و برّر لهم بوسائل شتى،فإذا أردنا أن نمنعه فلا بد أن نكون فى أقصى الحذر و العقل.

[۶۳]إنّنا رأينا هلاك الغابرين،و لا تزال آيات دمارهم مكتوبه على آثارهم، و محفوره فى أفئده الأجيال،و لكنّ الأدهى من هلاكهم النار التى وردوها.

هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [۶۴]إنّهم سوف يدخلونها،و يصطلون بنارها بسبب كفرهم.

اِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

ص:۱۵۹

[۶۵]إنّهم كانوا يبرّرون كفرهم بأعذار واهيه،و يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق،و يزعمون أنّ جدالهم يغنى عنهم شيئا،و لكن فى ذلك اليوم الرهيب لا يسمح لهم بالكلام،و إنّما تنطق عليهم جوارحهم بدل ألسنتهم.

اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ فلا يعتذرون و لا يجادلون.

وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ فالأيدى و الأرجل تشهد بأعمالهم،فلا سبيل إذا الى الإنكار أو الاعتذار أو حتى الى الجدال.

و لعل الشهاده هنا تصويريه.أو لسنا قد اكتشفنا-بما أوتينا من علم قليل- كيف نستنطق أصابع اليد لنعرف المجرمين بطبع الإبهام؟أولم نبتدع جهاز كشف الكذب المعتمد على نبضات القلب؟أولم نهتدى الى مرتكبى الجرائم بآثارهم الخفيه؟و لا ريب أنّه كما تنعكس الأعمال على الطبيعه،تنعكس آثارها على الجوارح ذاتها،بيد أنّا لمّا نكتشف وسيله لمعرفه أبعادها.

و لكن الربّ-سبحانه-يظهر الخفايا فى ذلك اليوم الرهيب،فيرى الإنسان شريطا مسجّلا على يده و رجله يعرض صورا ناطقه بكل ما جرى.

[۶۶]كيف يستنطق الربّ الأيدى و الأرجل فى ذلك اليوم؟لنعد الى هذه الحياه و نتساءل:من ذا الذى رزقنا الجوارح أو ليس اللّه؟!فهو القادر على أن يجعل الأيدى تنطق كما جعلها هنا تبطش.

و لعل هذه هى المناسبه لتذكره السياق بنعمه البصر و الإحساس و العقل فى

الآيات الثلاث التاليه،و هى فى ذات الوقت تمهيد لبيان نعمه الهدايه،فاللّه الذى آتانا نعمه العين و لو شاء لطمسها،و الذى رزقنا سائر النعم التى نهتدى بها من سمع و لمس و ذوق و ما أشبه و لو شاء لمسخهم على مكانتهم فلا يتقدمون،فلا يستطيعون مضيّا الى الأمام و لا عوده الى الوراء،و الذى أعاد البشر الى حاله الضعف عند ما يعمّره طويلا،هو الذى أرسل الى الناس من يهديهم الى صراط العزيز الرحيم.

وَ لَوْ نَشٰاءُ لَطَمَسْنٰا عَلىٰ أَعْيُنِهِمْ أ رأيت كيف تمسح الكف حفنه من الرمل حتى لا تبقى لها أثرا على البسيطه؟ كذلك لو شاء الرب لمسح على الأعين حتى لا يبقى لها أثرا على الوجه.

فَاسْتَبَقُوا الصِّرٰاطَ فإذا هم يتبادرون الى الطرق لعلهم يهتدون الى سبيلهم.

فَأَنّٰى يُبْصِرُونَ ربما تشير الآيه الى أنّ الذى يفقد عينه يحسّ بعقده الضلاله،فيبادر لمعرفه الصراط،و تلمّس الطريق،لأنه يخشى الانحراف عنه و الوقوع فى المهالك،و لكن دون جدوى إذ لا يملك ما يرى به طريقه.

و قال البعض:إنّ الاستباق هو تجاوز الطريق و الانحراف عنه،بينما قال آخرون:إنّه التدافع على الطريق شأن العميان الذين يتزاحمون على الطريق لعدم رؤيه بعضهم.

و أنّى كان فإنّ المبادره و التسابق لا يجديانهم نفعا،لأنّهم فقدوا وسيله الرؤيه

ص:۱۶۱

و هى الأعين.

و هكذا من لم يرزقه اللّه الهدى فإنّه لا يجد من يهديه سبيلا حتى لو بادر الصراط و تدافع عليه.

[۶۷]أعظم النعم فى مجال التحرك العين،و لكن هناك نعم أخرى كاللمس و الشم و الإحساس يتوسّل إليها فاقد البصر،و لكن من الذى أسبغ هذه النعم؟ أو ليس اللّه؟!و لو شاء لسلبها،و جعل الإنسان مسخا جامدا على مقامه كالحجر.

وَ لَوْ نَشٰاءُ لَمَسَخْنٰاهُمْ عَلىٰ مَكٰانَتِهِمْ فإذا بهم كالأحجار.

فَمَا اسْتَطٰاعُوا مُضِيًّا نحو الأمام.

وَ لاٰ يَرْجِعُونَ إلى الخلف،و بماذا يتقدم الإنسان أو يتأخّر؟أليس بالسمع و الإحساس؟! فإذا فقدها جميعا فهو أضعف من أحقر حشره.

[۶۸]إذا فقد الشخص بصره لم يهتد الى طريقه،و إذا فقد سائر الجوارح لا يستطيع مضيّا و لا عوده،و لكنّه يبقى يملك العقل،بيد أنّ العقل بدوره موهبه إلهيّه إن شاء و أراد اللّه سلبها،و فعلا إنّه يسلبها عند ما يبلغ الإنسان أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئا.

وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ

ص:۱۶۲

فبدل أن ينمو و يتكامل باستمرار تراه يبلغ قمه رشده البدنى و العقلى فى حدود الأربعين،و لا يلبث أن يسير القهقرى،لأنّ خلايا المخ التى تنتشر فى أطراف الجسد فى صوره أعصاب،و تقوم بالدور الرئيسى فى بناء الجسم،إنّها تستهلك مع الزمن و لا تعوّض أبدا،و يقول العلم:إذا بلغ المرء الثمانين من عمره فقد نصف خلايا مخّه.

و التنكيس الذى يصيب البشر يشمل الجوانب الماديه،كطريقه مشيه و وقوفه و فقد أسنانه و ضعف قواه،كما يطال الجوانب المعنويه،فهو يفقد قدراته العلميه و خصائصه النفسيه فتراه يرجع طفلا-يحرص على ما يخصه،و يعضّ بنواجذه على حياه،و يضحى خائفا يلاحقه هاجس الزائر المخيف الذى قد يدخل عليه فى أيّه لحظه و بلا استئذان ألا و هو الموت.

أَ فَلاٰ يَعْقِلُونَ ليذعنوا لله الذى أسبغ عليهم تلك النعم الآن،و يسلبها منهم عند الشيخوخه.

[۶۹]و اللّه الذى أعطانا جوارح لنهتدى بها فى حياتنا من سمع و بصر و عقل هو الذى أنزل الكتاب ليهدينا به الى الصراط المستقيم.

و نحن بحاجه إليه،و لا يمكننا الاستغناء عنه بالثقافات الموجوده لدينا التى هى أقرب الى الشعر منه الى بيان الحقائق.

بينما القرآن جاء ذكرا و بيانا و إنذارا و تبشيرا.

وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ

ص:۱۶۳

ذلک أنّ الشعر یتمیّز بالخصائص التالیه:

أوّلا:یعکس ثقافه المجتمع السائده و یسیر بها دون أن ینتقدها أو یثور علیها.

ثانیا:یکرّس الواقع الفاسد بتبریره و تلمیع رموزه و ستر اخطائه.

ثالثا:یخدّر الإنسان و یرضیه بوضعه بإثاره مشاعره الجاهلیه من الفخر و العصبیه و الاعتزاز بالإثم.

و بکلمه إذا کان للإنسان بعدان:بعد جاهلی یعکس شهواته و أمنیّاته و نوازع الشر عنده،و بعد رسالی یعکس عقله و عواطف الخیر فیه،فإنّ الشعر إفرار للبعد الجاهلی و تکریس له،سواء عبّر عنه بقصائد موزونه و منسقه أو بتعابیر نثریه و عادیه، و لکن بما أنّ الباطل مرفوض عند البشر بذاته فإنّ أصحاب الثقافه الجاهلیه یزینونها للناس تاره بأنغام الشعر،و أخری بأنواع البدیع و البلاغه.

بینما الحق لیس بحاجه الی کل ذلک،و إن کان الأدب الرفیع و الحله القشیبه،و البلاغه النافذه یزیدها جمالا و بهاء،إلاّ أنّ قدرته لیست فی حلته إنّما فی محتواه،بینما قدره الثقافه الجاهلیه فی التعبیر عنها،و لذلک سمّی شعرا،إشاره إلی أنّه لو لا وزنه و قافیته و التشبیهات الخیالیه فیه لا یعتنی به أحد،حتی قالوا:الشعر أعذبه أکذبه.

و هکذا

جاء فی الحدیث فی تفسیر قوله تعالی فی سوره الشعراء : « وَ الشُّعَرٰاءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ »قال:

«نزلت فی الذین غیّروا دین اللّه،و خالفوا أمر اللّه عزّ و جل.هل شاعرا قط یتبعه أحد؟إنّما عنی بذلک الذین وضعوا دینهم بآرائهم فیتبعهم الناس علی

ذلك » (۱)

و فی روایه مأثوره عن أبی جعفر الباقر علیه السلام فی تفسیر ذات الآیه قال :

«هل رأیت شاعرا یتبعه أحد؟إنّما هم قوم تفقّهوا لغیر الدین فضلّوا و أضلّوا » (۲)هذا عن الثقافه الجاهلیه أمّا عن رسالات اللّه فإنّها تتمیز بما یلی:

أولا:إنّها تذکره،فهی إثاره للعقل،و إیقاظ للضمیر،و تحریض للفکر،و أبلغ حجه لصدقها أنّها تتوافق و عقل الإنسان و ما أودعه اللّه فیه من فطره التوحید.

ثانیا:إنّها بلاغ مبین،فلیس فیه لف و دوران،و تعابیر غامضه،و کلمات جوفاء،و تشبیهات خیالیه،إنّما بیان للحقائق بوضوح شدید.

ثالثا:إنّها تنذر بالأخطار التی تهدّد الفرد و المجتمع،فهی تفجّر الطاقه بدل أن تخدّرها،و تنتقد الواقع الفاسد بدل أن تبرّره،و تواجه الانحراف و الضلال، و تتحدی الظلم و الطغیان.

و الرسول الذی حمل مشعل الهدایه،و تحدّی قوی الکفر و الضلال،و أعلن منذ البدء أنّه النذیر المبین،و الذی جانب و منذ صباه اللهو و العبث،و اتسمت حیاته الرسالیه بأقصی درجات الصراع ضد الباطل،و الاجتهاد فی إبلاغ الدعوه،و الجهاد و القتال فی سبیل إعلاء کلمه اللّه،إنّه لا تتناسب حیاته و الشعر(تلک الثقافه الجاهلیه)فکلّ شیء فی حیاته مناقض للشعر،لذلک قال ربنا عنه:« وَ مٰا یَنْبَغِی لَهُ ».

۱- ۳) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۷۰)نقلا عن تفسیر علی بن إبراهیم.

۲- ۴) المصدر.

و لـذلك فقـد ترك الرسول حتى هـذا الشـعر المعروف و الكلام المقفّى،لأنّه أضـحى لباسا للفكر الجاهلى يومئذ،و كان إذا قرأ شيئـا منه غيّره بمـا يتناسب و الحقيقه،و لكن ذلك لا يعنى أنّ الرسول كان مخالفا أساسا للوزن و القافيه، كلاّ...بل نجـده يشـجّع بعض أصحابه على ذلك تشجيعا كبيرا.

[۷۰]بلى.الرسول منذر يصدع بالحق،و يقاوم أهل الباطل،و يتحدّى الثقافه الجاهليه.

لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا فهو النذير المبين لمن كان فى قلبه إحساس بتقبل الإنذار.

أمّا بالنسبه الى غيرهم فإنّ الكتاب حجّه بالغه عليهم تمهّد لإنزال العقاب عليهم.

وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰافِرِينَ و هم الـذين لاـ حيـاه لقلوبهم،و لكن لا يعنى ذلك أنّ اللّه أجبرهم على الكفر، كلاّ...بل هم الـذين كفروا ففقدوا حياه الإيمان فلم يستجيبوا للنذر.

ص:۱۶۶

[سوره یس (۳۶): الآیات ۷۱ الی ۸۳]

اشاره

أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَیْدِینٰا أَنْعٰاماً فَهُمْ لَهٰا مٰالِکُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ فَمِنْهٰا رَکُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا یَأْکُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ
فِیهٰا مَنٰافِعُ وَ مَشٰارِبُ أَ فَلاٰ یَشْکُرُونَ (۷۳) وَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ (۷۴) لاٰ یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ
مُحْضَرُونَ (۷۵) فَلاٰ یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنّٰا نَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ (۷۶) أَ وَ لَمْ یَرَ اَلْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ
(۷۷) وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ یُحْیِ اَلْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (۷۸) قُلْ یُحْیِیهَا اَلَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ
(۷۹) اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ اَلشَّجَرِ اَلْأَخْضَرِ نٰاراً فَإِذٰا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰) أَ وَ لَیْسَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ
یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلیٰ وَ هُوَ اَلْخَلاّٰقُ اَلْعَلِیمُ (۸۱) إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۸۲) فَسُبْحٰانَ اَلَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ
شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۳)

اللغه

۷۸[رمیم]:بالیه متفتته.

ص:۱۶۷

۸۳[ملکوت]:هو الملک،و زید فیه التاء للعظمه نحو جبروت،و ملکوت کلّ شیء ما یقوم به ذلک الشیء.

ص:۱۶۸

قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ

هدى من الآيات:

تنبض سوره يس بالحقائق الكبرى التى تذكّر بها آيات الذكر فى نسق بديع.

أو ليست هى قلب القرآن الحكيم و محور الحديث فيها الرساله،و لكنّ الرساله تتصل بحقيقه البعث،لأنّها تـذكّر به،و لأنّ الرساله دليل المسؤوليه،و تتجلّى مسئوليه الإنسان فى الآخره.

و فى الدرس الأخير من سوره يس تذكّرنا الآيات بهذه الحقيقه عبر بيان شواهد تدبير اللّه لحياه البشر.

بينات من الآيات:

[۷۱]ظواهر كثيره نتعامل معها يوميا،و لكن دون أن نتبصّر ما وراءها من حقائق،و أعظمها نعم اللّه السابغه التى تهدينا الى حبّه و شكره و معرفه أسمائه الحسنى،و من أبرزها قدرته و حكمته،و هما اسمان كريمان يدلان على يوم البعث.

ص:۱۶۹

من تلـك الظواهر امتلاـك ناصـيه الأنعام،فلقـد خلقها اللّه بيـد قـدرته خلقا،ثم أودع فيها منافع شتّی،و سـخّرها للإنسان،و لو شاء لجعلها وحشـيّه صعبه المراس، کما جعل فی البشر حبّ التملک و قدره التملک.أ رأیت لو لم یکن البشر یحب السیطره هل کان یسـخّر شـیئا مما حوله؟! أَ وَ لَمْ یَرَوْا هذه الظاهره المتکرره التی یمرون علیها دون أن یتفکروا فیها،و إذ هم لا یتفکرون فکأنّهم لا یرون شیئا.

أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَیْدِینٰا و اللّه لم یخلق الأنعام خلقا مباشـرا،بأن یقول لها:کونی فکانت،إنّما خلقها عبر شبکه من الأنظمه و السـنن لا تحصـی عـددا،و لعل قوله تعالی:« مِمّٰا عَمِلَتْ أَیْدِینٰا »إشاره الی هذه الحقیقه التی تجعلنا أکثر امتنانا لبارئنا،و أکثر وعیا بقدره ربنا و حکمته،و بالتالی بیوم الجزاء الأوفی.

أَنْعٰاماً فَهُمْ لَهٰا مٰالِکُونَ فهم الآن یملکون تلک الأنعام فعلا،و یسیطرون علیها و یسخّرونها لمنافعهم.

[۷۲]تکـاملیه نعم اللّه دلیـل علمه و قـدرته.إنّک تجـد الإبـل-مثلا-یقوم بـذات الحاجات المتنوعه التی یعیشـها البشـر،فهو یحمله مسافات شاسعه دون کلل.

أ رأیته کیف یقطع الربع الخـالی فی الجزیره العربیه معتمـدا علی ما فیه من اشواک حاده و ماء قلیل؟! أ رأیته کیف یتحمّل وعثاء السفر و العواصف الرملیه الهوج، و یجری فی الرمال المتحرکه کما تجری السفن بین الأمواج؟!و فی ذات الوقت تراه

یسقی الإنسان لبنا سائغا،و إذا اشتهی لحما نحره و استفاد منه،و فیه بعد کل ذلک جمال و عزّه،و کما الإبل سائر نعم اللّه.

وَ ذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ فَمِنْهٰا رَکُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا یَأْکُلُونَ [۷۳]و تجد فی أوبارها و أشعارها و جلودها متاعا و لباسا و بیوتا خفیفه.

وَ لَهُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ وَ مَشٰارِبُ و الهدف الأسمی من نعم اللّه لیس مجرد الانتفاع بها و لکنّه التسامی الروحی الی معرفه الرب و شکره.

أَ فَلاٰ یَشْکُرُونَ [۷۴]و البشر یبحث عن قوّه،و لقد أودع فی ضمیره الإحساس بالضعف الذی یهدیه-إن أحسن التفکّر-الی ربه،و لکنّ الشیطان یغویه عن السبیل القویم، و یوحی إلیه أنّ القوه عند الآلهه التی تعبد من دون اللّه.

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَهً لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ فهم یعبدون القوه السیاسیه و القوه الاقتصادیه و الوطن و العشیره و الحزب و الشمس و القمر و النجوم و الأحجار التی ترمز إلیها،و یبتغون عندهم القدره عند الصراع،لعلهم ینصرونهم أمام القوی المعادیه.

هکذا بیّنت الآیه الکریمه خلفیه الشرک باللّه،و هی البحث عن قوه تنصرهم فی مواجهه الطبیعه أو الأعداء.

[۷۵]و لکن من ینصر من؟هل الآلهه تنصرهم أم هم ینصرونها؟

لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ يقول ربنا بصراحه بالغه،و لو لم يكن فى القرآن إعجاز إلاّ هذه الآيه لكانت شاهده صدق على أنّه من عند اللّه،إذ يزعم الناس-إلاّ قليل ممن هداهم اللّه- أنّ الطاغوت أو أولى الثروه و الجاه و العشيره ينصرون من يشرك بهم،بينما يؤكد ربنا أنّ العكس هو الصحيح،و عند ما نتفكر جيدا نعرف أنّ الآلهه هم الذين يتبعونهم،فمن الطاغوت لو لا اتباعه الذين استسلموا له رغبا و رهبا أو ضلاله؟ الأثرياء فظلمهم و استضعافهم إنّما بسكوت الناس عنهم أو طمعهم فى أموالهم، و هكذا العشيره و الوطن و الحزب.

وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ و لعل هذا التعبير يوحى بأنّ قوه الآلهه هى مجموع قوه التابعين،فهم رمز التجمع لا أكثر و لا أقل.

و قال المفسرون:إنّما عنى اللّه بذلك يوم القيامه حيث يصطف المشركون خلف آلهتهم المزعومه و يساقون الى النار زمرا،و لا ريب أنّ الأمر لكذلك،و لكن-يبدو لى -أنّ الآيه تشمل الدنيا أيضا،إذ المشركون هم أنصارها هنا،و فى الآخره تتجلّى هذه الحقيقه أكثر فأكثر،قال ربنا سبحانه:« وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا* كَلاّٰ سَيَكْفُرُونَ بِعِبٰادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » (1)و كلمه أخيره:إنّ العوامل المؤثره فى حياه البشر ليست جميعا ظاهره بل هى عوامل غيبيه،و حتى العوامل الظاهره كالسياسه و الإقتصاد و ما أشبه فهى-لو أمعنا النظر-تتصل بعوامل غيبيه،و بالتالى لا تستطيع القوى المعبوده من دون اللّه

١- ١) مريم/(٨١-٨٢).

أن تؤثر فيها شيئا،ثم إنّ قوتها الموهوبه محدوده بعالم الدنيا،و هى وبال فى العالم الثانى.إنّ الغباء يبلغ مداه حين يتخذ الإنسان نظيره الإنسان إلها من دون ربّ العزه لينصره أمام سنن اللّه و قدره و قضائه،و لكنّ هذا الغباء هو بالضبط ما يركبه الإنسان إلاّ من عصمه اللّه،فأغلب الناس يشركون بربهم،و يعبدون بنسبه معينه آلهه القوه و الثروه و الجاه،فيفقدون بذات النسبه قوتهم التى وهبها اللّه لهم لمصلحه تلك الآلهه،و هم يزعمون أنّهم يكتسبون منها قوه و منعه و عزا.

كما أنّهم بشركهم يفقدون نصر اللّه لهم،و لو أنّهم توكّلوا على اللّه،و توجّهوا تلقاء نعمه التى أسبغها عليهم ظاهره و باطنه،و فجّروا طاقاتهم التى لا تحدّ، و استخرجوا من أنفسهم كنوزها التى لا تنفد،إذا حقّقوا المزيد من تطلعاتهم بتأييد ربهم و تسديده.

و لعمرى هذا سر العظمه و مفتاح الفلاح لو كانوا يعقلون.

[۷۶]و حين يتخلّص الإنسان من حجاب الشرك يتهيّأ نفسيا و من ثم عقليا لتقبّل المسؤوليه،لأنّ أعظم دافع للبشر نحو الشرك الهروب منها،و التخلّص من جزاء أعماله حسب زعمه،و هكذا يذكّرنا السياق بيوم الجزاء الأوفى بعد أن يرفع شبهه المجادلين فيه،القائله:كيف يحيى اللّه الموتى؟إنّ هذه الشبهه آتيه من نسيان الخلق،و عظمته التى تدل على عظمه الخالق،أمّا إذا تذكّرناه فإنّ الشبهه تتلاشى.

و يبدأ الحديث ببيان أنّ كلامهم الجدلى يجب أن لا يحزن أصحاب الرساله، لأنّه محفوظ عند اللّه،يعلم اللّه خباياه كما يعلم ظاهره،فلا ينبغى أن يقرّبه و يؤخذ مأخذ الجد.

ص:۱۷۳

فَلاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ و يبدو أنّ الحزن بالكلام قد يجر الى التنازل لهم تحت ضغطه فلذلك نهى عنه.

إِنّٰا نَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ من نيّات مغايره للكلام حيث أنّهم يعلمون أنّهم كاذبون و إنّما يتكلمون جدلا.

وَ مٰا يُعْلِنُونَ فيسجل عليهم للجزاء.

[۷۷]ثم يعرف ربنا أكبر شبهاتهم التى تشكّك بقدرته-تعالى-و يقول:

أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسٰانُ قالوا:إنّ الرؤيه هنا تعنى العلم،أى أو لم يعرف الإنسان،و نقول:نعم.

و لكن مثل هـذا العلم لا يحتاج الى أكثر من نظر،و نحن لم نشـهد خلق أنفسـنا، و لكنّا شـهدنا كيف خلق نظراؤنا من الناس حتى لكأنّنا شهدنا خلق أنفسنا.

أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ نُطْفَةٍ هـذا الماء المهين هـذا ما نراه،أمّا ما نعلم فإنّ الخلق تمّ بجزء بسـيط جـدا من هذه القطره الدافقه من الماء.انها الخليه المتناهيه فى الصغر من ماء الرجل و ماء المرأه.

و بعد أن خلق من الماء المهين ربّاه اللّه من خلق لخلق،و من طور لطور،و من مرحله لأخرى حتى سوّاه رجلا ناطقا.

ص:۱۷۴

فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ و قد بلغ به الكمال مداه حتى اغترّ به،و أخذ يجادل-و بوضوح تام-خالقه و رازقه! [۷۸]و من مظاهر جدلهم الباطل أنّ الواحد منهم يأتى بقطعه عظم باليه، و يسعى الى رسول اللّه،و يزعم أنّه سوف يخصمه به.

وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً يبدو أنّ المثل هو الواقعه التى يستشهد بها على فكره أو حقيقه،و إنّما يقال ضربه لأنه يشبه غيره و الضرب هو الشبيه.

وَ نَسِيَ خَلْقَهُ و لو لم ينسه خلقه لما ضربه مثلا.

أ فلم ير أنّه قد خلق من غير مثال يحتذى؟! فكيف يستبعد قدره اللّه على الخلق؟! قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ لقد جاء أبىّ بن خلف الجمحى معه عظم نخر ففركه ثم قال:يا محمد من يحيى العظام و هى رميم؟!فأنطق اللّه محمدا بمحكم آياته و بهته ببرهان نبوته قال:« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »فانصرف مبهوتا.

[۷۹]لقد كانت إزاله الشبهه قد بدأت مع بدايه هذه المجموعه من الآيات حيث مهّد اللّه لها بالنهى عن الحزن لما يقولونه لأنّه بعلم اللّه،ثم ذكّر الإنسان بأصل خلقه من النطفه مشيرا الى تلك البدايه البسيطه التى يراها الإنسان،ثم نوّه بذلك مره أخرى حين قال:و نسى خلقه،ثم قال:

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ هنالك أنشأها إنشاء و ابتدعها ابتداعا من غير مثال يحتذى،و لا أدوات تستخدم،و لا أنصار و شركاء يساهمون.إنّ تذكّر هذه الحقيقه تذهب أىّ شك فى قدره البارئ فى ذلك،بلى.يبقى تساؤل قد يلقيه الشيطان فى قلب الإنسان الذى يسعى بدوره للتخلص من ثقل المسؤوليه و هاجس الجزاء،و التساؤل هو:كيف يجمع اللّه الأجزاء المتناثره فى أقطار الأرض حول هذا البدن؟ فيقول ربنا و هو يشير الى تنوّع خلق اللّه،الذى يهدينا الى علمه المحيط:

وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ فأنّى ألقيت بصرك و أدرت بصيرتك رأيت خلقا عجبا،حسن التقدير،جميل الظاهر،متين الصنع،متناسبا مع هدفه،متناغما مع نظائره،ثم رأيت من أنواع الأحياء،و ألوان النباتات و مختلف المعادن،و صنوف الجمادات،ما لا يدع عندك شبهه فى سعه قدره بارئها،و محيط علمه و قديم خبره،فكيف يشك فى إمكانيه إعاده الخلق؟!

جاء رجل الى الإمام الصادق عليه السلام و قال منكرا للبعث:و أنّى له بالبعث و البدن قد بلى،و الأعضاء قد تفرّقت،فعضو ببلده يأكله سباعها،و عضو بأخرى تمزّقه هوامها،و عضو قد صار ترابا يبنى به مع الطين فى حائط؟! قال الإمام مجيبا:

«إنّ الذى أنشأه من غير شىء،و صوّره على غير مثال كان سبق إليه،قادر أن يعيده كما بدأه.

قال:أوضح لی ذلک؟ قال:إنّ الروح مقیمه فی مکانها،روح المحسن فی ضیاء و فسحه،و روح المسیء فی ضیق و ظلمه،و البدن یصیر ترابا کما منه خلق،و ما تقذف به السباع و الهوام من أجوافها،فما أکلته و مزّقته کل ذلک فی التراب محفوظ عند من لا یعزب عنه مثقال ذره فی ظلمات الأرض،و یعلم عدد الأشیاء و وزنها،و إنّ تراب الروحانیین بمنزله الذهب فی التراب،فإذا کان حین البعث مطرت الأرض مطر النشور،فتربو الأرض،ثم یمخض مخض السّقاء،فیصیر تراب البشر کمصیر الذهب من التراب إذا غسل بالماء،و الزبد من اللبن إذا مخض، فیتجمع تراب کلّ قالب الی قالبه فینقل بإذن اللّه تعالی القادر الی حیث الروح، فتعود الصور بإذن المصوّر کهیئتها،و تلج الروح فیها،فإذا قد استوی لا ینکر من نفسه شیئا » (1)و لعل إشاره القرآن الی بدایه الخلقه توحی بنظریه تقول:إنّ الخلیه الأولی التی تلاقحت فی الرحم تبقی علی حیاتها ثم تنمو فی رحم الأرض کما نمت أولا فی بطن الأم،و لکنّ الحدیث المذکور آنفا صریح فی أنّ ذرأت البدن المتناثره فی الأرض تلتحق به أنّی کانت عن طریق المخض،و لنا أن نشبّه ذلک بقطعه مغناطیس إذا حرّکت فی تراب مخلوط بذرات الحدید.کیف تجتمع علیها تلک الذرات؟! [۸۰]ثم یمضی السیاق قبلا فی أنّ البعث حق،و یضرب مثلا من الشجر الأخضر الذی جعل اللّه للناس منه نارا و وقودا،و یقول:

اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نٰاراً فَإِذٰا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ

ص:۱۷۷

۱- ۲) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۳۹۵).

و يقف الإنسان حائرا:لماذا ضرب اللّه مثلا بالشجر الأخضر،و ما هى صلته بواقع النشور؟ قالوا:إنّ العرب كانوا يستخدمون نوعين من النباتات كالزناد لإنشاء النار كما نستخدم نحن الكبريت،و سمّيا ب(صرخ)و(عفار)و كانا رطبين،إلاّ أنّ احتكاكهما كان يولّد النار،فضرب اللّه بهما مثلا على قدرته أو على انبعاث النار الخفيه كما ينبعث الجسد الميت حيّا يوم النشور.

و قال البعض:إنّ البحث العلمى أكّد أنّ كلّ أنواع الوقود من أشعه الشمس، و حتى اتقاد الخشب إنّما هو بتخزّن هذه الأشعه فيه،و إلاّ فإنّ عناصره الأخرى كالماء و التراب لا نار فيها.

ذلك أنّ كلّ عمليه تركيب كيماويه بحاجه إلى امتصاص الطاقه أو بثّها، و عمليه امتصاص الأشجار لثانى اكسيد الكربون بحاجه-حسب هذا القانون- الى الطاقه،و هكذا فهى تستفيد من الطاقه الشمسيه،و تستمر الأشجار فى اختزان الطاقه بصوره منتظمه.

و هذه العمليه لا تقوم بها الأخشاب اليابسه بل الشجر الأخضر،و لذلك ركّز الحديث حوله،بالرغم من أنّ الناس يعرفون أنّ الخشب اليابس أسرع اشتعالا إلاّ أنّه لا يحزّن الطاقه. (۱)

و لكن يبقى السؤال:لماذا ضرب اللّه بهذا مثلا؟!الجواب:

أولا:إنّ ذلك يهدينا الى قدره اللّه الذى ضغط النار فى الماء.أو ليس الشجر الأخضر ينضح بالماء؟فأبصر بربّ يحزن الوقود فى الماء!

۱- ۳) بتصرّف من تفسير نمونه/ج(۱۸)/ص(۴۶۴).

ثانيا:إنّ السنن الإلهيه الخفيّه أكثر من الظاهره للإنسان منها،و ما أوتينا من العلم إلاّ قليلا،و إنّنا نستبعد أشياء لأنّنا لا نعرف الأنظمه،فلو قيل لأحد من أجدادنا:سيأتی يوم يطير جهاز بعشرات الأطنان من الحديد فی الفضاء،بسرعه فائقه لما صدّق،لأنّه لم يكن يعرف قوانين فيزيائيه يعرفها الإنسان اليوم،و قديما

قال الإمام علی عليه السلام :

«الناس أعداء ما جهلوا » (۱)و كذلك البشر ينكر البعث لأنّه لا يعرف ما أودع اللّه فی ضمير الوجود من أنظمه،كما لم يكن يعرف الإنسان كيف يجعل اللّه من الشجر الأخضر نارا، فلعل ذرّات البدن التی تنفصل عنه بعد الموت تبقی ذات صله خاصه به إلی أن يبعث اللّه من فی القبور،أو تطبع عليها سمات تشير الی مصدرها.

ثالثا:إنّ ذرّات الحراره التی تنفصل عن الشمس و تخزن فی الشجر الأخضر تبعث مرّه أخری إليها،و لكن دون أن يعدم منها شیء كما يحسب الجاهل،كذلك ذرأت الجسم.

رابعا:و لعلّ فی الآيه إشاره لطيفه الی قانون الهیّ فی الوجود أنّ فيه الغيب و الشهود،فهناك الشجر الأخضر تحسبه لجه ماء،فإذا فيه كتله وقود مختزنه،كذلك الدنيا شهود الآخره،بينما الآخره غيب الدنيا،فأنت تری جسد الميّت المسیء بينما هو فی النار كما الزناد احتوی علی نار مختزنه،كما أنّ آكل مال اليتيم يحسب أنّه يتناول طعاما شهيّا،و لكنّه-فی الواقع-إنّما يأكل فی بطنه نارا، و الذی يكذب لا يعرف أنّ نتنا خبيثا يخرج من فيه يلعنه به الملائكه،و هكذا.

ص:۱۷۹

۱- ۴) نهج البلاغه/خ(۱۷۲)/ص(۵۰۱).

و هكذا

يـأتى رجـل الى الإمـام أمير المؤمنين عليه السـلام و قـد جاء بعظم كافر فيقول:أنتم تقولون أنّه معـذّب فأين النار التى يعـذّب بها الآـن؟!فيـأتى إليه الإمام بزناد فيقـدحه فيقول:أين كانت النار فى هـذا الزناد؟! [۸۱]البعث و النشـور حقيقه فطريه.أو ليست نفـوس البشـر تنزع الى الخلود؟ و هـذه الجهود الهائله التى يبـذلها البشـر من أجل الخلود،دليل عمق الإحساس بالخلود،و ما أكره الموت فى نظر الإنسان إلّا ايمانه بأنّه جاء ليبقى،و فقط أولياء اللّه الذين يظنون أنّهم ملاقوا ربّهم لا يهابون الموت،و لو أحصـيت أهداف الناس من مساعيهم المختلفه لكان لهـدف اسـتمرار البقاء حصه الأسد فيها،يقول اللّه تعالى لبيان هذه الحقيقه:« وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » (۱)و حيث علم البشـر أنّه لا محاله ميت،فتّش عن بقاء اعتبارى أن فقد القدره على البقاء الحقيقى،فإذا به يسعى للامتداد عبر أبنائه أو آثاره أو حتى تحنيط جسده الميت و بناء المقابر الضخمه عند رفاته.

و حين أراد إبليس إغواء أبينا آدم و زوجه حوّاء و إخراجهما من الجنه، قال لهما: «هَلْ أَدُلُّکَ عَلىٰ شَجَرَهِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لاٰ يَبْلىٰ » (۲)هكذا تراه يثير فيهما حبّ الخلود،و يربطهما بالمعصيه،و كذلك يصنع بأبناء آدم،فإنّه من أعظم أسباب الذنوب حبّ الخلود.

و من هنا

فإنّ الإمام على عليه السـلام حين يسأله أحـدهم:ما هو الحق الشبيه بالباطل؟!يقول:الموت،لأنّ نزعه الخلود لا تـدعه يذعن للموت هذا الذى لا ينجو

ص:۱۸۰

۱- ۵) الشعراء/(۱۲۹).

۲- ۶) طه/(۱۲۰).

منه حى أبدا،و قد قال ربنا سبحانه:« كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ . » إنّ هذا الإحساس الفطرى العميق بالخلود لا يتحقّق فى الدنيا،فهو إذا يتحقّق بالبقاء فى الآخره،فما الموت إلاّ قنطره،و ما الدنيا إلاّ مزرعه،و إنّ الآخره لهى الحيوان.

و لكن تبقى العقبه الرئيسيه أمام البشر جهله بقدره اللّه و احتجابه بما يراه عما لا يراه،بالشهود عن الغيب.

لذلك نرى آيات القرآن تذكّرنا بآيات قدره اللّه،فهذه السموات التى لا تحصى أقمارها و شموسها،و هذه الأفلاك التى لا تحدّ اتساعا،و لا تنحرف عن مسيرها قيد شعره،طوعا لربها و تسليما،و هذه الأرض التى لا تنقضى عجائبها،و هذه الأحياء المتنوّعه التى تتجلّى فى كلّ واحد منها عظائم قدره ربنا الجبّار.أو ليست جميعا دليل قدره اللّه؟! أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بلى.إنّه القادر،و كيف يخلق إن كان عاجزا سبحانه؟! بلى.إنّه القادر،و دليل ذلك تنوّع الخلق،فمن البعوضه المتناهيه فى الصغر، الى الفيل الذى يشبه البعوضه و لكن بحجم أكبر،الى الحوت الذى قد تكون عين واحده منه أثقل من فيل ثم يجوب البحار بسرعه هائله،الى عجائب البحار و رواسى الجبال و نباتات السهول،حتى أنّك لو قضيت عمرك فى معرفه آيات اللّه فى أصغر نبته:كيف تستقى الأرض و تمتص أملاحها،و كيف تمثّل من الشمس ضوءها، و كيف تحافظ على نفسها ضد الآفات و العواصف،و كيف تحقّق هدفها فى هذا

الکون الأرحب...؟نعم.لو فعلت ذلک و عشرات الباقين لما انقضت عجائب تلک النبته الصغيره،و هکذا الحيوان الصغير کالنمله،فإذا زرت مکتبه کبيره فلعلک تجد عشرات الکتب فی نبته متواضعه!و ربما فوجئت بأنّ النمله التی تسحقها برجلک قد حظيت باحترام العلماء فألّفوا فيها عشرات الألوف من الکتب و الدراسات حتی الآن.

هذا التنوّع الکبير الذی لا يحصی أفراده دليل خلاّقيه الرب،و أنّه لا يعجزه شیء فی السموات و الأرض،و أنّه عليم کيف يصنع ما يصنع؟ وَ هُوَ الْخَلاّٰقُ الْعَلِيمُ و لعل التعبير ب«مثلهم»هنا للدلاله علی أنّ القدره تتعلق بجنسهم عموما، و ليس بأشخاصهم فقط، فالذی يستطيع علی مثل الشیء يستطيع عليه،دون العکس،و لسنا بحاجه الی بعض التکلّفات البعيده التی ذهب إليها المفسرون لزعمهم أنّ«مثلهم»تدل علی عوده الناس ليست بأبدانهم بل بأرواحهم فقط.

[۸۲]من أصغر خليه الی أعظم مجره،کلّ مخلوق يؤدی دورا و يحقّق هدفا، بينما يستوی الإنسان علی عرش السلطه،فقد أوتی ما يسخّر به ما فی الأرض جميعا،و توفّر فرصه العيش الرغد لهذا المليک المکرّم.أو لم يقل ربنا سبحانه:

« وَ سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً »« وَ لَقَدْ کَرَّمْنٰا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ »و عند ما نتفکّر فی وجود الإنسان نری کلّ شیء فيه يحقّق هدفا،من أعظم جارحه کالمخ و القلب الی أصغر نسيج.

تعالوا إذا نفکّر:أليس لوجود الإنسان فی الأرض بذاته هدف؟و هل خلقه اللّه عبثا؟فأين إذا حکمه اللّه،التی تتجلّی فی کلّ شیء؟!و أين عدالته التی نری

آیاتها فی السموات و الأرض؟! کلاّ...إنّما خلق الإنسان لهدف أیضا،و هو أن یتکامل الی اللّه،و

قد جاء فی الحدیث القدسی المعروف :

«خلقت الأشیاء لأجلک،و خلقتک لأجلی » و قال ربنا سبحانه:

« أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمٰا خَلَقْنٰاکُمْ عَبَثاً وَ أَنَّکُمْ إِلَیْنٰا لاٰ تُرْجَعُونَ ».

« وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا لاٰعِبِینَ لَوْ أَرَدْنٰا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا إِنْ کُنّٰا فٰاعِلِینَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْبٰاطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذٰا هُوَ زٰاهِقٌ وَ لَکُمُ الْوَیْلُ مِمّٰا تَصِفُونَ ».

و حین تفکر أولو الألباب فی خلق السموات و الأرض عرفوا أنّ الخلق لیس باطلا فقالوا:« رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلًا سُبْحٰانَکَ فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ ».

و لکن هناک من یعرف هذه الحکمه و لکنّه ینکر المعاد أیضا،کالفلاسفه المتأثّرین بآراء الیونانیین القدماء.لماذا؟لأنّهم جهلوا کیف خلق اللّه الخلق،فقال بعضهم:الخلق صادر عن اللّه-سبحانه و تعالی-کما یتدفّق الماء من العین.

فکیف یعود الماء الی العین تاره أخری؟! و قال آخرون:بلی یعود،و لکن لا-لیعذّب أو یجازی علی أفعاله،بل لیلتحق بالمصدر،کما تعود المیاه الی البحار بعد تطواف کبیر! و قد أنکر هؤلاء البعث بالصوره التی جاءت بها کتب اللّه لجهلهم بکیفیه

الخلق،یقول ربنا و هو یوضح قدرته فی أمر الخلق:

إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فلیس فیضا أو صدورا،و لیست دوره وجودیه کما تقول الدهریه و الذین تأثروا بهم من الفلاسفه،إنّما هو فعل محدث لربّ القدره،فحیث أراد خلق المشیئه بعظیم قدرته فخلق الأشیاء بالمشیئه،حسب حدیث مأثور.

و التعبیر ب«یقول»لبیان حدوث الإراده،و إلاّ فربنا غنی عن احداث تحول لفعل الأشیاء و هکذا

جاء فی کلام أمیر المؤمنین علیه السلام :

«یقول لما أراد کونه(کن)فیکون،لا بصوت یقرع،و لا بنداء یسمع،و إنّما کلامه سبحانه فعل منه أنشأه و مثّله،لم یکن من قبل ذلک کائنا،و لو کان قدیما لکان إلها ثانیا » (1)إنّ الکلمات تقف دون تبیان الغیب الإلهی عاجزه کلیله،و إنّما تقرّب إلینا -قدر المستطاع-حقائق الغیب بما هی قریبه منها فی عالم الشهود،فإنّنا-مثلا -حین نرید شیئا نأمر به و الأمر عاده یکون بالتعبیر عنه قولا،لذلک نجد القرآن یعبر أن أمر اللّه بالکلمه أو بالقول.

و قد وهب اللّه هذه القدره لأهل الجنه،فقال فی آیه مضت: « وَ لَهُمْ مٰا یَدَّعُونَ » و قال فی قصه سلیمان:« قٰالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتٰابِ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ».

هکذا بمجرد أن یشتهی أهل الجنه شیئا یجدونه عندهم بإذن اللّه،کذلک بمجرد

۱- ۷) نهج البلاغه/خ(۱۸۶)/ص(۲۷۴).

إراده خليفه سليمان عرش بلقيس وجده عنده.

[۸۳]و فی ختام السوره و بعد أن يصف القرآن ربنا بما ينبغی من القدره و العلم يقدّسه من كل نقص أو عجز أو فقر فيقول:

فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَیْءٍ أولا تری آثار الفقر و الحاجه و الضعف فی كلّ شیء؟إنّ ذلك شاهد مملوكيه لمالك غنیّ مقتدر قوی،هكذا ينطق كلّ شیء بأنّ ربنا سبحانه القدّوس المبارك المتعالی.

و إذا عرفنا قدسيه الرب و قدرته و حكمته آمنّا بالنشور،و كلّما ازداد المرء معرفه بربّه ازداد إيمانا باليوم الآخر.

وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

ص:۱۸۵

سوره الصافّات

اشاره

ص:۱۸۷

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضل السوره:

-۱

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده إلی عبد اللّه علیه السلام قال :«من قرأ سوره الصافات فی کل یوم جمعه لم یزل محفوظا من کل آفه،مدفوعا عنه کل بلیه فی الحیاه الدنیا،مرزوقا فی الدنیا فی أوسع ما یکون من الرزق،و لم یصبه اللّه فی ماله و ولده و لا بدنه بسوء من شیطان رجیم،و لا جبار عنید،و إن مات فی یومه أو لیلته بعثه اللّه شهیدا و أماته شهیدا و أدخله الجنه مع الشهداء فی درجه من الجنه» تفسیر نور الثقلین/ج /۴ص ۳۹۹.

ص:۱۸۹

الإطار العام

تهـدينا سوره الصافات بآياتها الساميه الى ذات الأفكار و الحقائق التى كانت الآيات السابقه فى سوره(يس)تؤكـد عليها بإضافات أخرى،و أسلوب أدبى نفسى جديد.

تبـدأ آياتها بـذكر الملائكه التى تصـطف انتظارا لأمر اللّه،و بـذلك سـميت بسوره «الصافات»كما يحدثنا الدرس الأخير منها عن الجن و الملائكه،و شـبهات الجاهليين حول علاقتهما بربهما،فقـد زعموا بأن لهما علاقه نسبيّه باللّه،و ذهب بعضـهم بعيـدا إذ قالوا بأن الجنّ نتيجه مباشره لعلاقه زوجيه بين الملائكه و ربهم- تعالى عما يشركون-.

بينمـا تحـدثنا الـدروس الوسـطى عن الانبيـاء عليهم السـلام و العلاقه بين السـياقين أن القرآن حينما بيّن خطأ الجاهلين الفظيع فى تصورهم حول علاقه الملائكه و الجن باللّه كان لا بدّ من الإشاره لنفس الخطأ الذى وقع فيه الآخرون عند ما تصوروا بأن هناك

علاقه مشابهه بين اللّه و الرسل،انطلاقا من تقييمهم للمعجز الذى طالما تكرر على يد الأنبياء من دون الآخرين،فاتخذوا ذلك دليلا على انهم أبناء اللّه،و لهذا نجد الآيات تطيل الحديث حول هذا الموضوع مؤكده بأن نبوّه هؤلاء لم تكن بأسباب ذاتيه تكوينيه فيهم،انما أعطاهم الرب هذه المنزله الرفيعه لما وجده فيهم من عمق الإيمان،و صدق العمل،و شجاعه الإقدام،و الإحسان إلى الناس،و لعل الحديث عنهم عليهم السلام فى هذه السوره المباركه يتصل بهذا الجانب من حياتهم،نفيا للبدع الجاهليه.

من هنا نستطيع القول بأن الخط العام لسوره الصافات هو بيان العلاقه السليمه بين اللّه-عزّ و جل-و سائر خلقه،التى تتجسد من جهته فى الإنشاء،و الخلق، و الإبداع،و الرزق،و...و...،اما ما دون هذه العلاقه،فإن هناك معراجا واحدا يتقرب من خلاله الخلق لربهم،و هو الايمان و العمل الصالح.

و حين نتدبر فى جمل بصائر السوره تتجلى لنا المسؤوليه بأظهر صورها، و التى تصعقنا عند قول الرب:« وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ ».

و محور المسؤوليه هو الذى يوصل محاور السوره ببعضها،و أبرزها ثلاثه محاور:

الأول:نفى الأنداد الذين يتخذهم الجاهلون آلهه لعلهم ينصرون.ان غايتهم من عباده الآلهه التنصل من جزاء أفعالهم،و لكن هيهات!ان الملائكه صافون لربهم صفا،و الشياطين محجوبون عن السماء،و ترصدهم الشهب،و المستكبرون محضرون لحساب عسير.

الثانى:الأنبياء و الأولياء عباد اللّه المكرمون،فلا يشفعون إلا لمن ارتضى،و لا يمكن التعويل عليهم لمواجهه سنن الرب،كيف و إنما بلغوا درجاتهم هذه بأنهم

عباد اللّه المخلصون.

الثالث:نسف قواعد التبرير التى يعتمد عليها المجرمون فى اقتراف المآثم، حيث يزعمون أنهم كانوا مجبورين.

و تتصل الصور التى ينقلها القرآن إلينا من يوم المسؤوليه و الجزاء بهذا المحور.

و النسق القرآنى يجعل المحور الأول و الأخير متدرجين،ثم يذكّر بالمحور الثانى الذى يأتى كشاهد مبين لهما،ذلك أنّ القرآن يضرب للحقائق الأمثال،و من أروع أمثلته حياه الأنبياء،الذين أمرنا بأن نسلّم عليهم بكره و عشيّا،ليتّخذهم المؤمنون قدوه و منارا.

ص:۱۹۳

[سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱ الی ۱۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ . وَ اَلصَّافّٰاتِ صَفًّا (۱) فَالزّٰاجِرٰاتِ زَجْراً (۲) فَالتّٰالِیٰاتِ ذِکْراً (۳) إِنَّ إِلٰهَکُمْ لَوٰاحِدٌ (۴) رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ
اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ رَبُّ اَلْمَشٰارِقِ (۵) إِنّٰا زَیَّنَّا اَلسَّمٰاءَ اَلدُّنْیٰا بِزِینَهٍ اَلْکَوٰاکِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطٰانٍ مٰارِدٍ (۷) لاٰ یَسَّمَّعُونَ إِلَی
اَلْمَلَإِ اَلْأَعْلیٰ وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جٰانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ (۹) إِلاّٰ مَنْ خَطِفَ اَلْخَطْفَهَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ (۱۰)
فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنٰا إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِنْ طِینٍ لاٰزِبٍ (۱۱) بَلْ عَجِبْتَ وَ یَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذٰا ذُکِّرُوا لاٰ یَذْکُرُونَ (۱۳)
وَ إِذٰا رَأَوْا آیَهً یَسْتَسْخِرُونَ (۱۴) وَ قٰالُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۵) أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أَ وَ آبٰاؤُنَا
اَلْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دٰاخِرُونَ (۱۸)

اللغه

۱[و الصافات صفا]:کلّ شیء بین السماء و الأرض لم یضمّ قطریه فهو صاف،و منه الطیر صافات إذا نشرت أجنحتها، و قیل جمع صافه و هی الملائکه التی تصف أقدامها للصلاه و الإطاعه أو أجنحتها حال الصعود و الهبوط.و صفّا تأکید له.

۲[فالزاجرات]:الزجر الصرف عن الشیء،و هنا یقصد بها الملائکه التی تزجر الکفار حین قبض أرواحهم أو تزجر من أمر اللّه.

ص:۱۹۴

[مارد]:المارد الخارج إلى الفساد العظيم،و هو من وصف الشياطين و هم المرده،و أصله الانجراد،و منه الأمرد الذى لا شعر له،فالمارد المنجرد من الخير.

۹[دحورا]:الدحور الدفع بالعنف يقال دحر يدحر دحرا و دحورا.

[واصب]:الدائم الثابت.

۱۰[الخطفه]:الخطف هو سلب الشىء خلسه بسرعه.

۱۱[لازب]:اللازب و اللازم بمعنى واحد،أى طين يلصق باليد و هو الطين الصافى.

۱۸[داخرون]:صاغرون أذلاّء،من دخر بمعنى صغر و ذلّ.

ص:۱۹۵

قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دٰاخِرُونَ

هدى من الآيات:

ينصبّ الحديث فى هذا الدرس حول الملائكه و يوم البعث،و يربط الموضوعين ببعضهما أنّ الإنسان قد يكفر بالجزاء رأسا حين لا يؤمن بيوم الجزاء،و قد يكفر به بصوره غير مباشره،و ذلك حين يزعم أنّ الملائكه يشفعون له عند اللّه لأنّهم أبناؤه سبحانه.

و ما دام السياق يكرّس روح المسؤوليه فلا بد من معالجه هذين الموقفين معا، لأنّهما يشتركان فى المحصّله النهائيه،و هى التنصّل من المسؤوليه.

فالشرك باللّه من خلال الاعتقاد بربوبيه الملائكه أو الجن أو الآلهه المزيفه الأخرى،له مبرّر نفسى هو محاوله التملّص من المسؤوليه.إنّ من الصعوبه على الناس تحمّلها،مع علمهم بها،فلكى يتخلّصوا-بزعمهم-من حدّيه أوامر اللّه، و يتهرّبوا من الالتزام بالدين،تراهم يبحثون عن مبرّر نفسى لأنفسهم مما يدفعهم للتصوّر بأنّ الملائكه أو الجن أو الصالحين كعيسى عليه السلام سوف يدفعون سخط الرب

و عذابه عنهم بالشفاعه أو الفداء.

و يوم القيامه هو يوم تتجلّى فيه المسؤوليه بشكل واضح و أكيد، و تأليه هؤلاء للملائكه و الجن و الأنبياء،يأتى لحل إشكاليه ذلك اليوم،و لكن هيهات،لهذا أكّد ربنا فى نهايه هذا الدرس مسئوليه الإنسان الحتميّه بقوله:« قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ ».

بينات من الآيات:

[۱-۳]يصوّر لنا السياق فى مطلع هذه السوره الكريمه مشهدا من الغيب حيث تصطّف الملائكه فى السماوات العلى،بما لا يعلم عددها إلاّ اللّه عزّ و جل،انتظارا لتلقّى الوحى من ربها،ثم تنزل به الى حيث يأمرها زاجره ما يعترضها من العقبات،تتنزل به و تتلوه على النبى،و من هنا يمكننا القول بأنّ تنزيل الوحى ليس مخصّصا بجبرئيل إنّما يوجد معه ملائكه آخرون يؤدّون نفس الدور،و فى القرآن نجد تعبير رسل اللّه،يعنى تاره الملائكه التى تهبط بالوحى و يعنى تاره أخرى الملائكه الذين يتوفّون الأنفس،بينما يقول اللّه تعالى:« قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » (۱)يعنى بذلك عزرائيل،و بجمع الآيات الى بعضها نستوحى بأنّ ملك الموت الأعظم زعيم لنزعه الروح،أمّا بقيه الملائكه فهم أعوانه على ذلك،كما أنّ جبرئيل الملك الأعظم-الذى يتنزل بالوحى على الأنبياء و الرسل-زعيم لطائفه من الملائكه الذين يؤدّون نفس المهمه.

وَ الصَّافّاتِ صَفًّا يقسم اللّه بالملائكه التى تصطّف انتظارا لأمره و وحيه،ثم تهبط لإنفاذ أمر

ص:۱۹۷

۱- ۱) السجده/(۱۱).

الرب،زاجره العقبات فى طريقها،كالطبقات الموجوده بين الأرض و السماء، و الشياطين التى تحاول استراق السمع،أو حجب اللّه عن أنبيائه و رسله.

فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً كما أنّ من صفاتها تلاوه الوحى على الأنبياء،و التلاوه من التتالى أى التتابع مما يدل على أنّ وحى اللّه لهم لا ينزل مره واحده،إنّما يتنزّل مفرّقا،و ذلك مما تستدعيه الحكمه فى التغيير.

فَالتّالِيَاتِ ذِكْراً [۴]فالملائكه إذن ليسوا آلهه من دون اللّه،إنّما هم مسلّمون لأمره،و حمله وحيه الى الخلق،فلا تصح عبادتهم،و إنّما عرّفنا اللّه بجانب من دور الملائكه و هو شىء من الغيب،لأنّ إشراك طائفه من الناس بالملائكه نابع من جهلهم لحقيقه هذا الخلق،لهذا نجد القرآن بعد هذا التعريف المختصر و البليغ فى نفس الوقت،ينطلق لتأكيد حقيقه التوحيد قائلا:

إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوٰاحِدٌ و يلاحظ ورود ثلاثه تأكيدات على هذا الأمر،هى القسم و هو أعظمها و إنّ التوكيديّه و اللام فى عباره لواحد،الواقعه فى جواب القسم.

[۵]و لكى لا يشبع الإنسان ميوله الفطريه نحو العبوديه للرب باعتقادات باطله تجاه الكون و بعض المخلوقات يبيّن اللّه بأنّ كلّ ما فى الكون هو مخلوق مفتقر اليه فى وجوده،و هذا البيان يعطى البشر شعورا بالانسجام مع الطبيعه من حوله و هو يعبد ربه،و على العكس من ذلك لو أشرك باللّه.

ص:۱۹۸

رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ رَبُّ الْمَشٰارِقِ و لعل الحقائق العلميه القائله بأنّ لكل نجم و كوكب مدارا خاصّا به،فمشرقه و مغربه يختلف فيه عن غيره،تكشف عن جانب من هذه الآيه التى جاءت كلمه المشارق فيها جمعا.

و هناك احتمال آخر لمعنى الكلمه هو:إنّ رحله الشمس من عام لعام(أو بالأحرى حركه الأرض السنويه حول الشمس)تستدعى وجود مشارق لها بعدد أيّام السنه.

و لعل تخصيص المشارق دون المغارب بالذكر إنّما هو بسبب أنّ عبّاد الشمس يسحرهم شروقها فيعبدونها فيها،و لذلك استدعى التأكيد على أنّ اللّه هو ربّ المشارق.

[۶]أمّا عن الكواكب التى يتخذها فئام من الناس معبودا من دون اللّه،إمّا لما يرون من اعتقادهم أنّ ظهورها و غيابها يؤثّر فى حياه البشر،أو لأنبارهم بروعتها، فإنّ القرآن يوضح دورها فى السماء فيقول:

إِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا القريبه من الأرض...

بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ هذه الكواكب قد تكون موجوده فى السماوات الأخرى،و لكنّها لا تكون زينه لها،بسبب انعدام الأوكسجين و الهواء من فضائها،مما يمنع بقاء الضوء أو انعكاسه.

ص:۱۹۹

[۷]و بالإضافه الى هـذا الجمال يشير السياق الى القوه و المتانه فى خلق السماء، حيث جعل فيها الرصد و الحرس،يمنعون نفوذ الشياطين الى الملأ الأعلى.

وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ [۸]و تهدم هـذه الآيه الكريمه العقيده الباطله،التى تقول بمعرفه الجن لجميع الأقدار التى جرت فى الماضى،و ما تجرى الآن،و ما ستقع مستقبلا،لأنهم يتصلون بالغيب و يطّلعون عليه،و ينفى القرآن ذلك نفيا مباشرا بقوله:

لاـ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى لا يستطيعون التجسّس أو استراق السمع من اللّه،و هو يوحى للملائكه بما يقدّره و يقضيه،لتباشر تنفيذها بإرادته تعالى.

وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ يقذفهم حرس السماء بأسلحتهم لو حاولوا النفوذ و اختراق الحجب،فهم فى يقظه دائمه.

[۹]و يدحرون الشياطين.

دُحُوراً عند تسلّلهم لاستراق السمع،كما يكتب عليهم ذنبا يجمع الى جرائمهم الأخرى،فينالون بذلك العذاب الشديد فى النار بعد الحساب.

وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ

ص:۲۰۰

قال الإمام الباقر علیه السلام :

«عذاب واصب أی دائم موجع،قد وصل الی قلوبهم » (1) [10]و الشیاطین یسعون جهدهم للحصول علی بعض المعلومات من السماء من أجل إضلال أهل الأرض بها،بعد تضمینها الأفكار الباطله،و ما عند الكهنه و المنجّمین من الأخبار الصائبه هو من هذا النوع،فهم یجلبون ثقه الناس بهم،من خلال الجزئیات الصحیحه حتی یثقون بكل ما یصدر عنهم من الباطل.

إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَهَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ و فی الآیه و آیات أخری مشابهه دلاله علی أنّ الشیاطین تتمكّن من الحصول علی بعض الأخبار،من خلال مغامراتها المستمره.

كما نستوحی من الآیه و آیات أخری أیضا فی القرآن أنّ حدیثا یدور لدی الملأ الأعلی عما یجری فی الدنیا،متی ینزل المطر،متی تحدث الزلازل،و...و...و لا ریب أنّ للظواهر الواقعه مستقبلا إرهاصاتها و دلالاتها،و لعل الحاسه السادسه، و النظر المغناطیسی،و الانتقال التلقائی،و التنبّؤات الصحیحه،و الأحلام،و حتی بعض أبعاد السحر و الكهانه و العرافه و...و...تدل علی وجود مبشّرات و منذرات قبل وقوع الحوادث.

أمّا الذین یزعمون بأنّهم یتبعون الجن و الشیاطین فإنّهم خاطئون،لأنّ الجن أساسا لا یملكون من علم الغیب شیئا،حیث یمنعهم حرس السماء من ذلک.

[11]و بعد هذه المقدمه البلیغه التی حطّمت أسطوره الشرک بالجن،و التصوّر

ص:201

1- 2) نور الثقلین/ج(4)/ص(400).

بأنّها آلهه من دون اللّه،يخلص السياق الى تساؤل من شأنه أن يهزّ نفوس الكفار و المشركين و عقائدهم من الأعماق، و يبعثهم على التسليم للرساله و عقائدها الصائبه لو أرادوا ذلك.

يقول تعالى:

فَاسْتَفْتِهِمْ أيّها الرسول و اسألهم.و الاستفتاء هو استطلاع الرأى...

أَ هُمْ يعنى الكفار و المشركين...

أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لاٰزِبٍ و لتفسير هذه الآيه ثلاثه أوجه:

الأول:أنّ المعنى بالتساؤل هم الملائكه،و لا يملك الإنسان إجابه سوى الاعتراف بتفوّقها الذاتى عليه من حيث القوه،فهى أقوى حتى من الجنه،التى يتصوّرها الإنسان لضعفه أنّها آلهه،فهى من جهه القياس أولى بادّعاء الالوهيه و التمرّد على اللّه،لكنّنا نجدها خاضعه له مسلمه لأمره،فلما ذا إذن هذه النزعه نحو الربوبيه فى بعض بنى البشر أو التكبر،و هم ضعفاء فى الخلقه حيث عنصرهم الطين اللازب؟! الثانى:إنّ المقصود بالخلقه الشديده هم الجن،و ما داموا أضعف من مقاومه قدره اللّه و عذابه فلما ذا يشرك البعض بهم،و هذا الأمر يستوجب العذاب الأليم

ص:۲۰۲

الذی لا تحتمله أبدانهم الطینیه الضعیفه؟! الثالث:إنّ الآیه تشیر الی سائر خلق اللّه فی الکون، کالسماوات و الأرض و الکواکب حیث تتجلّی آثار قدره اللّه،التی دفع التشکیک فیها بالإنسان الی الکفر بالبعث،فإذا ما تفکّر الإنسان فی خلقها وثق بقدره ربه،و بالتالی آمن بیوم البعث،و هذا أظهر الوجوه فیما یبدو لی.

[۱۲]و مشکله الإنسان تجاه الحقائق الکبیره أنّه لا یستوعبها إلاّ إذا اتصف بسعه الأفق و التعقّل،و کلما کان العقل کبیرا کان صاحبه أقدر علی اکتساب المعرفه،و عقل الحقائق،

و الإمام علی علیه السلام یقول :

«یا کمیل ابن زیاد:إنّ القلوب أوعیه فخیرها أوعاها » (۱)و العاقل حینما یصغی للحقائق أو یشاهدها یتعجّب منها و لکنه یصدّقها،فلا یکذبک لو قلت له بأنّ الدلفین یستخدم الآن فی عملیات التجسّس أو أنّ العلم الحدیث اخترع جهازا فلق به رأس البعوضه.أمّا الجاهل فهو لا یکذّب الحقائق و حسب،بل و یستهزئ بصاحبها،و یسخر منه،و قد یوصمه بالجهل و الجنون، و فی الوقت الذی یدل موقف الإعجاب علی نموّ العقل،و سعه الصدر،و استیعاب الحقیقه،فإنّ موقف السخریه دلیل علی ضیق الأفق،و جمود الفکر،و القرآن یصف الرسول بالإعجاب،بینما یصف الکفار و المشرکین بالسخریه.

بَلْ عَجِبْتَ وَ یَسْخَرُونَ [۱۳]و من شواهد تحجر قلوبهم،و جمود عقولهم،أنّهم لا ینتفعون بالذکر، و قد یتعمّدون التغافل عن الحقیقه.

۱- ۳) نهج البلاغه/ح(۱۴۷)/ص(۴۹۵).

وَ إِذٰا ذُكِّرُوا لاٰ يَذْكُرُونَ و التذكير هو إثاره معلومات الإنسان فى ذاكرته ممّا يدلّ على أنّ عقل الإنسان يحتوى على حقائق كثيره لو استثاره صاحبه.

[۱۴]و هؤلاء ليس فقط لا يعودون الى ذاكرتهم إذا استثيرت،إنّما يرفضون الانصياع للحق مع ظهور الآيات و الشواهد عليه،و أعظم من ذلك جرأه على اللّه أنّهم يستثيرون الناس للسخريه على الحق.

وَ إِذٰا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ و قد تكون فى الآيات إشاره الى ثلاث مراحل يمر بها هؤلاء فى رفضهم للحق:

الأولى:السخريه بالحق لمجرد رؤيته،و الثانيه:قسوه القلب،و هى نتيجه للسخريه حيث تتراكم عليه الحجب،فلا يعود صاحبه قادرا على التفاعل مع التذكره، و مطابقه الحق الخارجى مع الفطره البشريه و العقل،و الثالثه:محاربه الحق و محاوله صدّ الناس عنه.

[۱۵]و من أجل أن يبرّر هؤلاء كفرهم بالحقيقه،و يضلون الناس عنها يلجأون الى إثاره الشبهات حول الحقائق،الشبهه الأولى حاولوا من خلالها تشكيك الناس فى أصل الرساله.

وَ قٰالُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ و اختاروا تشبيهها بالسحر،لأنّه أقرب الأمور و أشبهها للحق ظاهريا،و من قصه النبى موسى عليه السلام يتضح لنا أن حبال السحره خيّلت للناس أنّها تسعى،إلاّ أنّ الفرق بين السحر و الحق أنّ السحر لا واقع له،بينما الحق واقع قائم.

[۱۶]و الشبهه الثانيه قالوا:كيف يبعث الإنسان بعد أن يصير ترابا و أعضاء ممزّقه؟!لأنّهم يريدون حياه لا مسئوليه فيها،و هذا الاعتقاد يلتقى مع عبادتهم للجن و سائر الشركاء الذين يعبدونهم ليرفعوا عنهم المسؤوليه بالشفاعه.

أَ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ [۱۷]ثم يضيفون استهزاء و سخريه:

أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ الذين تلاشوا فى التراب؟! [۱۸]فيجيبهم اللّه على لسان نبيه(ص)إذ يترفّع عن مخاطبتهم تحقيرا لهم و إصغارا،و هكذا لا نجد فى القرآن و لا أيّه واحده،تشتمل على خطاب مباشر من اللّه للمشركين و الكفار على صعيد الدنيا:

قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ أى ساجدين مستسلمين للإراده الإلهيه،حيث تنتهى الحياه الدنيا و حريه الإنسان تباعا لها،و لا يبقى هناك إلاّ العمل و الحساب،حيث تتجلّى المسؤوليه التى لا محيص منها تجليّا تامّا.

ص:۲۰۵

[سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۹ الی ۳۹]

اشاره

فَإِنَّمٰا هِيَ زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ فَإِذٰا هُمْ يَنْظُرُونَ (۱۹) وَ قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا هٰذٰا يَوْمُ اَلدِّينِ (۲۰) هٰذٰا يَوْمُ اَلْفَصْلِ اَلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱)
اُحْشُرُوا اَلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلىٰ صِرٰاطِ اَلْجَحِيمِ (۲۳) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ
(۲۴) مٰا لَكُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ اَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ (۲۷) قٰالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنٰا
عَنِ اَلْيَمِينِ (۲۸) قٰالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹) وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنٰا قَوْلُ رَبِّنٰا إِنّٰا
لَذٰائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْنٰاكُمْ إِنّٰا كُنّٰا غٰاوِينَ (۳۲) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي اَلْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) إِنّٰا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۳۴) إِنَّهُمْ
كٰانُوا إِذٰا قِيلَ لَهُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَللّٰهُ يَسْتَكْبِرُونَ (۳۵) وَ يَقُولُونَ أَ إِنّٰا لَتٰارِكُوا آلِهَتِنٰا لِشٰاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جٰاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ
اَلْمُرْسَلِينَ (۳۷) إِنَّكُمْ لَذٰائِقُوا اَلْعَذٰابِ اَلْأَلِيمِ (۳۸) وَ مٰا تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹)

ص:۲۰۶

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ

هدی من الآیات:

یحدثنا السیاق فی هذه المجموعه من الآیات عن جوانب من الیوم الآخر،حیث الصیحه العظیمه فإذا بالظالمین قیام ینظرون و ینتظرون عذاب اللّه.و هناک تتجلّی المسؤولیه،التی طالما تهرّبوا منها فی الدنیا،فتسقط تبریراتهم التی زعموا بأنّهم قادرون علی جعلها وسیله للتخلص من جزاء أعمالهم.

و التی من بینها إلقاء المسؤولیه و اللوم علی الآخرین،إذ یدّعی البعض بأنّه کان مکرها و مجبورا من قبل السلطات أو القوی الاجتماعیه.

و من أبرز أدلّه المسؤولیه فی الدنیا وجود الجزاء،فالذی یرکب سفینه ثم تغرق یکون مسئولا بنسبه معینه عن غرقها،مهما برّر الأمر بغفله ربّانها مثلا،و هکذا لو کنا فی مجتمع یحکمه الظالم ثم سکتنا عنه فشملنا الذل و البلاء،فإنّ ذلک دلیل مسئولیتنا عن الوضع،حتی لو برّرنا بثقافه الجبر أو فلسفه الانتظار.

و لكى يعمّق القرآن شعورنا بالمسؤوليه،و لا- يدع التبريرات تحجبنا عن هذا الأمر الخطير،و الأساسى فى حياه البشر،يصوّر لنا مشاهد من يوم القيامه،و يثير فيها جانبا من التبريرات،التى يتشبّث بها الظالمون آنذاك،مع ردّها ردّا قاطعا،و كلّ ذلك فى صوره حوار بينهم و بين اللّه و الملائكه،و إنّما يرينا السياق هذه المشاهد من الآخره لكى تنعكس على حياتنا الدنيويّه فى صوره إحساس نفسى و عملىّ عميق بالمسؤوليه.

بينات من الآيات:

[۱۹] فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ الزجره تعبير آخر عن النفخه،و هى صوت يصدره أحد الملائكه بإذن اللّه فيميت الناس أو يبعثهم للحياه،كيفما أراد تعالى،و قد يفهم من ذلك أن انبعاث الحياه فى الأرواح و العظام الميته بحاجه الى تفاعلات سريعه جدا،و هذا ما توفّره الزجره، التى تبعث الناس أحياء و فى كامل وعيهم للحساب،و إذا كان الإنسان فى الدنيا يخلق جاهلا ثم يتدرّج فى المعرفه ليصل الى حد من الكمال،فإنّه يوم البعث و بعد الزجره ينهض بقوه كامله،و وعى تام.

[۲۰]و أول نظره يلقيها الظالمون الى ما حولهم،تكفيهم علما بمصيرهم،حيث الويل و الثبور،و قد كانوا محجوبين عن هذه الحقيقه فى الدنيا،بسبب ذنوبهم و تكذيبهم بالرساله الإلهيه.

و من طبيعه البشر أنّه لا- يعترف بوقوعه فى الخطأ و الهلكه إلاّ- قليلا،و فى اللحظات التى ييأس و يفقد فيها أدنى أمل بإمكانيه التبرير.

فالظالمون إذن يحاولون أن لا يعترفوا بخطئهم أو ضعفهم،و هلكتهم فى الدنيا،

و لكنّهم يومئذ لا يملكون سوى الاعتراف،و نبذ التبريرات التى تشبّثوا بها فى الدنيا للفرار من المسؤوليه.

وَ قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا هٰذٰا يَوْمُ الدِّينِ و الدين هو مجموع الفروض و الواجبات التى فرضها اللّه على الناس،كإقامه الصلاه و العدل و...و...و بالتالى فإنّ الدين هو المسؤوليه،و قد تهرّب هؤلاء منها و لم يتحمّلوها،لكنّهم وجدوها يوم البعث هى الحاكمه،فعلموا بأنّهم هالكون و خاسرون،و قد يكون معنى الدّين هنا خصوص الجزاء.

[۲۱]و يؤكّد لهم المنادى من قبل اللّه-و هو أحد الملائكه-هذه الحقيقه، و أنّ هذا اليوم ليس للجزاء و حسب،إنّما هو يوم الجزاء العادل،الذى يفصل فيه بين أصحاب الجنه و أصحاب النار.

هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ و فى الآيه إشاره صريحه بأنّ التكذيب هو الذى دفع بهؤلاء الى عدم تحمّل المسؤوليه،بل الى الظلم و الجور،فمن الطبيعى أنّ الإنسان الذى يشعر بأنّه لا يجازى على أعماله السيئه سوف يتمادى فيها،و من هذا المنطلق يكون الإيمان بالآخره حجر الزاويه فى توازن فكر و سلوك الإنسان.

[۲۲-۲۳]ثم يأمر اللّه بجمع العاصين الى بعضهم،و إدخالهم النار،و هم ثلاثه أنواع:

۱-الظالمون،و هم الذين يظلمون أنفسهم و يظلمون الآخرين.

۲-الآلهه المزيفه التى يعبدها الظالمون من دون اللّه،كالأصنام الجامده،

و الأخری المتحرکه،أمثال الطغاه،و أصحاب المال،و علماء السوء.

۳-الأزواج،و قد قال بعض المفسرین:إنّ المقصود بالکلمه ظاهرها و هی الزوجه،و هذا یعنی أنّ الزوجه لا یمکنها أن تبرر عدم تحمّل المسؤولیه بأنّ زوجها لا یقبل أو لا یسمح لها بذلک،و إلاّ فإنّها سوف تلقی العذاب و تدخل معه الی النار.

و ثمّه تفسیر آخر للکلمه و هو:إنّ المقصود بالأزواج هم الأشباه و النظائر، و یعنی ذلک أنّ کل جماعه تتجانس مع جماعه أخری فی عملها فإنّها تحشر معها، کالخمّارین و النمّامین فإنّهم یحشرون مع أمثالهم.

و یبدو أنّ الأزواج هم النظائر المکمّله لبعضها،و یقال لمثنی الحذاء و النعل زوج،لأنهما یتکاملان و یؤلّفان شیئا واحدا،و من هنا فإنّ کلمه الأزواج تشمل أولئک الذین یسکتون عن الظلم و یرضون بأفعالهم،لأنّ الظلم زائدا السکوت عنه و الرضی به یتکاملان و یلدان واقع الظلم و التخلّف و الإرهاب،و إذا صح هذا التفسیر فإنّ القرآن یقسّم الناس الی ثلاث فئات:

الأولی:أئمه الظلم و الجور و ما یرمز لهم من الأصنام الجامده.

الثانیه:أتباع أئمه الظلم،و أشیاعهم الذین ینفّذون الظلم مباشره،کالجند و أجهزه الاستخبارات و الاعلام و...و...

الثالثه:الساکتین عن الطواغیت و أعوانهم من سائر الناس،و هؤلاء جمیعا یجمعون و یساقون الی النار بأمر اللّه إذ یقول یوم القیامه:

اُحْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللّٰهِ

و نستلهم من هذه الآيه-كما من آيات عديده أخرى-أنّ أعظم ما يسأل عنه الناس يوم القيامه الولايه،فهم مسئولون عن القياده التى كانوا يتبعونها،و الآلهه التى كانوا يعبدونها من دون اللّه،كالطاغوت السياسى و الثقافى و الاقتصادى، و بالتالى النظام الاجتماعى الذى كانوا يخضعون له.

فَاهْدُوهُمْ إِلىٰ صِرٰاطِ الْجَحِيمِ و لعلنا نفهم من قوله تعالى:«فاهدوهم»أنّ الذين تقدّم ذكرهم يحشرون الى جهنم عميانا عمى ماديا،تجسيدا للعمى المعنوى الذى اختاروه لأنفسهم فى الدنيا، و فى ذلك قوله تعالى:« وَ مَنْ كٰانَ فِى هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِى الْآخِرَهِ أَعْمىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلاً » (1)،فهم بحاجه إذن الى من يدلّهم على صراط النار،و يهديهم الى حيث يستقرّ بهم المصير.

[۲۴]و لكن هل ينتهى كل شىء؟كلّا...إنّما يوقف هؤلاء للحساب، و الحساب أبرز تجليات العداله الإلهيه و المسؤوليه البشريه،فمن جانب يدخل العصاه الجحيم و هم قانعون بعداله اللّه،و أنّ هذا المصير جاء نتيجه لعملهم لا نتيجه لظلم،و من جانب آخر يصلون الى اليقين بالمسؤوليه التى أنكروها فى الدنيا.

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ عن أفكارهم،و أقوالهم،و أعمالهم،و قبل كلّ ذلك عن إمامهم و خطّهم الدينى و السياسى العام.

[۲۵]و أول الأسئله التى توجّه إليهم:

۱- ۱) الإسراء/(۷۲).

مٰا لَكُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ فمن عاده الإنسان فی الدنيا أنّه يقدم على الظلم و عموم الخطيئه اعتمادا على الآخرين،فالشرطی الذی يعتقل المجاهدين يعتمد على مسئول فرقته،و هذا الآخر بدوره يعتمد على مدير الشرطه،و هكذا دواليك،و يشكل الجميع شيئا واحدا هو جهاز ما يسمّى بالأمن أو الحزب الحاكم الذی يعتمد أفراده فی الظلم على بعضهم.

و هؤلاء تتقطّع بهم الأسباب و الروابط يوم القيامه،كما تقدّمت بذلك الآيه الكريمه،و هذه الفكره ليس تنفعنا على صعيد ذلك اليوم و حسب حيث نطّلع على مشهد منه،بل يجب علينا فی الدنيا-و انطلاقا من هذه المعرفه-أن لا نظلم أحدا اعتمادا على أحد.

[۲۶]إنّ من نعتمد عليهم فی ظلمنا لن ينفعونا بشیء فی الآخره،بل لن ينفعوا أنفسهم،إذ سيستسلمون أمام الإراده الربانيه،التی طالما تمرّدوا عليها بجهلهم فی الدنيا،و هذه إشاره الى حاكميّه الرب المباشره فی ذلك اليوم.

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ و من لا يستسلم لإراده اللّه باختياره فإنّه يخضع لها بالرغم منه.

[۲۷]و لأنّ الظلمه و أعوانهم اعتادوا على حياه التبرير،و لعلّها أنقذتهم من الجزاء فی بعض المواضع من الحياه الدنيا،فإنّهم يحاولون التشبّث بها فی الآخره أيضا،طمعا فی التنصّل من المسؤوليه،و من ثم الهرب من الجزاء و العداله الإلهيه، و أنّى لهم ذلك؟ و القرآن يصوّر تجليّا للتلاوم،و محاوله التبرير،من خلال عرضه الرائع لحوار يدور

بين المستضعفين و المستكبرين،التابعين و المتبوعين.

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ و هم التابعون...

عَلىٰ بَعْضٍ و هم المتّبعون و أئمه الظلم-حسبما يبدو-...

يَتَسٰاءَلُونَ من أجل معرفه المسؤول عن الظلم،و بالتالى عن المصير السيء الذى صار إليه الجميع...

[۲۸]أمّا المستضعفون فقد خاطبوا المستكبرين:

قٰالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنٰا عَنِ الْيَمِينِ هنا يحاول التابعون رفع المسؤوليه عن كاهلهم بعذرين:

الأول:قالوا إنّنا لم نكن نبحث عن الكفر و الظلم،و لا نسعى إليهما إنّما أنتم الذين حملتم الوزر إلينا،فكنتم تأتوننا و لم نكن نأتيكم.

الثانى:ثم ادّعى هؤلاء بقولهم«عن اليمين»أنّهم كانوا مجبرين على اتباع الظلمه،و لعل اليمين تشير الى القوه لا الى الجهه اليمنى التى تخالف الشمال،و قد استخدم القرآن هذه الكلمه تعبيرا عن القوه،قال تعالى:« وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنٰا بَعْضَ الْأَقٰاوِيلِ* لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » (1)يعنى القوه،و إنّما استخدمت اليمين للتعبير

ص:۲۱۴

1- ۲) الأحقاف/(۴۴-۴۵).

عن القوه لأنّ قوه الإنسان تتجلّى عاده فى يمينه.

[۳۰-۲۹]و أمام هـذا الموقف من المستضـعفين ضـد المسـتكبرين يدافع الآخرون عن أنفسـهم،و فى دفاعهم بيان للواقع كما هو، كما كان فى اتهام أولئك إشاره لأسلوب الطغاه فى تضليل الناس.

فأئمه الكفر و الظلم يرفعون التهمه عن أنفسهم بأمرين ينطويان على الإشاره لقابليه الانحراف عند الإنسان:

الأول: قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ و حينما لا يكون الإنسان مؤمنا بعقيده ما،و لا ملتزما بمبدإ ما،إنّما يعيش خور العزيمه و ضـعف الإـراده و الفراغ الثقـافى و القيـادى فى ذاته،يكون عرضه للانـحراف، أولاـ:لأن الطغاه يسـتخدمون شتى ألوان الضـغط عليه حتى يخضـعوه لأهوائهم، يرغّبونه و يمنّونه ثم يهـدّدونه و يتوعّـدونه ثم يضـلّونه و يغوونه،فكيف يصـمد-من دون الإيمان باللّه و الثقه بنصـره-أمام كل هذا الضـغط؟ثانيا:يسـتحيل على البشـر بطبيعته أن يعيش الفراغ،فهو إن لم يعتقد بالإسـلام مثلا و يصـرف ماله و طاقاته من أجله،فإنّه سوف يعتقد بمبدإ آخر و سيصرف طاقاته فى سبيله،

و فى الحديث قال الإمام الباقر عليه السلام :

«ما من عبد يبخل بنفقه ينفقها فيما يرضى اللّه إلاّ ابتلى بأن ينفق أضعافها فيما أسخط اللّه » (۱)أمّا المؤمن فهو يتحدّى الإعتقادات الباطله بإيمانه،و يقاوم الأفكار التبريريه و الثقافه السلبيه بثقافته الرساليه،و يرفض الانتماء لحزب الشيطان و قياده

ص:۲۱۵

۱- ۳) بح/ج(۷۸)/ص(۱۷۳).

الطاغوت بانتمائه لحزب اللّه و القياده الرساليه،فيجد قوّه ماديه-الى جانب قوته المعنويه-لمواجهه ضغوط المستكبرين.

الثانى:نفى المستكبرون أن تكون لهم سلطه لا تقهر على المستضعفين من أتباعهم.

وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إنّ ما يكمّل مسيره الطغاه هو قابليه الاستغلال الموجوده عند الناس، فالطاغوت هو عامل خارجى للظلم و الانحراف،أمّا العامل الأساسى فيكمن فى الواقع السلبىّ السائد فى المجتمع،كالخوف،و الجهل،و التفرّق،و الظلم الاجتماعى،أمّا اللّه فإنّه لم يفرض سيطره أحد من الناس بصوره تكوينيه أبدا.

الثالث:المجتمع الذى يظلم بعضه بعضا،فيأكل قويّه حقوق ضعيفه، و يستغل الغنىّ الفقير،و يبتز تجاره المستهلكين فيه،يكون تربه مناسبه لنموّ الأنظمه الجائره فيه،لأنّ المجتمع الذى يقوم أساسا على الظلم لا يسلم فيه أحد منه،بل سوف يتصاعد الظلم فيه حتى يبلغ قمته المتمثله فى النظام السياسى فيولى أعتى الظلمه أموره،و يكون مصداقا للآيه الكريمه:« وَ كَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظّٰالِمِينَ بَعْضاً ».

إنّ النظام السياسى هو الجانب البارز من العمله بينما جانبها الآخر هو الفكر و السلوك،و العاديات و الأعراف الاجتماعيه.

و الطاغوت يشعر-بدوره-أنّه قائم بسلبيه مجتمعه،و لهذا يقوم بتعميقها و نشرها.

بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ و تفسّر هذه الآيه تفسيرا عميقا الحكمه المعروفه«كما تكونون يولّى عليكم»، و ربما لذلك

حذّر أمير المؤمنين عليه السلام فی وصيته المعروفه قائلا:

«لاـ تـتركوا الأـمر بـالمعروف و النهی عن المنكر فيولی عليكم شـراركم » (1)[٣١]و هنالـك لا يجـد الظالمون بـدّا من الاعتراف باسـتحقاق العـذاب،و هـذا هو معنی المسؤوليه فی قول اللّه:« وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ »فالتبرير فی الدنيا لا ينفع الإنسان فی الآخره إنّما يورده النار.

فَحَقَّ عَلَيْنٰا قَوْلُ رَبِّنٰا إِنّٰا لَذٰائِقُونَ لقد سـبقت كلمه ربنا علی المستكبرين بالغوايه و الضلاله،و العذاب بالنار،و لا يمكن لمن يتحدّی رسالات ربه الاهتداء الی الحق،لأنّ المصدر الوحيد لنور الهدايه فضل اللّه،و من لم يجعل اللّه له نورا فماله من نور.

[٣٢]ثم بيّن المسـتكبرون أنّهم بـدورهم كـانوا غـاوين،و أنّ اتبـاع المستضـعفين لهم كـان يؤدی بهم الی الغوايه.و هكـذا يتحمّل المستضـعفون كامل المسؤوليه عن ضـلالتهم لأنّهم اتبعوا رجالا ضالين.و هل ينتظر لمن اتبع ضالا أن يهتـدی السبيل؟ فَأَغْوَيْنٰاكُمْ إِنّٰا كُنّٰا غٰاوِينَ إنّ أبسط أحكام العقل و أوضـحها هو ضـروره اتباع الهـداه المهـديين،و هؤلاء الـذين يقلّـدون أو يتبعون الضالين يحتجّ عليهم ربّهم بهذا الحكم الذی هداهم اليه العقل بوضوح شديد.

١- ۴) نهج البلاغه/وصيه(۴٧)/ص(۴٢٢).

[۳۳]وردّا على تبريرات هؤلاء و أولئك يؤكّد القرآن بأنّ الظلم المشترك بين المستكبرين بجورهم،و المجتمع بسكوته و سلبيته،سوف يؤدّى الى المصير الواحد، و الجزاء الجامع،و هذا بالضبط معنى المسؤوليه.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ و لعلّ الآيه الكريمه تشير الى فكره هامه،من شأنها-لو فهمها الإنسان، و تعمّق فيها،و عمل بها- أن تزكّى نفسه و تربيّها على الإيمان،و هى أن يحمّل كلّ فرد نفسه المسؤوليه و يتّهمها باستمرار،أنّى كان دور الآخرين،و هذه من صفات المتقين الذين

وصفهم إمامهم على عليه السلام بقوله :

«و لقد خالطهم أمر عظيم!لا يرضون من أعمالهم القليل،و لا يستكثرون الكثير،فهم لأنفسهم متّهمون،و من أعمالهم مشفقون،إذا زكّى أحد منهم خاف مما يقال له،فيقول:أنا أعلم بنفسى من غيرى،و ربى أعلم بى منى بنفسى!اللّهم لا تؤاخذنى بما يقولون،و اجعلنى أفضل مما يظنّون،و اغفر لى ما لا يعلمون » (۱) و نعرف دور هذه النظره من المؤمن تجاه نفسه إذا عرفنا طبيعه النفس البشريه التى تعيش التبرير و الأعذار و تسعى للفرار من ثقل المسؤوليه،و بكلمه:لا بد أن نعرف بأنّ ذهاب الظالمين الى النار،و تحمّلهم العذاب الأليم،لا يعنى براءتنا،بل قد يكون دليلا على العاقبه الواحده لهم و لنا،إن كنّا ساكتين عنهم،راضين عن فعالهم.

[۳۴]و حتى لا يتصوّر الإنسان بأنّ هذا الحديث ينصرف الى جماعه كانت فى

۱- ۵) نهج البلاغه/خ(۱۹۳)/ص(۳۰۴).

التاريخ الغابر،بالذات و أن الإشاره إليهم كانت بالضمير الغائب«فإنّهم»يلحق القرآن حديثه عنهم بتأكيد مستقل على أنّ هذا المصير يشمل كلّ مجرم،فعاقبه المجرم الذى يخالف سنن اللّه،و يتبع هوى النفس،و يعبد ذاته،و يلحق الأذى بغيره،العذاب الأليم.

إِنّٰا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [٣۵]من هم هؤلاء المجرمون؟و ما هى صفاتهم؟و كيف نتقى مصيرهم الأليم؟ يناسب السياق فى بيان ذلك تمهيدا لبيان من يخالفهم و هم المتقون،لتكتمل الصوره لمن أراد النجاه،و يحق القول على الجاحدين.

و أعظم ميزات المتقين التوحيد،كما أنّ الشرك باللّه أخطر ذنوب المجرمين، الذين يرفضون التسليم للإله الواحد،و يتخذون الأنداد من دون اللّه.إنّ رفض السلطات الفاسده،و الأنظمه المنحرفه،و التقليد الأعمى لرجال ضالّين،الشرط الأول لرسالات اللّه.

إِنَّهُمْ كٰانُوا إِذٰا قِيلَ لَهُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ يَسْتَكْبِرُونَ فهم ليسوا على الخطأ و حسب،إنّما و يتصورون أنفسهم على الحق،و لو جاءهم من يبيّن خطأهم رفضوه،و أخذتهم العزّه بالإثم،و هذه من العقد النفسيه الخطيره التى ينبغى للإنسان اجتنابها،ذلك أنّ المقياس فى الإيمان باللّه هو التسليم للحق فى كلّ الأحوال متى تبيّن،و لو خالف العرف الاجتماعى أو اعتقادات الفرد و سيرته السابقه.و لا شك أنّ اعتراف الإنسان الفرد أو الأمه بخطئه و الذى قد يستتبع التغيير الجذرى فى الحياه أمر صعب جدا،و لكنّه يأخذ به الى العاقبه الحسنه

فی الـدنیا و الآـخره،و من أمثله هـذه الحقیقه علی صـعید الأـمم قوم یونس علیه السـلام الـذین قـال اللّه عنهم:« فَلَوْ لاٰ كٰانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ مَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ ». (١)

و من أمثلتها علی صعید الأشخاص و التی تبیّن صعوبه الأمر نذکر هذه القصه المؤثره من التاریخ،

ففی بحار الأنوار:

عن علی بن أبی حمزه قال :«کان لی صدیق من کتّاب بنی أمیّه،فقال لی:

استأذن لی علی أبی عبد الله،فاستأذنت له،فلمّا دخل سلّم و جلس،ثم قال:

جعلت فـداک!إنّی کنت فی دیوان هؤلاـء القوم،فأصـبت من دنیـاهم مالا کثیرا، و أغمضت فی مطالبه،فقال أبو عبـد اللّه:لو لا أنّ بنی أمیّه وجـدوا من یکتب لهم، و یجبی لهم الفیء،و یقاتل عنهم،و یشـهد جماعتهم،لما سـلبونا حقّنا،و لو ترکهم الناس و ما فی أیـدیهم مـا وجـدوا شـیئا إلاـّ مـا وقع فی أیـدیهم،فقـال الفـتی:جعلـت فـداک فهـل لی مـن مخرج منـه؟قـال:إن قلـت لک تفعل؟قال:أفعل،قال:أخرج من جمیع ما کسبت فی دواوینهم،فمن عرفت منهم رددت علیه ماله،و من لم تعرف تصـدّقت به،و أنا أضـمن لک علی اللّه الجنه،قال:فأطرق الفتی طویلا فقال:قـد فعلت جعلت فداک،قال ابن أبی حمزه،فرجع الفتی معنا الی الکوفه، فمـا ترک شیئا علی وجه الأـرض إلاّ خرج منه،حتی ثیابه التی کانت علی بـدنه، قال:فقسـمنا له قسـمه،و اشترینا له ثیابا،و بعثنا له بنفقه ». (٢)

[٣۶]و لأـنّ العمـل بمضـامین التوحیـد صـعب هکـذا،نجـد الکثیر من الناس یسـتکبرون و لا یسـتمعون للموعظه،و تأخـذهم العزه بالإثم،بل یتهمون صاحب الرساله بأرخص التهم،کما قالوا للأنبیاء أنّهم شعراء(و نفوا بذلک منهم الحکمه

١- ۶) یونس/(٩٨).

٢- ٧) بح/ج(٧۵)/ص(٣٧۵).

و الاهتداء)ثم قالوا أنهم مجانين،كما أنهم اتهموا الرسل بحب الرئاسه،و أنّ دعوتهم الى اللّه ليست سوى وسيله للتأمر عليهم.

وَ يَقُولُونَ أَ إِنّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ و هكذا يجب ان يعرف الرساليون صعوبه الإصلاح الحقيقى المتمثّل فى التوحيد،و يتفهّموا العقبات التى تعترضهم فى الوصول اليه،حتى لا يصيبهم الإحباط أو اليأس حينما يصطدمون بالرفض فى بادئ الأمر، فالأنظمه الطاغوتيه و حتى بعض الناس سوف لا يكتفون برفض دعوتهم،بل سوف يثيرون الشبهات حول أشخاصهم.

[٣٧]و يجب على الرساليين أن يقيّموا مسيرتهم على مقياس الحق،و هو القرآن و سنه الرسول و أهل بيته-صلوات اللّه عليهم-،ليزدادوا ثقه برسالتهم،و ليعرفوا أخطاءهم حتى لا يعتبروا موقف الناس و الأنظمه مقياسا لمعرفه الحق،لأنّ الناس بجهلهم و سلبيتهم النفسيه،و الأنظمه بعدائها،سوف يثيرون زوابعا من الشتائم و الدعايات المغرضه ضدهم.

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ و الحقّ يدل بذاته على ذاته،فإنّ لكلّ حقّ حقيقه،و على كلّ صواب نورا.

و فرق واضح بين الحق الذى يدعو اليه النبى و الشعر الذى لا يدعو الى شيء، و ليس سوى إثاره الخيال،و ترديد الأفكار الشائعه،و تمجيد العادات الجاهليه.

و لأنّ مقياس الجاهليين لم يكن الحقّ إنّما التراث و الواقع القديم لم يجدوا التقاء و لا انطباقا بين ما عندهم و بين الرساله الالهيه.

ص:٢٢١

وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ و عاده يدّعى أصحاب الباطل أنّهم ينتمون الى الرسالات الأولى،و إنّما ينتمون الى أهوائهم،و القرآن يردّهم بأنّ النبى يصدّق المرسلين،فرسالته ليست سوى تجديد لتلك الرسالات،و لو صدقوا فى انتمائهم إليها لآمنوا بهذه أيضا.

و بالتدبر فى الآيتين(۳۵-۳۶)يمكننا القول بأنّ هناك سببين رئيسين وراء كفر هؤلاء بالرساله،هما الاستكبار على الحق،و المقاييس الخاطئه لمعرفته.

[۳۸]و فى نهايه الدرس يؤكّد اللّه للكفّار و المشركين(المجرمين)أنّهم سوف يذوقون العذاب.

إِنَّكُمْ لَذٰائِقُوا الْعَذٰابِ الْأَلِيمِ و الآيه تشير الى أنّ اللّه يحشر المجرمين فى تمام وعيهم و إحساسهم المادى و المعنوى،من أجل تذوّق العذاب بأعمق ما يمكن للإنسان.

[۳۹]و الى جانب هذا التأكيد على العذاب،نجد تأكيدا آخر على العداله الإلهيه،و أنّ الجزاء بقدر أعمال البشر بل هو ذات أعمالهم.

وَ مٰا تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و الآيه تعمّق و تؤكّد فى نفس الإنسان مسئوليته التامه عن كل ما يصدر عنه، من قول و عمل و سلوك.

قال الرسول(ص) :

لمّا أسرى بى الى السماء دخلت الجنه فرأيت فيها الملائكه يبنون لبنه من ذهب،و لبنه من فضه،و ربما أمسكوا،فقلت لهم:ما لكم ربما بنيتم و ربما

ص:۲۲۲

أمسكتم؟فقالوا:حتى تجيئنا النفقه،فقلت:و ما نفقتكم؟فقالوا:قول المؤمن فى الدنيا:«سبحان اللّه،و الحمد للّه،و لا اله الا اللّه،و اللّه أكبر».فإذا قال بنينا،و إذا أمسك أمسكنا (۱)و الذى يشعر بهذه الحقيقه-أنّ مستقبله رهين عمله-سوف يسعى جهده لتصحيحه و إتقانه و بنائه وفق ما يريده اللّه سبحانه.

ص:۲۲۳

۱- ۸) بح/ج(۹۳)ص(۱۶۹).

[سوره الصافات (۳۷): الآيات ۴۰ الی ۷۰]

اشاره

إِلاّٰ عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۴۰) أُولٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَوٰاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِی جَنّٰاتِ اَلنَّعِيمِ (۴۳) عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ
(۴۴) يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵) بَيْضٰاءَ لَذَّةٍ لِلشّٰارِبِينَ (۴۶) لاٰ فِيهٰا غَوْلٌ وَ لاٰ هُمْ عَنْهٰا يُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ
اَلطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ (۵۰) قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّی كٰانَ لِی قَرِينٌ (۵۱) يَقُولُ
أَ إِنَّكَ لَمِنَ اَلْمُصَدِّقِينَ (۵۲) أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَدِينُونَ (۵۳) قٰالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَوٰاءِ
اَلْجَحِيمِ (۵۵) قٰالَ تَاللّٰهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لاٰ نِعْمَةُ رَبِّی لَكُنْتُ مِنَ اَلْمُحْضَرِينَ (۵۷) أَ فَمٰا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (۵۸) إِلاّٰ مَوْتَتَنَا
اَلْأُولىٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵۹) إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۶۰) لِمِثْلِ هٰذٰا فَلْيَعْمَلِ اَلْعٰامِلُونَ (۶۱) أَ ذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ اَلزَّقُّومِ
(۶۲) إِنّٰا جَعَلْنٰاهٰا فِتْنَةً لِلظّٰالِمِينَ (۶۳) إِنَّهٰا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِی أَصْلِ اَلْجَحِيمِ (۶۴) طَلْعُهٰا كَأَنَّهُ رُؤُسُ اَلشَّيٰاطِينِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهٰا
فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا اَلْبُطُونَ (۶۶) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهٰا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (۶۷) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى اَلْجَحِيمِ (۶۸) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّينَ
(۶۹) فَهُمْ عَلىٰ آثٰارِهِمْ يُهْرَعُونَ (۷۰)

اللغه

۴۵[معين]:المعين الماء الجاری النابع من العين.

۴۷[ينزفون]:أی يسكرون فليس فی خمر الجنه سكر،من نزف إذا ذهب عقله،أو بمعنی يطردون من نزف بمعنی طرد فالشرب لهم دائم لا ينقطع مهما أرادوا.

۵۳[لمدينون]:أی مجزيّون بأعمالنا،من دانه بمعنی حاسبه و جازاه.

ص:۲۲۴

۶۲[شجره الزقوم]:هی شجره صغیره الورق مرّه تکون بتهامه،شبهت بها الشجره التی تنبت فی النار لتکون ثمرتها قوتا لأهل النار.

۶۷[لشوبا]:الشوب هو خلط الشیء بما لیس منه و هو شرّ منه،و المعنی شرابا مشوبا لیس بصاف.

۷۰[یهرعون]:أی یسرعون فی تقلیدهم.

ص:۲۲۵

هدی من الآیات:

بعد تکریس المسؤولیه المتجلیه فی الجزاء یوم القیامه،و قطع الأعذار الواهیه التی یتشبّث بها المستضعفون،یبیّن القرآن حال عباد اللّه المخلصین، الذین أخلصوا ولاءهم لقیادتهم الشرعیه،و أخلصهم اللّه من شوائب الشرک و آثار الضغوط التی تنقسم الی نوعین:الأوّل:ضغط المجتمع المتجلّی فی قرین السوء،الثانی:الضغط التاریخی المتمثّل فی الآباء.

لهؤلاء عباد اللّه المخلصین رزق معلوم(غیر منقطع و هو جزاء أعمالهم المعلومه عند ربهم)فواکه(کرزق مادی)و هم مکرمون(کرزق معنوی)و هم فی جنات النعیم یجلسون علی سرر متقابلین(یتجاذبون أطراف الحدیث لفراغ بالهم و مشغولون بالتالی بلذه المؤانسه)یطاف علیهم بکأس من معین بیضاء لذه للشاربین لا فیها هلاک و مرض،و الی جنبهم الحور کأنهم بیض مکنون(تتلألأ بشرتهن إشراقا).

و تكتمل النعم عندهم حين يطلعون على قرناء السوء الذين حاولوا عبثا إغواءهم،و بعد ان يبين السياق هلاك أولئك من كفرهم بالجنه،ينقل خطاب المخلصين لهم بأنه لو لا نعمه اللّه لكانوا من المهلكين،ثم يسدل الستار على هذا المشهد بعد أن يقرّروهم أ فما نحن بمعذبين؟و يذكرنا القرآن بان ذلك هو الفوز العظيم الذى لمثله فليعمل العاملون.

و يكشف عن مشهد آخر حيث شجره الزقوم،التى هى حسب الظاهر ذنوب أهل النار تصبح طعاما لهم هناك و هى فتنه(فى الدنيا)للظالمين و هى تنبت فى أصل الجحيم،و لكن فروعها فى بيوتهم،اما طلعها فكأنه رؤوس الشياطين(الذين خدعوهم بها فى الدنيا).انهم يأكلون منها حتى يملأوا بطونهم (كما أكلوا المال الحرام)،ثم يشربون عليها ماء حميما يقطع أمعاءهم(كما شربوا الشراب الحرام فى الدنيا)،ثم يعودون جميعا الى الجحيم(كل ذلك)لأنهم اتبعوا آباءهم و هرعوا الى آثارهم يقلدونهم فيها على غير هدى.

بينات من الآيات:

[۴۰]بعد حديثه عن مصير المجرمين،يذكرنا القرآن بمشهد مشرق من الآخره حيث عباد اللّه المخلصون،فى جنه ملؤوها النعيم و الرحمه و التى لا تعطى عبثا انما بثمن،و أول و أهم ثمن يشترى به العبد الجنه هو الإخلاص،و إذا كان العمل بذاته صعب،فالاخلاص فيه أصعب،لأنه يعنى الانقطاع نفسيا و اجتماعيا و اقتصاديا و سياسيا و...و...عما سوى اللّه،حفاظا على حقيقه التوحيد.

فقد يصلى الإنسان لان الصلاه تدر عليه الربح،و ترفعه درجه فى الناس، و تعطيه قوه فى الجسم و ما أشبه،فهو يصلى نتيجه لتفاعل عده عوامل دفعته بهذا الاتجاه،فاذا انعدمت هذه العوامل،أو وجدت اخرى تعاكس مسيره الصلاه كما

لو وجد نفسه فی بلد اجنبی لا یصلی أهلها،أو صعبت علیه الصلاه لنعاس شدید أو برد أو حر فانه یترکها و ربما یحاربها،لان الذی یصلی لارضاء الناس،سوف یشرب الخمر حین یکون فیه رضا الناس،و من هذا المنطلق صار الإخلاص أهم من العمل و کمیته.

قال الامام علی علیه السلام :

«تصفیه العمل خیر من العمل » (۱)

و قال علیه السلام :

«تصفیه العمل أشد من العمل،و تخلیص النیه عن الفساد أشد علی العاملین من طول الجهاد » (۲)و الإخلاص هو ان تعمل فی کل الظروف و بنیه صافیه بعیدا عن التأثر بالعوامل المضاده للعمل،و هذا ما لا یدرکه أحد الا حینما تکون شخصیته(ثقافه و سلوکا) مصاغه بالقیم الرسالیه الصحیحه،و لیس بالظروف و الضغوط أو ردود الفعل و المصلحه.

و ربما لذلک قال القرآن«المخلصین»بفتح اللام،و لیس المخلصین بکسرها، و القرآن لم یستخدم الصیغه الثانیه أبدا،و المخلص هو الذی أخلصه اللّه وصفی نفسه و حیاته من الشوائب و المؤثرات،حتی أصبحت أعماله کلها لوجه اللّه وحده لا شریک له،و لعل الآیه الکریمه:« إِنَّمٰا یَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ » (۳)تهدینا الی ذات

ص:۲۲۸

۱- ۱) بح ج/(۷۱)ص(۹۰).
۲- ۲) بح ج/(۷۷)ص(۲۸۸).
۳- ۳) المائده/(۲۷).

المفهوم.

و الشیء الذی یبنی علیه الإسلام أساس الإخلاص هو الاستمرار فیه،و الا فأن الإنسان کل إنسان قد یعیش لحظه یخلص فیها للّه عمله و دعاءه،فالعمل الواحد لا یقبل منفردا،انما یضم الی عموم مسیره الإنسان،و الذی لا شک فیه ان الواحد لا ینعت بخلق ما الا إذا صار عاده له و سلوکا.

فالذی یصوم شهر رمضان المبارک،و فی الأثناء،أو بعده و قبله یغتاب الناس و یأکل المال الحرام،أو یترک جانبا من الدین کالجهاد لا یکون متقیا،فصومه لا یقبل و لا یکون مخلصا من هذه صفته،لان تأثره بدوافع الغیبه یشیر الی أن شخصیته لم تزل مزیجا من الایمان و الکفر،فبینما ینطلق صومه من قاعده الایمان فی نفسه، تنطلق الغیبه من دوافع الکفر.

و انما یدخل اللّه الجنه الذین أخلصوا ایمانهم و عملهم بالمعنی المتقدم بغیر حساب،و من سواهم یدخلهم بعد الحساب و التطهیر،و علی هذا جاء فی الاخبار:

ان من المؤمنین من یلبث فی النار مئات،و بعضهم عشرات السنین،کل بنسبه انحرافه،و رواسب الکفر التی یجب ان تطهر قبل الدخول فی الجنه.

و فی الروایه قیل للإمام موسی بن جعفر علیهماالسلام :مررنا برجل فی السوق و هو ینادی:انا من شیعه محمد و آل محمد الخلص،و هو ینادی علی ثیاب یبیعها:من یزید؟فقال موسی علیه السلام :

«ما جهل و لا ضاع امرء عرف قدر نفسه،أ تدرون ما مثل هذا؟هذا شخص قال:انا مثل سلمان و أبی ذر و المقداد و عمار،و هو مع ذلک یباخس الناس فی

بیعه،و یـدلس عیوب المبیع علی مشتریه و یشتری الشـیء بثمن فیزاید الغریب یطلبه فیوجب له،ثم إذا غاب المشتری قال لا أریده الا بکذا،بدون ما کان طلبه منه،أ یکون هذا کسـلمان و أبی ذر و المقداد و عمار؟حاشا للّه ان یکون هذا کهم » (۱) إِلاّ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِینَ [۴۱]و القرآن یحـدثنا عن جانب من الرزق،الذی یصـیر الیه المخلصون لا حصـرا انما اشاره،و الا ففی الجنه ما لا عین رأت و لا أذن سمعت و لا خطر علی بال بشر.

أُولٰئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ و المعلوم هو الشـیء المعروف المحـدد بـالمعرفه،و یبـدو ان رزق المخلصـین یکون معلومـا بـالجنه فلا ینقطع حینـا و یتصـل حینـا،و یکون معلومـا لأنه جزاء أفعالهم و هی معلومه عنـد ربهم،و قالوا ان معنی ذلک ان رزق المخلصـین یـأتیهم کاملا کما یریـدون و یتصورون بعلمهم،و هـذه الاراده و المیول تنتقل بإراده اللّه الی أذهان الخـدم،فیأتونهم بما یریـدون قبل ان یطلبوه،

قال رسول اللّه(ص) :« أُولٰئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ »:

«یعلمـه الخـدام فیـأتون به أولیـاء اللّه،قبـل ان یسـألوهم إیـاه » (۲)[۴۲]و یفصّـِل القرآن فی ذکر الرزق،تشویقـا لنـا للإخلاـص،و للمخلصین علی الاستقامه.

ص:۲۳۰

۱- ۴) بح ج/(۶۸)ص(۱۵۷).

۲- ۵) نور الثقلین/ج(۴)ص(۴۰۳).

فَوٰاكِهُ يشبعون بها حاجاتهم الكماليه،أما حاجاتهم الضروريه فقد قال البعض ان أجسامهم خلقت للبقاء فلا تحتاج الى طعام حاجه ضروريه،و يحتمل ان يكون توفر الفواكه لديهم يغنيهم عن الطعام الضروری،أو ليس أكل الجنه دائما و ظلها؟ و تنضم الى هذه اللّذات أعظم نعمه يشعر بها المؤمنون المخلصون،و هی الكرامه من عند اللّه،فهم يأكلون الفواكه و شعورهم عميق برضی اللّه عنهم.

وَ هُمْ مُكْرَمُونَ و لعلنا نستوحی من كلمه مكرمون ان المخلصين يفدون الى الجنه على رزق معلوم و محدد،لكن اللّه يكرمهم كل حين ليزدادوا فضلا من عنده.

و فی الحديث :

«فإنهم لا يشتهون شيئا فی الجنه الا أكرموا به » (1)[۴۳] فِی جَنّٰاتِ النَّعِيمِ و الجنه هی البساتين الكثيره الزرع و الشجر،بحيث تلتقی فيها الاغصان و الأوراق فتختفی أرضها،تحت ظلال الأوراق و الكلمه تفيد التنوع،لان الجنه لا تطلق على النوع الواحد من الزرع.أما كلمه النعيم فهی مبالغه فی النعمه للكثره و الجوده.

[۴۴]و لان المؤنس من الحاجات النفسيه للبشر،فقد جعل اللّه المؤمنين يأنسون ببعضهم فی الجنه فاذا بهم كما يصفهم القرآن:

۱- ۶) المصدر.

عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ [۴۵]و فی الأثناء حیث یدور الکلام بین عباد اللّه.

یُطٰافُ عَلَیْهِمْ بِکَأْسٍ مِنْ مَعِینٍ و هو الـذّ الشـراب،خمرا کان أو ماء أو غیرهما،کما ان المعین الـذی لا ینضب، فتاره یکون الشـیء لذیذا لکنه ینتهی بسرعه،و تاره یکون لذیذا و لا ینتهی.

[۴۶]و یجتمع الی لذّه الشراب جماله و جمال کأسه تأکیدا لها،فالکأس من الفضه اللامعه.

بَیْضٰاءَ لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِینَ و قد یکون البیاض وصفا للمعین،

ففی الحدیث عن الامام الحسن علیه السلام :

«خمر الجنه أشد بیاضا من اللبن » (۱)[۴۷]و هذا الشراب خال من العیوب فلا یملّه المؤمنون أو یرفضونه.

لاٰ فِیهٰا غَوْلٌ و هو السـکر أو الارهاق الذی یلحق بالشارب فیغتال عقله و قواه،أو المرض الذی ینتهی به الی الموت،و منه الاغتیال و هو القتل سرا،هذا من جانب،و من جانب آخر لا یبعد المؤمنون عن شراب الجنه بنضوبه،أو بإراده اخری تفرض علیهم.

ص:۲۳۲

۱- ۷) المجمع/ج(۷-۸)/ص(۴۴۳).

وَ لاٰ هُمْ عَنْهٰا يُنْزَفُونَ و يقال نزف الماء إذا أبعد و أزيح عن العين.

[۴۸]و من نعيم المخلصين الأزواج المطهره فی القصور.

وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ الطَّرْفِ عِينٌ و للقصر ثلاثه تفاسير:

الاول:ان القاصرات هن النساء اللاتی ينحصر نظرهن الی أزواجهن، و بالتالی تحد شهوتهن فی أزواجهن،فانظارهن قاصره عن غيرهم.

الثانی:القاصره الطرف هی قليله الشعر فی حاجبيها،و هذه من جمال المرأه.

الثالث:و قال المفسرون قاصرات الطرف اللواتی ارسلن نظرهن الی الأرض تواضعا و حياء،و هذه من الصفات الحسنه فی المرأه.

اما العين فهی جمع عيناء،و العيناء واسعه العين شديده و كبيره السواد فيها، و ناصعه البياض،و هذه هی الاخری من الصفات الجماليه الحسنه فی المرأه.و لعله لذلک كان شعراء العرب قديما،يشبهون فی غزلهم عيون النساء بعيون البقر الوحشی(المها)،التی تشتمل علی نسبه من هذه الصفات.

[۴۹] كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ و المكنون هو المحفوظ،فهن محفوظات لم يمسهن أحد قبلهم،و من صفات البيض عند ما يجمع الی بعضه،انه ينصع بالبياض،حتی ليكاد يضیء،و فی ذلک اشاره لجمال بشرتهن.

و الملاحظ ان الآيات الكريمه تعرضت بالذكر لمجموعه غرائز فی الإنسان بینها غریزه الاكل و الشرب و الجنس،التی یجد الإنسان حوافز و دوافع داخلیه و خارجیه علی اشباعها،و ربما اشبعها بالحرام،و ذلك تطمیعا لنا فیها عند اللّه،حتی نترفع عن الاكل الحرام المشوب بالذله بذكر رزق الجنه و كرامته،و عن الشرب الحرام بالرغبه فی شرابها،و عن اللّذه المحرمه بذكر حورها الحسان.

جاء فی بیان دعائم الایمان علی لسان الامام علی علیه السلام ما یدل علی ذلك إذ قال :

«فمن اشتاق الی الجنه سلا عن الشهوات » [۵۰]و یعرّج القرآن من الجانب الآخر لیطلعنا علی حال المكذبین بالرسالات،العاصین للّه،لیشجعنا ذلك الرجاء علی الطاعه،و لیمنعنا هذا الخوف عن المعصیه،و یدخل السیاق الی هذا الموضوع،من خلال عرضه لجانب من حدیث المخلصین الذین جلسوا علی سررهم یستریحون لبعضهم البعض،بالحدیث عن النعیم الحاضر و عن الحیاه السابقه.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ یَتَسٰاءَلُونَ و الإقبال هنا دلاله علی الاشتیاق لبعضهم،و للحدیث الذی یدور بینهم.

[۵۱] قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّی كٰانَ لِی قَرِینٌ یعنی الرفیق.

[۵۳-۵۲]و لم یكن صالحا،بل كان یدعو الی النار،و لیس شرطا ان الصدیق الذی یعنیه القرآن بهذه الآیات هو الذی یصرح بكفره و ضلاله فیدعو لنبذ الدین و اقتراف المعصیه،بل یشمل المعنی كل قرین توحی رفقته و سلوكیاته أو

أقواله الی الکفر.

یَقُولُ أَ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِینَ* أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَدِینُونَ ای مسئولون و مجازون،و هذا الاعتقاد هو الذی یسوق البشر للظلم و الانحراف،لأنّه لا یعتقد بمسؤولیه تجاه أقواله و أعماله.

[۵۴]و من کمال النعم و تمام السرور معرفه الإنسان بأنه قد نجّی من شر عظیم و مهلکه لم ینج منها الآخرون،فما أعظم لذه من تحطمت به السفینه فی عرض البحر و ابتلعت أمواجه الهادره کل من فیها سواه حیث تعلق بخشبه و قاوم الأمواج، و استبسل فی السباحه حتی نجّاه اللّه فی اللحظه الاخیره.انه سوف یزداد إحساسا بالراحه کلما تذکر الحادثه،و یکاد یطیر فرحا عند ما یتصور الأمواج التی کانت تتلاحق علی خشبته،و کان ینادی أصحابه إلیها فرحا عند ما یتصور الأمواج التی کانت تتلاحق علی خشبته،و کان ینادی أصحابه إلیها فلم یستجیبوا له،و شهد مهلکهم بغیّهم.أ لیس کذلک؟هکذا یتم اللّه نعمته علی المؤمن و هو یتذکر قرناء السوء الذین قاوم تضلیلهم و ضغوطهم فذهبوا الی النار،و نجّی منها.و ها هو یراهم یتقلبون فیها یائسین و هو فی الجنه من المکرمین.

قٰالَ لرفاقه المخلصین.

هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ای هل أنتم تتکلفون الاستطلاع حتی نعرف مصیره؟ [۵۵]و لکنه لفرط شوقه أخذ یبحث عنه شخصیا دون انتظارهم.

ص:۲۳۵

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَوٰاءِ الْجَحِیمِ یعنی وسطها،حیث یترکز العذاب و الحریق و تحوطه النار من کل جانب کما کان فی الدنیا محاطا بالذنوب و المعصیه،و لعل التطلع هناک هو تکلف الذهاب الی ناحیه و الا فأهل الجنه لا یسمعون حسیس النار.

[۵۶]و هناک یکتشف المؤمن مدی خطوره الصدیق السیء.

قٰالَ تَاللّٰهِ إِنْ کِدْتَ لَتُرْدِینِ و التردی هو السقوط من شاهق،و فی هذا اشاره الی ان المخاطب فی واد سحیق من النار.

[۵۷] وَ لَوْ لاٰ نِعْمَهُ رَبِّی لَکُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِینَ فی العذاب،و تتمثل النعمه الالهیه هذه فی الأسباب التی تؤدی بالإنسان الی النجاه من الانحراف،و من ثم من عواقبه،کالعقل و الرساله و المرشدین للحق،و لا شک ان أعظم نعم اللّه علی البشر هی نعمه الهدایه.

[۵۸-۵۹]و یشیر القرآن علی لسان المؤمنین الی اخطر فکره یحاول المنحرفون من خلالها إضلال الناس،و التأثیر علی المؤمنین،و هی فکره الکفر بالآخره حیث الجزاء الأوفی.

أَ فَمٰا نَحْنُ بِمَیِّتِینَ* إِلاّٰ مَوْتَتَنَا الْأُولیٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ علی الاخطاء و الذنوب؟! [۶۰]و لعل اللّه هو الذی یلقی فی قلوب أولیائه من أهل الجنه،ان یشرفوا علی

النـار للاطلاـع على أهلهـا،لكى يشـعروا عميقـا بلـذه الهـدايه و الطـاعه و النعيم،ذلك ان من طبيعه الإنسان إحساسه بالحقائق عن طريق معرفه نقائصها،لهذا نجد المؤمن و قد اطلع على قرين السوء فى العذاب،بينما يتعمق وعيه بعظمه نعم اللّه عليه يقول:

إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ نعم ان طريق الحق ملىء بالعقبات و المصاعب،و لكنه الأفضل ما دام ينتهى الى الجنه و رضى اللّه.

[۶۱]و كخلاـصه لكل ما تقـدم من ذكر الجنه و النار،يؤكـد القرآن بان الهـدف الصـحيح،الـذى يجب على الإنسان العمل له،هو الوصول الى الجنه،لأنها الهدف الأعظم الذى إذا حققه الفرد فقد فاز،و الا فهو لم يحقق شيئا.

قال الامام على عليه السلام :

«ما خير بخير بعده النار،و ما شر بشر بعده الجنه،و كل نعيم دون الجنه فهو محقور،و كل بلاء دون النار عافيه » (۱)و يقول تعالى:

لِمِثْلِ هٰذٰا فَلْيَعْمَلِ الْعٰامِلُونَ و قد نستوحى من التدبر فى الآيات الكريمه:ان الإنسان يواجه فى حياته نوعين من الضغوط:

الاول:الضغط القادم من المجتمع المعاصر،و الذى يتجلى بصوره واضحه فى

۱- ۸) نهج الحكمه/(۳۸۷).

قرین السوء،فمثلا إذا عاش المؤمن فی مجتمع یستخف بالصلاه فلا بد ان یتعرض لضغط هذا المجتمع باتجاه ترک الصلاه ذلک ان للمجتمع-ای مجتمع-قوه هائله باتجاه التجانس معه،و فرض قیمه الخاصه علی افراده بالتربیه و التثقیف أو بالترغیب و الترهیب،و لکن ما هو رأس الحربه فی ضغط المجتمع علی الفرد؟انه الصدیق إذ یکون حلقه الوصل بینه و بین سائر أبناء المجتمع.

و هکذا ینبغی ان یصمد الإنسان امام ضغوط اصدقائه و قرنائه و لو کان علی حساب صداقتهم،فهذا

أمیر المؤمنین علیه السلام یقول :

«ما ترک الحق لی من صدیق » [۶۲]الثانی:الضغط القادم من الأجیال السابقه،و یتجلی هذا الضغط بصوره مرکزه فی الأب،ذلک ان الإنسان لا یری الأجیال السابقه و لا التاریخ الماضی،و لکن ذلک یصله عبر أبیه.

و یبدو ان القرآن حتی الآیه السابقه حدثنا عن الضغط الاول،اما بقیه الآیات من هذا الدرس فهی اشاره الی الضغط الآخر،یقول تعالی:

أَ ذٰلِکَ خَیْرٌ نُزُلاً ای الجنه التی هی عاقبه المؤمنین المخلصین.

أَمْ شَجَرَهُ الزَّقُّومِ التی هی عاقبه المکذبین؟! و کأنّ القرآن بهذا التساؤل الذی جاء بعد عرض العاقبتین،یخیّرنا بین الجنه

و النار،بأثاره تفكيرنا نحو الاجابه على هذا التساؤل،اما عن معنى شجره الزقوم ففيه تفسيران:

الاول:ان قريشا لما سمعت هذه الآيه،قالت:ما نعرف هذه الشجره،فقال أبو جهل لجاريته:يا جاريه!ازقمينا. فأتته الجاريه بتمر و زبد،فقال لأصحابه تزقموا بهذا الذى يخوفكم به محمد،فيزعم ان النار تنبت الشجر،و النار تحرق الشجر فانزل اللّه سبحانه:« إِنّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظّالِمِينَ ». (١)

الثاني:و هو الأقرب،ان الإنسان يأكل فى الدنيا من هذه الشجره،و لكنه لا يشعر انه يأكل منها،الا فى الآخره حيث يكشف اللّه عن بصره،و يرى الحقائق بواقعها،فالكذب،و أكل اموال الناس،و شرب الخمر،...كل ذلك ورق فى شجره الزقوم التى يطعم منها أهل النار.

و فى سوره الواقعه التى تعالج جانبا من موضوع هذه السوره اشاره واضحه لهذا المعنى إذ يقول تعالى:« ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ، لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ* فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ* فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ* فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ » (٢)ثم يؤكد هذا المعنى فى آخر السوره إذ يقول عزّ و جلّ مخاطبا المكذبين بالقرآن و الضالين:« وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ». (٣)

[٦٣]و لا ريب ان الكذب و أكل اموال الناس و سائر الشهوات التى يواجهها الإنسان،تجعله على مفترق الطريق،بين الحق و الباطل،و الجنه و النار،و بالتالى فهو مبتلى و ممتحن امامها،و لا شك أيضا ان هذه الأمور بشعه كبشاعه شجره الزقوم

١- ٩) المجمع/ج(٧-٨)/ص(۴۴۶).

٢- ١٠) الواقعه/(٥١-٥٥).

٣- ١١) الواقعه/(٨٢).

التی هی التجلی الحقیقی لهـذه المعاصـی،و لکن الإنسـان یتجاهل ذلک،أو یغفل عنه فینجرف مع شـهواته،لیزرع بـذنوبه أشـجار الزقوم فتکون طعامه فی الآخره.

إِنّٰا جَعَلْنٰاهٰا فِتْنَهً لِلظّٰالِمِینَ اما المؤمن فهو لا یفتتن بها،انما یرتفع بإیمانه عن حضیض المعصیه لیزرع لنفسه بعمل الصالحات الجنان الواسعه.

[۶۴]و بعـد الاشـاره الی شـجره الزقوم و طبیعتهـا الفاتنه فی الـدنیا،یصورها لنا القرآن بواقعها فی الآخره،حیث الجزاء المتجانس و عمل الإنسان.

إِنَّهٰا شَجَرَهٌ تَخْرُجُ فِی أَصْلِ الْجَحِیمِ

و قد روی :

«ان اللّه تعالی یجوعهم-یعنی أهل النار-حتی ینسوا عذاب النار من شده الجوع،فیصـرخون الی مالک،فیحملهم الی تلک الشجره و فیهم ابو جهل، فیأکلون منها فتغلی بطونهم کغلی الحمیم » (۱)و فی روایه انها شجره عظیمه لأهل النار عامه،و لها فی کل منزله من الجحیم غصن یأکل منه الذین یعذبون فیها.

[۶۵] طَلْعُهٰا کَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّیٰاطِینِ و الطلع حمل النخله فی بدایته،یخرج من بین اللیف و الخضر،و هو یشبه غمد

۱- ۱۲) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۴۰۴).

الخنجر فی أوله و أقربه السیوف قبل ان یتشقق عن شماریخ البسر و الرطب،و ربما سمی طلعا لطلوعه بما یشبه طلوع الهلال،أو لأنه أول ما یطلع من الثمر.

[۶۶]و لان أصحاب النار یشعرون بضراوه الجوع و لا یجدون ما یأکلون،فإنهم یأکلون طلع الزقوم و ثمرها.

فَإِنَّهُمْ لَآکِلُونَ مِنْهٰا فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ کما ملأوا بطونهم بالحرام فی الدنیا.

[۶۷]و بعد الاکل من الزقوم یحسون بأشد العطش،فیطلبون الماء فیشربون السوائل الحاره لیطفؤوا حراره النیران التی أکلوها،و إذا بها تزیدهم عذابا الی عذابهم.

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَیْهٰا لَشَوْباً مِنْ حَمِیمٍ

و فی الروایه :

فیستسقون فیسقون شربه من الماء الحار الذی بلغ نهایته فی الحراره فاذا قربوها من وجوههم شوت وجوههم،فذلک قوله:« یَشْوِی الْوُجُوهَ »فاذا وصل الی بطونهم صهر ما فی بطونهم (۱) [۶۸]إنّهم یتصورون الماء الذی یطلبونه سوف یخرجهم من هذا العذاب و الاحتراق و لکنه ینتهی بهم الی ذات العذاب.

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَی الْجَحِیمِ

۱- ۱۳) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۴۰۴).

و لعل هذه الحاله من النهم الى الزقوم و الحميم فى النار تجسيد لنهمهم فى الدنيا بأكل اموال الحرام،و مداومه الشراب الحرام،أعوذ باللّه منهما.

[۶۹-۷۰]و فى النهايه يصرّح السياق بالضغط التاريخى،الذى يتسبب فى إضلال الكثير من الناس.

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ و كان يفترض فيهم ان لا يتبعوهم بل يبحثوا عن الحق،و توجّهنا الآيه الى ضروره المسيره الواعيه فى حياه الإنسان،حيث ينبغى له ان ينظر و يفكر فيها، فيلتزم الحق عن وعى لا عن وراثه و عاده،ثم ما يدرى الفرد أو المجتمع ان مسيرته خاطئه و اللّه يقول:« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلىٰ طَعامِهِ »،اى غذائه الجسمى و الروحى ليتأكد من سلامته،و لكن هؤلاء لم يتعبوا أنفسهم فى البحث عن الحق،انما اتبعوا الاباء و تأثروا بهم.

فَهُمْ عَلىٰ آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ و لم يقل القرآن يهرعون(بالفتح)،لان حركه الإنسان باتجاه التقليد ليست حركه اراديه بصوره كامله،انما هى مجموع دوافع ذاتيه،و ضغوط خارجيه من الآخرين،و الآيه تبين الضغط الذى يمارسه الاباء على أبنائهم لكى يتبعوهم.

فعلى الإنسان اذن ان يقطع السبب المباشر، فهو إذا لم يتأثر بذروه الضغط التاريخى المتمثله فى الاباء فلن يتأثر بالجيل السابق،و إذا لم يتأثر بذروه الضغط الاجتماعى المتمثل فى الإقران فلن يتأثر بالمجتمع المعاصر،و الترفع عن هذه الضغوط،هو الذى يسمو بالإنسان الى الخلوص التوحيدى.

ص:۲۴۲

[سوره الصافات (۳۷): الآيات ۷۱ الى ۱۰۵]

اشاره

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ اَلْأَوَّلِينَ (۷۱) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (۷۲) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ (۷۳) إِلاَّ عِبَادَ اَللَّهِ
اَلْمُخْلَصِينَ (۷۴) وَ لَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ اَلْمُجِيبُونَ (۷۵) وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ اَلْكَرْبِ اَلْعَظِيمِ (۷۶) وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ اَلْبَاقِينَ (۷۷) وَ
تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي اَلْآخِرِينَ (۷۸) سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي اَلْعَالَمِينَ (۷۹) إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۸۰) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُؤْمِنِينَ (۸۱) ثُمَّ
أَغْرَقْنَا اَلْآخَرِينَ (۸۲) وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (۸۳) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۴) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا ذَا تَعْبُدُونَ (۸۵) أَ إِفْكاً
آلِهَةً دُونَ اَللَّهِ تُرِيدُونَ (۸۶) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ اَلْعَالَمِينَ (۸۷) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي اَلنُّجُومِ (۸۸) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (۸۹) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ
(۹۰) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَ لاَ تَأْكُلُونَ (۹۱) مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ (۹۲) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (۹۳) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (۹۴) قَالَ أَ
تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (۹۵) وَ اَللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ (۹۶) قَالُوا اِبْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي اَلْجَحِيمِ (۹۷) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ
اَلْأَسْفَلِينَ (۹۸) وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (۹۹) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ اَلصَّالِحِينَ (۱۰۰) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ (۱۰۱) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
اَلسَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي اَلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اَللَّهُ مِنَ اَلصَّابِرِينَ
(۱۰۲) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ اَلرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۱۰۵)

اللغه

(۹۴)[يزفون]:يسرعون فى المشىء،فإنّ زفّ بمعنى الإسراع فى المشىء لنيل مطلوب أو الانتقام من عدوّ و ما أشبه.

ص:۲۴۳

إِنّا كَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ

هدی من الآیات:

حینما یبیّن لنا القرآن حقیقه أو حکما،لا یلبث ان یضرب لذلک امثله عدیده لیس للإیضاح و حسب،انما لبیان الابعاد و الحدود أیضا،ذلک لان النفس البشریه قادره علی تحویر الألفاظ و تفریغها عن معانیها الحقیقیه،و تحویلها الی ألفاظ قشریه غیر مؤثره،بل و قد تعطی معانی غریبه عن المعنی الحقیقی.

فلکی لا یأتی بعض المفسرین القشریین،أو بعض من تسوّل لهم أنفسهم تبریر الأفعال و الانحرافات للناس،و یفسروا القرآن علی أهوائهم و آرائهم،لم یترک ربّنا کلمه فی القرآن الحکیم الا-و أوضحها بالامثله التاریخیه التی لا-یمکن نکرانها،أو تبدیلها و تأویلها الی غیر مضامینها.

و إذ ذکّرنا اللّه فی الدروس الماضیه بعباده المخلصین،الذین یدخلون الجنه بغیر حساب،کنا بحاجه إلی الأمثله التاریخیه التی من شأنها احاطتنا بصفاتهم و خطهم

ص:۲۴۵

و الطريق الى هـذه القمه السـامقه،فربما زعمنا اننا من المخلصـين،أو منينا أنفسـنا بـذلك،و لكنّ القرآن يقطع طريق التمنى،حينما يضـرب لنا أمثله من حياه أنبياء عظام كنوح و إبراهيم و إسـحاق و يعقوب-عليهم السـلام-و يبين لنا مواقفهم الربانيّه فى تحـدى الجبت و الطاغوت،ليقول لنا:بان من لا يتحدى الجبت الداخلى،فيصرع هوى نفسه،لا يستطيع ان يتحدى الطواغيت و يصرعهم.

و لأـن هـذه السوره تعالـج فى جـانب منهـا مرض الاسـتكبار،الـذى يتعالى المبتلى به على الحق كـذبا و زورا،و توضـح كيف انه سينتهى بالإنسان الى جهنم انها توضح -فى مقابل الاستكبار-صفه الإحسان،فبينما تعنى الاولى المبالغه فى حب الذات و التمحور حولهـا،تعنى الاـخرى التنـازل عنهـا و عما يملك الإنسان من الطاقات و القـدرات فى سبيل الحق و الناس.ان الإحسان هو خروج الفرد عن ذاته،و دخوله فى رحـاب المجتمع،و كمـا يـدخل الاسـتكبار الإنسـان النـار،و يجعله لعنه الأجيـال، فان الإحسان يـدخل صاحبه الجنه،و يخلّد ذكره الحسن و مديحه على ألسن الناس فى كل أفق و زمان.

و القرآن فى هـذا الـدرس،يؤكـد بان المحسن ليس يجازى من قبل اللّه،فى الـدنيا و الآخره و حسب،و انما يمشـى ثناؤه كالطيب بين الناس،و قد أكد ربّنا هذه الحقيقه فى أكثر من آيتين بالنسـبه لنبيه إبراهيم عليه السـلام ،مما يدل على اهميه دور الإحسان فى رساله الأنبياء و نبوتهم عليه السلام .

بينات من الآيات:

[۷۱]بعـد ان يبين القرآن فى الآيتين الأخيرتين من الـدرس السابق دور الضـغط من قبل الآباء فى حياه الأجيال،يبين لنا هنا ان هذه مشكله البشر منذ القديم.

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ اَلْأَوَّلِينَ بذات العامل،و هو الاتباع الخاطئ للآباء.

[۷۲]و لكنّ اللّه بعث لهم الأنبياء و المرسلين،يحذرهم من عاقبه الضلال بالإنذار،لعلهم يهتدون للحق.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ [۷۳]لكنهم كذّبوا النذر،و حاربوا الأنبياء،فدمرهم اللّه،و أبقى آثارهم و أخبارهم ليكونوا عبره لمن بعدهم.

فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ و هذه مسئوليه الإنسان فى قبال التاريخ،ان يستفيد منه لحياته و مستقبله، و حين يدعو اللّه نبيه للنظر فيه،فلأنّ وعى التاريخ يعطى الرساليين ثقه بأنفسهم و خطّهم،و بصيره فى التحرك.

و بالتدبر فى هذه الآيات و الآيه التى تليها يمكننا القول بان القرآن يختصر الدورات الحضاريه فى هذا المقطع.

[۷۴]إنّ اللّه ليس يهب الجنه للمخلصين و حسب،بل و ينصرهم فى الدنيا و ينجّيهم من الهلكات.

إِلاّ عِبادَ اَللّهِ اَلْمُخْلَصِينَ و نستوحى من الآيه:أنّ الذين ينجّون من أنواع العذاب الالهى و النقمات،هم المخلصون و حسب،حتى جاء فى الأحاديث ان الصواعق لا تصيب المؤمنين

الـذاكرين،و معنى ذلك اننا لو قسـمنا الناس الى ثلاثه:الكفار،و المخلصـين، و آخرين بينهم،فان المخلصـين وحدهم الناجون،اما الكفار فيخلدون فى النار، و الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا يعذّبون كل حسب عمله.

[۷۵]و كمثال على نجاه المخلصين يذكّرنا اللّه بنبيّه نوح عليه السلام ،و الذين آمنوا معه،فقد دعا نوح ربّه على قومه فأرسل عليهم الطوفـان،فمـا نجى منـه غير نـوح و مـن آمـن معـه و ركـب السـفينه،ممـن أدخلهـم القرآن مـع أهلـه فى مقابـل إخراجـه كنعـان منهم،ليهـدينا الى أنّ النسب الحقيقى بين الإنسـان و الآـخرين هـو تجـانس القيم و العمـل فى الحيـاه بينه و بينهم،امـا الاعتبـارات الاخرى فهى غير سليمه.

قـال ابو عبـد الله عليه السـلام :ان اللّه قـال لنوح:« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ »لأـنه كـان مخالفـا له و جعـل من اتبعه من أهله (۱)و يبدأ القرآن بذكر نوح عليه السلام لأنه كما يسميه المؤرخون الأب الثانى للبشريه بعد آدم عليه السلام .

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ و لكن مـاذا أراد نوح عليه السـلام من ربه عز و جـل حين نـاداه؟ قال بعض المفسـرين إنّه أراد هلاك قومه حينما عصوه،و استـدلوا بقوله تعالى عن لسانه عليه السـلام :« رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً » (۲).و قال آخرون إنّه أراد من اللّه ان ينقذه من الكفار بعد سنين من الدعوه و الأذى الذى يلحقه بسببها.

و ربمـا تفسـر الآيه بانّه عليه السـلام أراد من ربه الهـدايه و تشـريفه بالرساله لانقاذ الناس،فربما كان الانبياء عليهم السـلام يعرفون بأنهم سوف يبعثون،و لكن لا يتنافى ذلك مع

۱- ۱) بح/ج(۱۱)ص(۳۰۵).

۲- ۲) نوح/(۲۶).

عدم معرفتهم متى سيكون بعثهم،و لهذا نجدهم فى البدء يتعجبون أو يخافون،فلم يكن النداء الذى انبعث من جانب الطور الأيمن أمرا عاديا بالنسبه لموسى عليه السلام ، و كذلك نبينا الأكرم(ص)،حينما نزل عليه جبرائيل بالرساله لاول مره،ذهب الى البيت و تدثر.

و حينما يدعو الأنبياء ربهم بالهدايه و البعثه،يستجيب لهم و قد هيّأو أنفسهم لتحمل مسئوليات هذا العمل العظيم،و اللّه سبحانه اعطى نوحا عليه السلام أكثر مما كان يتوقعه و ربما هذا معنى قوله« فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ».

[۷۶]و بعد ان استجاب اللّه لنوح بالرساله و أيده على قومه المنكرين بالطوفان الذى علا الأرض حتى غمر الجبال العاليه،أنجى نوحا و الذين آمنوا معه.

وَ نَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [۷۷]و ربما أسمى اللّه الغرق بالكرب العظيم،لأنه من أفظع صور الموت للإنسان فكيف و هو مقدمه لعذاب النار الخالد؟،و تركيز القرآن على أهل نوح عليه السلام عند التعرض لقصصه،لان اللّه حفظ بهم النوع البشرى عن الانقراض،و أهم من ذلک جعل فيهم النبوه،و الكتاب و هما الحبل الممتد بين الناس و ربهم.

وَ جَعَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِينَ

قال الامام الباقر عليه السلام فى تفسيرها :

«الحق و النبوه و الكتاب و الايمان فى عقبه،و ليس كل من فى الأرض من بنى آدم من ولد نوح،قال اللّه فى كتابه: اِحْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ »و قال أيضا:

« ذُرِّيَّهَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ » (۱)(۲).و مضی نوح و بقی ذکره الطیب تتوالی الأجیال بالسلام علیه.

[۷۸-۷۹] وَ تَرَکْنٰا عَلَیْهِ فِی الْآخِرِینَ* سَلاٰمٌ عَلیٰ نُوحٍ فِی الْعٰالَمِینَ و کان من الممکن ان تجعل صیغه الکلمه:و ترکنا علیه سلاما.الا ان الصیغه طوّرت لتکون کلمه السلام تامه حتی یجری علی لسان کل قارئ للقرآن سلام خاص لنوح علیه السلام.

[۸۰]لقد استجاب الربّ لنوح لأنه کان محسنا.

إِنّٰا کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ و هذا الجزاء سنه إلهیه ذلک ان من یحسن للناس یذکره الناس بالمدح و الخیر، فکیف و قد أخذ اللّه علی نفسه ان یجزی المحسنین بذلک؟ و الملاحظ ان اللّه و بعد ذکر هباته لنوح علیه السلام الذی جعله مثلا للعبد المخلص و هی،استجابه دعائه،و نجاته و اهله و المؤمنین معه،و جعل البشریه من ولده و النبوه فیهم،و اخلاده بالذکر الحسن علی ألسن الناس،ذکّرنا بصفه الإحسان فیه،و ذلک لیطلعنا علی التفسیر الحقیقی للإخلاص بأنه المنطلقات التوحیدیه الخالصه،التی تتحول الی سعی و عمل یتجاوز القیام بالواجب الی الزیاده و الإحسان.

[۸۱]و الایمان باللّه هو أعظم دافع للإنسان نحو الإحسان،و هکذا نعت ربنا نوحا علیه السلام بعد الإحسان بالایمان لأنّه أصل کل خیر و فضیله فقال:

۱- ۱) الإسراء/(۱۷).

۲- ۲) بح/ج(۱۱)/ص(۳۱۰).

إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ و المؤمن لاـ يتخوف من البـذل و الإنفـاق للآـخرين فى سبيل ربه،لأنه يعلم بان كل ما ينفقه سوف يعود عليه أضعافا مضاعفه و يزداد إحسانا كلما تعمق ايمانه بان مستقبله فى الدنيا و الآخره رهين عمله و تضحياته.

ان السبيـل الى الإحسـان،الـذى هو الطريق الى المكاسب الجسـيمه،كالتى ظفر بها نوح عليه السـلام ،هو الايمان باللّه عز و جل و بجزائه الأوفى.

[۸۲]ثم ان المنجى الحقيقى لنوح و من آمن معه لم تكن السـفينه التى صنعوها،فلو ان الكافرين ركبوا سفنا أكبر و أفضل منها،لم تكن لتنقـذهم من الغرق فى موج كالجبـال،و مـاء منهمر كالانهر من السـماء،انما نجوا بايمانهم الـذى تميزوا به عن غيرهم،و انما أمر الرب نبيه و المؤمنين بصـنع الفلـك،اثباتـا لمسؤوليه الإنسـان فى الحيـاه و تأكيـدا لهـا،و الاـ فانّه قادر على إنقاذهم بكلمه من عنده.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ و هم الكفار.

[۸۳]ثم يأتى لنا القرآن بمثل من الآخرين،الذين ترك فيهم سـلاما على نبيه نوح عليه السلام ،و هم الذين جسدوا امتدادا لرسالته فى البشريه عبر التاريخ،من الأنبياء و الرسل،و الصالحين.

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرٰاهِيمَ و الشيعه هم الذين يتبعون شخصا أو خطاما،فيقال لهم شيعه فلان.

و قال المفسرون:ان الضمير فی شيعته يعود الی نوح عليه السلام ،فيكون المعنی ان ممن سار علی دربه كان إبراهيم عليه السلام .

و قال آخرون:إنّه يعود الی النبی محمد-صلّی اللّه عليه و آله-و الواقع ان التشيع للحق و متابعه رسل اللّه واحد،فسواء نسب الی نوح عليه السلام أو الی محمد(ص)أو الی أوصيائه الطاهرين فانه نهج واحد و صراط مستقيم.

[۸۴]و القرآن يبيّن المعنی الحقيقی للتشيع،الذی هو رفض الجبت الداخلی بالتوحيد الخالص،و رفض الطاغوت الخارجی بمقاومه الانحراف الاجتماعی و السياسی و الثقافی و...و...فی الواقع القائم و الذی هو صوره ظاهريه للجبت الداخلی،ثم التسليم للّه و التضحيه و الاستقامه فی سبيله.

بلی.إنّ إبراهيم عليه السلام من شيعه نوح عليه السلام ،و لكن كيف وصل الی هذا المقام الرفيع؟ يجيبنا القرآن علی ذلك ب:

إِذْ جٰاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ و هو الذی سلم من كل الأمراض،كالحسد و الحقد و الجبن و الخوف،و التی يسميها القرآن بالاغلال،إذ يحدثنا عن اهداف بعثه رسول محمد(ص)فيقول:

« وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِی كٰانَتْ عَلَيْهِمْ » (۱)و هذه الأمراض و الأغلال انما تتفرع من شجره الشرك باللّه،و انما سماها القرآن بالاغلال و الأصر تاره و بالمرض تاره أخری،لان الأغلال و الأصر كما المرض كلها تقعد الإنسان و تكبل عقله و طاقاته الخيره.

۱- ۱) الأعراف/(۱۵۷).

قال علی بن إبراهیم« إِذْ جٰاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ »:

«القلب السلیم من الشک» (۱)

و قال :

«القلب السلیم الذی یلقی اللّه و لیس فیه أحد سواه » (۲)و هذا التفسیر یتناسب مع سیاق الآیات الذی یحدثنا عن العباد المخلصین.

[۸۵]و لن یصبح القلب ابراهیمیا خالصا من الشرک،الا إذا تعالی علی العوامل الأساسیه التی تؤثر سلبیا علیه،بل و قاومه،إذ لا بد للإخلاص من حقیقه خارجیه،و هی محاربه الشرک،و هکذا کان إبراهیم علیه السلام ،حیث حارب الانحراف الاجتماعی المتمثل فی الخط الشرکی لأبیه و قومه،و الانحراف السیاسی الذی جسده الطاغیه نمرود.

إِذْ قٰالَ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ مٰا ذٰا تَعْبُدُونَ و لم یکن سؤاله استفساریا،انما کان یستنکر الانحراف الاجتماعی القائم، و هذا ما یجب علی الإنسان تجاه أبیه و مجتمعه،فلیس من السلیم ان یستقبل منهما کل شیء،و یفقد استقلاله امامهما،انما یتقبل الجید و یعترض علی ما هو سلبی بالاسلوب المناسب.

و النبی إبراهیم علیه السلام مثل للثائر الرافض للخطأ الاجتماعی،و لخطأ الآباء،و اللّه

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۴۰۶).

۲- ۲) المصدر.

یأتی به حجه علی الذین أشرکوا بهما فحکی عنهم القرآن: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّینَ* فَهُمْ عَلیٰ آثٰارِهِمْ یُهْرَعُونَ (۱)،فإبراهیم علیه السلام -علی خلاف هؤلاء- تحمل مسئولیته،و اعمل عقله و لم یقدس الأشخاص و لا التراث علی حساب القیم.

[۸۶]و اهتدی علیه السلام الی زیف الشرکاء،و ضلال الثقافه التی انتهت بالمجتمع الی هذه النهایه الموغله فی الانحراف.

أَ إِفْکاً آلِهَهً دُونَ اللّٰهِ تُرِیدُونَ و الافک هو الکذب المبالغ فیه.

قال المفسرون انما قدم کلمه«أ إفکا»و هی مفعول مطلق،للعنایه الخاصه بها و لبیان ان کل تبریراتهم لعباده الآلهه خاطئه فلیسوا هم الاّ کاذبین.

و هذا یمثل قمه التحدی،من إبراهیم علیه السلام لذلک الضلال المنتشر بین قومه.

[۸۷]ثم سأل قومه بعد بیان خطأ الشرک،و هو یبیّن لهم الإله الحق:

فَمٰا ظَنُّکُمْ بِرَبِّ الْعٰالَمِینَ و هکذا تکون حرکه الرسالیین قائمه علی هدم الفکر و الواقع الباطل،و بناء الفکر و الواقع الحق بدلهما.

و یبدو ان إبراهیم علیه السلام وجههم-بهذه الکلمه-الی المنهج السلیم للتخلص من ضغوط الشرک،و التوجه الی اللّه.فمن تصور آیات اللّه و تذکر أسماءه و صفاته.

ص:۲۵۴

۱- ۱) الصافات/(۶۹-۷۰).

علم بأنه لا يرضى لعباده الكفر و الشرك،و أنّه يعاقب عليه أشد العقاب،و انه ينتصر للذين يقاومون المشركين.

و كـذلك نظن ان كلمات المفسـرين هنا فى أبعاد الظن قـد تكون جميعا من أبعاد الآيه بالرغم من ان كل واحد منهم ذهب الى بعد منها و ظنه المراد الوحيد منها.

[۸۹-۸۸]و لان نبى اللّه إبراهيم عليه السـلام جوبه بالرّد،و الأذى خطط لعمل واقعى يبلّغ من خلاله الرساله بشـكل أعمق أثرا،و ما دام يعرف بان الأصنام باطل فما يضره ان يبادر هو بنفسه لتحطيمها،و لو لم يكن المجتمع قد اقتنع بذلك.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ* فَقٰالَ إِنِّي سَقِيمٌ و كـان قـد اختـار يوم عيـدهم فرصه سانحه للقيام بمهمته،و خادعهم إذ أظهر لهم معرفته بالنجوم و ذلك اتباعا لمنهج التقاه و العمل السـرى و تغطيه على ما سيقوم به فى المستقبل،و قد استفاد عليه السلام فى ثورته من العاده الاجتماعيه القاضـيه بالاعتقاد بالنجوم،حيث كان قومه يتشاءمون أو يتفاءلون من خلال نظرهم إليها.و قـد نهى الإسـلام عن الاعتقاد بما يقوله المنجمون الا ما كان يستند على دليل منطقى.و غايه معقوله.

قال الامام على عليه السلام :

«ايها الناس إياكم و تعلم النجوم الا ما يهتـدى به فى برّ أو بحر، فانّها تـدعو الى الكهانه،و المنجم كالكاهن،و الكاهن كالساحر،و السـاحر كالكافر،و الكافر الى النار » (1)و يبـدو ان علم النجوم بـذاته غير محرم الا ـ ان جعل خرافات المنجمين فى مقام رسالات اللّه و العمل بالنجوم من دونها هو المحرم،

فقد جاء فى الحديث عن عبد

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)/ص(۴۰۸).

الملک بن أعین قال :قلت لابی عبد اللّه:انی قد ابتلیت بهذا العلم،فأرید الحاجه فاذا نظرت الی الطالع و رأیت طالع الشر جلست و لم اذهب فیها،و إذا رأیت طالع الخیر ذهبت فی الحاجه؟ فقال لی:تقضی؟ قلت:نعم،قال:أحرق کتبک (۱)

و جاء حدیث آخر مأثور عنه علیه السلام انه قال :بعد ان سئل عن النجوم:

«هو علم قلت منافعه،و کثرت مضاره،لأنه لا یدفع به المقدور،و لا یتقی به المحذور،ان خبر المنجم بالبلاء لم ینجه التحرز من القضاء » (۲)

و قال الامام الصادق علیه السلام :

«ما کان إبراهیم سقیما و ما کذب،انما عنی سقیما فی دینه مرتادا » (۳)و حینما نقرأ الأحادیث الوارده فی تفسیر هذه الآیه الکریمه،نجدها تؤکد علی رفع الشبهه القائله بأن التقیه حرام لأنها تضطر العاملین للکذب،بل انها من دین اللّه و یستدل الأئمه علی ذلک بالقرآن الحکیم.

یقول أبو بصیر:قال الامام ابو عبد الله علیه السلام :التقیه من دین اللّه،فقلت له:

من دین اللّه؟قال:ای و اللّه من دین اللّه،و لقد قال یوسف:« أَیَّتُهَا الْعِیرُ إِنَّکُمْ لَسارِقُونَ »و اللّه ما کانوا سرقوا شیئا،و لقد قال إبراهیم:« إِنِّی سَقِیمٌ »و اللّه ما

۱- ۲) المصدر/ص(۴۰۷).

۲- ۳) المصدر

۳- ۴) المصدر/ص(۴۰۶).

كان سقيما (۱)و لعل نظر إبراهيم عليه السلام الى النجوم فى ذلك المجتمع الزراعى الذى اعتقد بانّها ذات تأثير حاسم فى حياته كان للايحاء إليهم بأنّه يؤمن بها كما يؤمنون،فيبعد عن نفسه شبهه الكيد بأصنامهم فلا يأخذوه الى عيدهم عنوه و يفشلوا خطته.

و ربما قال سقيم توريه إذ انه من دون تحطيم الأصنام كان سقيما،أو ليست الأصنام كانت تعبد من دون اللّه جهارا،فكيف لا يكون مريض القلب مهموم الفؤاد،دائم الكابه و هو لما يقض على الأصنام.

و لعل هذا هو مراد الامام الصادق عليه السلام انه كان سقيما فى دينه،إذ لا ريب ان إبراهيم عليه السلام كان مخلصا طاهرا حنيفا و هو الذى قال عنه الرب:« إِذْ جٰاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ».

[۹۰]و بالفعل نجح نبى اللّه فى مهمته،حيث اطمئن القوم الى كلامه و ذهبوا جميعا الى عيدهم.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ و فى هذا التعبير افصاح عن مدى الاطمئنان من قبل القوم،حيث وصفهم القرآن بالادبار،و لو لم يكونوا كذلك لكانوا يلتفتون الى ورائهم فلا يصح وصفهم به.و الحركه الناجحه هى التى يتمكن افرادها من التغطيه على تحركهم بحيث يسلبون النباهه و الحذر من العدو ليفاجئوه بالضربه القاضيه،و فى نفس الوقت لا

۱- ۱) المصدر

يتركون أثرا يدل على خطتهم.

[۹۲-۹۱]و قد عمد إبراهيم عليه السلام بعد ان اختار الوقت المناسب،و الأسلوب الناجح،لتوجيه ضربته للواقع الفاسد،فتسلل الى موطن الأصنام سرا و هدمها.

فَرٰاغَ إِلىٰ آلِهَتِهِمْ فَقٰالَ أَ لاٰ تَأْكُلُونَ* مٰا لَكُمْ لاٰ تَنْطِقُونَ ان الـذى لا تتوفر فيه اراده الاكل و النطق كيف يكون بمستوى الربوبيه التى تستدعى القدره على الخلق؟! و فى مطلع الآيه نجد كلمه«راغ»التى عبر بها اللّه عن وثوب إبراهيم عليه السلام على الأصنام،و هى من البلاغه بمكان رفيع،إذ تفيد معنيين،هما المكر و الشده،و هكذا كان إبراهيم عليه السلام .و راغ مستأسدا فى اللّه يحطم رموز الباطل،و مما يتضح من نصوص التاريخ ان آزر-أبو إبراهيم بالتربيه-كان سادنا للأصنام و بيده مفاتيح بيتها، فلما ذهب مع القوم للعيد سلم المفاتيح بيد إبراهيم فكانت كل الظروف مواتيه لتنفيذ خطته،و من نافله القول انه يتبين من تاريخ البابليين بان القوى الحاكمه للجماهير فى زمنهم هما طائفتان،طائفه السدنه و الكهنه التى تمثل القوه الدينيه، و طائفه السلاطين التى تمثل القوه السياسيه،و كانتا تتعاونان على استغلال الناس و استعبادهم،و لعل الأصنام كانت لديهم مجرد وسيله للسيطره على المحرومين.

[۹۳] فَرٰاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ و قد أراد إبراهيم عليه السلام من تحطيمهم ان يوجه ضربه للقوتين،و للثقافه المتخلفه التى تحكم المجتمع و تسهّل لهما السيطره عليه،و لعل التعبير باليمين للدلاله على شده الضرب بلا تردد أو خشيه.

[۹۴]و هـذا بلاـ شـك يعتبر تحـديا عنيفـا للجميع،جعـل إبراهيم عليه السـلام يقف امه لوحـده بمـا يختص به من اعتقاد و ثقافه و سلوك،فى مقابل مئات الآلاف من الناس، و لا غرابه فان رساله اللّه و التوكل عليه تحملان الفرد الواحـد على التحـدى و لو لأمه بأجمعهـا دون ان يضـعف أو يسـتوحش،لاـن اراده المؤمن أقوى من الجبـل،لاـن الجبـل تحطمه الفؤوس بينمـا لاـ تنـال من اراده المؤمن شيئا.و ما دام المؤمن على الحق يجب ان لا يخشى الباطل و لو اتبعه الناس جميعا.

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ لأنه الوحيد الذى بقى فى المدينه،و لان بيده كانت مفاتيح بيت الأصنام.

و الزف تعبير عن مشيه معينه،تشبه بدايه مشيه النعامه،و لعلها توحى بضرب الأرجل على الأرض،مع سرعه و اهتمام.

[۹۶-۹۵]و لكنه بقى رابط الجأش،و عازما على المواجهه.

قٰالَ أَ تَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ* وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ و الخالق هو المعبود الحقيقى الذى يجب على الإنسان التسليم و الانقياد له.

فى البـدء أخلص إبراهيم عليه السـلام نفسه فـأخلصه اللّه من تـأثير الأجيال السابقه المتمثله فى عمه آزر،ثم أخلصه من الخوف و التسليم للطاغوت بل للمجتمع، فهو عليه السـلام بدأ من الصـفر حيث لا ناصر له الا ربّه،فضرب مثلا على الإخلاص، بانطلاقه فى حركته من الايمان باللّه،و العمل بوحيه،بعيدا عن أيّه دافع آخر.

[۹۷]و لاـن إبراهيم عليه السـلام تحـدى الاـنحراف بهـذا المسـتوى،و الأسـلوب الخطير، عزمـوا على قتله بـأبشع صوره ممكنه فى نظرهم،لكى لا يفكر الآخرون فى السير على

نهجه،و هذا هو دیدن الطغاه الی الیوم.

قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْیاناً فَأَلْقُوهُ فِی الْجَحِیمِ و کان نمرود و سائر القوی التی تهددها حرکه إبراهیم علیه السلام قد اتفقوا علی إشعال نار عظیمه ثم یلقونه فیها بالمنجنیق،علما بان نارا أقل من التی اشعلوها بکثیر، کانت کافیه لتحویله-فی الظروف العادیه-الی رماد،و لکنهم أرادوا ان یورطوا جمیع الناس فی مواجهه النبی علیه السلام بجمعهم الحطب لها.

و نحن نجد حاله التعبئه العامه التی یعلنها الطغاه عند ما تواجه سلطاتهم أخطارا حقیقیه،و یعملون المستحیل لاشراک الناس فیها بغیه أمرین:

أولا:الهاء الناس عن حقیقه ما یجری.

ثانیا:توریط الناس فی الجریمه حتی لا یمیلوا ناحیه المصلحین.

ففرعون دعا الناس الی الاجتماع فی یوم الزینه لیشهدوا غلبه السحره فی ظنه، و أصحاب الأخدود جلسوا علی حافتیه یشهدون ما یفعلون بالمؤمنین.

[۹۸]و لکنّ ید اللّه فوق أیدیهم،و إرادته غالبه ینصر بها عباده المؤمنین،فقد أحبط اللّه عملهم،و افشل مخططاتهم.

فَأَرادُوا بِهِ کَیْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِینَ لقد کانوا یهدفون من وراء القضاء علی إبراهیم ان تتم لهم السلطه و السیطره، بإثبات قوتهم القمعیه و صحه افکارهم،و لکنّ اللّه أوصلهم الی نقیض تطلعاتهم.

و کلما کان کید الکفّار و الطغاه أشد،کلما کانوا أعمق فشلا و خزیا.

[۹۹]اما إبراهيم عليه السلام فقد مضى فى طريق الجهاد قدما حيث هاجر فى سبيل اللّه،و لعله كان قادرا على البقاء فى تلك المدينه لأنه تحدى طواغيتها و انتصر عليهم، لكنه لم ير أن يعاشر الكفّار،بل أراد ان يبنى مجتمع الايمان بعيدا عن البيئه المنحرفه.

وَ قٰالَ إِنِّي ذٰاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ يعنى مهاجر فى سبيل اللّه،و من الطبيعى ان من يهاجر مجاهدا سوف يهديه ربه الى الحق و الخير،و ربما تفسير هذه الآيه الكريمه: وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (١)[۱۰۰]و كان همّ إبراهيم و تطلعه الآخر ان يلتحق به فى الدرب آخرون يؤمنون به و يحملون رسالته فقال:

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصّٰالِحِينَ و قد حدد لنا نبى اللّه بهذه الكلمه،نوعيه الطموح الذى ينبغى للإنسان ان يتطلع اليه،و هو يبحث عن أولاد أو عن أنصار و اتباع للرساله،و ذلك بأن يبحث عن النوع لا عن الكم و حسب.

[۱۰۱]و مما لا شك فيه ان للدعاء أثرا حاسما فى النتائج التى يصل إليها الإنسان،فالذى يخلص نيته و يحسن عمله و يدعو اللّه سوف يعطيه ما تقرّبه عينه، و هكذا فعل ربّنا مع نبيه عليه السلام .

فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِيمٍ

١- ١) العنكبوت/(۶۹).

اى عالم عاقل حكيم لا تهزه النوائب.

[١٠٢]و هنا أراد اللّه ان يبلو خليله إبراهيم،و مدى تسليمه له.

فَلَمّٰا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ و البلوغ بمعنى الوصول للسعى أو التمكن منه.

قٰالَ يٰا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي الْمَنٰامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مٰا ذٰا تَرىٰ و وضع ولده امام القرار الحاسم و الصعب،و كان بامكانه عليه السلام -كسائر الناس الذين يلتفون على احكام اللّه للتهرب من مسئوليتها-ان يتهرب هو أيضا،بحجه ان الأمر كان مجرد حلم رآه فى المنام،و لكنه يعلم ان الرؤيا لون من ألوان الوحى عند الأنبياء،و يجب عليه العمل وفقه.

و الذى لا ريب فيه ان إسماعيل عليه السلام كان أعز ما يملكه إبراهيم عليه السلام فى حياته بعد الايمان باللّه،فأراد ربّنا ان يمتحن مستوى تضحيته فى سبيله،فوجده مسلّما و هكذا كان ولده عليهما السلام.

قٰالَ يٰا أَبَتِ افْعَلْ مٰا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰابِرِينَ و يتضح لنا من هذه الآيه ان الأنبياء لا يتجاوزون الامتحانات الالهيه بالاعجاز انما يتذوقون مرارتها و صعوباتها،فهذا إسماعيل عليه السلام يصرّح عن حاجته لمشيئه اللّه حتى يتجاوز أهواء نفسه،والى الصبر حتى يقاوم صعوبات الامتحان.

[١٠٣] فَلَمّٰا أَسْلَمٰا للّه تعالى،فصدق الأب الرؤيا،و استجاب الابن الى والده.

وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ یعنی أضجعه علی الأرض،

و فی الخبر «فلما عزم-إبراهیم علیه السلام -علی الذبح قال الغلام:یا أبت اخمر وجهی(ای استره)،و شد وثاقی » (۱)و کان هدف إسماعیل علیه السلام من ذلک ان یمضی أبوه فی تنفیذ امر اللّه،فلا تثنیه عاطفه الابوه لولاح له وجهه.

[۱۰۵-۱۰۴]و فی تلک اللحظه جاءه النداء الإلهی:

وَ نٰادَیْنٰاهُ أَنْ یٰا إِبْرٰاهِیمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیٰا و تجاوزت الامتحان فکانت العاقبه فی صالحه فهو لم یخسر دنیاه،إذ فدی اللّه ولده بالکبش،و عمّر آخرته حیث أطاع اللّه،و هو عزّ و جل یؤکد بأنّ هذه عاقبه کل المحسنین المطیعین لأوامره سبحانه.

إِنّٰا کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ الذین یخرجون من قیود الذات و الهوی،و العلاقات السلبیه و یتوجهون بکلهم الی ربهم عزّ و جل.

و فی تفسیر هذه الآیه قال الامام الصادق علیه السلام :

«ما بدا للّه بداء کما بدا له فی إسماعیل إذ أمر أباه بذبحه ثم فداه بذبح عظیم » (۲)

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۴۲۳).

۲- ۲) المصدر/ص(۴۲۰).

[سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۰۶ الی ۱۳۸]

اشاره

إِنَّ هٰذا لَهُوَ اَلْبَلاءُ اَلْمُبِينُ (۱۰۶) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (۱۰۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي اَلْآخِرِينَ (۱۰۸) سَلامٌ عَلىٰ إِبْراهِيمَ (۱۰۹) كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۱۱۰) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۱۱) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ اَلصّالِحِينَ (۱۱۲) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلىٰ إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (۱۱۳) وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلىٰ مُوسىٰ وَ هارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ اَلْكَرْبِ اَلْعَظِيمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ اَلْغالِبِينَ (۱۱۶) وَ آتَيْناهُمَا اَلْكِتابَ اَلْمُسْتَبِينَ (۱۱۷) وَ هَدَيْناهُمَا اَلصِّراطَ اَلْمُسْتَقِيمَ (۱۱۸) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي اَلْآخِرِينَ (۱۱۹) سَلامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هارُونَ (۱۲۰) إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۱۲۱) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۲۲) وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ اَلْخالِقِينَ (۱۲۵) اَللّٰهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ اَلْأَوَّلِينَ (۱۲۶) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷) إِلاّ عِبادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۱۲۸) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي اَلْآخِرِينَ (۱۲۹) سَلامٌ عَلىٰ إِلْ ياسِينَ (۱۳۰) إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۱۳۳) إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۳۴) إِلاّ عَجُوزاً فِي اَلْغابِرِينَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا اَلْآخَرِينَ (۱۳۶) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (۱۳۷) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۳۸)

اللغه

۱۳۵[الغابرين]:الباقين الذين أهلكوا،و الغابر الباقى قليلا بعد ما مضى،و منه الغبار لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلا.

ص:۲۶۵

إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْبَلاٰءُ الْمُبِينُ

هدى من الآيات:

فى هـذه المجموعه من الآيـات يـذكرنا اللّه عز و جـل بـالمعنى الحقيقى للإخلاـص، و هو ان يكون الإنسان بعيـدا عن العوامل و الضـغوط المضاده للحق،و يضـرب لنا على هذه الفكره أمثله فى حياه الأنبياء،كإبراهيم و ولده إسـماعيل،و كاسـحاق، و موسى و هارون(عليهم السلام)و هكذا من حياه الأنبياء الآخرين،من بنى إسرائيل الذين انتخبهم اللّه بعد ان عرّضهم لا صعب الامتحانات و الفتن،فوجدهم صالحين صادقين مخلصين.

و بـالرغم من ان كـل نبى تعرّض لفتنه خـاصه،الاـ أنهم يشتركون فى بلاـء عـام واجهوه جميعـا بصـلابه الايمان و المعرفه باللّه،و تحدى الأوضاع الاجتماعيه و السياسيه المنحرفه فى مجتمعاتهم،فضغط الاجتماع على الإنسان و شعوره الداخلى الذى يسوقه نحو التكليف مع الآخرين،من أهم و أخطر الضـغوط التى يواجهها فى الحياه،و هذا ما جعل بعض العلماء يدعون لعباده المجتمع،أو ما يسمى بالحتميه

ص:۲۶۶

الاجتماعیه،و حتی الـذین یقولون بالحتمیه الطبقیه،أو الاقتصادیه،أو ما أشـبه فإنهم لیسوا بعیدین عن القول بهذه الحتمیه،و الفارق ان هؤلاـء یرکزون فی نظریاتهم علی جانب منها،بینما یؤکـد علماء الاجتماع أمثال(دوریکام)علی کافه أبعادها،و نحن لا نسـمیها حتمیه،بمقدار ما نسمیها عصرا و ضغطا من قبل المجتمع علی الإنسان.

فالمجتمع فی بعض الأحیان یعصـرک،و یضغط علیک باتجاه یتناقض مع طاعه اللّه،و الاهداف التی نتطلع إلیها،و واجبک تحدیه بالایمـان و التوکـل،و ان تعرف بـان عنوان نبوه الأنبیـاء و المرسـلین،و أبرز أعمالهم هو تحـدیهم للواقع الاجتماعی الفاسـد،و أنّ نجاحهم فی هذا التحدی هو سبب ارتقائهم،و لهذا أیضا نجد القرآن الحکیم یؤکد علی هذه الحقیقه فی کثیر من سوره و آیاته.

بینات من الآیات:

[۱۰۶]النبی إبراهیم علیه السـلام جاء لکی ینسف عاده جاهلیه کانت شائعه ذلک الیوم و هی ذبح الأبناء امام الأصـنام تقربا لها،و ما کانت هذه العاده مقتصـره علی فلسـطین وحدها،ففی مصـر أیضا کانوا ینتخبون ملکه الجمال من بین بناتهم لیلقوا بها مع بدایه الربیع فی النهر الذی کانوا یقدسونه لتذهب ضحیه عقیده جاهلیه.

تقول:بـان إله البحـار یریـد ان یتزوج،فلا بـد ان نختار له أجمل بناتنا لکی تهـدأ المیاه و لا یحـدث فیضانا یخرّب بیوتنا و یهلک مزارعنا.

و هذه العادات لیست بعیده عن واقعنا المعاصر،لأنها مهما اختلفت فی ظاهرها تلتقی فی نقطه مرکزیه واحده هی التضحیه بالأبناء من أجل الاهداف التافهه.

ان اللّه أمر إبراهیم علیه السلام بذبح ابنه ثم عوضه بالذّبح العظیم لیقضی علی هذه

العاده الجاهليه،و يبـدلها بسـنه الهيه حسـنه،جرت لدى البشـريه إلى هذا اليوم، و هى ذبح الانعام فى منى عند الحج و فى غيرها،و حينما بـدا للّه ان يفـدى نبيه بالكبش جعل الحادث يمر بوقائع اعجازيه عجيبه،فقـد كانت السـكين تلتوى كلما أدناها إبراهيم من رقبه ولده(عليهما السـلام)و كانت تفت الصـخره لو ضـربها، و لكنها تعجز عن التأثير فى جلد رقبه إسماعيل الرقيق بحدها.و لهذه القصه عبرتان أساسيتان:

الاولى:ان على الإنسان التضـحيه بـابنه و بأفضـل علاقـاته مـن أجـل الـدين و فى سبيـل اللّه.و الثـانيه:و ان يرفض من جهه اخرى التضـحيه بأولاده من أجل الآلهه المزيفه،حجرا كانت أو بشـرا كطواغيت اليوم،الذين يريدون بلوغ مآربهم و شـهواتهم الرخيصـه على جسر من دماء شباب الامه و أفلاذ اكبادها.

ان مقـاومه إبراهيم عليه السـلام للانـحراف الاجتماعى كان أمرا صـعبا،و صار أعظم صـعوبه حينما جعل اللّه الطريقه لمقاومته هو ذبح أعز الناس عليه و هو ابنه عليه السلام ،و قد وصف اللّه هذا الامتحان بقوله:

إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْبَلاٰءُ الْمُبِينُ و انما سمى مبينا لأنّه يكشف مستوى الايمان،و يبين حقيقه الإنسان.

[۱۰۷]و بالفعل كشف لنا هـذا الامتحان مـدى إخلاص النبى إبراهيم و تسـليمه للّه.هو و ولـد الـذى فـداهما الربّ بذبح من عنده تنزل به جبريل الأمين.

وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ و بهذا الذبح سنّ عليه السلام سنّه سار عليها المؤمنون إلى اليوم،فهم يذبحون

الهدى بمنى و فى كافه أنحاء العالم اقتداء به،و لعله لذلک سمى عظيما،و قالوا ان الذبح العظيم هو السبط الشهيد الامام الحسين بن على عليه السلام الذى ذبح على النهر عطشانا بكربلاء فداء لدين اللّه،و مقاومه للعادات الجاهليه الامويه.

[۱۰۹-۱۰۸]و كرامه لإبراهيم الخليل فى الدنيا قبل الآخره،جعل اللّه له ذكرا حسنا عند البشريه باختلاف مذاهبها و عقائدها،و لخّص ربّنا هذه الكرامه فى كلمه واحده هى:السلام على إبراهيم.

وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلاٰمٌ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ و مما تجدر الاشاره اليه ان الاستحباب الشرعى فى السلام على الأنبياء و الصالحين يقتضى تقديم الصلاه على محمد و آله(صلوات اللّه عليهم)ثم يذكر الطرف المراد ذكره.فيقول الذى يريد الصلاه على عيسى:على نبينا و آله و عليه أفضل الصلاه السلام،إلا نبى اللّه إبراهيم فان المستحب ذكره أولا ثم الثناء على نبينا و آله،فتكون جمله القول:(على إبراهيم و على نبينا و آله الصلاه و السلام).

[۱۱۰]و لكنّ هذا الجزاء الذى يحصل عليه الأنبياء ليس بسنه خاصه بهم،انما ضمن العداله الالهيه التى تشمل البشريه كلها،فلان إبراهيم كان محسنا استحق هذه الكرامه.

كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ و نستوحى من هذه الآيه فكرتين:

الاولى:ان الجزاء الحسن ليس قصرا على الأنبياء وحدهم،انما يلقاه كل محسن فى كل زمان و مكان،و ان الكرامه الحقيقيه لا ينالها الإنسان إلا بالكفاءه و السعى (و الإحسان)و ان جهود المؤمن لن تضيع،فربّنا يحفظ لكل عمله و يجازيه عليه ان

فى حياته أو بعد الوفاه،و ما هذا الجزاء الدنيوى الا دليل على الجزاء الأعظم فى الآخره.

الثانيه:إنّ الإحسان إلى الناس يجازيه الربّ بالولايه عليهم،فأحق الناس بالناس أحبهم لهم و أكثرهم إحسانا إليهم.

[۱۱۱]و ربّنا عزّ و جلّ يجازى من كان محسنا على إحسانه و بقدره،حتى و لو لم يكن مؤمنا،لان الإحسان بذاته محمود عنده،و قد قال سبحانه: (هَلْ جَزٰاءُ الْإِحْسٰانِ إِلاَّ الْإِحْسٰانُ) فكيف إذا كان المحسن مؤمنا؟بالطبع سوف يجازى أكثر فى الدنيا و الآخره،لان إحسانه للناس ليس من أجل سمعه طيبه أو جزاء مادى عاجل،بل يزيد فى رصيده الاخروى،فهذا إبراهيم عليه السلام و قد سنّ الأضحيه للّه فتنامى ثوابه بقدر ما اقتدى به الآخرون،اذن فالمؤمن يحصل على الجزاء بمقتضى سنتين،سنه الإحسان،و سنه الايمان،لهذا يؤكد اللّه على إحسان نبيه إبراهيم عليه السلام ثم يعود للتأكيد على ايمانه فيقول:

إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ فجزاؤه مضاعف اذن.

[۱۱۲]يزعم البعض ان الذى يخالف المجتمع الجاهلى،سوف يعزل و يتجاوزه التيار ثم يكون أبتر و لا يبقى له اثر،و لكن العكس تماما نجده فى تاريخ الأنبياء.

فبالرغم من مخالفتهم جموع الكافرين فان اللّه سبحانه أهلك أعداءهم،و بارك فى ذريتهم،و نشر ثناءهم على كل لسان و فى كل زمن.

فهذا إبراهيم عليه السلام يحنف عن قومه لوحده حتى يكون لوحده امه قانتا للّه،و لكن انظر إلى العاقبه فأين أولئك الذين خالفوه؟اما هو فهذا امتداده المبارك فى ذريته

و تابعيه.

وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا مِنَ الصّٰالِحِينَ فصلاح الوالدين ينعكس على الأجيال التى تنسل منهما،عبر طائفه من السنن الالهيه كالوراثه،و التربيه،و تأييدات ربانيه.

[۱۱۳]ثم بارك اللّه لإبراهيم و لإسحاق.

وَ بٰارَكْنٰا عَلَيْهِ وَ عَلىٰ إِسْحٰاقَ فالعرب من إبراهيم و هم أولاد إسماعيل،و بنو إسرائيل من ولده اسحق،فهو ليس أبّ الأنبياء و حسب انما هو أب لشعبين عظيمين أيضا،ثم يؤكد ربّنا إلى جانب ذكره البركه التى أسبغها على إبراهيم و ولده اسحق،أن ذلك ليس مبررا لمن أراد من ولدهما ان يضفى على نفسه صبغه القداسه،فيدعى الافضليه لا لشىء الا أنه ينسل منهما،لان قيمه الإنسان الحقيقيه تنبعث من عمله هو لا من حسبه و نسبه.

وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ لأنه أحسن.و ليس لأنه ينتمى للمحسنين،كما يوجد من بينهم المنحرفون الظالمون.

وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ [۱۱۴-۱۱۵]و يضرب لنا القرآن مثلا من واقع المحسنين من هذه الذريه المباركه،فيقول:

ص:۲۷۱

وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلی مُوسی وَ هارُونَ بالنبوه و هما من ذریه اسحق.

وَ نَجَّیْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ و إذا کـان الغرق صوره من الکرب لأنه من غضب اللّه،فان ظلم فرعون و جنوده صوره اخری لا تقل فظاعه عنها.

وَ نَصَرْناهُمْ [۱۱۶]اضافه إلی النجاه من الکرب علی فرعون و جنوده.

فَکانُوا هُمُ الْغالِبِینَ بلی.قد یتسلط الطغاه علی البلاد،و یفشل المؤمنون فی کثیر من المحاولات للاطاحه بهم،و یقدمون التضحیات،و لکن العاقبه تکون لهم،و إذا کانت للباطل جوله فان للحق دوله.و مهما تکن الظروف معاکسه،و الظاهر یوحی بغلبه الباطل إلا ان الحق و اهله هم المنصورون.

[۱۱۷]و لکی یحافظ موسی و هارون علی مکتسبات النصر،و یدیرون شؤون بنی إسرائیل انزل اللّه علیهما التوراه منهجا للحیاه.

وَ آتَیْناهُمَا الْکِتابَ الْمُسْتَبِینَ و من صفات الرسالات الالهیه أنها واضحه، کالقرآن الذی یصفه اللّه بقوله:

وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۱)و هذه الفکره تنسف أساس المعقدین

۱- ۱) القمر/۱۷.

الـذين اتخـذوا منهـج التكلف لآيـات اللّه،بتفسـيرها تفسـيرات معقـده،أو من خلال الأشـعار الجاهليه و أحاديث و أسـباب النزول الضـعيفه فی سـندها غالبا،بل إن البعض منهم حاول تفسـير القرآن من خلال الأفكار الـدخيله،حتی قال قائل منهم لا بد لمن أراد تفسير القرآن ان يقرأ الفكر الماركسی أولا.

[۱۱۸]هنا نعمتان متـدرجتان تتواليان علی المؤمنين إحـداهما توفير فرصه الهـدايه بانزال الوحی،الثانيه هـدايه اللّه لهم بعـد تقبلهم للوحی و التزامهم بشرائعه.

و إذا كـانت النعمه العـامه تعم الناس جميعا إذ ان ربّنا يبعث إلی كل قريه نـذيرا فان النعمه الثانيه تخص المؤمنين فقط،و لـذلك خص ربّنا موسی و هارون بالهدايه قائلا:

وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [۱۱۹-۱۲۰]و يوصل اللّه سياق الحديث عن موسی و هارون بالسياق العام للسوره،الذی يحدثنا عن جزاء عباد اللّه المخلصين و المحسنين،و ذلك من خلال الاشاره إلی جزائهما عليهما السلام.

وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ* سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ و لا يمكن لأحـد أن ينكر دور الاراده الالهيه فی تخليـد ذكر هؤلاء الأنبياء الـذين مر علی وفاتهم آلاف السـنين،فلو لا ذكرهم الـذی تضـمنته رسالات اللّه،هل كان أحـد فی هذا العصـر يعرف هذه التفاصـيل عن حيـاتهم؟و أكبر دليـل أنّنـا لاـ نعرف عن حيـاه الأنبيـاء الآـخرين الـذين لم تتعرض لـذكرهم الرسالات شـيئا مع ان عددهم(۱۲۴۰۰۰)نبيا و رسولا و يؤكد القرآن فی سوره هود ذلك بعد ان يذكر قصه نبی اللّه نوح و يقول:

تِلْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهٰا إِلَيْکَ مٰا کُنْتَ تَعْلَمُهٰا أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعٰاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (1)ان احداث التاريخ كانت تتلاشى من ذاكره البشر و كل جيل يأتى ينسى جزء منها حتى تنتهى تماما،بالذات و ان البشريه و لفتره ليست بالبعيده لم تكن قد وصلت الى التقدم العلمى الذى يمكنها من المحافظه على كل ذلك،بالاضافه الى أنّ كثيرا من الأقوام كانوا يتعرضون للانقراض و الهلاك الجماعى فيموت معهم تاريخهم،و علم الآثار القائم اليوم يطلع علينا كل حين بمعلومات عن أقوام لم تكن البشريه تعرف عنهم شيئا،و لكن اللّه يخلّد ذكرى الأنبياء العظام بفضله و يترك السلام عليهم يتوالى ليل نهار.و نعود للآيه لنتسائل ماذا ترك ربّنا على موسى و هارون؟ أولا:ان اللّه حافظ على رسالتهما فى الحياه،إذ أبقى مشعل الهدايه الذى تحملا الجهاد به و الدعوه اليه، يتلقفه الصالحون من ورثتهما على طول التاريخ دون ان يسقط يوما.

ثانيا:جعل ذكرهما الحسن يطبق الخافقين و لا يزال الى الأبد.

[122-121]و لان اللّه ذكر هذه القصص توضيحا و تأكيدا للحقيقه المحوريه فى هذه السوره عاد ليؤكدها،و تلك الحقيقه هى ان العاقبه للمحسنين.

إِنّٰا کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُمٰا مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ و لا بد ان نلاحظ بان هذه الآيه تأتى بعد ذكر مجموعه حقائق من حياه كل نبى فمن حياه نوح عليه السلام ذكر النجاه،و من حياه إبراهيم ذكر الذريه الصالحه،و من حياه موسى ذكر النصر و الهدايه،و اشركهم فى الذكر الحسن الذى لخّصه فى السلام

1- 1) هود/49

علیهم،و معنی ذلک ان جزاء المحسنین لا ینحصر فی الذکر الحسن،بل یشمل کل هذه الأمور و ما سیأتی ذکره فی القصص الاخری.و قد یکون تلخیص القرآن لحیاه هؤلاء لیس من باب الحصر إنّما أراد أن یشیر لنا فی هذه السوره إشارات مختصره، اما التفاصیل فیمکننا التعرف علیها من خلال مراجعتنا للسور الاخری.

[۱۲۳] وَ إِنَّ إِلْیٰاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ و یبدو انه من أنبیاء بنی إسرائیل،قیل إنّه عاش فی منطقه بعلبک بلبنان،و انما سمیت بذلک لان أهلها فی ذلک الزمان کانوا یعبدون إلها لهم یسمی بعلا.یقول صاحب المنجد:(بعل:اسم أطلق علی عده آلهه سامیّه اشهرها معبود فینیقی،هو إله الخصب و التناسل) و بعلبک محافظه البقاع یدل اسمها الحالی علی اسمها الفینیقی:

بعل البقاع (۱)[۱۲۴]و یلخص القرآن رساله الیاس فی ثلاثه أمور هی:

الاول:الدعوه الی تقوی اللّه عز و جل.

إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ لاٰ تَتَّقُونَ و هذه دعوه جمیع الأنبیاء لاقوامهم،لان مشکله الإنسان الحقیقیه هی ابتعاده عن ربّه و ضعف ایمانه به،و لا سبیل للبشریه الی معالجه انحرافاتها و مشاکلها إلا بالایمان و التقوی.

[۱۲۵]الثانی:و لکی یتصل الإنسان بربّه و یکون متقیا،یجب ان یتغلب علی مشکله الشرک لهذا نجد الیاس فی الوقت الذی یدعو قومه لتقوی اللّه یأمرهم بنبذ

۱- ۱) المنجد کتاب الاعلام ص ۱۳۶ الطبعه ۲۶.

الآلهه المزيفه.

أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ و الخلق هنا ليس بمعنى الإنشاء من لا شيء،انما يعنى الصناعه و التغيير التى يستطيع الإنسان على شيء منها،و لكن اللّه أفضل الخالقين،فهو الأولى بالعباده و يبدو ان ذكر صفه أحسن الخالقين هنا لان القوم كانوا ينسبون النسل لإلاههم بعل،فأمرهم النبى الياس بتقوى اللّه من ذلك و رفض هذه الخرافات التى تقف دون تقدمهم و تكاملهم.

[۱۲۶]ثالثا:محاربه الاتباع الخاطئ للآباء...و يبدو ان التقاليد كانت عميقه الجذور فى مجتمع الياس عليه السلام و السبب أنّ اللّه إذ لخص دعوته أشار الى الاباء مما يدل على نوع المعاناه التى كان يعيشها.

اَللّٰهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أراد من ذلك بيان دور الاباء فى الضغط على الأبناء ليشركوا باللّه أو يكفروا به،و هل يغيّر الواقع و الحقيقه كفر الناس؟كلا...فاللّه هو رب الاباء و ان كفروا أو أشركوا به و يجب على الأبناء ان يتجاوزوا خطأهم،و يتركوا هذه الأنداد و يتوجهوا الى ربهم الحق.

[۱۲۷]ثم يعرض لنا السياق النتيجه التى صار إليها قوم الياس عليه السلام ،فقد كذّبوا رسولهم و أصروا على انحرافهم.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ امام العداله الالهيه لينالوا جزاءهم المتمثل فى عذاب اللّه.

ص:۲۷۶

[١٢٨]و تستثنى الآيات من العذاب القوم المخلصين،و هم الذين تمحضوا فى الطاعه.

إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ أما الذين يلحق بايمانهم بعض الشك،و بأعمالهم بعض السلوكيات المنحرفه فإنهم يحضرون للحساب و الجزاء كلا بنسبه شكه و انحرافه.

[١٣٢-١٣١-١٣٠-١٢٩]كان ذلك جزاء المكذبين،اما الرسول الذى صدق برسالته،و بلغها لهم،و تحمل من أجلها العناء و التضحيات،فان جزاءه على اللّه الكرامه.

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ* إِنّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ و قد تجسد إحسان الياس فى رسالته التى حملها لقومه،و إذا كانوا قد قابلوه بالرد و التكذيب،فان اللّه لا يضيع لديه عمل محسن أبدا،و تأكيد القرآن على صفه الايمان فى النماذج التى يضربها من حياه الأنبياء دون صفه النبوه و الرساله،حتى لا يتصور متصور انه إذا صار محسنا فقد لا يجنى ثمره لإحسانه باعتباره ليس بنبى، فالعبوديه و الايمان صفتان ممكنتان لكل شخص إذا أراد و سعى.

[١٣٣]و يسوق لنا القرآن مثلا آخر على نجاه المخلصين من حياه النبى لوط عليه السلام و هو من أهل بابل بعثه اللّه فى غير قومه.

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ و قد جاء ليعالج الوضع الفاسد الذى يعيشه قومه،و الذى من ابرز مظاهره

الفساد الخلقی،و ذلک برساله ربه،لکنّهم رفضوه و رفضوا رسالته فکان مصیرهم کسائر الأقوام الـذین یکذبون الأنبیاء ان دمرهم اللّه.

[۱۳۶-۱۳۵-۱۳۴]و مع ان حیاه لوط علیه السلام تشتمل علی الکثیر من الدروس و العبر،إلا ان القرآن فی هذه السوره یدعونا للتفکیر فی لحظه نجاته و من آمن معه من أهله،و دمار الآخرین الذین کذّبوا به.لان هذا الجانب یلتقی مع السیاق العام لهذه الآیات.

إِذْ نَجَّیْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِینَ* إِلاّٰ عَجُوزاً فِی الْغٰابِرِینَ و قد قیل انها زوجته،و قصه هلاکها هی:ان اللّه امر لوطا و من معه حینما یخرجون من القری المؤتفکه ان لا یلتفتوا وراءهم،لان ذلک یعبّر عن الشفقه علی المهلکین،و التشبث بالمال وحب الوطن من دون اللّه،فالتفتت زوجته و أهلکت معهم.

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِینَ بان قلب جبرئیل علیه السلام علیهم الأرض عالیها سافلها و اهلکهم جمیعا.

[۱۳۸-۱۳۷]و إذا کان هؤلاء الأقوام قد انقرضوا بأجسامهم و حضاراتهم فقد بقیت منهم العبره و السعید من اتعظ بتجارب غیره.

وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ* وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ أ کان هذا المرور علی بقایا الآثار،أو من خلال آیات القرآن الحکیم،

فقد قال

ابو الربیع الشامی :سألت أبا عبد اللّه(الی قوله)فقلت:فقوله عزّ و جلّ وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ قال:

«تمرون علیهم فی القرآن إذا قرأتم القرآن، فقرأ ما قص اللّه علیکم من خبرهم » (1)و مشکله الناس الذین یکررون تجارب الآخرین الخاطئه فیصیبهم ما أصابهم، لیس قله التجارب و العبر،انما قله الاعتبار،فالآثار و القصص التاریخیه کفیله باستثاره عقل الإنسان و إعطائه البصیره فی الحیاه،و لکنه یعطل عقله عن التفکیر فیها،و فی بعض النصوص التاریخیه ان العرب کانوا یمرون بقوافلهم أثناء تجارتهم الی الشام علی قری لوط إلاّ إنّهم لم یستفیدوا من هذه الموعظه التی لا تحتاج إلاّ الی القلیل من التفکیر لیقرأها الإنسان.

و هذه التذکره من القرآن الحکیم بضروره الاعتبار من التاریخ،تؤکدها الآیات عند ذکرها لقصص الماضین،و ذلک لکی یعلم من یقرأ القرآن،بان هذه القصص لیست للتسلیه و جمع المعلومات إنّما هی للهدایه و الموعظه و الاعتبار.

١- ١) نور الثقلین ج ۴ ص ۴٣٢.

[سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۳۹ الی ۱۶۰]

اشاره

وَ إِنَّ یُونُسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِینَ (۱۳۹) إِذْ أَبَقَ إِلَی اَلْفُلْکِ اَلْمَشْحُونِ (۱۴۰) فَسٰاهَمَ فَکٰانَ مِنَ اَلْمُدْحَضِینَ (۱۴۱) فَالْتَقَمَهُ اَلْحُوتُ وَ هُوَ مُلِیمٌ (۱۴۲) فَلَوْ لاٰ أَنَّهُ کٰانَ مِنَ اَلْمُسَبِّحِینَ (۱۴۳) لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۱۴۴) فَنَبَذْنٰاهُ بِالْعَرٰاءِ وَ هُوَ سَقِیمٌ (۱۴۵) وَ أَنْبَتْنٰا عَلَیْهِ شَجَرَهً مِنْ یَقْطِینٍ (۱۴۶) وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلیٰ مِائَهِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ (۱۴۷) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنٰاهُمْ إِلیٰ حِینٍ (۱۴۸) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّکَ اَلْبَنٰاتُ وَ لَهُمُ اَلْبَنُونَ (۱۴۹) أَمْ خَلَقْنَا اَلْمَلاٰئِکَهَ إِنٰاثاً وَ هُمْ شٰاهِدُونَ (۱۵۰) أَلاٰ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْکِهِمْ لَیَقُولُونَ (۱۵۱) وَلَدَ اَللّٰهُ وَ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (۱۵۲) أَصْطَفَی اَلْبَنٰاتِ عَلَی اَلْبَنِینَ (۱۵۳) مٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ (۱۵۴) أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (۱۵۵) أَمْ لَکُمْ سُلْطٰانٌ مُبِینٌ (۱۵۶) فَأْتُوا بِکِتٰابِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۱۵۷) وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ اَلْجِنَّهِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ اَلْجِنَّهُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۵۸) سُبْحٰانَ اَللّٰهِ عَمّٰا یَصِفُونَ (۱۵۹) إِلاّٰ عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِینَ (۱۶۰)

اللغه

۱۴۵[بالعراء]:المکان الخالی الذی لا نبت فیه و لا شجر.

۱۴۶[یقطین]:شجر القرع،و قیل کل شجر لا ساق له.

ص:۲۸۰

هدى من الآيات:

بعث اللّه نبيه يونس بن متى الى مدينه نينوى بالموصل،فبلّغ الرساله و ارشدهم للحق بعد ان بين لهم انحرافهم، و لكنهم لم يستمعوا الى دعوته،فما صابرهم كثيرا و دعا عليهم فغضب اللّه عزّ و جل عليه،لكنّ حساب الخطأ على الأنبياء يكون بمستوى المسؤوليه التى يتحملها النبى.فالربّ يعتبر تركهم الأولى معصيه كما اسمى تناول آدم من الشجره عصيانا،بل فى قصه أحد الأنبياء الذى حاربه قومه فاختفى فى جذع شجره،و لما دلّهم الشيطان عليه قطعوا جدعها بالمنشار،فأصابه من حدها فقال«آه»،فأوحى اللّه اليه إن عدت لها مره اخرى محوت اسمك من ديوان الأنبياء.و لا ريب ان لحظه الوقوع فى الخطأ لرفع اللّه عنهم العصمه ليتصرفوا بطبيعتهم البشريه المجرده،و لعله لحكمه معينه هى إظهار بشريتهم عليه السلام .

و هكذا غضب اللّه على نبيه يونس بسبب تركه للأولى،و سرعه الدعاء على قومه،الأمر الذى جعله مستحقا عند اللّه الاعتقال،فسجنه فى بطن الحوت فى

ظلمات ثلاث،فی قصه خلاصتها إنّه وصل الی البحر هاربا من قومه،و رکب سفینه ملیئه بالمسافرین،و فی عرض البحر حیث طغی ماؤه و هاج موجه،و تخوّف الجمیع من غرقها،فقال ربان السفینه:ان عبدا آبقا موجودا فی سفینتنا،و کانت عادتهم الاقتراع فی مثل هذه الظروف و من یظهر اسمه فی القرعه هو الذی یلقی فی البحر لیخف وزن السفینه،و کانت القرعه و لثلاث مرات تتجه الی یونس بن متی فرموه فی عرض البحر،فتلقفه الحوت الذی ابتلعه و بقی فی بطنه.

و لم ینقذ یونس علیه السلام من هذا المأزق الا بتضرعه للّه و اعترافه بخطئه« سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّالِمِینَ » (۱)، إذ أمر اللّه الحوت ان یقذفه علی الساحل و خرج من بطنه و قد اهترأ جلده،فأنبت اللّه له شجره الیقطین ذات الأوراق الکبیره،فشوفی و خرج لیمارس مسئولیه التبلیغ من جدید.

و تهدینا هذه القصه کما القصص الماضیه،الی الحقیقه التی سبق و ان ذکّر بها السیاق القرآنی،و هی ان العباد المخلصین بشر و لیسوا أولادا للّه سبحانه،و لا آلهه، و ذلک خلافا لما یصفهم به المشرکون،کما إنّهم لم یوصفوا بتلک الصفات المثلی الا بما سعوا و أحسنوا،و قد اعترضتهم-کما یحصل ذلک لای إنّسان آخر-الصعاب و المشاکل،و لو کانوا کما یصفهم المشرکون لتجاوزوها،و الحال إنّهم لولا رحمه اللّه لکانوا من الهالکین.

بلی ان ربّنا سبحانه ترک علیهم سلاما دائما علی کل لسان لما امتلکوا من صفات جعلتهم أئمه و قاده.

و لعل هذا التأکید علی السلام علیهم لکی یتخذوا قاده،و لکی یعرف الناس حدود إکرامهم للأنبیاء فلا یغلوا فیهم حتی مقام الربوبیه،و لا ینزلونهم الی مستوی

۱- ۱) الأنبیاء/(۸۷).

العلماء و المفكرين،و أخيرا لكى يفسر القرآن سبب إكرام الناس للأنبياء فلا يحرفه الضالون عن سبيل التوحيد.

بينات من الآيات:

[۱۳۹-۴۰] وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ و الآبق هو الهارب،و المشحون الممتلئ.

[۱۴۱]و لما أبحرت السفينه و خاف أهلها من الغرق اقترحوا ان يقترعوا،ليلقوا واحدا من ركبها فى البحر تخفيفا لوزنها.

فَسٰاهَمَ النبى يونس بعد ان وافقهم.

فَكٰانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ و المدحض هو الذى لاحظ له،و قد خسر القرعه ثلاث مرات.

[۴۲]فلما كان الأمر كذلك ألقى فى البحر.

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ و المليم الذى يأتى من التصرفات ما يستحق عليه اللوم.

[۱۴۴-۱۴۳]و لكن يونس أدرك خطأه و اعترف به،و اهتدى الى طريق التوبه و رضى اللّه و هو الاستغفار و التسبيح-و هكذا يجب علينا نحن حينما نقع فى

المعصیه-و بهذا تجاوز النبی علیه السلام محنته لیخلّف للبشریه درسا فی معالجه الخطأ.و لو لا أنّه أصلح خطأه لاحاط به.

فَلَوْ لاََ أَنَّهُ کاََنَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ* لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلیََ یَوْمِ یُبْعَثُونَ و ذلک بان یکون قبره فی بطنه.

[۱۴۵]و لکن اللّه أخرجه من بطن الحوت بعد توبته.

فَنَبَذْنََاهُ بِالْعَرََاءِ وَ هُوَ سَقِیمٌ ای مریض و السقم شده المرض،اما العراء فهی الصحراء.

[۱۴۶] وَ أَنْبَتْنََا عَلَیْهِ شَجَرَهً مِنْ یَقْطِینٍ لأنه ربما کان یحتاج الی الظل کعلاج الی سقمه،

قال الامام علی علیه السلام :

«و أمر اللّه الحوت ان یلفظه فلفظه علی ساحل البحر،و قد ذهب جلده و لحمه،و أنبت اللّه علیه شجره من یقطین و هی الدّبا،فأظلته من الشمس،ثم أمر الشجره فتنحت عنه و وقعت الشمس علیه فجزع.فأوحی اللّه الیه:یا یونس لم لم ترحم مائه الف أو یزیدون و أنت تجزع من تألم ساعه؟فقال:یا رب عفوک، عفوک،فرد اللّه علیه بدنه،و رجع الی قومه و آمنوا به » (۱)و یبدو ان الشجره لم تکن تظله و حسب،و إنّما کان یتداوی بها عن مرضه، لان ثمر هذه الشجره-و هو القرع-بارد طبعه کما یقولون ینفع الجسم الملتهب.

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۴۳۶).

[۱۴۷]و هکـذا نهض یونس من مرضه لیمـارس عمله الجهـادی من جدیـد یوحی من اللّه عز و جـل،الـذی بعثه لیعیـد التجربه مع قومه.

وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ و لم یحدد القرآن عدد هؤلاء بالضبط،لان المجموعه البشریه المتواجده فی منطقه ما،تزید و تنقص لعوامل مختلفه من بینها الولاده و الموت،و من بینها الهجره من المجتمع و الیه.

[۱۴۸]و حینما عاد یونس الی قومه هذه المره نجح فی تغییرهم.

فَآمَنُوا و صاروا مثلا للامه التی استفادت من تجربتها السلبیه فی ارتقائها و تقدمها، فقد حدد قوم یونس و هم یرون العذاب علی الأبواب المسؤول عن هـذا الواقع،فلم یبرروا لأنفسـهم و لم یعانـدوا،انما تحملوا المسؤولیه و تواضـعوا للحق فرفعهم اللّه و أرسـل علیهم الخیر و البرکه.و لیس بالضروره ان یکون العذاب غماما و لا خسفا من غضب اللّه،فقد یکون هو التمزق و الفقر و التخلف و المشاکـل النفسـیه و الاجتمـاعیه،و کلها موجوده الآن فی واقع الامه الاسـلامیه،و واجبها ان تغیر واقعها لیغیر اللّه ما هی علیه من التخلف الی التحضر و الازدهار.و لا یکون ذلک الا بالایمان،فهذه امه یونس یحکی اللّه عنها إذ آمنت قائلا:

فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ فلم تبق هـذه المتعه و البرکه طویلا،لأنهم لم یحافظوا علی عاملها الأساسـی و هو الایمان فهم ظلوا فی متعتهم الی حین وجود الایمان بینهم.

[۱۴۹]و بعد ان يختم ربّنا قصص الأنبياء التى أكد فيها على عبوديتهم له نفيا لادعاء المشركين بأنهم آلهه،و ذلک من خلال الآيه الكريمه: إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ،التى تمثل عاملا مشتركا بين القصص كلها،ينفى من الجانب الآخر مجموعه من التصورات التى اختلقها المشركون حول الملائكه و الجن،و أهمها زعمهم بأنها نسب للّه عز و جل كوسيله لتأليهها.و نجد فى السياق امرا من اللّه الى رسوله باستفتاء المشركين فى ذلک.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّکَ الْبَنٰاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ و الاستفتاء هو أخذ الفتيا و الرأى.

[۱۵۰]و لو سألهم الرسول لقالوا بلى،و لكن على اى دليل يستند قولهم،هل شاهدوا خلق الملائكه؟ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاٰئِكَهَ إِنٰاثاً وَ هُمْ شٰاهِدُونَ الذى يرى شيئا بعينه يمكنه ان يدعى صدق ما رآه،و يكون ادعاؤه منطقيا، بينما لم يشهد هؤلاء خلق الملائكه حتى يعرفوا ماهيتها،و هذه الآيه تنسف فكره الجاهليه من الأساس حول الملائكه،حيث تهدينا الى إنّها مجرد ظن لا دليل عليه.

[۱۵۲-۱۵۱]و مع ان ظاهر الآيتين الماضيتين حول الملائكه،انهما تعالجان فكره أنوثه الملائكه،الا ان هدف القرآن من الحديث هو نسف الاعتقاد بألوهيتها، ذلک ان بعضا من المشركين تصوروها تولدت من اللّه فهى آلهه أيضا، و إنّما دخل السياق لهذا الموضوع من زاويه الحديث عن طبيعه الملائكه و ماهيتها،ليبين لنا بان تصورات الجاهليين خاطئه ليس فى تحديد دور الملائكه و حسب و إنّما يجهلون حتى ماهيتها،و كل ما هنالک من أفكار لديهم حولها فانها مجرد ظنون لا دليل منطقى

عليها.

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ* وَلَدَ اللّٰهُ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ ان الاعتقاد بولاده اللّه الذى نشأ أصلا من أجل الهروب من ثقل المسؤوليه، و لكى يشبع الإنسان غروره و كبره و تطلعه الى مقام الربوبيه-ان هذا الاعتقاد- برره ادعياء الحكمه و الفلسفه فوضعوا له نظريات الحلول و الاتحاد،و وحده الوجود، و مها حاولوا تبريرها فهى مجرد إفك داخلى فى نفوسهم،و كذب فظيع على ألسنتهم.

ان المشركين يعلمون بكذب دعواهم فاجتمع فى هذا الادعاء القبح الفاعلى الى جانب القبح الفعلى.

[۱۵۳]و يتساءل القرآن من جديد:

أَصْطَفَى الْبَنٰاتِ عَلَى الْبَنِينَ [۱۵۴]ان استصدار هذا الحكم على اللّه سبحانه،لا ينطبق مع أبسط قواعد الحكم المنطقيه.

مٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [۱۵۵-۱۵۶-۱۵۷]و الإنسان حينما يريد الحكم على قضيه ما إما ان يرجع الى ضميره،أو الى حجه اخرى كالعقل و العلم،و هؤلاء لا يراجعون ضميرهم بالتذّكر و لا يرجعون الى حجه قاطعه اخرى.

أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطٰانٌ مُبِينٌ إذا بلغ الإنسان حدا-و بالاعتماد على البراهين و الشواهد القاطعه-ان اعتقد

حتی و لو بهـذه الفکره الباطله فی واقعها.فانه معـذور عند اللّه،و لکنه تعالی أبی ان یجعل الحق باطلا لا ریب فیه،و لا الباطل حقا لا ریب فیه،و ذلک بما زرع فی الإنسان من ضـمیر،و بما وهبه من عقل،و أنزل علیه من کتب،و بعث له من رسل، و جعلها جمیعا فرقانا له فی الحیاه فی کل أمورها و قضایاها.

فَأْتُوا بِکِتٰابِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ إذا کانت مزاعمکم هذه تعتمد علی دلیل فأین هو الدلیل؟ [۱۵۸]و فی نهایه الدرس یعرّج القرآن علی فکره باطله اخری لینسفها نسفا و هی تألیه الجن.

وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ الْجِنَّهِ نَسَباً فعبدوا الجن،و عبدوا السحره و الکهنه التی تدّعی الاتصال بها،أو تتصل بها فعلا.

وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّهُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ و لو کانت الجن آلهه کما یتصور المشرکون،لما أحضروا للعذاب کسائر العصاه من الخلائق و ذلـک یـدل بوضـوح علی إنّهـم مخلوقـون و لیسـوا بـآلهه.و ذکر اللّه لحضـور الجنـه للعـذاب یضــرب أفکـار المشــرکین فی الصـمیم،ذلک ان للشـرک بصوره عامه جذر مشترک،هو محاوله التخلص من المسؤولیه،عبر الاعتقاد بأشـیاء و قوی أنّها تخلص الإنسان من عذاب اللّه،و إذا کانت الجنه لا تخلّص نفسها فکیف تنقذ البشر.

[۱۵۹]و تعالی اللّه و تنزه عن هذه الأفکار المنحرفه.

ص:۲۸۹

سُبْحانَ اللّهِ عَمّا یَصِفُونَ [۱۶۰]و فی الوقت الـذی ینسف القرآن فکره تألیه الجن،ینسف من جانب الاعتقاد السائـد لـدی البعض من ان الجن یذهبون الی النار جمیعا،و ذلک حینما یستثنی من الحضور فی العذاب المؤمنین المخلصین منهم.

إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِینَ کما تتضمن الآیه تأکید فی کلمتها الاولی علی عبودیه الجن لا ألوهیتهم.

[سوره الصافات (۳۷): الآيات ۱۶۱ الى ۱۸۲]

اشاره

فَإِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ (۱۶۱) مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفٰاتِنِينَ (۱۶۲) إِلاّٰ مَنْ هُوَ صٰالِ اَلْجَحِيمِ (۱۶۳) وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ (۱۶۴) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ اَلصّٰافُّونَ (۱۶۵) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ اَلْمُسَبِّحُونَ (۱۶۶) وَ إِنْ كٰانُوا لَيَقُولُونَ (۱۶۷) لَوْ أَنَّ عِنْدَنٰا ذِكْراً مِنَ اَلْأَوَّلِينَ (۱۶۸) لَكُنّٰا عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۱۶۹) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۱۷۰) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا اَلْمُرْسَلِينَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ اَلْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ اَلْغٰالِبُونَ (۱۷۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ (۱۷۴) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۵) أَ فَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ (۱۷۶) فَإِذٰا نَزَلَ بِسٰاحَتِهِمْ فَسٰاءَ صَبٰاحُ اَلْمُنْذَرِينَ (۱۷۷) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ (۱۷۸) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۹) سُبْحٰانَ رَبِّكَ رَبِّ اَلْعِزَّةِ عَمّٰا يَصِفُونَ (۱۸۰) وَ سَلاٰمٌ عَلَى اَلْمُرْسَلِينَ (۱۸۱) وَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۱۸۲)

اللغه

-۱۶۲[بفاتنين]:الفاتن الداعى إلى الضلال،أى لا تتمكنون من إضلال الناس على خلاف اللّه سبحانه.

ص:۲۹۱

سُبْحانَ رَبِّکَ رَبِّ الْعِزَّهِ عَمّا یَصِفُونَ

هدی من الآیات:

فی الدرس الأخیر یلخص ربنا عبر هذه السوره،و من أظهرها أن عباد اللّه المخلصین هم الذین أخلصهم ربهم،و أخلصوا أنفسهم له،فلم تؤثر فیهم العوامل التی جرت علی غیرهم.

فی الآیات الأولی من هذا الدرس ینفی القرآن الحکیم التعلق الشرکی بالملائکه عبر التأکید علی عبودیتهم للّه،و تسلیمهم لأوامره التی ینتظرونها،تتنزل من عنده إلیهم،ثم ینسف فکره الجبر مکذّبا الذین یدّعون بأنهم مضطرون للشرک بالشیاطین،إذ لا جبر فی الدنیا علی الإنسان،انما هو الذی یختار طریقه،و أفکاره، و اعتقاداته بکامل حریته،و هذه الحریه هی التی تحمّله المسؤولیه الکامله تجاه تصرفاته،و الأوامر التی یوحیها اللّه لرسله بأن لا یبالغوا فی تبلیغهم الرساله للکفار و المشرکین تلتقی مع فکره الاختیار،فالکفار و المشرکون هم المسؤولون عن اختیارهم،و لیس من واجب المبلغ للرساله أن یفرض علیهم اختیارا معیّنا.

و تنتهی السوره بما صار ختاما لأحادیث الصالحین و هی الآیات الثلاث الاخیره و التی مطلعها تنزیه اللّه سبحانه،ثم الثناء علی رسله،و أخیرا تخصیصه بالحمد.

بینات من الآیات:

[۱۶۱-۱۶۲]ان أفکار الشرک بألوانه المختلفه خاطئه،و الإنسان غیر مجبور علی الاعتقاد بها،و لکنه لکی یرفع عن نفسه المسؤولیه یزعم بأنها مفروضه علیه، و لا خیار له إلا قبولها بسبب الضغط أو الإغراء،و القرآن ینقض فکره الجبر هذه، فیقول:

فَإِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ* مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ بِفٰاتِنِینَ و کلمه«علیه»فیما یبدو تدل علی الجبر،فکأن القرآن یقول:انکم لا تجبرون أحدا علی اتّباعکم فیما تعبدون لا بالإغراء و لا بالضغط،لأن کلمه الفتنه تتسع لمعنی البلاء،و الضغط،و الإکراه،کما تعنی الإغراء و التزیین،و عموما فإن الفتنه هنا بمعنی الجبر.

و إذا نظرنا فی أحوال الذین یعبدون الآلهه من دون اللّه-من اتباع السلاطین، و الأحزاب،و عبده الأثریاء،و الوجهاء،و ادعیاء الدین-لرأیناهم یبررون جمیعا شرکهم بأنهم مجبورون،و أنّه لا سبیل لمقاومه الطاغوت،و لا الهروب من شبکات الأحزاب،و لا مقاومه تجویع المترفین،و تضلیل الوجهاء،و أدعیاء الدین.

کلا...ربنا الذی خلق خلقه أعطی لخلقه الحریه و القدره علی الرفض،و لکن الشیطان یسوّل العبودیه،و یزینها له.

[۱۶۳]فالآلهه المزعومون لیسوا بقادرین علی جبر الناس مهما حاولوا،بلی.

انهم يضغطون عليهم،و لكن يبقى القرار الحاسم بيد الإنسان،و إنّما يستجيب لهم من تتواجد فيه مقوّمات الشرك و الكفر.

إِلاّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ و ذلك دليل حريه الإنسان،و إنّه غير مضطر للانحراف،و ان عليه الجزاء شخصيّا،لأن الذى يتجاوب مع فتنه المشركين يصلى النار بنفسه و لا يغنون عنه شيئا،و هذا أعظم شاهد على مسئوليه الإنسان،كما هو أفضل علاج لداء التسويف و التبرير،فلو علم المبررون،و أولو الاعذار الواهيه أنّهم يذاقون العذاب فعلا برغم تبريرهم و أعذارهم،فان ذلك يقتضى ارتداعهم.

[۱۶۶-۱۶۵-۱۶۴]و يعرج السياق مره أخرى لينقل لنا رد الملائكه (عليهم السلام)على أباطيل المشركين حولهم فى آيات ثلاث:

وَ ما مِنّا إِلاّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ و المقام هنا قد يعنى المنزله،فالملائكه يتفاضلون فيها،و أعظمهم الروح،و قد يعنى الدّور،فلكل ملك دور يختلف عن الآخرين،إذ منهم من هو مختص بقبض الأرواح،و منهم من و كل بالسحاب و المطر و...و...،و مقام الملائكه و دورهم معلوم عند اللّه و عند الملائكه،و كونهم الموكّلون بشؤون الحياه و إدارتها لا يرفعهم إلى مقام الربوبيه أبدا،كما لا يقفزون إلى دور آخر للقيام مثلا بالشفاعه لهذا،و قضاء حاجه ذاك الا بأمر اللّه.

وَ إِنّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ كالجند.ينتظر الجميع أوامر ربّه لينفذوها،و لا يحيدون عنها قيد أنمله،و لعل

أهم ما يصطف له الملائكه هو عباده اللّه،و ذروتها التسبيح و التنزيه.

وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ينزهونه-عز و جل-عن كلّ مالا يتناسب و مقام الربوبيه،عن الوهن و الجهل،و عن الشركاء التى زعم الجاهلون بأن الملائكه منهم.

[۱۶۹-۱۶۸-۱۶۷]و من الناس من يتهرب من المسؤوليه ببعض التمنيات،و تعليق قيامه بالواجب ببعض الشروط المستقبليه،فاذا قيل لهم:لماذا لا تصلوا؟قالوا:سوف نفعل ذلک إذا ذهبنا إلى الحج،أو إذا كبرنا..و بعضهم يلقى بالمسؤوليه على اللّه سبحانه،و يقول لأن اللّه لم يوفقنى فانى لم اهتد إلى الصلاح، و لو أن اللّه بعث إلينا رسولا فسوف نكون أهدى من غيرنا.

وَ إِنْ كٰانُوا لَيَقُولُونَ قولا مجردا،لا يتجاوز لقلقه اللسان.

لَوْ أَنَّ عِنْدَنٰا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ نهتدى به،و نسير فى الحياه على ضوئه.

لَكُنّٰا عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ لكن هل يمكن للإنسان أن يدرک هذه المنزله الرفيعه بمجرد التمنيات؟كلا...

إذ لا بدّ لبلوغها من السعى،لأنه وحده الذى يحوّل الآمال إلى واقع.

[۱۷۰]و لان هؤلاء يعيشون مجرد التمنيات،و إنّما قالوا ذلک لتبرير انحرافاتهم فقد جاءهم القرآن،و كان يفترض فيهم أن يتّبعوه ليصلوا إلى سماء الإخلاص.

ص:۲۹۵

فَكَفَرُوا بِهِ و تبيّنت حقيقتهم بأن كلامهم مجرد أمنيات غير جاده،و هذه طبيعه كلّ الذين يسوّفون التوبه،و يعلقون إصلاح أنفسهم على شروط غير متحققه،و يعيشون فى حلم المستقبل دائما،و هذا التسويف يرديهم إلى الهاويه.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ فهم يقولون:سوف نعمل،فيقول لهم القرآن:بل سوف تعلمون أنّ إضاعه فرصه العمر الوحيده لم تكن فى مصلحتكم أبدا.

و فى طيات هذا التعبير تهديد مبطّن بالعذاب،و قد يكون عدم التصريح بنوعيته و كيفيته أبلغ و أرهب فى النفوس،حيث تتفاجأ بألوان من العذاب لم تتوقعها أو تحسب لها حسابا.

[۱۷۲-۱۷۱]ان تشبث فئام من الناس بمختلف التبريرات كالأفكار الجبريه،و الانتظار الساذج للفرار من مسئوليه الإيمان بالرساله يجب أن لا يوهن الرساليين أو يسلبهم الثقه بنصر اللّه لهم،لأنه سبحانه أراد الانتصار لمبادئه و لمن يؤمن و يلتزم بها،و لو كان ظاهر الحياه هو تسلط الطغاه المنحرفين،فان اللّه غالب على أمره،و ما سيطرتهم إلاّ محدوده.

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ فليس كلام اللّه عن نصرهم شيئا جديدا،انما هو قديم سبقت بواقعته أحداث التاريخ،فما من رساله إلا و أظهرها اللّه،نعم.قد يقدم أصحابها شيئا من

التضحيات،أو يطول بهم الانتظار برهه من الزمن.لكن العاقبه تكون فى صالحهم و صالح خطّهم فى الحياه،و يلاحظ توالى التأكيدات اللّفظيه على ذلك فى هذه الآيه و فى التى تليها أيضا.

[۱۷۳]و هذا النصر لا- يختص بالأنبياء شخصيا،انما ينتصر كل من يمثل جبهه الحق،و يحمل مشعل الرساله الإلهيه على امتداد التاريخ و فى كلّ أفق.

وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ و جند اللّه هم المؤمنون.

[۱۷۴]و لكن متى ينصر اللّه عباده المؤمنين؟ ينصرهم حينما ينفصلون و يتميزون عن الكفار و المنافقين. ماديّا و معنويا،لهذا جاء الأمر الإلهى للرسول بذلك.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ و الحين هنا يعنى الوقت الذى يأتى فيه الأمر للرسول و المؤمنين بالهجوم عليهم و قتالهم،فى ظل رعايه اللّه و نصره.

[۱۷۵]و فى الأثناء التى ينفصل المؤمنون المجاهدون عن الكافرين و المنافقين بالهجره-مثلا-ينبغى لهم أن يراقبوهم،و يكونوا شهودا على الواقع،و كل حركه تنشد التغيير لا بد لها من مراقبه الواقع،و دراسه العدو.

وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أنهم-بدورهم-سوف يرون العذاب و يلاقونه من عند اللّه أو بأيدى

المؤمنین.

و فی الآیه معنی التأکید علی العاقبه لرسل اللّه و جنده،فکأنها أمام أعین الجمیع یبصرها الصالحون فیفرحون بها،و یبصرها الکفار فیزدادون بها غیضا و حنقا.

[۱۷۶]و عذاب اللّه لا یأتی للإنسان حسب تمنیاته،حتی یحتج الکافرون علی کذب الرساله بأنهم تحدوا اللّه،فلم یرد علیهم،کلا..إنما یرسل ربنا العذاب حسب حکمته سبحانه.

أَ فَبِعَذٰابِنٰا یَسْتَعْجِلُونَ و ماذا یستعجلون من عذاب اللّه،إنه الدمار الشامل،و الهزیمه الماحقه،و النار المحیطه،و الهوان الألیم.

[۱۷۷]إن هذا التحدی التام من قبل الکافرین لرب العزه إنما هو بسبب جهلهم بقدرته،و طبیعه العذاب الذی ینزله علی الملحدین.

فَإِذٰا نَزَلَ بِسٰاحَتِهِمْ الغضب الإلهی متجسّدا فی العذاب الدنیوی،یعقبه عذاب الخلد فی الآخره.

فَسٰاءَ صَبٰاحُ الْمُنْذَرِینَ و غضب اللّه أکثر ما ینزل فی الصباح،و الکفار فی کامل قوّتهم و یقظتهم، و ذلک لیشعروا بحقارتهم،و لیذوقوا العذاب بأقصی ما یمکن للإنسان،ذلک زیاده فی السوء لهم،لأنهم لیس لم یستجیبوا للنذر و کذبوها فحسب،انما بارزوا اللّه تحدّیا و محاربه،و القرآن یکرر الإشاره إلی الصباح کزمن للعذاب،قال تعالی: إِنَّ

مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (۱) [۱۷۸]و يرجع السياق مره ثانيه للتأكيد للرسول على ضروره تركه للكفار و هجرهم،و انتظار الفرج الإلهى.

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ اى حين يحين موعد الانتقام الإلهى منهم،بتحطيم كبريائهم،و نصر رسوله عليهم.

[۱۷۹]و يبين السياق أن عاقبه النصر لرسوله،و الهزيمه للكفار واقعه لا ريب فيها حتى لكأنها امام بصر الجميع.

وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ حينما نتلو القرآن نجد آيات كثيره منه تؤكد على الرسول بأن لا يقتل نفسه بتحميلها بالغ الهم من أجل الذين يرفضون الرساله،و أن مسئوليته تنتهى بتبليغ رسالته،و هذا الأمر يهم المؤمنين الذين يسيرون فى خطّ الرسول(ص)أيضا، فواجبهم هو أن يكتفوا أنفسهم و سلوكهم فى الحياه حسب تعليمات ربهم أثناء الدّعوه إليه،فإن آمن الناس التحقوا بهم،و إن كفروا فهم و شأنهم،و ليس مطلوبا أن يبالغوا أكثر من اللزوم فى هدايتهم،لأن ذلك قد يصرفهم عن بعض الواجبات، و يؤخر مسيرتهم باعتبارهم سوف يصرفون جهودا مكرره بالأولى لهم أن يبذلوها فى أعمال و خطط أخرى تقدم العمل خطوه إلى الإمام.

[۱۸۰]و ختاما لهذه السوره التى عالج سياقها موضوع الشرك،و بعض الأفكار

۱- ۱) هود/(۸۱).

الخاطئه،و التصورات التی اعتقد بها المشرکون نجد تنزیها للّه عز و جل بأکرم الألفاظ و أجلها عنده تعالی و هی لفظه«سبحان».

ان دعوه القرآن للمؤمنین بأن لا یبالغوا فی وعظ المشرکین لا تعنی أن یرضوا بهم و بما یدّعون و یعملون،انما یجب علیهم التسبیح تنزیها للّه و ذلک لکی لا یتأثروا بشرکهم،لأن من طبیعه البشر تأثره بأفکار الآخرین و لو جزئیا،فاذا لم یکونوا قادرین علی ان یتخذوا موقفا عملیّا أو قولیا فلیسبحوا ربهم فی قلوبهم تسبیحا کثیرا.

سُبْحٰانَ رَبِّکَ رَبِّ الْعِزَّهِ عَمّٰا یَصِفُونَ الناس علی اختلاف أدیانهم و مذاهبهم الفکریه یصف کل جماعه منهم ربّه بوصف لا یلیق و مقام الربوبیه،و لکن عباد اللّه المخلصین هم الذین یصفونه بما یلیق به عبر التسبیح.

و قد اختلف المفسرون و الفقهاء فی تحدید أفضل کلمات الذکر،فمنهم من قال:انه«الحمد للّه»و قال آخرون:انه«لا اله الا اللّه»و جماعه ثالثه قالوا:

«اللّه أکبر»هو أعظمها،و الذی-یبدو لی-ان کلمه«سبحان اللّه»هی أعظمها و أثقلها وزنا عند اللّه،لأن طبیعه الإنسان طبیعه مرتکزه فی الجهل بمعناه الشامل،و بالتالی فی الابتعاد عن اللّه،و هذا ما یدعوه إلی تصور الخالق حسب طبیعته،فاذا به یصوره محدودا،عاجزا،جاهلا،مرکبا-مثلا-انطلاقا من نظرته الی نفسه و الأشیاء من حوله،ثم إن روعه جمال الطبیعه،و تزین الشهوات التی تدعو النفس إلیها،و سیطره الجبارین و المترفین کل ذلک قد یبعد المؤمن عن ربه،و یجعله یشرک به شرکا خفیّا،مما یجعله یحتاج إلی تکرار التسبیح.

و كلمه المخلصين«سبحان اللّه»التی تلهج بها ألسنتهم هی اعتراف بالعجز عن معرفه کنه اللّه،الا المعرفه التی تخرجه عن حد التعطیل و التشبیه و التی دعا إلیها أئمه الهدی،و هذا یبعدهم عن العقائد الضاله.

قال الإمام الصادق-علیه السلام -:

«ان اللّه تبارک و تعالی خلق اسما بالحروف غیر منعوت،و باللفظ غیر منطق، و بالشخص غیر مجسّد،و بالتّشبیه غیر موصوف،و باللّون غیر مصبوغ،منفی عنه الأقطار،مبعّد عنه الحدود، محجوب عنه حس کلّ متوهّم،مستتر غیر مستور، فجعله کلمه تامه علی أربعه أجزاء معا،لیس منها واحد قبل الآخر،فأظهر منها ثلاثه أسماء لفاقه الخلق إلیها،و حجب واحدا منها و هو الاسم المکنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثه التی أظهرت،فالظاهر هو(اللّه،و تبارک،و سبحان)لکل اسم من هذه أربعه أرکان فذلک اثنی عشر رکنا » (۱)

و سئل الإمام أمیر المؤمنین-علیه السلام-ما تفسیر سبحان اللّه؟قال:

«هو تعظیم جلال اللّه عز و جل،و تنزیهه عما قال فیه کلّ مشرک،فاذا قال العبد صلی علیه کل ملک » (۲)[۱۸۱]و کما للمؤمن علاقه باللّه شعارها التسبیح،و محتواها العبودیه و الطاعه، فإن له برسله علاقه أیضا و لکن شعارها السلام،و واقعها الحب و الاقتداء ضمن المسیره الواحده.

ص:۳۰۱

۱- ۱) بح/ج(۴)/ص(۱۶۶).

۲- ۲) المصدر/ج(۹۳)/ص(۱۷۷).

وَ سَلاٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ و وجود علاقه السلام بينك و بين المرسلين دليل على المسيره الواحده،و التوافق فى الحياه،و قبل أن يسلم الإنسان على الرسل يجب أن ينظّف قلبه ليرتفع إيمانه إلى هذا المقام العظيم،و الذى لا يطهر نفسه و عقله و سلوكه،و بالتالى يسير على خطى الأنبياء،فإنهم بريؤون منه،لأنه حينئذ يحارب فكرهم بفكره المنحرف،و قيادتهم بطاعته للطاغوت،و خطّهم بالانتماء إلى الخطوط المضاده لرسالات اللّه.

[۱۸۲]و إذا كانت انطلاقه الإنسان بالتسبيح الحقيقى للّه،و مسيرته و حركته مستوحاه من رسالات الأنبياء،و التأسى بهم،فان العاقبه ستكون حسنه،تدفع الإنسان نحو الشكر و الحمد على ما سيلقاه من هدى و بركه و جنان نتيجه ذلك، ذلك أن نهايه المسيره فى سبيل اللّه هى الطمأنينه و الرضى،و قد أشار لها تعالى إذ قال: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ (۱)و قال أيضا: يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (و لا تطمئن النفس الا بذكر الله) اِرْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً (۲)و عموما فان المؤمن بطبيعته الرساليه يكون راضيا بقدر اللّه و قضائه،ايمانا منه بأن ما يختاره له اللّه بحكمته أصلح مما يتطلع إليه،فهو يحمده فى الشده و الرخاء.

وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ و فى هذه الآيه إشاره إلى أساس علاقه الإنسان بالآخرين من البشر،فهى لا تشبه علاقته مع اللّه و لا مع الأنبياء،و لكنها علاقه الإحساس الواحد بالعبوديه للّه.

و قد وردت الروايات مؤكده على استحباب قراءه هذه الآيات الثلاث فى نهايه

ص:۳۰۲

۱- ۱) الضحى/(۵).

۲- ۲) الفجر/(۲۷-۲۸).

کل مجلس یجلسه العبد أو یتحدث فیه.

عن الأصبغ بن نباته،عن أمیر المؤمنین علیه السلام عن رسول اللّه(ص)انه قال :

«من أراد أن یکتال بالمکیال الأوفی من الأجر یوم القیامه،فلیکن آخر کلامه فی مجلسه: سُبْحانَ رَبِّکَ رَبِّ الْعِزَّهِ عَمّا یَصِفُونَ* وَ سَلامٌ عَلَی الْمُرْسَلِینَ* وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ » (۱)

ص:۳۰۳

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۴/ص(۴۴۱).

سوره ص

اشاره

ص:۳۰۵

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضل السوره:

عن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال :

من قرأ سوره«ص»فى ليله الجمعه اعطى من خير الدنيا و الآخره ما لم يعط أحد من الناس إلا نبىّ مرسل أو ملك مقرب،و ادخله اللّه الجنه و كل من أحب من أهل بيته،حتى خادمه الذى يخدمه،و إن لم يكن له فى حدّ عياله و لا فى حد من يشفع فيه تفسير نور الثقلين ج ۴ ص ۴۴۱

ص:۳۰۷

الإطار العام

الشرك باللّه إطار لكلّ الضلالات و الجرائم،و كافّه الذنوب و الاخطاء،و تكاد سور القرآن جميعا تعالج هذا الداء الذى هو جذر كلّ داء،إلاّ أن عوامل الشرك عديده،و المعالجات القرآنيه مختلفه بحسبها.

و أننا نستلهم من خلال التدبر فى دروس هذه السوره الكريمه(سوره ص)انها تعالج الحاله الشركيه الّتى تخلقها السلطه،و الثروه،و الشهره فى نفس الإنسان فاذا به تأخذه العزّه بالإثم،و ينطلق فى سبيل الشقاق عن الحقّ،و عباده آلهه القوّه و الغنى.

فى افتتاحيه هذه السوره نقرأ:أن الذين تفرقوا فى عزه و شقاق،و سرعان ما ينذرهم الرب بمصير الذين أهلكهم من قبل،و يذكّرنا بمحور ضلالتهم،حيث إنهم تعجّبوا من حذف الآلهه،و الأمر بعباده إله واحد،كما أنّهم استهانوا بالرسول

انطلاقا من مقاييسهم الماديه.

و يعالج القرآن هذه الحاله ببيان حقاره ما يملكون(من قوّه و من غنى)إذا قيس بملك السموات و الأرض،و بخزائن رحمه الرب العزيز.

أما خاتمه السوره فتذكرنا بقصّه إبليس الذى رفض السجود لأبينا آدم عليه السلام اعتزازا بعنصره النارى،و كيف أن هذه العزّه الآثمه كانت وراء هلاكه و هلاك تابعيه إلى يوم القيامه،حيث يحشرون فى نار جهنّم حشرا.

و بين تلك الفاتحه و هذه الخاتمه يسرد السياق نمطين من القصص:

الأول:قصص المكذّبين الهالكين يشير إليها مجرد اشاره،بينما يفصّل القول فى النمط الثانى الذى وهب اللّه لهم الرب ملكا واسعا،و ثروه عريضه،و لكنهم لم يغتروا و لم يشاقوا اللّه بها كداود و سليمان،ثم إبراهيم و اسحق و يعقوب،و يبيّن انهم فازوا بنعيم الدنيا و حسن ثواب الآخره،بالإضافه إلى الذكر الحسن عبر التاريخ،و فى مقابل هؤلاء يذكرنا السياق بمصير المكذبين الذين اقحموا فى نار جهنم ليتخاصموا مع بعضهم،و بالذات يتخاصم التابعون مع المتبوعين.

و من خلال قصص الأنبياء و تقديرهم،و بيان الحكومات العادله التى أقاموها فى الأرض،و بالذات قوله-عز و جل-لداود عليه السلام : يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي اَلْأَرْضِ .

و من خلال بيان هلاك إبليس بسبب رفضه السجود لآدم عليه السلام ،و بيان هلاك المستضعفين بسبب تسليمهم للمستكبرين نستطيع-من خلال كلّ ذلك-أن نعرف أن مراد السوره بيان زيف السلطات القائمه على أساس القوه و الثروه،و سائر القيم المادّيه الأخرى،و ضروره إقامه حكومه العدل الإلهيه القائمه على أساس أمر

اللّه و خلافته،و أنّ أساس الولايات الباطله العزّه و الشقاق،بينما أساس الولايه الربانيّه الحق.

ص:۳۱۱

[سوره ص (۳۸): الآيات ۱ الی ۱۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . ص وَ اَلْقُرْآنِ ذِی اَلذِّكْرِ (۱) بَلِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فِی عِزَّةٍ وَ شِقٰاقٍ (۲) كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِينَ مَنٰاصٍ (۳) وَ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قٰالَ اَلْكٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ كَذّٰابٌ (۴) أَ جَعَلَ اَلْآلِهَةَ إِلٰهاً وٰاحِداً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عُجٰابٌ (۵) وَ اِنْطَلَقَ اَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ اِمْشُوا وَ اِصْبِرُوا عَلیٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ يُرٰادُ (۶) مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی اَلْمِلَّةِ اَلْآخِرَةِ إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اِخْتِلاٰقٌ (۷) أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اَلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنٰا بَلْ هُمْ فِی شَكٍّ مِنْ ذِكْرِی بَلْ لَمّٰا يَذُوقُوا عَذٰابِ (۸) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ اَلْعَزِيزِ اَلْوَهّٰابِ (۹) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فَلْيَرْتَقُوا فِی اَلْأَسْبٰابِ (۱۰) جُنْدٌ مٰا هُنٰالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ اَلْأَحْزٰابِ (۱۱) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو اَلْأَوْتٰادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحٰابُ اَلْأَيْكَةِ أُولٰئِكَ اَلْأَحْزٰابُ (۱۳) إِنْ كُلٌّ إِلاّٰ كَذَّبَ اَلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقٰابِ (۱۴) وَ مٰا يَنْظُرُ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً مٰا لَهٰا مِنْ فَوٰاقٍ (۱۵)

اللغه

(۲)[شقاق]مخالفه،مشتق من شق كأنّه فی شق و طرف و الخصم فی شق و طرف آخر.

۳[ولات حين مناص]:أصل لات لا،و إنّما زيدت عليه التاء، بمعنی ليس،و مناص من النوص و هو التأخر،يقال ناص ينوص إذا تأخر،و المعنی ليس وقت ندائهم و استغاثتهم وقت التأخر العذاب و النجاه منه.

ص:۳۱۲

۷[اختلاف]:الكذب و الافتراء الذی لا أساس له،فهو یخلقه و یصنعه بغیر دلیل.

۱۳[أصحاب الأیکه]:و هم قوم شعیب،و قد کانت إلی جنبهم أیکه،و هی الشجر المزدحم إلی بعضه و الملتفّ علی بعضه.

ص:۳۱۳

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِی عِزَّهٍ وَ شِقٰاقٍ

هدی من الآیات:

من أهم العوامل التی تدعو الناس إلی الکفر بالرساله،و محاربتها و بالتالی الانحراف عن الخط المستقیم،هو تقدیس الواقع القائم أو ما یسمی بالتقلید،حیث یعتقد المجتمع بأن ما لم یکن لا ینبغی أن یکون،فالواقع یجب أن یبقی.و یقوی هذا العامل أمران؛الاول أنه واقع قائم بینما الرساله فکره جدیده لمّا تتحول إلی واقع،و الثانی أن بعضا من أفراد المجتمع و خاصه الوجهاء و أصحاب المصالح، یدافعون عن الواقع القائم و یحاربون الرساله،لأنهم یخشون علی مصالحهم من أی تبدل أو تحول.

و قد یکون عامل البقاء علی الحاله الراهنه،نابعا من اعتزاز الإنسان المبالغ بواقعه و التمثل فی الإصرار و العناد الأعمی علی المحافظه علیه،و هو ما یعبر عنه السیاق القرآنی مره بکلمه عزّه،و مره أخری بما قاله الکفار لبعضهم إذ تآمروا علی العناد و الصبر علی الباطل.

و لعلاج هذه الحاله ينبغی بيان الضعف للإنسان،و أن الذی يملكه الآن لا يعد شيئا إذا قورن بما يغنمه لو تقبل الرساله و أصلح أوضاعه،و بالتالی دعوته إلی التغير نحو حياه أفضل.و هذا من أهم أساليب الأنبياء فی التغيير،قال نوح عليه السلام و هو يشير الی أساليبه فی الدعوه: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كٰانَ غَفّاراً* يُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً* وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّٰاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهٰاراً (١)، و فی موقع آخر من القرآن نجد تجل صريح لهذا الأمر أيضا.يقول تعالی مشجعا الناس علی الإيمان برسالته: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ،وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (٢)

بينات من الآيات:

[١] ص حرف يفيد الابتداء به التنبيه،و هو يشير إلی القرآن الكريم،و من أبعاده أنه رمز بين اللّه و أوليائه فهم يختصمون بفهمه،

و عن الصادق عليه السلام أنه من أسماء اللّه تعالی (٣)،و

فی خبر آخر(ص) اسم نهر ينبع من ركن العرش.

قال الامام الكاظم عليه السلام :«إن أول صلاه صلاها رسول اللّه(ص)انما صلاها فی السماء بين يدی اللّه تبارك و تعالی قدّام عرشه جلّ جلاله،و ذلك أنه لمّا أسری به و صار عند عرشه تبارك و تعالی قال:يا محمد ادن من صاد فاغسل مساجدك و طهرها و صلّ لربك،فدنی رسول اللّه(ص)الی حيث أمره اللّه تبارك و تعالی فتوضی و أسبغ وضوءه».قلت(يعنی الراوی):جعلت فداك و ما صاد الذی أمر أن يغتسل منه؟ فقال:عين تنفجر من ركن من أركان العرش،يقال له ماء الحيوان و هو ما قال

١- ١) نوح(١٠-١٢)

٢- ٢) الأعراف ٩٦

٣- ٣) رواه ابن عباس نور الثقلين ج ٤ ص ٤٤٢

اللّه عزّ و جل: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (۱)ثم يقسم ربّنا بالقرآن العظيم،مشيرا إلى أهم ما تشتمل عليه آياته الكريمه و هو الذكر.

وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ و قد سمى اللّه كتابه فيه بالذكر عشرات مرّات،و هنا يسميه«ذى الذكر»فما هو معنى الذكر؟ لقد خلق اللّه الإنسان مستقيما بفطرته،التى أودعها الإيمان بكلياته الكبرى، باللّه و اليوم الآخر،و بضروره الصدق و الوفاء و الامانه و...و...و لكن عوامل مختلفه من بينها ضغط الشهوات و المجتمع تدعوه إلى الانحراف.و يأتى القرآن ليذكره بما ينساه أو يغفل عنه بسبب تلك العوامل ليعود إلى رشده المتمثل فى(الطريق المستقيم)الذى هو الحاله الطبيعيه للإنسان،على خلاف الانحراف الذى يجسد الشذوذ فى الحياه.فالقرآن يستثير العقل من خلال التفكير، و فسّر البعض الآيه بالذكر الطيب و السمعه الحسنه.و يبدو أن التفسير الأول أقرب.

[۲]و مع عظمه القرآن و قدرته الهائله فى التغيير و التأثير على الإنسان،لكن الكفار لا يتأثرون به،لان التذكره وحدها لا تنفع إذا كان جهاز استقبالها و هو العقل قد احتجب بالأهواء و الغباء الذى هو من أهم الحجب التى تمنع البشر من الانتفاع بالتذكره،و تدعوه إلى الإصرار على الانحراف.

۱- ۱) المصدر.

بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی عِزَّهٍ وَ شِقٰاقٍ أما أنت أیها الرسول فعلی الحق،من هنا قال بعض المفسرین أن المقسم به محذوف تقدیره«و القرآن ذی الذکر»(إنک تحمل للناس ذکرا)،و یدل علی هذا الحذف التصریح به فی مثله من سوره یس إذ قال ربّنا: یس وَ الْقُرْآنِ الْحَکِیمِ* إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۱)و انما صار الحذف هنا لدلاله الآیه الثانیه علی المحذوف المقسم به.

و هذه الآیه تبیّن العامل فی رفض الکافرین للتذکره الا و هو العزه و الشقاق، و العزه هو تصور الإنسان نفسه أنه وصل من القوه و المنعه ما لا یحتاج معه إلی الحق،أو الی ربّه،فیبقی یصر علی انحرافه بل و یعتز بالخطإ.یقول ربنا فی آیه کریمه: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُ اتَّقِ اللّٰهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّهُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهٰادُ (۲)،و رفض هؤلاء للحق لیس نابعا من قوه المنطق لأنهم یرفضونه بدون أی مبرر معقول،و لکنه نابع من منطق القوه التی یخضع لها أکثر الناس و انما لم یستجب کفّار قریش للرسول اعتزازا بقوتهم.بلی.إنّ من أعقد مشاکل الإنسان أنه لا یعترف بخطئه حین یتبین له الحق غرورا و خشیه بأن یجلب له ذلک المهانه فتراه یعتز بباطله الذی کان علیه.

أما الشقاق فهو الشذوذ فمع أن الکون کله قائم علی الخضوع للّه و حتی جسد الإنسان یخضع لآلاف القوانین التی تخضع هی بدورها لمشیئه الربّ.تری الکفار و من یلتقی معهم من المذنبین و العصاه یشقون عصا الطاعه و لا ینسجمون مع الحق الذی تقوم علیه الحیاه.

[۳]و الإنسان المؤمن یجب أن لا یضعف و لا یشکک فی خطه حینما یری

۱- ۱) یس(۲،۱)

۲- ۲) البقره ۲۰۶.

الا ـغلبيه منشـقه عنه،لان المقياس هو الحق و ليس الناس.و لو أنه درس الحياه لاطمأن إلى خطه،لأنه حينئـذ سـيجد الكون بما فيه من خلق و سنن يسيران معه، و كذلك لو قرأ التاريخ لاهتدى إلى نفس الحقيقه،و حتى المجاميع التى يعاصرها سوف تخضع للّه شاءت أم أبت،و إذا لم تختر ذلك عن وعى و اراده حره،فسوف تجبر عليه بإراده اللّه و بسننه التى أجراها على الخلق أجمعين.

و لكى نؤمن بهـذه الحقيقه يـدعونا ربنا إلى النظر فى التاريـخ،فهو ملىء بالشواهـد الـدامغه عليها،فأولئك الـذين رفضوا رسالات اللّه،و لم يخضعوا لها و لرسله أهلكهم و لم تغن عنهم قوتهم شيئا.

كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ القرن النـاس الـذى يعيشون مقـارنين مع بعضـهم زمانـا و مكانـا،و كم أداه اسـتفهام تـدل هنـا على الكثره.و اللّه إذ ادخل هـذه الاداه فى التعبير أراد أن يهـدينا الى أن هـذه السـنه لم تتجل مرّه واحده و حسب فالتاريخ كله شواهد عليها و كانت هذه السنه الالهيه جديره بأن تتعظ بها الأمم إلا أنها تكتشف خطأها متأخرا حين لا تنفع التوبه.

فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِينَ مَنٰاصٍ قالوا:لات كان فى الأصل لا(لنفى الجنس أو المشـبهه بليس)ثم أضـيفت إليها التاء لتأكيـد النفى كما تضاف إلى ثم و رب لذات الغايه.

و المناص المنجا و الغوث يقال ناصه ينوصه إذا أغاثه.

هكذا يصور القرآن وضعهم حين ينادون بالاستغاثه و التوبه و التألم و لقد أطلق

ص:۳۱۸

القرآن لكی یذهب بنا الخیال إلی کل تلک المفردات لندائهم المیأوس.

و لکن ذهب وقت الفوت.أو لیست الفرصه قد فاتته إلی الأبد؟! و تلک عاقبه الاعتماد علی القوه،و الاعتزاز بغیر الحق،فهذه الأمم اعتمدت علی منطق القوه فی الحیاه،و رفضت الخضوع إلی المنطق و الحق،و غفلت أن للحق قوه لا تحد هی قوه اللّه عزّ و جلّ،و قد أبی اللّه تشریعیا و تکوینیا أن ینتصر الباطل علی الحق و أن تکون العاقبه إلاّ فی صالح الرسالات و حملتها.

[۴]و للتمثیل علی عزّه الکافرین و شقاقهم،و صدودهم عن الذکر و الموعظه، یحدثنا عن واقع المشرکین و موقفهم من رساله الإسلام.

وَ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ لأنهم کانوا یتصورون الرسول یختلف عن الناس،فکفروا به إذ لم یتفق مع مقاییسهم التی ترید الرسول قویا و ذا مال کثیر لا أن یکون من وسطهم الاجتماعی،و طبقتهم المالیه و هذا التصور ناتج عن اعتزازهم بالقوه و المال لا بالحق،فهما عندهم القیمه الاساسیه فی الحیاه.و لان منطقهم أضعف من أن ینال من قیم الرساله استشکلوا علی الرسول،لیس فی أخلاقه فهو باعترافهم جمیعا کان فی الذروه،و لکن علی وضعه المادی و الاجتماعی.و لم یکن هذا التبریر کافیا لرفضهم قیادته و زعامته فقد جاءهم بالحق و الآیات،و لا بد لهم من تبریر آخر لیتهربوا من المنطق الحق المتمثل فی رسالته،فصاروا من العجب إلی الکفر.

وَ قٰالَ الْکٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ کَذّٰابٌ و اختاروا کلمه ساحر لان السحر أقرب الأشیاء للحق ظاهرا،و إن کان واقعا

أبعدها،و كانت هذه التسميه للهروب من ضغط المعجزه.

و الواقع:إن ذات اتهام المشركين للرساله بأنها سحر شاهد على صدقها،إذ انه دليل على أن الرساله كانت ذات جاذبيه تشبه فى قوتها جاذبيه السحر عندهم، كما انها كانت خارقه ذات ايات عجزت قواهم البشريه عن الإتيان بمثلها،مما دعاهم للافتراء عليها بأنها سحر.

فاذا عرفنا مدى الفرق بين السحر و الرساله فى أن الساحر لا يفلح،و انه لا يبنى حضاره،و أن كلامه لا يكون موافقا للعقل و الفطره،بينما الرسول يعكس ذلک كله،عرفنا كيف كان اتهامه بالسحر دليل صدقه.

[۵]و يهدينا القرآن مرّه أخرى إلى شذوذ الكافرين(شقاقهم)و عزتهم، بالاشاره إلى اعتراضهم على دعوه النبى التوحيديه،فمع أن الوحده حق يهتدى إليه الإنسان بفطرته و تتطلع إليه الأمم المتحضره،و لكنهم يرفضونها اعتزازا بواقع التمزق القائم عندهم.

أَ جَعَلَ الْآلِهَهَ إِلٰهاً وٰاحِداً إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عُجٰابٌ و من الآيه نستوحى بأن التوحيد ليس هدايه للناس للحق و حسب،بل هو العلاج الحقيقى للفرقه،ذلک أن منشأ التفرقه فى أيّه أمه هو الشرک الكلى أو الجزئى فهذا الفريق انما ينشق عن البقيه لأنه يؤمن بفكره و قياده ما فالرايات القبليه، و العصبيات العشائريه،و الحدود الجغرافيه،و المصالح القوميه،و الاختلاف العنصرى و الطائفى،و ما أشبه كل أولئک عوامل اختلاف الناس و شقاقهم،و إذا أمعنت النظر رأيت كل واحد منها ينتهى إلى تقديس شىء من دون اللّه،و انما الآلهه رموز تلک المقدسات.أ رأيت الناس حين يقدسون العلم الوطنى يعبدون قطعه قماش

أم حـدود الوطن؟كـذلك حين كان الجاهليون يعبدون الأصـنام التى كانت ترمز إلى عصبياتهم العشائريه فانما كانوا يعبدون قيم العشيره.

و هذا نستنتجه من التدبر فى الآيتين(۲+۵)ففى الوقت الذى يذكر القرآن الشقاق فى مجتمع الجاهليه فى الآيه الثانيه،يشير هنا إلى تعـدد الآلهه فيه،و فى نصوص التاريـخ نجـد أنه كان فى الكعبه وحدها(۳۶۰)صـنما لكل قبيله صنمها المختص بها،و لكى يجمع النبى الناس و يوحـدهم طرح رسالته التوحيديه كبديل عن الأفكار الشـركيه،و كسـر الأصـنام لأنها كانت رمزا للتفرقه(الشـقاق)و العزّه.

و لعل أحدنا يسـتنكر على الكفار و المشـركين رفضهم لتلك الرساله التوحيديه، و لكننا نجد اليوم و بعد(۱۴)قرنا،أناسا يسخرون ممن يطرح فى-السـاحه الاسـلاميه-كسـر الحـدود المصـطنعه التى أوجـدها الاسـتعمار بيننـا،و هى لا تعـدو أن تكون بـدائل عن الأصـنام التى علقها الجاهليون فى الكعبه و ليس رفض هكـذا دعوه يأتى بسـبب أن الرافضـين لا يجـدونها حقه،و انما لاعتزازهم بالواقع الفاسد،حيث تقوم دوله على كل قطعه أرض و يرتفع علم و يتسلط حاكم مغرور.

[۶]و لا شك أن أول من يسعى للإبقاء على الواقع القديم برموزه الصنميه هم أصحاب الوجاهه الاجتماعيه،و الصداره السياسيه،و الثروات المسـروقه لأـنهم انما يسـتعبدون الناس،و يمتصون جهود المجتمع من خلال هـذا الواقع الفاسـد،فاى محاوله للتغيير تعنى تقويض مصـالحهم و هكـذا تراهم يهبون للـدفاع عنه،و محـاربه الفكر الجديـد،بشتى الاسـاليب و من أبرزهـا اثـاره العزّه بـذلك الواقع.

وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ و هم المستكبرون فى المجتمع،و الذين يقودون المعارضه و لا زالوا ضد الأنبياء

و الحركات التغييريه،و همهم الأكبر الإبقاء على التخلف فاذا بهم يدفعون عجلته بهذا الاتجاه.

أَنِ امْشُوا و يوحون للناس بأن مسيرتهم تقدميه و صحيحه بالتضليل و التجهيل.و لكن لان فطره الإنسان تخالف الباطل،و لان الباطل تقف ضده كل عناصر الوجود و سننه فان قبوله صعب نفسيا و عمليا على البشر،لهذا أكد الملأ على ضروره الصبر.

وَ اصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ كما أن من أساليب الطغاه فى جر الناس إلى معارضه المصلحين،أنهم يحاولون اقناعهم بأنهم يستهدفون مصالحهم و مقدساتهم،فاذا نهضت طلائع المجتمع للثوره، و قامت ببعض الأعمال الجهاديه قالوا للناس:«بأن هذه الأعمال لا تستهدف السلطه وحدها انما تستهدف أمن المواطن و استقراره أيضا،و بالتالى فمسئوليه القضاء على المخربين(فى زعمهم)هى مسئوليه الجميع»و يؤكدون:

إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ يُرٰادُ و هناك تفسيرات عديده لهذه الكلمه نذكرها تباعا:

ألف:و هو الذى يبدو أقربها أنّ الملأ أرادوا من هذه الكلمه أن الاستمرار على عباده الآلهه شيء مطلوب و حميد،اعتزازا بالباطل و الإثم ذلك ان من سلبيات النفس البشريه أنه يصعب عليها فردا و أمه التراجع عن الخطأ حتى لو تبين له.

باء:أن الملأ أرادوا بهذه الكلمه تشويه شخصيه الرسول(ص)،فكأنهم قالوا بأن هدفه من الرساله و الإنذار هو المنافع الشخصيه التى يريدها لنفسه.و هذه من

طبیعه الطغاه،أنهم یتهمون المصلحین بذلک.

جیم:أن هذا المقطع من الآیه هو کلام اللّه سبحانه و هو ردّ علی قول الکافرین فی مقابل دعوه التوحید« إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عُجٰابٌ ».

[۷]و یوصل السیاق بیانه لأسالیب الملأ فی التضلیل عن الحق.

مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی الْمِلَّهِ الْآخِرَهِ إن الشرعیه و القدسیه فی نظرهم تکون للدعوه التی تنتمی إلی الواقع و تتجانس معه،لا التی تنطوی علی الحق و العلم،و ما دامت الأجیال الغابره تنفی صحه هذا الفکر فهو خطأ إذن.و هذا ضرب من الرجعیه لان مجتمعا یعتمد هذه المقاییس لن یبدع و لن یتقدم خطوه إلی الامام.

ثم حکموا علی الرساله الالهیه بالباطل فقالوا:

إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اخْتِلاٰقٌ أی جدیده الحدوث متقطعه الجذور عن التاریخ،و دعوتهم هذه ضد الدین خطأ من زاویتین:

۱-أنهم اعتمدوا فی تقییمهم للرساله علی النظره الشیئیه لا المنطقیه،فمن البدیهی أن تکون النتیجه ضلالتهم! ۲-أنهم لم یبحثوا عن شرعیه الرساله و جذورها من خلال نظره شامله لتأریخ البشریه،و لو فعلوا ذلک لم یعتبروها اختلاقا،لأنها تلتقی مع(۱۲۴۰۰۰)دعوه فی التاریخ جاء بها الأنبیاء و المرسلون منذ قبل،و لکنهم قیموها من واقع جیل واحد

فقط.

و

جاء فی الحدیث المأثور عن الامام الباقر علیه السلام فی نزول الآیه قال:

أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قریش فدخلوا علی أبی طالب فقالوا:

إنّ ابن أخیک قد آذانا و آذی آلهتنا فادعه و مره فلیکف عن آلهتنا و نکف عن اللّه، قال:فبعث أبو طالب الی رسول اللّه فدعاه فلما دخل النبی لم یر فی البیت و لا مشرکا،فقال: اَلسَّلاٰمُ عَلیٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدیٰ ،ثم جلس فخبّره أبو طالب بما جاؤوا له فقال:أو هل لهم فی کلمه خیر لهم من هذا یسودون بها العرب و یطأون أعناقهم؟فقال:أبو جهل:نعم.و ما هذه الکلمه؟قال:تقولون:لا إله إلاّ اللّه.

قال:فوضعوا أصابعهم فی آذانهم،و خرجوا هربا و هم یقولون:ما سمعنا بهذا فی المله الآخره ان هذا إلاّ اختلاق، فأنزل اللّه فی قولهم: ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ الی قوله إِلاَّ اخْتِلاٰقٌ (۱) [۸]ثم صرحوا بما تنطوی علیه نفوسهم تجاه الحق،و قالوا لو أنزلت الرساله علینا لآمنا بها فنحن أولی بالنبوه منه لان عندنا المال و الرجال و الوجاهه،و نحن أصلح لقیاده المجتمع منه،و لیس من المعقول أن ینزل الذکر علی هذا الفقیر الیتیم و الضعیف،و أن نسلم لقیادته،و غاب عن ذهنهم أن الصفات المطلوبه فی الرسول القائد لیست التی یتصورونها انما القیاده لصاحب العلم و التقوی و الأخلاق ثم أن اللّه هو الذی یعین الرسول لا الناس و لا الوجهاء.

أَ أُنْزِلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ مِنْ بَیْنِنٰا و ینسف اللّه کل اعذارهم للکفر بالحق مبینا الأسباب المرکزیه الداعیه إلیه

۱- ۱) نور الثقلین ج ۴ ص ۴۴۲.

و هی:

الاول:أنهم لم یستفیدوا من ذکر اللّه،سواء الذی یتجلی فی کتابه،أو فی تاریخ القرون الماضیه،أو علی لسان الآخرین.

بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْ ذِکْرِی و الذی یشک فی الآخره ینعکس شکه علی جزئیات الإیمان و کلیاته.

الثانی:عدم خوفهم من العذاب،لأنهم لم یتذوقوه،و لم یستفیدوا من تجربه الذین وقعوا فیه قبلهم.

بَلْ لَمّٰا یَذُوقُوا عَذٰابِ و یستفاد من(لمّا)أن عذابهم مرتقب.

[۱۱-۱۰-۹]و السبب الثالث:غرور المال و القوه اللذان أحاطا بهم، فصاروا ینظرون الی جمیع الأمور من خلالهما،فاذا بهم لا یرون حاجه للرساله فی أنفسهم.و یحطم ربنا کبریاءهم هذا عن طریق مقارنه ما بحوزتهم بما عند اللّه من الملک و القوه.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَحْمَهِ رَبِّکَ الْعَزِیزِ الْوَهّٰابِ کلاّ...و من خزائن اللّه الرساله التی ینزلها علی من یشاء من عباده المخلصین.

ثم إن الذی عندهم مهدد بأن یلسبه اللّه بعزته،بل هو هبه من اللّه لهم و لیس ملکا ذاتیا.ثم لندع مقایسه ما یملکه هؤلاء بما عند اللّه،و لننظر ماذا یملکون من ظاهر الحیاه الذی هو جزء ضئیل جدا من ملکه تعالی:

ص:۳۲۵

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا و ربنا يـذكر هؤلاء بحقاره ما يملكون و عظمه ما يملكه اللّه،لأنهم-كما تقـدمت الاشاره-يعتمدون على منطق القوه،فأراد اللّه أن يوضح لهم بأنه الغالب فى قوه المنطق و فى منطق القوه أيضا.

إن هـذا الإنسـان الـذى يتمالكه الغرور فيتحـدى ربّه أضـعف ما يكون عن تحمل أدنى تحـدّ فالسـلطان المتكبر يقتله اللّه بجرثوم تعجز أحـدث الاجهزه عن اكتشافه، و قـد يسـلب منه كل ما يملك بين عشـيه و ضـحاها،و مما يـذكر فى التاريخ أن الناس ثاروا على خليفه من الخلفاء العباسـيين ففقئوا عينه،و جردوه من ملابسه و صادروا كل ما تملكه من أموال المسلمين،حتى وقف يتسول على باب المسجد من الناس.

و ربنـا من فـوق عرشه يتحـدى المتكـبرين؛يقول:أجمعوا قواكم المـاديه و البشـريه و العلميه،و ابحثوا عن كـل سـبب من أسـباب القدره،فان مصيركم لن يكون إلاّ كمصير الأقوام السابقه،حيث كذّبت الرسل و تحدت الحق فدمرها اللّه.

فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبٰابِ* جُنْدٌ مٰا هُنٰالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزٰابِ فمهمـا اعتمـدوا على أسـباب القـوه(العـدد و العـده و الخـبره)فـان المؤسـسات العسـكريه تنهار بفعل الاراده الالهيه المباشـره أو المتجليّه على أيدى المؤمنين.و جند مبتدأ،و ما أداه للتقليل أراد بها اللّه تحقير قوتهم،و هنالـك إشـاره للمكـان البعيـد الـذى قـد يسـتخدم للتحقير أيضـا،فيكون المعنى كقولنـا أن هنالـك جنـدا ما مهزومـون مـن الأــحزاب،و فى الروايـات كـان المقصـود فى التأويـل مـن الآـيه هـم المشــركون فى مكـه و قــد تحزبـوا لحرب الإسلام،فبشر اللّه نبيه بهزيمتهم و غلبته عليهم.

[۱۲]و من أجل أن يستقيم الرسول فى طريق الدعوه للحق،و يقاوم تحدّيات

الکافرین،یذکره بمعاناه الأنبیاء مع الأقوام السابقه،و أن هؤلاء سوف یهزمون کما حدث لأولئک.

کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ فتکذیبهم لیس جدیدا،ثم یذکر بمجرد الاشاره،مجموعه من الأقوام:

قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتٰادِ و انما سمی فرعون بذی الأوتاد لأنه کان إذا غضب علی أحد وتد رجلیه و یدیه و رأسه علی الأرض أو فی خشبتین متقاطعتین علی شکل الصلیب،أو فی جذوع النخل،و قیل أن سبب التسمیه کثره جنوده و جیوشه السائره فکانوا إذا نصبوا الخیام فی معسکراتهم،و أثناء استراحتهم فی الطریق صارت کثیره جدا و هکذا أوتادها. (۱)

[۱۳]کل تلک الأقوام کذّبوا رسلهم،و أیضا:

وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحٰابُ الْأَیْکَهِ و هم قوم شعیب علیه السلام .

أُولٰئِکَ الْأَحْزٰابُ فأین ذهب أولئک سوف یذهب هؤلاء أیضا.

[۱۴]فهم أحزاب یختلفون مع بعضهم فی طبیعه الحیاه،و المکان و القوه

۱- ۱) المجمع ج ۷،۸ ص ۴۶۸.

و الضعف و لكنهم يجمعهم أمران هما:التكذيب بالحق و الرسل،و العقاب الالهى الذى لحق بهم بسببه.

إِنْ كُلٌّ إِلاّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ و قد تكون هذه الآيات تمثيل للحقيقه التى طرحتها الآيه(٣)عن هلاك القرون السابقه.

[١٥]و الدمار الذى لحق بتلك الأقوام لم يكن أمرا طارئا،انما ينسجم مع الحق الحاكم فى الحياه،و التمثل فى إراده اللّه و السنن التى وضعها فى الكون.و الحق هو الحق،و الحياه هى هى بأساسياتها،فلن يشذ عن هذه النتيجه كل من يمشى فى ركاب المكذبين و خطهم فى أى زمان و مكان.

وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ سواء كفار قريش أو طواغيت اليوم الذين يتحكمون فى مصائر الشعوب، و يحاربون اللّه و الإسلام ما ينتظر هؤلاء جميعا؛ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ و ليس بالضروره أن تكون الصيحه من جبرائيل أو أحد الملائكه الغلاظ عليهم السلام،بل قد تكون الصيحه رصاصه يطلقها المجاهدون على المستكبرين،و قد تكون ثوره شعبيه جذريه تأكل الأخضر و اليابس من كيانهم.

و فواق بمعنى الرجوع،و منه فواق الناقه إذا رجع لبنها الى الضرع بين الحلبتين، و افاقه المريض من المرض إذا رجع الى صحته،و هؤلاء حينما ينزل بهم العذاب لا تقبل رجعتهم للحق.و هذه الكلمه نجد تفسيرها فى قوله تعالى فى الآيه الثالثه

« وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ».

إذن فاعتماد الإنسان على قوه المال و الجند و اعتزازه بهما فی مقابل الحق أمر خطیر یجره الی الهلاک،بشذوذه عن الحق فی الحیاه.

ص:۳۲۹

[سوره ص (۳۸): الآیات ۱۶ الی ۲۶]

اشاره

وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ یَوْمِ اَلْحِسابِ (۱۶) اِصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ اُذْکُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا اَلْأَیْدِ إِنَّهُ أَوّابٌ (۱۷) إِنّا سَخَّرْنَا اَلْجِبالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ اَلْإِشْراقِ (۱۸) وَ اَلطَّیْرَ مَحْشُورَهً کُلٌّ لَهُ أَوّابٌ (۱۹) وَ شَدَدْنا مُلْکَهُ وَ آتَیْناهُ اَلْحِکْمَهَ وَ فَصْلَ اَلْخِطابِ (۲۰) وَ هَلْ أَتاکَ نَبَأُ اَلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا اَلْمِحْرابَ (۲۱) إِذْ دَخَلُوا عَلی داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغی بَعْضُنا عَلی بَعْضٍ فَاحْکُمْ بَیْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اِهْدِنا إِلی سَواءِ اَلصِّراطِ (۲۲) إِنَّ هذا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَهً وَ لِیَ نَعْجَهٌ واحِدَهٌ فَقالَ أَکْفِلْنِیها وَ عَزَّنِی فِی اَلْخِطابِ (۲۳) قالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤالِ نَعْجَتِکَ إِلی نِعاجِهِ وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلْخُلَطاءِ لَیَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلی بَعْضٍ إِلاَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ وَ قَلِیلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راکِعاً وَ أَنابَ (۲۴) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِکَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفی وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵) یا داوُدُ إِنّا جَعَلْناکَ خَلِیفَهً فِی اَلْأَرْضِ فَاحْکُمْ بَیْنَ اَلنّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ اَلْهَوی فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ إِنَّ اَلَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ اَلْحِسابِ (۲۶)

ص:۳۳۰

يٰا دٰاوُدُ:إِنّا جَعَلْنٰاکَ خَلِيفَهً

هدی من الآيات:

إن فتنه القوه فی الحياه فتنه كبيره و خطيره،و من تخلص من غرورها فانه يتغلب علی سائر الفتن بصوره أسهل،ذلك أن الإنسان يقتحم الصعاب و يركب الأهوال و المخاطر من أجل السلطه،فاذا تنازل عنها أو بلغها و لم يسخرها إلاّ فی سبيل الخير، فإنه آنذاک ينتصر علی أهوائه،و علی الضغوط التی تحيط به.

و فی الوقت الذی حدثتنا هذه السوره عمن صرعتهم هذه الفتنه،فراحوا يعتزون بقوتهم و يتحدون ربهم و يعتزون بآلهتهم التی تمثل رموز سلطتهم،و يخالفون و لآيه اللّه باسمها و هم الملأ من الكفار،يضرب لنا هذا الدرس القرآنی مثلا حيا من واقع داود عليه السلام الذی تجاوز هذه الفتنه.فبالرغم من أنه امتلك القوه الظاهريه فی الأرض، كما سخرت له الطيور و الجبال و الحديد،إلاّ أنه لم يغتر بقوته بل صار يتقرب إلی اللّه اللحظه بعد اللحظه من خلال تسبيحه المستمر و آنئذ جعله اللّه خليفه فی الأرض

ص:۳۳۲

تشریعیا و واقعیا.

و نستوحی من إعطاء اللّه السلطه و ولایه الأمر لنبیّه داود علیه السلام بعد استقامته علی الحق،أنه تعالی لا یعطی ولایته الی کل سلطان،انما للذین یمتلکون ناصیه الملک و لا تمتلکهم.

بینات من الآیات:

اشاره

[۱۶]عاده ما یستعجل الکفار عذاب اللّه،و یتحدون الأنبیاء قائلین:إذا کانت دعوتکم صادقه فاسألوا ربکم أن یصب علینا العذاب.و السیاق القرآنی فی هذه السوره یترک الاجابه علی تحدی الکافرین،و یوجهنا الی دراسه التاریخ،لأنه تعالی أجری الحیاه وفق سنن حددها و اختارها بعلمه و حکمته،و لن یغیر اللّه سننه کلما تحداها الجاهلون فهو یدیر شؤون الخلیقه حسب الحکمه لا حسب ردود الفعل تعالی ربنا عن ذلک علوا کبیرا،بلی قد یغیر اللّه سنه ما فی ظروف خاصه لأن ربنا لا یعجزه شیء و أمره فوق السنن و القوانین،و لکنه مع ذلک یتصرف بعلم و حکمه.

وَ قٰالُوا رَبَّنٰا عَجِّلْ لَنٰا قِطَّنٰا قَبْلَ یَوْمِ الْحِسٰابِ و القط الحظ و النصیب فهؤلاء یسألون اللّه أن یوافیهم بما یستحقون من العذاب لکی یکتشفوا أنهم فعلا علی الباطل.و لکن اللّه لا یستجیب لهذه الدعوه دائما و ذلک لأمور:

الاول:أنه عزّ و جل رحیم بعباده،فلو قادهم الجهل یوما الی الکفر و التحدی لا یأخذهم بالعذاب،و ذلک أن الإنسان قد یجهل حینما ثم یکتشف خطأه و یعود الی ربه.

الثانی:لان ذلک یخالف حکمه الحیاه،فاللّه خلقها للامتحان و ذلک یقتضی أن لا یکون العذاب مباشره بعد الذنب،و لو فعل اللّه ذلک لما عصاه أحد،و لکنّ الطاعه التی یریدها اللّه هی التی تکون بدافع المعرفه به،و الخوف من مستقبل المعصیه،و التطلع الی نتائج الطاعه.یقول تعالی: وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً أَ فَأَنْتَ تُکْرِهُ النّاسَ حَتّی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۱)و قال: وَ لَوْ یُؤاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَکَ عَلَیْها مِنْ دابَّهٍ وَ لکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَهً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ (۲)و

قال الامام الصادق علیه السلام :

«لما رأی إبراهیم ملکوت السماوات و الأرض،التفت فرأی رجلا یزنی، فدعا علیه فمات،ثم رأی آخر فدعا علیه فمات،ثم رأی ثلاثه فدعا علیهم فماتوا،فأوحی اللّه الیه یا إبراهیم إن دعوتک مستجابه فلا تدع علی عبادی،فانی لو شئت لم أخلقهم،إنی خلقت خلقی علی ثلاثه أصناف،صنف یعبدنی لا یشرک بی شیئا فأثیبه،و صنف یعبد غیری فلیس یفوتنی،و صنف یعبد غیری فأخرج من صلبه من یعبدنی » (۳)الثالث:لکی تتم الحجه علی الناس،فهم مع الفرصه التی یمنحها الربّ لهم فی الدنیا یسألونه الرجعه بعد الموت لیستأنفوا العمل قال اللّه تعالی: حَتّی إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ (۴)و قال بعض المفسرین:انّ معنی قط النصیب و انهم أرادوا نصیبهم من الجنه

ص:۳۳۴

۱- ۱) یونس ۹۹

۲- ۲) النحل ۶۱

۳- ۳) نور الثقلین ج ۱ ص ۷۳۲

۴- ۴) المؤمنون(۹۹،۱۰۰).

(لا من العذاب)استهزاء و سخريه و انهم كذبوا بذلك بثالث الأصول الدينيه (المعاد)بعد أن كذبوا بأولها(التوحيد)عند ما قالوا:« أَ جَعَلَ الْآلِهَهَ إِلٰهاً واحِداً »، و كذبوا بالثانى(النبوه)عند ما قالوا:« أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا ».

و سواء هذا أو ذاك،فان اللّه لم يستجب لأهوائهم،بل ضرب مثلا من واقع داود الذى عجل اللّه له جزاءه فى الدنيا(و قطه)دون أن ينقص من أجره فى الآخره شیء.

[۱۷]و هكذا ينبغى للرساليين أن لا يهتموا بكلام من هذا النوع،و إن كان ذلك صعبا بالذات إذا كان يمس بمقدساتهم،لهذا يوصى اللّه نبيّه بالصبر.

اِصْبِرْ عَلىٰ ما يَقُولُونَ ثم يوجهنا السياق الى مثل من التاريخ،و بالتحديد من حياه داود عليه السلام يناقض غرور هؤلاء الكافرين بالسلطه و الذى جرّهم لتحدى اللّه عزّ و جل.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوّابٌ و حين يذكر النبى اخوته السابقين من الأنبياء،يستأنس بهم و بصبرهم فى الضراء و السراء،و بتعاليهم على مؤثرات الحياه الدنيا و حين يذكر النبى لنا صبر الأنبياء و ذكرهم و انهم الأوّابون الى اللّه فى كلّ حال حتى عند ما تزدحم على أبوابهم زخارف الدنيا،فانه يسن أمامنا سنه سالكه،و طريقا معبدا علينا الاستقامه عليه،و الصبر على كلّ أذى فيه.

دعنا إذا نذكر داود،فهو القوى ذو الأيدى،و اليد:القوه،و داود يملك أسباب القوه و عواملها فهو قوى من جهه فعبر عنه القرآن بذى الأيدى،و اليد كنايه عن القوه

و القـدره،و هو من جهه أخرى مؤمن و علامه ايمـانه التوبه و من الصـعب على البشـر أن يجمع بين هاتين الصـفتين،لأن صاحب القوه عاده ما تستهويه زخارف الحياه و يركض وراءها،حتى و لو خالفت الحق.

و كمـا يحتاج المؤمن للقوه حتى ينفـذ خططه فى الحياه و يبلغ أهـدافه و تطلعاته، فانه يحتاج الى الإيمان،و ذلك لكى يعود تائبا الى ربّه بدافع الإيمان كلما جرته القوه الى ساحل الغرور و المعصيه.

[۱۹-۱۸]و تحـدثنا الآيـات عن جـانب من القوه التى بلغهـا داود فى حكمه، فقـد أخضع له الحيـاه بشـقيها الجامـد و المتحرك،و هكذا تخضع الحياه الى كل من يتبع الحق،لأنه بالاضافه الى قوه الغيب التى تعينه حينذاك،يهتدى به الى الأسباب و القوانين التى يمكنه تسخيرها،فلقد سقطت الحجب بينه و بين حقائق الخليقه، فاذا بها تستجيب له.

إِنّٰا سَخَّرْنَا الْجِبٰالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرٰاقِ و كل شيء يسبح اللّه بصوره مستمره،و لكن لا نفقه تسبيحه كما يقول تعالى:

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰاوٰاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كٰانَ حَلِيماً غَفُوراً (۱)و قـد جعـل اللّه الجبـال تسبح عنـد مـا يسبّح داود عليه السـلام و لعلنـا نسـتوحى من الآيه أنه أعطى الطاقات الموجوده فيها، كالاحجار الكريمه و الوقود.

وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ يعنى مجموعه له يستفيد منهـا كيفمـا يشـاء.و ربمـا كـان الإنسـان قـديما يسـتغرب لو سـمع بهـذه الآيات،أما و قد تقدمت البشريه فى العلم،فهى تعتمد الآن الجبال فى

۱- ۱) الإسراء ۴۴

كثير من الشؤون،كما أن هناك محاولات-نجح الكثير منها-للاستفاده من الطيور فى مجالات الحياه المختلفه،و توجد الآن تجارب جادّه للاستعانه بها فى الشؤون الطبيعه و العسكريه،و من قصه سليمان التى مرّت فى سوره سبأ يتبين أنه كان عليه السلام يبعثها للاستكشاف.

[۲۰]و بالاضافه الى هذه القوى الماديه و الامكانات التى تدخل كعنصر فعّال فى سيطره داود و سلطانه،كان اللّه يزيده قوه و تمكنا يوما بعد يوم،و لو كان ظالما لما زاده مرور الأيام إلّا ضعفا و وهنا.

وَ شَدَدْنٰا مُلْكَهُ بمختلف أسباب القوه هذا من الناحيه الماديّه.أما من الناحيه التشريعيه و الاداريه فقد أعطى ما يقوى حكمه و سلطانه أيضا.قال تعالى:

وَ آتَيْنٰاهُ الْحِكْمَهَ وَ فَصْلَ الْخِطٰابِ و الحكمه تعنى أن يحيط الإنسان علما بالخليقه و بنفسه و يعرف:كيف يتصرف فيها تصرفا سليما.أما فصل الخطاب فهو الكلام الذى يفهم الطرف الآخر الحقيقه بما يقطع دابر الشك،و يزيل حجاب الجهل فداود عليه السلام إذا يصيب الحق بحكمه و يبيّنه أفضل البيان بخطابه،و هذان الأمران من أهم ما يلزم المدير المسؤول سواء فى موقع خطير كالولايه،أو أقل من ذلك كالاسره و المؤسسه و التنظيم.

و النصوص الاسلاميه تؤكد على ضروره اختيار الأسلوب الأنسب كما تؤكد على المحتوى يقول تعالى: اُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَهِ وَ الْمَوْعِظَهِ الْحَسَنَهِ (۱)

ص:۳۳۷

۱- ۱) النحل ۱۲۵

قصه الخصمين مع داود عليه السلام :

[۲۱]و يعود بنا السياق ليضرب لنا مثلا من حياه داود عليه السلام تتجسد فيه أوبته الى اللّه عزّ و جلّ،و ذلک فى قصه حدثت له.فبينما كان قائما يصلى فى محرابه إذ اقتحم الجدار عليه شخصان،و لم يأتياه من الطريق الطبيعى و هو الباب.

وَ هَلْ أَتٰاکَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرٰابَ و صيغه السؤال هنا تستثير فى الإنسان حب الاطلاع و تشد مسامعه للسائل حيث يستفهمه عن شىء لا يعرفه لا سيما و المسؤول عنها قصه طريفه هى التسلق على سور المحراب،بهدف التقاضى عند صاحبه فهل سمعت أعجب نبأ منها؟ [۲۲]و تتصل فصول القصه ببعضها فى أسلوب معجز من التعبير و العرض، و تسلط الآيات الضوء على النقاط و المواقف الهامه منها،و التى تنجسم مع اهداف وقوعها فى هذا السياق القرآنى،حيث الحديث عن السلطه و عن الملک الأوّاب.

بالطبع لمّا دخل هذان الخصمان على داود،و بهذه الطريقه أخذته الخشيه.

إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ دٰاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ لماذا فزع داود مع ان الخوف من الناس ليس مناسبا للأنبياء؟ ربما أراد ربّنا أن يذكر هذه النقطه فى مقابل بيانه لسعه ملک داود ليقول للبشر مهما بلغتم من القدره فأنتم بالتالى بشر و لن تصبحوا آلهه و البشر بطبيعته يخاف، و يجهل و..و..فلما ذا يغتر الإنسان إذن،و يعتز بما يملک؟فهذا داود الملک المسخر له الطيور و الجبال،و النبى الكريم عند ربه يفزع حين يتسور عليه المحراب رجلان.

إن داود علیه السلام أوجس خیفه فی نفسه و لعله ظهرت علی ملامحه علائم الخوف و الوجل.

قَالُوا لاٰ تَخَفْ و عرضوا علیه أمرهم قالوا:

خَصْمٰانِ بَغیٰ بَعْضُنٰا عَلیٰ بَعْضٍ أی جار و اعتدی.

فَاحْکُمْ بَیْنَنٰا أرادا منه أن یقضی بینهما،و لکنهما اشترطا أن یکون حکمه:

بِالْحَقِّ و أضافوا شرطا آخر فقالوا:

وَ لاٰ تُشْطِطْ وَ اهْدِنٰا إِلیٰ سَوٰاءِ الصِّرٰاطِ فلیس المهم أن یقضی الحاکم بالحق و حسب،انما لا بد أن یکون وصوله الی الحق بطریق سلیم،کأن یعتمد علی الأصول الشرعیه لاستنتاج الحکم،حتی یهدی المتخاصمین للحق أولا،و لیخرجوا من عنده راضین مقتنعین بالقضاء ثانیا.

[۲۳]و بعد أن اکملوا عرض جمله شروطهم،بدأ صاحب النعجه الواحده یعرض الموضوع علی داود علیه السلام انتظارا للحکم وفقها.قال:

ص:۳۳۹

إِنَّ هٰذٰا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِیَ نَعْجَةٌ وٰاحِدَةٌ (۱)و ربما کان یطمع أن یتمها مائه،أو لأنها أنثی فأراد أن تلد له.

فَقٰالَ أَکْفِلْنِیهٰا أضمها الی نعاجی و أتحمل مسئولیتها،و استمال قلبی بحدیثه الذی اشتمل علی المدح و الإطراء.

وَ عَزَّنِی فِی الْخِطٰابِ أی غلبنی بحججه و حیله فقبلت ذلک.

[۲۴]و بعد أن انهی المدّعی کلامه بادر داود و أصدر الحکم ضد الطرف الثانی،من دون الاستماع الی دفاعه و دون أن یطالب بالبینه.

قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِکَ إِلیٰ نِعٰاجِهِ و مضی السیاق یستوحی عبره جانبیه للقصه متمثله فی خطر الشراکه بین الأطراف،و أن الضمان الوحید لتجنب هذا الخطر هو الإیمان.

وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْخُلَطٰاءِ لَیَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ و یستثنی من قاعده الظلم و الاعتداء التی هی دیدن أکثریه الشرکاء:

إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ قَلِیلٌ مٰا هُمْ و الذی یدفع أولئک للاعتداء هی أهواؤهم و شهواتهم،المتمثله فی مجموعه من

۱- ۱) و النعجه هی أنثی الضأن و النواعج من النساء البیضاوات،و قد أوردنا الشطر الثانی من التعریف لاتصاله بتفسیر لهذه الآیه یتبناه البعض من المفسرین.

الصفات السلبيه،كالحسد و الطمع،و حب الدنيا.و..و..أما المؤمنون فإنهم يتغلبون على كلّ ذلك بالإيمان الذى يحصنهم،و بالعمل الصالح الذى يثبت الإيمان و يعودهم على فعل الخير.و لكن القليل هم المؤمنون الذين يصرعون شهواتهم.

معنى الفتنه:

و بهذا الاستطراد أنهى داود عليه السلام القضيه لصالح صاحب النعجه الواحده،أما بقيه الآيه فهو اضافه من عند اللّه عزّ و جلّ تتضمن نقدا لتصرفه عليه السلام و بيانا للخطأ الذى بدر منه و أخيرا موقفه من موعظه اللّه له.

وَ ظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ ماذا كانت فتنه اللّه لداود التى انتبه إليها و تصورها فورا،إذ انها جاءت فى صوره نزاع بين اثنين كانا فى الواقع ملكين أراد اللّه أن يعلم من خلال قضيتهما طريقه القضاء لداود؟ فى هذه الآيه قولان:

الاول:أن الذين تسوروا هم الملائكه و كان الهدف امتحان داود عليه السلام فهو لم يعرف بأنهم ملائكه،ثم إنهم لم يريدوا من سوالاتهم هذه أن يحكم لهم داود فى النعاج بالمعنى الظاهر و المتعارف لأنهم أساسا لا يملكون نعاجا،و لم تحدث لهم قضيه من هذا النوع،انما أرادوا صرفه الى قضيه اجتماعيه و لكنه لم يتوجه الى مقصدهم فى البدايه،ثم أدرك ذلك فتاب الى ربّه توبه نصوحا.

و القضيه الاجتماعيه هى أنه كانت لديه(٩٩)امرأه بين حرّه و أمه،فعشق

زوجه جميله لرجل من بنى إسرائيل يقال له(أوريا)فأراد أن يتزوجها لتتم له مائه زوجه،فقدمه فى أحد الحرب ليقتل و يتم له الأمر فقتل،و تزوجها داود.فأرادت الملائكه أن تبين له خطأه هذا.

فى الروايه :فكتب داود عليه السلام الى صاحبه الذى بعثه أن ضع التابوت بينك و بين عدوك،و قدم أوريا بن حيان بين يدى التابوت فقدمه و قتل،فلما قتل أوريا دخل عليه الملكان و قعدا و لم يكن تزوج امرأه أوريا و كانت فى عدتها،و داود فى محرابه يوم عبادته،فدخل الملكان من سقف البيت و قعدا بين يديه،ففزع داود منهما فقالا:« لاٰ تَخَفْ خَصْمٰانِ بَغىٰ بَعْضُنٰا عَلىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ لاٰ تُشْطِطْ وَ اهْدِنٰا إِلىٰ سَوٰاءِ الصِّرٰاطِ »و لداود حينئذ تسعه و تسعون امرأه ما بين مهيره الى جاريه،فقال أحدهما لداود:« إِنَّ هٰذٰا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ وٰاحِدَةٌ فَقٰالَ أَكْفِلْنِيهٰا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطٰابِ »أى ظلمنى و قهرنى فقال داود كما حكى اللّه عزّ و جل:« لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِكَ إِلىٰ نِعٰاجِهِ » الى قوله:« وَ خَرَّ رٰاكِعاً وَ أَنٰابَ »قال:فضحك المستعدى عليه من الملائكه و قال:

حكم الرجل على نفسه؛فقال داود:أ تضحك و قد عصيت؟لقد هممت أن أهشم فاك قال:فعرجا و قال الملك المستعدى عليه:لو علم داود انه أحق أن يهشم فاه مني؛ففهم داود الأمر و ذكر الخطيئه فبقى أربعين يوما ساجدا يبكى ليله و نهاره و لا يقوم إلاّ وقت الصلاه حتى انخرق جبينه و سال الدم من عينيه (۱)و هكذا نجد الملوك يفتشون عن هذه الثقافه عند ادعياء الدين لينشروها، و يبرءوا أنفسهم من الظلامات التى يرتكبونها.

و قد نقل الفخر الرازى فى تفسيره الكبير انه حضر فى بعض المجالس،و حضر فيه بعض أكابر الملوك،و كان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد و القصه الخبيثه لسبب اقتضى ذلك،و يمضى الفخر الرازى فى بيان فساد هذا الرأى و إسكات

ص:۳۴۲

۱- ۱) نور الثقلين ج ۴ ص ۴۴۹.

ذلک الملک.

و هذا القول مردود علیه فی أکثر الروایات نظرا لمتنه الذی یمس بکرامه الأنبیاء و تقواهم

فعن الشیخ الصدوق رحمه اللّه،باسناده الی أبی عبد اللّه علیه السلام ،أنه قال لعلقمه:

«إن رضا الناس لا یملک و ألسنتهم لا تضبط ألم ینسبوا داود علیه السلام الی أنه تبع الطیر حتی نظر الی امرأه(أوریا)فهواها،و أنه قدم زوجها أمام التابوت حتی قتل ثم تزوج بها » (۱)

و قال الامام أمیر المؤمنین علیه السلام :

«لا أوتی برجل یزعم أن داود تزوج امرأه أوریا إلاّ جلدته حدین،حدا للنبوّه وحدا للإسلام » (۲)و نجد هذا الرأی مکتوبا فی التوراه الموجوده فی أیدی الناس،و هذا دلیل علی أنها محرفه،و إلاّ کیف تنسب الی حاکم بل نبی من أنبیاء اللّه هذه التهمه الرخیصه،و هو یؤتمن علی رساله اللّه و عباده؟ و الأشکل فی الأمر أن هذا الرأی تسرب الی کثیر من تفاسیرنا،و حینما نقتبس افکارنا فی تفسیر القرآن من التوراه المحرفه،و ننسب للأنبیاء هذا الظلم و الانحراف، بل هذا الشذوذ،عندها لا نری ضیرا إذا حکمنا رجل کالمتوکل العباسی،أو معاویه ابن أبی سفیان و ولده یزید،لأنه إذا کانت ثقافتنا مشوبه بهذه الأفکار الباطله،فانها سوف تدعونا لاتباع السلاطین و الملوک الظلمه علی أنهم خلفاء للّه

۱- ۱) نور الثقلین ج ۴ ص ۴۴۶.

۲- ۲) نور الثقلین ج ۴ ص ۴۴۶ نقلا عن المجمع.

و أمناء على الرساله.

الثانی:الفتنه التی تعرض لها داود،هو مبادرته لاصدار الحکم من دون سؤال صاحب النعجه الواحده عن البینه،و لا الاستماع الی رأی المدعی علیه،إذ لا یجوز للقاضی-من الناحیه الشرعیه و المنطقیه-أن یصدر حکما فی قضیه ما قبل التحقیق فیها،و النظر فی سائر الحیثیات التی تتصل بها.

یقول الامام الرضا علیه السلام بعد أن ضرب یده علی جبهته،و هو یرد علی الرأی الأول و یبین الرأی الثانی:« إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَیْهِ راجِعُونَ »لقد نسبتم نبیا من أنبیاء اللّه علیهم السلام الی التهاون بصلوته،حتی خرج فی أثر الطیر،ثم بالفاحشه ثم بالقتل؟فقال:یا ابن رسول اللّه فما کانت خطیئته؟فقال:ویحک ان داود علیه السلام انما ظن انه ما خلق اللّه خلقا هو أعلم منه،فبعث اللّه عز و جل الیه الملکین فسورا المحراب فقال:« خَصْمانِ بَغی بَعْضُنا عَلی بَعْضٍ فَاحْکُمْ بَیْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلی سَواءِ الصِّراطِ إِنَّ هذا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَهً وَ لِیَ نَعْجَهٌ واحِدَهٌ فَقالَ أَکْفِلْنِیها وَ عَزَّنِی فِی الْخِطابِ »فعجل داود علیه السلام علی المدعی علیه،فقال:« لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤالِ نَعْجَتِکَ إِلی نِعاجِهِ »و لم یسئل المدعی البینه علی ذلک و لم یقبل علی المدعی علیه،فیقول له:ما تقول؟فکان هذا خطیئه رسم الحکم لا ما ذهبتم الیه ألا تسمع اللّه عز و جل یقول: یا داوُدُ إِنّا جَعَلْناکَ خَلِیفَهً فِی الْأَرْضِ فَاحْکُمْ بَیْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ إلی آخر الآیه فقال(أی الراوی):

یا ابن رسول اللّه فما قصته مع أوریا؟قال الرضا علیه السلام :إنّ المرءه فی أیّام داود علیه السلام کانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبدا،فأوّل من أباح اللّه عزّ و جلّ له أن یتزوّج بامرأه قتل بعلها داود علیه السلام ،فتزوّج بامرأه أوریا لمّا قتل و انقضت عدتها فذلک الذی شقّ علی الناس من قبل أوریا (۱)

ص:۳۴۴

۱- ۱) المصدر ص ۴۴۶.

فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رٰاكِعاً وَ أَنٰابَ إنّه لم يترك فرصه لوساوس الشيطان و تسويفاته،إنّما بادر مباشره،إلى الاستغفار و التوبه،و أىّ باب للتوبه أوسع من الصلاه و الدعاء.ألم يقل اللّه تبارك و تعالى: قُلْ مٰا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لاٰ دُعٰاؤُكُمْ (۱)و قال فى الصلاه: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰهِ وَ إِنَّهٰا لَكَبِيرَهٌ إِلاّٰ عَلَى الْخٰاشِعِينَ (۲)[۲۵]و حينما وفّر عليه السلام شروط التوبه فى نفسه،من صدق الندم،و إصلاح ما فسد،و الضراعه إلى الربّ بقلب منكسر،استجاب اللّه له.

فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِكَ التوبه تزيل خطأ الإنسان،و تمحو آثاره الرجعيه،سواء على مستوى الفرد أو المجتمع،بل و تقدّمه خطوات إلى التوبه تزيد الإنسان حصانه،و تقيه خطر الهلاك بالذنوب و الأخطاء.و ليس أضرّ على الإنسان من ذنب يعتز به،و خطأ يصرّ عليه مستكبرا.

و أهمّ معطيات التوبه أنها ترفع الإنسان درجات عند ربّه،و تورثه المنازل الرفيعه فى الجنّه.

وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ و هذا خلاف لتصورات الإنسان السلبيه من أن التوبه تسبّب له الذّله،و أن العزّه بالإثم هى الأفضل،لأنها فى نظره السبيل للرفعه.

۱- ۱) الفرقان ۷۷

۲- ۲) البقره ۴۵.

و القرآن انما يضرب لنا مثال الاعتراف بالخطإ و التوبه منه،من واقع النبى داود العالم الذى بلغ و ولده سليمان ذروه السلطه،لان التوبه تصعب على الإنسان حينما يكون فى موقع متقدم من المجتمع،كما لو كان والدا بالنسبه لاسرته،أو كان عالما أمام تابعيه،و تصل الصعوبه ذروتها إذا كان حاكما و عالما فى مستوى داود و لعل هذا من حكم تعرض الأنبياء للفتنه.و ان اللّه يكلهم إلى أنفسهم، و يرفع عنهم عصمته لحظات معدوده فيرتكبون الهفوات،ثم يتوبون إلى اللّه ليكونوا قدوات صالحه للبشريه فى حقل التوبه-و هو أعظم حقل-كما هم قدوات فى سائر الحقول.و لا بد لنا و نحن نخوض الصراع أن نتذكر هؤلاء العظماء كما أمرنا اللّه حتى لا يتكبر أحدنا على النقد و الاستماع إلى آراء الناس فى تصرفاته و بالتالى لكى لا يتعالى أحدنا على المجتمع باسم انه يمثل طليعته المتقدمه.

[۲۶]أهم شروط الحاكم الذى يتصرف فى دماء الناس و أموالهم،تمحوره حول الحقّ،و لكن كيف يعرف صدق الحاكم الذى يدعى انه يحكم بالحقّ؟إنما عند ما يخالف هواه و يتراجع عن قرار اتخذه إذا عرف انه كان خاطئا،و يعترف أمام الناس بذلك و يتوب إلى اللّه،و يصلح منهجه.

من هنا نجد السياق القرآنى يذكرنا بان الرب استخلف عبده داود فى الأرض بعد أن ابتلاه و عرف انه يخالف هواه و يتراجع عن الخطأ إذا عرفه.

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ان الأرض و ما فيها من بشر و أحياء و تراب أمانه اللّه فى عنقك،و عنق كلّ حاكم و لا تصان هذه الامانه إلاّ بتحكيم الحقّ،أما لو تحكم الباطل فسوف تفسد الأرض و من عليها من الأحياء و الناس قال تعالى يصف الذى يتبع الباطل فى حكمه: وَ إِذَا تَوَلّى سَعىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللّٰهُ لاٰ

يُحِبُّ الْفَسٰادَ (۱).و لهذا عقّب القرآن مبينا أهم وظائف الحاكم و ما يتصل به من مؤسسات تشريعيه و قضائيه و تنفيذيه قائلا:

فَاحْكُمْ بَيْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ و لكى يلتزم الحاكم بالحق يجب أن يتجاوز أهواءه و شهواته،حتى لا تنعكس علاقاته الاجتماعيه،و لا ضغوط الناس و اغراءاتهم على آرائه فى الحكم.

وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ و من أجل أن نعرف معنى من معانى هذه الآيه الكريمه تكفينا نظره واحده لواقع المسلمين،الذين صاروا ضحيه لأهواء الحاكمين فى الأمه،أو ليس أبعدوا الإسلام عن الحكم لأنه يتناقض مع أهوائهم،و لأنهم لا يجدون فيه مبررا لنزواتهم و تصرفاتهم المنحرفه؟و هذا هو الضلال.

و من هذه الآيه الكريمه استوحى الحديث الشريف ولايه الفقيه

فقال الامام الصادق عليه السلام :

«فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه،حافظا لدينه،مخالفا على هواه مطيعا لأمر مولاه فعلى العوام أن يقلدوه» و يضيف الامام عليه السلام :

«فأما من ركب من القبائح و الفواحش مراكب فسقه فقهاء العامه فلا تقبلوا منهم عنّا شيئا و لا كرامه»الى أن يقول:«و هم أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد عليه اللعنه على الحسين بن على عليه السلام و أصحابه،فإنهم يسلبونهم

۱- ۱) البقره ۲۰۵

الأرواح و الأموال » (۱)ثم يهدد ربّنا أولئك الذين يبتعدون عن الحقّ و السبيل المستقيم بسبب أهوائهم فيقول:

إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ و قال يوم الحساب و لم يقل القيامه،لان الذى ينسى أنه محاسب أمام اللّه على كلّ حركاته و سكناته،و على أهوائه بالخصوص،يفقد اتزانه و ضوابطه فى الحياه فيخالف الحقّ و يتبع الهوى من دون حساب.

أخطاء الأنبياء:

و كلمه أخيره:لماذا نجد فى القرآن تشهيرا بالأنبياء و أخطائهم كقوله تعالى عن آدم عليه السلام وَ عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ (۲)أو عن النبى يونس عليه السلام : سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّالِمِینَ (۳)و عن داود فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راکِعاً وَ أَنابَ (۴)و عن النبى الأكرم(ص): لِیَغْفِرَ لَکَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ (۵) الجواب:هناك حكم كثيره،من أبرزها معرفه الناس أن الأنبياء ليسوا بآلهه فلا يرفعونهم إلى مقام الرب.هكذا

جاء فى كتاب الاحتجاج للطبرسى رحمه اللّه فى

ص:۳۴۸

۱- ۱) بح ج ۲ ص ۸۸.

۲- ۲) طه ۱۲۱

۳- ۳) الأنبياء ۸۷.

۴- ۴) ص ۳۴.

۵- ۵) الفتح ۲

حديث طويل عن أمير المؤمنين علیه السلام يقول فيه :

و أما هفوات الأنبياء علیهم السلام و ما بينه اللّه فى كتابه،فان ذلک من أدلّ الدلائل على حكمه اللّه عز و جل الباهره و قدرته القاهره و عزته الظاهره،لأنه علم ان براهين الأنبياء علیهم السلام تكبر فى صدور أممهم و أن بعضهم من يتخذ بعضهم إلها كالذى كان من النصارى فى ابن مريم،فذكرها دلاله على تخلفهم عن الكمال الذى انفرد به عز و جل،ألم تسمع إلى قوله فى صفه عيسى حيث قال فيه و فى أمه:« كانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ »يعنى أن من أكل الطعام كان له ثقل، و كل من كان له ثقل فهو بعيد مما ادعته النصارى لابن مريم.

[سوره ص (۳۸): الآیات ۲۷ الی ۴۰]

اشاره

وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِکَ ظَنُّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ اَلنّٰارِ (۲۷) أَمْ نَجْعَلُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی اَلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ اَلْمُتَّقِینَ کَالْفُجّٰارِ (۲۸) کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۲۹) وَ وَهَبْنٰا لِدٰاوُدَ سُلَیْمٰانَ نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (۳۰) إِذْ عُرِضَ عَلَیْهِ بِالْعَشِیِّ اَلصّٰافِنٰاتُ اَلْجِیٰادُ (۳۱) فَقٰالَ إِنِّی أَحْبَبْتُ حُبَّ اَلْخَیْرِ عَنْ ذِکْرِ رَبِّی حَتّٰی تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ (۳۲) رُدُّوهٰا عَلَیَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ اَلْأَعْنٰاقِ (۳۳) وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَیْمٰانَ وَ أَلْقَیْنٰا عَلیٰ کُرْسِیِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنٰابَ (۳۴) قٰالَ رَبِّ اِغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْکاً لاٰ یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّکَ أَنْتَ اَلْوَهّٰابُ (۳۵) فَسَخَّرْنٰا لَهُ اَلرِّیحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخٰاءً حَیْثُ أَصٰابَ (۳۶) وَ اَلشَّیٰاطِینَ کُلَّ بَنّٰاءٍ وَ غَوّٰاصٍ (۳۷) وَ آخَرِینَ مُقَرَّنِینَ فِی اَلْأَصْفٰادِ (۳۸) هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ (۳۹) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفیٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴۰)

اللغه

۳۱[الصافنات]:جمع الصافنه من الخیل،و هی التی تقوم علی ثلاث قوائم و ترفع إحدی یدیها حتی تکون علی طرف الحافر و هی من علامه الجوده.

[الجیاد]:جمع جید و هی الفرس الأصلیه النجیبه،و نجابه الفرس بعرفانها صاحبها،و سرعه سیرها،و الاهتمام بخلاص راکبها من المشکله التی یقع فیها.

ص:۳۵۰

۳۲[توارت بالحجاب]:الشمس غابت و استترت تحت الأفق.

۳۳[فطفق]:شرع.

[مسحا]:قطعا بالسيف،و قيل معناه مسحا باليد و أن سليمان جعل يمسح أعراف الخيل و عراقيبها بيده.

۳۶[رخاء]:لينه بدون عنف.

ص:۳۵۱

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ

هدى من الآيات:

عند ما طالب الكفار بتعجيل حسابهم و الإسراع فى إعطائهم نصيبهم(من الثواب أو العقاب)قال ربنا لرسوله الكريم: اِصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ و من خلال قصه داود عليه السلام ذكرنا كيف عجل اللّه له الجزاء فى الدنيا متمثلا فى الملك و الذكر الحسن،مما هدانا به إلى ان العمل الصالح جزاءه الأوفى(فى الدنيا أو العقبى)و ها هو السياق يبلغ بنا إلى الجواب الفصل لسؤال أولئك الذين أنكروا النشور و يقول:ان قصه داود تدل على انّ الحق هو محور الخليقه،فداود بلغ ما بلغ لأنّ اللّه يحكم بالحق(و من الحق جزاء المحسن بالحسن)و ليس هذا سوى مثل لكل تقديرات الرب،و منهج تدبيره للخليقه(حيث انها قائمه جميعا على قاعده الحق) و هذا بالتالى يهدينا إلى ان المتقين ليسوا كالفجار لأن تساويهما يتنافى و الحق الذى قامت به السموات و الأرض.و هكذا لا بد من الجزاء الأوفى فى الآخره.

هذا من جانب و من جانب آخر يتنافى مبدأ الحق و خلافه الفجار فى الأرض.

ص:۳۵۲

لان هكـذا خلافه لا تبلغ أهم اهـداف الحياه و هو تطبيق الحق،و بهذه الآيات ينفى ربّنا نفيا قاطعا كل الأكاذيب و الأفكار الباطله الـتى حـاول محرفـوا التـوراه أو من اقتبس منهم الصاقهـا فى نـبيه داود عليه السـلام حين اتهموه فى تقواه و نزاهته.ثم يـدعونا اللّه للتدبر فى القرآن مما نجد مثيلا لهذا الأمر فى سوره المائده فى موضوع الخلافه،لاننا حينما نعرض تصوراتنا و افكارنا على كتاب اللّه،فسوف تتبين لنا ان خلافه الظالمين لا تنسجم و مجمل بصائره و هداه.

ثم يحدثنا القرآن عن جانب من حياه سـليمان بن داود عليهما السـلام،و الذى تجاوز هو الآخر فتنه السـلطه،فلم تخرجه زينتها من خـط الطـاعه و الانـابه،بـل كان يزداد خضوعا لربه تعالى،لأنه يعتبر كل شـىء نعمه الهيه تسـتوجب الشـكر.و بـذلك ضـرب مثلا للسلطان الصالح كما فعل والده من قبل.

بينات من الآيات:

[۲۷]فى الآيـات السـابقه بيّن ربنـا صـفات الخليفه الـذى يجعله فى الأرض (حيث ذكرتنا الآيات بعشـرين صـفه حسـنه فى خليفه داود)و من أبرزها حكمه بين الناس بالحق.

وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً كيف يتخـذ الباطل الرب الـذى لا يجعل خليفه فى الأرض الا الصالحين و الـذين يمتحنهم أشد الامتحان حتى يحكموا بالحق.

ان آيـات الحكمـه البـالغه تتجلى فى أصـغر شـىء خلقـه اللّـه،فى النحله و النمله،فى الشـعر و الـوبر،فى الخليه الواحـده،فى الـذره الواحده،فى البروتون و الالكترون.

فكيف لا تتجلى الحكمه فى مجمل خلق السموات و الأرض؟!أم كيف يخلقهما اللّه

باطلا بلا حکمه بلا هدف بلا تقدیر؟!سبحان اللّه و تعالی عن ذلک علوا کبیرا.

ذٰلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا لأنهم قیّموا الحیاه بأفکار الکفر المسبقه لم یهتدوا إلی الحق.و مع ذلک لم یصلوا فی نفیه إلی حد قطعی(العلم)لأنهم أینما نظروا و إلی أی شیء منها وجدوا فیه آثار القدره و الحکمه.

فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ النّٰارِ لأن اللّه خلق السموات و الأرض بالحق،فانه لن یدع الکفار سدی بل لا بد ان یجازیهم بأعمالهم التی تجاوزت کل حد معقول فی مخالفه الحق بل لهم الویل و الثبور.

[۲۸]و تبیانا لهذه الحقیقه یهدینا الرب إلی ان سنه الحق القائمه فی کل شیء مخلوق تأبی تساوی المتقین الذین یتجنبون العذاب،و أسبابه و عوامله.و الفجّار الذین لا یبالون ای واد یقتحمون،و ای ضلاله یتیهون فیها،و ای جریمه یرتکبونها.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ و بذلک کسبوا الحسنات.

کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ و یبدو ان تخصیص المفسدین بالذکر ینسجم و قصه داود علیه السلام المتمثله فی شروط خلیفه اللّه فی الأرض.

و ان الخلیفه الشرعی لیس کل من ملک الأمور بالقوه،انما الذی یملکها بالحق.

و لهـذا لا بـدّ من التفريق بين حاكم و حاكم،خلافا لما ذكره البعض من أن الحاكم الشـرعى هو الـذى حكم بالسـيف،سواء كان مصلحا أم مفسدا،و الواقع انهم أرادوا تبرير مواقفهم من بعض أحداث التاريخ و رجاله،فهم يؤمنون بأن عليا عليه السلام و معاويه سواء بينما يرفض ذلک منطق القرآن.

هـل الامـام على عليه السـلام الـذى يطـوى نهـاره صائمـا و ليله قائمـا عابـدا،و يتقـاسم قوته مع الفقراء،بـل و يؤثرهم على نفسه و عيـاله(مسـكينا و يتيما و أسـيرا)و يعـدل فى الرعيه يسـتوى هو و الـذى يغتصب حقوق الآخرين،و يسـفک دماء الناس، و يتلاعب بمقدرات الأمّه؟!كلاّ..

إن السـلطه سـلاح ذو حدين،فهى إذا تسـلمها المؤمنون تصـبح وسـيله للإصـلاح و الاعمار،أما لو كان العكس فانها،تمسى معولا يهدم المنجزات و يحطم الطاقات.

و ربّنـا فى هـذه الآيه لم يقابل اَلَّذِينَ آمَنُوا بجماعه معينه کَالْفُجّارِ مثلا،انما قابلهم بالمفسـدين فى الأرض،ليبين لنا بأن كل سـلطه غير سلطه المؤمنين هى مفسده فى الأرض.

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ کَالْفُجّارِ إن ذلک لا يصح و لا يكون ما دام الحق هو أساس الحياه و مقياسـها.إلاّ أن تتبدل هذه المعادله،و هذا ليس الاّ فى ظن الكافرين.

[۲۹]و الحـق يتجلى فى السـماء و الأـرض و مـا بينهمـا.و آيـات القرآن هى التجلى الآـخر للحـق،و من تـدبر فى القرآن وجـد انه الكتاب الناطق بما يجد فى آيات الخليقه، فاذا ادى قلبا واعيا و تبصر انه كتاب أنزله خالق السماء و الأرض،لأنه ليس سوى صوره صافيه للخليقه.

کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ و حدد اللّه لهذا الکتاب غایات سامیه فقال:

١- لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ فالقرآن انزل لکی یعطی للإنسان المؤمن البصیره و الرؤیه السلیمه فی الحیاه.

و هذا لا یمکن بالمطالعه السطحیه،بل لا بد من تفکر عمیق فی الآیات.

٢-و الهدف الآخر بعد ادراک البصیره أن تنعکس علی حیاه الإنسان فیتذکر بها و یصحح من خلالها فی التفکیر،و فی العمل منهجه.

وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ لان العاقل هو الذی یعرف قیمه القرآن،و أهمیته،و هو الذی یتعرف علی بصائره.و لا شک أن الذی یحکم عقله فی الحیاه هو الذی یستفید من القرآن،أما الآخر الذی تحکمه شهواته فلن یتذکر به أبدا.

و نتسائل:ما هی صله هذه الآیه بالسیاق؟و نجیب اولا:بأنّ استنباط منهج الخلافه الاسلامیه من القرآن صعب مستصعب لا یحتمله الا من امتحن اللّه قلبه بالایمان،و عرف انه لا یمکن ان یعترف بالقرآن بسلطه تجانب قیمه الحق،و منهج التوحید.أو لیست السلطه السیاسیه تجسّد قیم المجتمع.فکیف تستطیع سلطه فاسده تطبیق قیم القرآن الاصلاحیه؟! و هکذا أشار السیاق إلی ضروره التدبر و التذکر لتبصر هذه الحقیقه التی تتراکم علیها حجب الشهوات و الضغوط.

ص:٣۵۶

ثانیا:بأن منهج القرآن فی توعیه الإنسان بالیوم الآخر منهج فرید،و لا یبلغ فهمه غیر الذین یتدبرون فی آیات الکتاب و یتذکرون بها.

[۳۰]و ینقلنا السیاق إلی قصه سلیمان علیه السلام بعد ان استوحی عبر قصه داود علیه السلام و تلتقی القصتان فی أنهما مثل لتجاوز الإنسان فتنه السلطه و القوه.

وَ وَهَبْنٰا لِدٰاوُدَ سُلَیْمٰانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ فمیزه سلیمان و عظمته الحقیقیه لیست فی انتمائه إلی رجل عظیم کداود علیه السلام و لا-فی سلطانه انما فی عبودیته للّه سبحانه.و لو لم یکن من أهل الایمان لما امتدحه فی کتابه.فبه استطاع أن یتجاوز أکبر فتن الحیاه،و هی فتنه لسلطه فقد ملک علیه السلام ما لم یملکه أحد من الناس و لن یملکه من بعده،و لکنه لم یغتر بزینه الدنیا،انما تجاوزها و توجه للّه،یتعبد و یضع نفسه فی موقع المذنب ثم یتوب و هو المعصوم من الذنوب و انما یعظم ربّه عزّ و جل.و کیف یتکبر هؤلاء علی ربهم و هم یعلمون بأن ما عندهم من فضله،و أن طریق الاستزاده هو المزید من التذلل له و التضرع الیه؟! [۳۱]و تجسیدا لاوبه سلیمان و تعبده للّه،یعرض لنا القرآن صوره من حیاته علیه السلام .

إِذْ عُرِضَ عَلَیْهِ بِالْعَشِیِّ الصّٰافِنٰاتُ الْجِیٰادُ و هی الخیول المروضه من أجودها،و کانت یستعرضها سلیمان کلما أراد الجهاد.

[۳۲]و فی ذات یوم استعرضها و ربما لکثرتها بقی معها طویلا حتی غابت الشمس(أو کادت)و فاتته فضیله صلاه العصر،و لم یکن حینها و هو یعد العده

للجهاد مشغولا بأمر من أمور الدنيا،و مع ذلک استغفر ربه و عدّه تقصیرا یستوجب التوبه.

فَقٰالَ إِنِّی أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَیْرِ عَنْ ذِکْرِ رَبِّی حَتّٰی تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ و کونه سلطانا لم یمنعه من الاعتراف بالخطإ،و لو کان بمقدار ترک الاولی بسبب عمل خیر آخر یحبه اللّه.

فالمعنی شغلنی الجهاد عن الصلاه،و الاثنان واجبان،الا أن الصلاه أفضل، و هل یجاهد المؤمنون إلاّ لإقامتها؟ [۳۳]و لمّا توجّه سلیمان علیه السلام الی فوات الوقت،استراح عن الجهاد فقضی صلاته،ثم عاد ثانیه،فقال:

رُدُّوهٰا عَلَیَّ یعنی جیاد الخیل،لکی یستمر فی تفقدّ الجیش.

فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنٰاقِ و کان المسح علی أعناق الخیل و سیقانها عند أهل الخبره طریقا لمعرفه الجید منها،و کان سلیمان علیه السلام بعد إجراء هذه یقسمها علی أفراد جیشه مما یدل علی اهتمامه به.

قال ابن عباس سألت علیا علیه السلام عن هذه الآیه،فقال:ما بلغک فیها یا ابن عباس؟قلت:سمعت کعبا یقول:اشتغل سلیمان بعرض الافراس حتی فاتته

ص:۳۵۸

الصلاه،فقال ردوها علی یعنی الافراس و کانت أربعه عشر فأمر بضرب سوقها:

و أعناقها بالسیف فقتلها فسلبه اللّه ملکه اربع عشر یوما،لأنه ظلم الخیل بقتلها.

فقال علی علیه السلام :

«کذب کعب لکن اشتغل سلیمان بعرض الافراس ذات یوم لأنه أراد جهاد العدو حتی توارت الشمس بالحجاب(الی ان قال)و إن أنبیاء اللّه لا یظلمون و لا یأمرون بالظلم لأنهم معصومون مطهرون » (1)[۳۴]ثم إن القرآن یحدثنا عن الفتنه التی تعرض لها سلیمان علیه السلام.فقد تمنی علی اللّه ان یکون له ولد یرثه کما ورث هو داود علیه السلام لکن اللّه لم یستجب له إنّما أسقط علی کرسیه جسدا میتا اجهضته امرأته.

وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَيْمٰانَ وَ أَلْقَيْنٰا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً کنایه عن الابن المیت،و کان یتمنی أن یجلس علی کرسیه ولد یحکم بعده، فتأثر بعض الشیء لذلک،و لکنه فکر فی نفسه و رجع إلی ربه.

ثُمَّ أَنٰابَ [۳۵]و قد اعتبر موقفه هذا-و هو النبی-زللا،و أن هذه فتنه علیه أن یتجاوزها بالدعاء و الاستعانه باللّه،لأنه علم أن عدم تحقیق اللّه لامنیاته یدل علی أن ذلک لیس من المصلحه أبدا.

قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي أن تمنیت علیک ما لا یتفق مع حکمتک لان علمی قاصر عن ادراک ذلک ثم

۱- ۱) المجمع/ج(۷،۸)/ص(۴۷۵).

طلب من اللّه شيئا آخر غيّر من خلاله أمنيته،قال:

وَ هَبْ لِی مُلْکاً لاٰ یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهّٰابُ و فی هذه الآیه الکریمه تتبین آداب الدّعاء عند الأنبیاء علیهم السلام.

ففی البدایه یجب أن یعرف العبد بأن ما سیطلبه من اللّه لیس حقا له علی اللّه استوجبه بعمله أو عبادته،انما هو هبه یعطیها له الربّ من عنده تفضلا إن شاء أو یمنعها،و بالاضافه إلی تناسب هذا الأدب و مقام الربوبیه،فانّه یعطی المؤمن مناعه ضد ردود الفعل المحتمله لو لم یستجب له.

ثم إن الطلب یجب أن یکون عظیما و کبیرا،و ینبغی للإنسان ان یطلب من ربّه و هو القادر العزیز الکریم مطالب جسیمه،فیخرج من نظرته البشریه المحدوده التی تفرض علیه آمالا محدوده،و یدعو اللّه انطلاقا من معرفته بصفاته و أسمائه الحسنی.فهذا سلیمان علیه السلام یدعو اللّه أن یهبه ملکا عظیما لا ینبغی لأحد من بعده.

و یستوحی من السیاق ان سلیمان علیه السلام طلب من اللّه بدیلا عن الأولاد الذین حرم منهم،بان یختصّه برحمه الهیه خاصه لتمضی الأجیال تذکره،به أو لیس الإنسان یستمر بعقبه و بما اختص به.فسأل اللّه من الملک ما لم یعط أحدا و لا ینبغی لأحد،و فعلا خصه اللّه بتسخیر الجن و الریح و الطیر له،کما تقرّر الآیات التالیه، و بالاسم الأعظم حسبما نقرأ فی آیات أخری (1)و لکن لیس الملک لذات الملک و للذه الحیاه الدنیا،انما أراد من خلال الملک و السلطان أن یقیم حکومه اللّه فی الأرض،لیقضی علی واقع الشرک السیاسی

ص:٣۶٠

١- ١) نجد تأییدا لهذه الفکره فی الحدیث رقم(۵۶)من تفسیر نور الثقلین ج(۴)ص(۴۵٩-۴۶٠).

و الاجتماعی و غیرهما،و ینصر المؤمنین و یهدی المستضعفین إلی الحق،و أی طموح أعظم من هذا الطموح؟! إن سلیمان کان یعرف انه نبی و یسیر علی الحق،لهذا سأل اللّه الملک و القوّه لتحقیق اهداف رسالته.و من یطلع علی حیاته یجدها جهادا من أجل إعلاء کلمه اللّه،و لعلّ الاشاره إلی الجیاد فی هذه السوره المبارکه تهدینا إلی هذه الحقیقه.و فی سوره النمل حیث انتهت القصه بإسلام بلقیس و قومها صوره من حیاته الملیئه بالجهاد.

الثالث من آداب الدعاء أن ینتهی بالثناء و الحمد للّه و ذلک بذکر أسمائه الحسنی و فی مقدّمها اسم«الوهاب»الذی ذکره أکثر الأنبیاء فی دعواتهم،قال تعالی: وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ فَادْعُوهُ بِهٰا وَ ذَرُوا الَّذِینَ یُلْحِدُونَ فِی أَسْمٰائِهِ سَیُجْزَوْنَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱) [۳۶]و قد استجاب اللّه لدعوه نبیه،بتمییز ملکه بما لا یتکرر مستقبلا.

فَسَخَّرْنٰا لَهُ الرِّیحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخٰاءً حَیْثُ أَصٰابَ فهی تجری کیفما یرید،و أینما یرید.

و جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم حدیث مأثور عن أمیر المؤمنین علیه السلام انه قال :

«خرج سلیمان بن داود من بیت المقدس و معه ثلاثمائه الف کرسیّ عن یمینه علیها الانس،و ثلاثمائه الف کرسی عن یساره علیها الجن،و أمر الطیر فأظلتهم،

۱- ۱) الأعراف/(۱۸۰).

و امر الريح فحملتهم حتى ورد ايوان كسرى فى المدائن،ثم رجع فبات بإصطخر، فاضطجع ثم غدا فانتهى إلى مدينه بركاوان،ثم أمر الرياح فحملتهم حتى كادت اقدامهم يصيبها الماء،و سليمان على عمود منها،فقال بعضهم لبعض:

هل رأيتم ملكا قط أعظم من هذا أو سمعتم به؟فقالوا:ما رأينا و لا سمعنا بمثله، فناداهم ملك من السماء ثواب تسبيحه واحده فى اللّه أعظم مما رأيتم » (1)[۳۷]و إلى جانب الريح أخضعت له الشياطين و كانت مهمتهم البناء و الاعمار و كانوا يستخرجون المعادن من البحار.

وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنّٰاءٍ وَ غَوّٰاصٍ و ليس بالضروره أن يكون المقصود من الغوص المعنى المتعارف فقط،و هو النزول إلى قعر البحر للصيد و استخراج الطاقات الكامنه فيه،بل تنسحب الكلمه كما كلمه البناء على المعنى المتقدم أيضا.

[۳۸]و كان سليمان يوزع المهام على الشياطين،فيعملون كيفما يريد،و من يتمرد فانه يجازى بالسجن.

وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفٰادِ و يبدو من الآيه أن الشياطين كانوا يصفدون جماعات جماعات فيقرن بعضهم بعضا،و يحتمل أنّهم كانوا يعتقلون كل فرد مع قرنائه فى المعصيه و المخالفه.المهم أن سليمان بهذه السيطره و الهيمنه على الجن نسف الأفكار الجاهليه حول ألوهيتها.

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)/ص(۴۵۹).

[۳۹]و فی نهایه الدرس یشیر ربّنا إلی ملک سلیمان فیقول:

هٰذا عَطاؤُنا و یفوضه فیه یتصرف کیفما بدا له.

فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَیْرِ حِسابٍ أی أعط للناس مما تملک أو أمنعهم،و لا أحد یحاسبک و هذا أعلی مراتب التفویض.

[۴۰]و یختتم الدرس بحقیقه هامه،هی أن أهم مما یملکه الإنسان فی الدنیا، قربه من اللّه و ثوابه عنده.

وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفیٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ و کلمه أخیره:

من أبعاد رساله القرآن الکریم تصحیح رؤی البشر تجاه الرسل و رسالاتهم، ذلک أن الشیطان یثیر الوساوس فی مصدر الإصلاح،و ینبوع الفضائل(الرسل و رسالاتهم)فاذا به یلصق التهم بالأنبیاء لأسقاط شخصیاتهم فی أعین الناس، و یحرف قیم الدین و قد یجعلها بتأویلها سببا للضلاله.

و اللّه سبحانه یبعث بین الحین و الآخر رساله و رسولا لتجدید ما درس من معالم دینه الحق لکی لا تزول فرصه الهدایه للناس.

و هکذا حرّفت أهواء بنی إسرائیل التوراه و الإنجیل،و أوّلت النصوص حول القیم،و لفقت التهم حول الأنبیاء علیهم السلام.و انزل اللّه کتابه المجید تبیانا

لکل شـیء و تنزیها لمقام الرسل علیهم السـلام.و هکـذا نجد فی القرآن بیانا لقصـص الأنبیاء-خصوصا تلک التی نقلت علی غیر وجهها-ثم تفسیرا حسنا لموارد الغموض من حیاتهم علیهم السلام.

و ممـا یؤسـف له:انّ طـائفه من المفسـرین راحوا ینقلون الأحـادیث الإسـرائیلیه و یخوضون فی اعراض الأنبیـاء خوضـا و بالتـالی ینقضـون مـا عقـده القرآن،و یخـالفون مـا أراده،و یسـیرون تمامـا بعکس اتجاهه.بینمـا کـان ینبغی أن یلـتزموا بـأدب القرآن فی الحدیث عن الرسل،الذی یتجلی فی سوره الصافات و ص بأحلی صورها.

[سوره ص (٣٨): الآيات ۴١ الى ۵۴]

اشاره

وَ اُذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ اَلشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (۴١) اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (۴٢) وَ
وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّا وَ ذِكْرى لِأُولِي اَلْأَلْبابِ (۴٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنّا وَجَدْناهُ صابِراً
نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ (۴۴) وَ اُذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي اَلْأَيْدِي وَ اَلْأَبْصارِ (۴۵) إِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى
اَلدّارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ اَلْمُصْطَفَيْنَ اَلْأَخْيارِ (۴٧) وَ اُذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ اَلْيَسَعَ وَ ذَا اَلْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ اَلْأَخْيارِ (۴٨) هٰذا ذِكْرٌ وَ إِنَّ
لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴٩) جَنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ اَلْأَبْوابُ (۵٠) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (۵١) وَ عِنْدَهُمْ
قاصِراتُ اَلطَّرْفِ أَتْرابٌ (۵٢) هٰذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ اَلْحِسابِ (۵٣) إِنَّ هٰذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (۵۴)

اللغه

۴۴[ضغثا]:ملء الكف من الشماريخ و الحشيش.

[و لا تحنث]:الحنث هو نقض العهد المؤكّد بالحلف.

ص:٣۶۵

۵۲[أتراب]:أقران على سن واحد ليس فيهن عجوز و لا ـ هرمه، و قيل أمثال فى الحسن و مقدار الشباب،و قيل أتراب فى أعمار أزواجهن.

ص:۳۶۶

أَنِّی مَسَّنِیَ الشَّیْطٰانُ بِنُصْبٍ وَ عَذٰابٍ

هدی من الآیات:

فی مواضع أخری من القرآن تعرضت الآیات لقصه أیوب علیه السلام بمناسبه الحدیث عن الصبر،(الجانب المعروف من حیاته علیه السلام)،حتی لقد شاع المثل«صبر أیوب»،أمّا فی هذه السوره فان القصه تأتی فی سیاق الحدیث عن العلاقه السلیمه بالسلطه و الثروه و العافیه،هذه النعم التی ینبغی أن لا تستعبد البشر،فلا یستبد به الغرور إذا رزق منها شیئا،و لا یقتله الیأس إذا زویت عنه.

و ما تلتقی فیه قصه سلیمان و أیوب علیهما السلام،أنهما یهدیاننا الی تجسید للنفس الربانیه التی لا تبطر بالنعمه و الملک کنفس سلیمان،و لا تیأس إذا فقدت متع الدنیا کنفس أیوب علیهما السلام.و بالرغم من ان هذین المثلین من حیاه شخصیتین الاّ أنهما-فی الواقع-شخصیه واحده،حیث المؤمن هو الذی یتعالی علی زینه الدنیا متطلعا الی رضوان ربه،فیشکر حینما یظفر بها،و یصبر حینما تفوته.

لقـد كان أيوب ذا مال و أهل كثير و سـمعه طيبه بين الناس،و هو يسـخر كل ذلك من أجل عمل الصالحات،فاذا به يفقـد ماله و أهله،و يصاب فى جسده بمرض اسـتقذره الناس بسـببه، و أبعدوه عن قريتهم خوفا من العدوى،فتركه كل من حوله،و لم تبق معه الا زوجته الوفيه رحمه بنت يوسف بن يعقوب عليهم السـلام، و التى ضـربت مثلا فى الصبر مع زوجها و الوفاء له،إذ كانت تعمل فى البيوت و تخدم الناس لتأتى له بالطعام و الشراب.

الا أنه عليه السـلام بقى صابرا شاكرا للّه على النعمه،و ما زاده الابتلاء الاّ صبرا،و رجاء للفضل فى الـدنيا و الآخره.و هكـذا يكون المتقون كما وصفهم سيدهم

على عليه السلام فقال:

«نزّلت أنفسـهم منهم فى البلاـء كالتى نزلت فى الرخاء » (۱)و لعل السـبب فى ثبات شخصـيه المتقين و استقامتها أنهم يستمدون مقوماتها من الرساله الالهيه الثابته لا من الظروف و العوامل الماديه المتغيره.

أمـا زوجه أيوب عليه السـلام الوفيه-و التى لم تكن بعصـمه الأنبيـاء مع مكانتهـا و ايمانهـا -فقـد جـاء لهـا إبليس متمثلا فى هيئه البشـر،و قال لها إننى طبيب ماهر و أسـتطيع أن أداوى زوجك و لكن بشرط واحد،هو أن يقول لى بعد شفائه أننى شافيته،فقبلت حبا فى زوجها النبى،فجاءت مسرعه و أخبرت أيوب بالأمر فغضب عليها،و حلف يمينا أن يضربها مائه جلده.

و هكذا أتم أيوب امتحانه و دعا ربه فاستجاب له،و خفف عن زوجته حين أمره بأن يأخذ ضـغثا و يضـربها به و أعاد عليه أهله و ماله و مكانته و أبقى ذكره لنا

۱- ۱) نهج البلاغه/خطبه(۱۹۳)/ص(۳۰۳).

منارا و هدى.

بينات من الآيات:

[۴۱]يمكن للشيطان أن يمس الإنسان بالسوء فى جانبى الحياه«المعنوى و المادى»و لكن ذلك لا يكون بالجبر و الإكراه،لان البشر حر و مختار،انما يضغط عليه و قد يمسه من ذلك شيء من التعب و الألم.و إذا تحدى الإنسان ذلك و استقام رغم المشقه فانه ينتصر على إبليس لأنه كما وصفه القرآن: لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱).و فى موضع آخر تنقل لنا الآيات تصريحا عن الشيطان نفسه.تقول الآيه: وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲) إن كون الإنسان من المؤمنين لا يعنى أنه لا يتعرض الى وساوس إبليس و ضغوطه،و حتى الأنبياء تعرضوا لضغوطه و محاولاته الدائمه للاغواء،الا أنهم لم يستجيبوا له و لو ألحق بهم الأذى و المشقه.و هكذا كانوا قدوه للبشريه.

قال بعض المفسرين(كالرازى فى تفسيره الكبير):إن أنبياء اللّه أرفع من أن يمسهم الشيطان بالنصب و العذاب،فلا يصح إذن أن ندعى بأن الحال وصل بأيوب عليه السلام الى حد استقذره الناس لمرضه.و الحقيقه أن هذا الأمر جائز فى مجال الامتحان لأنهم عليهم السلام بعثوا قدوات للبشريه،و ليس صحيحا أن نبعد النظره

۱- ۱) النحل/(۱۰۰-۱۰۱).

۲- ۲) إبراهيم(۲۲).

الواقعیه عن حیاتهم،فنأوّل الآیات فی ذلک الی غیر مضامینها.فننفی تعرض یوسف للسجن،و موسی للاهانه،و نبیّنا للاذی،حتی

قال عن نفسه :

«ما أوذی نبی مثلما أوذیت » مع أن ذلک هو من صمیم حیاتهم و عنوانا عریضا فی تاریخهم الرسالی، باعتبارهم أنبیاء! و لو راجعنا آیات القرآن و الأحادیث لوجدناها تؤکد علی أنّ الأنبیاء هم الاولی بالبلاء،بل أنهم لم یصلوا الی هذا المقام الرفیع الا من خلاله.و

قد روی عن الرسول(ص) و قد سئل:أی الناس أشد بلاء؟أنه قال:

«الأنبیاء ثم الصالحون الأمثل ثم الأمثل فالأمثل من الناس » (1)نعم إن الشیطان لا یتسلط علی عقول الصالحین و قلوبهم،أما الجوانب المادیه من حیاتهم فهو قادر علی سلبهم إیاها لو أراد اللّه امتحانهم فیها، کما ابتلی فی ذلک نبیّه أیوب علیه السلام .

قال الامام الصادق علیه السلام :

«ان اللّه عزّ و جلّ یبتلی المؤمن بکل بلیّه،و یمیته بکل میته،و لا یبتلیه بذهاب عقله،أما تری أیوب کیف سلط إبلیس علی ماله و ولده و أهله،و علی کل شیء منه و لم یسلط علی عقله،ترک له لیوحد اللّه به » (2)و القرآن فی هذه السوره یدعو النبی الأکرم(ص)،و کل مؤمن یسیر فی خطه الی

۱- ۱) بح ج/(۱۲)/ص(۳۵۵).

۲- ۲) المصدر/ص(۳۴۱).

تـذكر الأصوات من تاريـخ الرسل و الرسالات،و أن تكون حاضـره فى ذهنه أبدا ليسـتعين بذكرها على مواجهه مصاعب الحياه و مشاكلها من أجل الاستقامه فى طريق ذات الشوكه.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ الذى كان فى نعيم من الدنيا،ثم انتقل منه الى الفقر و المرض،لكنه اسـتقام بعبوديته للّه و لم يكفر،لأنه كأى مؤمن مخلص ينظر للحياه بنور اللّه،فهو لا يضـره إن فقـد كل نعيمها و بقى له الايمان،كما لا يجد لها طعما لو جمعت له لذاتها و لكنه فقد جذوه الايمان من قلبه و عمله.و قد تجلت عبوديه أيوب عليه السلام فى الغنى بشكره،و فى الفقر بصبره و استقامته.

إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ أى اذكر من حيـاه أيوب هـذا الموقف العظيم حين دعا ربّه فى الضـرّاء،و هـذا الموقف عظيم لاـن من الصـعب على الإنسـان و هو تتوارد عليه الضـغوط و المشاكـل من كـل جـانب أن يخلص توجّهه الى ربّه الأحـد،فهو حينمـا يجـد مس الفقر و الجوع ربمـا يعتقـد بـأن الغنى أو الحـاكم هو الـذى ينقـذه من هـذه الورطه،و حينما يحوطه المرض غالبا ما يتصور بأن علاجه عند الطبيب لا بسببه،و هكذا يقع فى الشرك،لكن أيوب تجاوز كل ذلك و حافظ على ايمانه و توحيده الخالص.

[۴۲]و لم يكن البلاء الذى تعرض له أيوب بسبب ذنب عمله،فهو معصوم مطهر عن المعصيه،و ما أراد اللّه من ابتلائه:

«الا رحمه ليعظم له الثواب،و جعله عبره للصابرين،و ذكرى للعابدين فى

ص:۳۷۱

کـل بلاء نزل،ليأنسوا به بالصبر و رجاء الثواب» (۱)فلما أتم اللّه الابتلاء و أظهر صـدق نبيّه و معـدنه رفعه عنه،و عوضه عما فقده بما هو خير منه ليعرفنا ربّنا بأن العاقبه للمتقين الصابرين.

اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذٰا مُغْتَسَلٌ بٰارِدٌ وَ شَرٰابٌ

قال الامام الرضا عليه السلام :

«فركض برجله فـانفجرت له عين فـدخل فيهـا فاغتسـل فـأذهب اللّه تعـالى عنه كـل ما كان به من البلاء » (۲)[۴۳]و بالاضافه الى إشفائه من الأمراض و العلل التى لحقت بجسمه، ردّ اللّه عليه ما فقد من الأهل سواء الأبناء أو الأقرباء.

وَ وَهَبْنٰا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ أى تضاعفوا فاذا كانوا عشرين صاروا أربعين،و قد حملت هذه الآيه على عده تفاسير:

الاول:أن أهله ماتوا فأحياهم اللّه،و أضاف إليهم مثلهم.

الثاني:أن اللّه عوضه عمن مات من أهله ببنين و بنات آخرين.

الثالث:أن أهله تفرقوا عنه لما أصابه من بلاء،فجمعهم اللّه له و عطف قلوبهم عليه.

ص:۳۷۲

۱- ۱) المصدر/ص(۳۶۰).

۲- ۲) المصدر ص(۳۶۶).

و لكن الروايات أكثر ما تؤكد على الرأى الاول،و منها

قول الامام الصادق عليه السلام فى تفسير الآيه :

«فردّ عليه أهله الذين ماتوا قبل البلاء،ورد عليه أهله الذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء،كلهم أحياهم اللّه تعالى له فعاشوا معه » (۱)و بعد هذا البيان يصف اللّه رفعه البلاء عن نبيّه بأنه ذو فائدتين:

الاولى:تعود على أيوب ذاته،و قد أسماها رحمه فقال:

رَحْمَةً مِنّا لأيوب،و قد تمثلت هذه الرحمه فى شفائه من المرض ورد ما فقده عليه.

الثانيه:تعود على عموم الرساليين و المتعقّلين،و تتمثل فى العبر و الدروس التى خلفتها القصه.

وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ و أهم درس يستفاد من هذه الآيات،هو أن لا ننهزم أمام مشاكل الحياه و ضغوطها،فاذا ما بقى الإنسان قويا فى نفسه،مقاوما للآثار النفسيه و الروحيه للازمات و المشاكل،فانه لن يتأثر بها.و حتى يتمكن من ذلك يجب أن تكون علاقته بالحياه و ما فيها قائمه على أساس انها وسيله،لا علاقه شيئيه باعتبارها هدفا بذاتها،و انه إذا لم يصل الى أهدافه و طموحاته من طريق ما،فسوف يحصل عليها

ص:۳۷۳

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)/ص(۴۶۶).

عن طريق آخر.فاذا خسر وسيلته أو فشل فيها فليبق على أهدافه و إرادته،لأنه بجهده و تحركه و استقامته قد يحصل على ما هو أفضل مما فقده،أو فشل المرات الماضيه فى الوصول اليه و تحقيقه،هذا إذا نظر للهزائم و النكسات التى تمر عليه فى الحياه نظره موضوعيه،فهى حينئذ ستزيده قوه و مناعه ضد الهزائم،و إصرار على تسخير الحياه بصوره أفضل،و على ضوء التجارب الماضيه.

و هذا أيوب عليه السلام يزداد إصرارا على خطه فى الحياه،كلما تفاقم بلاؤه،دون أن يستجيب الى وساوس الشيطان،التى كانت تستهدف أضعاف إرادته و النيل من ايمانه و تقواه.و لنقرأ هذه الروايه التى

نقلها العلامه المجلسى فى كتابه بحار الأنوار.

قال :

و قال الحسن:«مكث أيّوب مطروحا على كناسه فى مزبله لنبى إسرائيل سبع سنين و أشهرا يختلف فيه الدوابّ،و قال وهب:لم يكن بأيّوب أكله إنّما يخرج منه مثل ثدى النساء ثمّ تتفقّأ،قال الحسن:و لم يبق له مال و لا ولد و لا صديق و لا أحد يقربه غير رحمه صبرت معه تصدّق،و تأتيه بطعام و تحمد اللّه تعالى معه إذا حمد،و أيّوب على ذلك لا يفتر من ذكر اللّه و الثناء عليه و الصبر على ما ابتلاه، فصرخ عدوّ اللّه إبليس صرخه جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيّوب،فلمّا اجتمعوا إليه قالوا:ما أحزنك؟قال:أعيانى هذا العبد الّذى سألت اللّه أن يسلّطنى على ماله و ولده،فلم أدع له مالا و لا ولدا فلم يزد بذلك إلّا صبرا و ثناء على اللّه تعالى،ثمّ سلطت على جسده و تركته قرحه ملقاه على كناسه بنى إسرائيل لا يقربه إلّا امرأته فقد افتضحت بربّى فاستغثت بكم لتعينونى عليه،فقالوا له:أين مكرك؟أين علمك الّذى أهلكت به من مضى؟قال:بطل ذلك كلّه فى أمر أيّوب فأشيروا علىّ،قالوا:نشير عليك،أ رأيت آدم حين أخرجته من الجنّه من أين آتيته؟قال:من قبل امرأته،قالوا:فأته من قبل امرأته فإنّه لا

یستطیع أن یعصیها و لیس أحد یقربه غیرها،قال:أصبتم،فانطلق حتی أتی امرأته و هی تصّدّق،فتمثّل لها فی صوره رجل فقال:أین بعلک یا أمه اللّه؟قالت:

هو ذلک یحکّ قروحه و یتردّد الدوابّ فی جسده،فلمّا سمعها طمع أن یکون کلمه جزع فوسوس إلیها فذکرها ما کانت فیه من النعیم و المال،و ذکرها جمال أیّوب و شبابه و ما هو فیه من الضرّ و أنّ ذلک لا ینقطع عنهم أبدا.

قال الحسن:فصرخت فلمّا صرخت علم أن قد جزعت فأتاه بسخله فقال:

لیذبح هذا لی أیّوب و لا یذکر علیه اسم اللّه عزّ و جلّ فإنّه یبرئ،قال:فجاءت تصرخ:یا أیّوب حتّی متی یعذّبک ربّک؟ألا یرحمک؟أین المال؟أین الماشیه؟ أین الولد؟أین الصدیق أین لونک الحسن قد تغیّر و صار مثل الرماد؟أین جسمک الحسن الّذی قد بلی و تردّد فیه الدوابّ؟اذبح هذه السخله و استرح،قال أیّوب:

أتاک عدوّ اللّه فنفخ فیک و أجبته،ویلک أ رأیت ما کنّا فیه من المال و الولد و الصحّه؟من أعطانیه؟قالت:اللّه،قال:فکم متّعنا به؟قالت:ثمانین سنه، قال:فمذ کم ابتلانی اللّه تعالی بهذا البلاء؟قالت:منذ سبع سنین و أشهر، قال:ویلک و اللّه ما عدلت و لا أنصفت ربّک،الا صبرت فی البلاء الّذی ابتلانا اللّه به ثمانین سنه کما کنّا فی الرخاء ثمانین سنه؟و اللّه لئن شفانی اللّه عزّ و جل لأجلدنّک مائه جلده حین أمرتنی أن أذبح لغیر اللّه » (۱)[۴۴]و حینما حلف أن یضرب زوجته الوفیّه مائه جلده،أمره اللّه أن یجمع فی یده مائه شمراخ من عدوق النخل،و یضربها ضربه واحده.لیرفع عنه حرج الحلف باللّه من جهه،و حتی لا تتأذی زوجته من جهه أخری.

وَ خُذْ بِیَدِکَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ

ص:۳۷۵

۱- ۱) بح ج/(۱۲)/ص(۳۶۸).

يقول الامام الصادق عليه السلام :

«فأخذ عدقا مشتملا على مائه شمراخ فضربها به واحده فخرج من يمينه » (۱)و قد استفاد الفقهاء من هذا التفسير للآيه الكريمه و أحاديث أخرى حدا شرعيا قالوا فيه بأن الزانى إذا كان مريضا لا يحتمل بدنه الجلد،فانّه يضرب مائه جلده بهذه الطريقه و يسقط عنه الحد المتعارف.و

فى الخبر أن رسول اللّه(ص)أتى برجل أحبن قد استسقى بطنه و بدت عروق فخذيه،و قد زنى بامرأه مريضه،فأمر رسول اللّه(ص)فأتى بعرجون فيه مائه شمراخ،فضربه به و ضربها ضربه و خلى سبيلهما (۲)و الحبن داء فى البطن يعظم منه و يتورم.

و بعد أن أمر اللّه أيوب عليه السلام بضرب زوجته كما تقدم أداء للعهد الذى قطعه على نفسه أكد له ضروره الوفاء بالالتزامات التى يتعهد بها المؤمن تجاه ربّه فقال:

وَ لاٰ تَحْنَثْ أى لا تميل الى الباطل بترك الوفاء بالقسم و مخالفته،إذ ينبغى للإنسان المؤمن أن يفى بالتزاماته و عهوده التى يقطعها مع ربّه على نفسه،فكثير من الناس حينما يمرضون أو يتعرضون للمشاكل،يدعون اللّه أن يعينهم و يرفع عنهم ذلك،و ينذرون تقربا له أن لو رفعها سيفعلون كذا و كذا من الصالحات،و لكنهم بمجرد أن يصحوا أو تنتهى مشاكلهم يتناسون نذورهم و تعهداتهم.ثم على الإنسان أن لا يتعهد بما لا يقدر عليه،حتى لا يلحقه الإثم بحنثه.فهذا الامام على عليه السلام يأتيه رجل نذر أن

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)/ص(۴۶۶).
۲- ۲) المصدر/رقم(۷۱).

يتصدق بوزن فيل خبزا فى سبيل اللّه، فينهره الامام،و يتعهد الرجل أن لا يعود لها مرّه ثانيه.

و بعد ذلك يمتدح ربّنا نبيّه أيوب عليه السلام مركزا على أمور فى شخصيته:

الاول:صبره،حيث عرضه اللّه لالوان الابتلاءات فاستقام و تحمل.

إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً الثاني:إخلاصه فى العباده و توبته،فلم يدعوه البلاء للكفر باللّه،و لا الى عباده غيره من الشركاء المزيفين.

نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ يأوب الى اللّه و يتقرب اليه كلما ازداد بلاؤه.

جاء فى تفسير القمى،حدثنى أبى عن ابن فضّال،عن عبد الله بن بحر،عن ابن مشكان عن أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال :سألته عن بليه أيوب التى ابتلى بها فى الدنيا لاى علّه كانت؟قال:

«لنعمه أنعم اللّه عزّ و جلّ عليه بها فى الدنيا و أدى شكرها،و كان فى ذلك الزمان لا يحجب إبليس عن دون العرش،فلمّا صعد و رأى شكر نعمه أيوب عليه السلام حسده إبليس،فقال:يا رب أن أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمه الا لما أعطيته فى الدنيا،و لو حرمته دنياه ما أدى شكر نعمه أبدا،فقيل له:قد سلطتك على ماله و ولده،قال:فانحدر إبليس فلم يبق له مالا و لا ولدا الا أعطبه فازداد أيوب للّه شكرا و حمدا،قال: فسلطنى على زرعه يا رب،قال:قد فعلت،فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب للّه شكرا و حمدا،فقال:يا رب سلطنى على

غنمه فسلطه على غنمه فأهلكها،فازداد أيوب للّه شكرا و حمدا،فقال:يا رب سلطنى على بدنه فسلطه على بدنه ما خلا عقله و عينيه،فنفخ فيه إبليس فصار قرحه واحده من قرنه الى قدمه،فبقى فى ذلک دهرا طويلا يحمد اللّه و يشكره حتى وقع فى بدنه الدود،فكانت تخرج من بدنه فيردها فيقول لها ارجعى الى موضعک الذى خلقک اللّه منه،و نتن حتى أخرجوه أهل القريه من القريه و ألقوه فى المزبله خارج القريه،و كانت امرأته رحمه بنت يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلوات اللّه عليهم و عليها،تتصدق من الناس و تأتيه بما تجده.

قال:فلما طال عليه البلاء و رأى إبليس صبره أتى أصحابا لأيوب كانوا رهبانا فى الجبال » الى هنا و إبليس يلاحق أيوب عليه السلام ليخدعه بطريقه أو بأخرى.و لما عرف إبليس أنه لم يستطع التأثير فى نفس أيوب بفقد ماله و أهله و صحته،حاول هذه المرّه التأثير عليه من خلال أصدقائه،و يبدو من خلال هذا الحديث أن أصدقاء السوء أكثر أثرا فى الإنسان من سائر علاقاته الأخرى.

«و قال لهم:مرّوا بنا الى هذا العبد المبتلى فنسأله عن بليته فركبوا بغالا شهبا و جاؤوا،فلما دنوا منه نفرت بغالهم من نتن ريحه،فنظر بعضهم الى بعض »و قد تساءلوا عن بليّته و ارتابوا فى أسبابها،و هذه من طبيعه الإنسان أنه إذا رأى شخصا مبتلى اعتقد بأنه يستحق ذلک لما عمل من الذنوب، و لكن البلاء ليس بالضروره أن يكون لهذا السبب،بل قد يكون للزياده فى أجر العبد و تمحيصه

ثم مشوا اليه و كان فيهم شابّ حدث السن فقعدوا اليه فقالوا:يا أيوب لو أخبرتنا بذنبک لعل اللّه كان يهلكنا إذا سألناه،و ما نرى ابتلاءک بهذا البلاء الذى لم يبتل به أحد إلا من أمر كنت تستره؟فقال أيوب عليه السلام :«و عزه ربى إنه ليعلم أنى ما أكلت طعاما الا و يتيم أو ضعيف يأكل معى،و ما عرض لى أمران كلاهما طاعه للّه إلا أخذت

بأشـدهما على بـدنی،فقـال الشـاب:سوءه لكم عيرتم نبی اللّه حتی أظهر من عباده ربه مـا كان يسترها؟» فتألم أيوب عليه السـلام لذلک،حيث رأی أقرب الناس إليه يشـككون فی عبادته.فقال أيوب عليه السلام :«يا رب لو جلست مجلس الحكم منک لأدليت بحجتی» يعنی لو كنت أنـا القاضـی،لكنت أقول لهم بأننی لا أسـتحق هـذا البلاء ولـدی حجه علی ذلک،و لكن لم أقل لاننی أنا العبد و أنت الربّ.

فبعث اللّه إليه غمامه فقال:يا أيوب أدل بحجتک فقـد أقعـدتک مقعـد الحكم و ها أنا ذا قريب و لم أزل،فقال:يا رب انک لتعلم انــه لـم يعرض لی أمران قــط كلاهمــا لــک طـاعه الاــ أخــذت بأشــدهما علی نفســی،ألـم أحمــدک؟ألـم أشـكرک؟ الم أسبحک؟قـال:فنودی من الغمـامه بعشـره آلاف لسان:يا أيوب من صـيرک تعبـد اللّه و الناس عنه غافلون؟و تحمـده و تسـبحه و تكبره و الناس عنه غافلون؟أتمنّ علی اللّه بما للّه فيه المنه عليک؟ قال:فأخذ التراب فوضعه فی فيه ثم قال:لک العتبی يا رب أنت فعلت ذلـک بی،فأنزل اللّه عز و جل عليه ملكا فركض برجله فخرج الماء فغسـله بـذلک الماء فعاد أحسن ما كان و أطرأ،و أنبت اللّه عليه روضه خضـراء و ردّ عليه أهله و ماله و ولـده و زرعه،و قعـد معه الملک يحـدثه و يونسه،فأقبلت امرأته معها الكسـره (و هی القطعه من الخبز اليابس)فلما انتهت الی الموضع إذا الموضع متغير و إذا رجلان جالسان،فبكت و صاحت و قالت:يا أيوب ما دهاک؟فناداها أيوب فأقبلت فلما رأته و قـد رد اللّه عليه بدنه و نعمه سـجدت للّه عز و جل شـكرا،فرأی ذؤابتها مقطوعه،و ذلک أنها سألت قوما أن يعطوها ما تحمله الی أيوب عليه السلام من الطعام،و كانت حسنه الذوائب،فقالوا لها:تبيعينا ذؤابتک هذه حتی نعطيک؟

فقطعتها و دفعتها إليهم،و أخذت منهم طعاما لأيوب،فلما رآها مقطعه الشعر غضب و حلف عليها أن يضربها مأه،فأخبرته انه كان سببه كيت و كيت،فاغتم أيوب من ذلك فأوحى اللّه عزّ و جلّ إليه« خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لاٰ تَحْنَثْ » فأخذ عدقا مشتملا على مائه شمراخ فضربها ضربه واحده فخرج من يمينه (١) [۴۵]و بعد أن اختتم السياق قصه أيوب و صبره،و استقامته امام كل الضغوط،شفعها بالدعوه الى ذكر بعض الأنبياء و التفكير فى تاريخهم لاخذ العبر و الدروس منه،إذ ينبغى للرساليين أن ينظروا فى تاريخ قادتهم و إخوانهم الذين سبقوهم،و يلاحظوا معاناتهم و استقامتهم للّه،فان ذلك يزيدهم ايمانا بخطهم الرسالى،و ثقه بأنفسهم و تحركهم و استقامه على الطريق.

وَ اذْكُرْ عِبٰادَنٰا إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصٰارِ ما يحتاجه الإنسان لبلوغ التكامل القوه و الرؤيه،فبقوته يحقق ما يراه.و يبدو أن ظاهر الآيه يدل على وجود الأيدى(القوه)عند الأنبياء و الأبصار(الرؤيه)الاّ أن باطنها القوه فى الايمان،و البصيره فى الدين،و هكذا

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام قال :

«أولوا القوه فى العباده و البصر فيها » (٢)و الجدير بالملاحظه أن ربّنا اكتفى هنا بالدعوه الى تذكر هؤلاء العظماء،دون أن يعرض لنا مشاهد من حياتهم نعتبر بها،و هكذا فى موارد كثيره من القرآن، و ذلك لاسباب:

١- ١) المصدر/ص(۴۶۶).

٢- ٢) المصدر ص(۴۶٧).

الاول:أن مجرد تذكر الرسالی بأنه ینتمی الی خط فیه هؤلاء العظماء الذین أسسوا تاریخ المجد للبشریه،هو أمر مفید جدا،یعطیه الایمان و الثقه و الاستقامه بالرغم من کل العوامل و الظروف المضاده،إذ لا یشعر و هو یعانی من الرفض و الحرب بشتی صورها بالضعف و الوحده،و هو یشعر بانتمائه الی هذا الخط،و الی هذا التاریخ العظیم.

الثانی:أن القرآن وحده واحده،و یکمل بعضه بعضا،فیمکن لقارئه أن یجد فی سوره الصافات تفصیل ما أشارت الیه سوره(ص)،و هکذا بالنسبه لسائر السور مع بعضها،و علینا الا نکون من الذین اتخذوا القرآن عضین،فصارت نظرتهم الیه نظره تجزیئیه،بل نسعی لمعرفه آیات القرآن من خلال نظر شمولی إلیها جمیعا.

[۴۶]ثم إن القرآن عرض أهم ما یستفاد من حیاتهم،لکی یؤکد بأن القصص التی یوردها لیست للتسلیه أو مجرد زیاده المعرفه بالتاریخ انما هی للتعلم و الموعظه.یقول تعالی عن إبراهیم و اسحق و یعقوب:

إِنّا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَهٍ ذِکْرَی الدّٰارِ حینما یقرأ الإنسان أو یسمع عن حیاه العظماء،أول ما یجب أن یتطلع الی معرفته هو سر عظمتهم،لا لکی یعرف و حسب بل لکی یأخذ بأسباب العظمه أیضا،و سبب عظمه هؤلاء و رفعه شأنهم،هو الایمان الخالص بالآخره و تذکرها، الذی کان یزیدهم بعدا عن المعصیه و قربا الی الطاعه.أو لیس ربنا یقول فی سوره الممتحنه: قَدْ کٰانَتْ لَکُمْ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ فِی إِبْرٰاهِیمَ وَ الَّذِینَ مَعَهُ ثم تتواصل الآیات الی قوله تعالی: لَقَدْ کٰانَ لَکُمْ فِیهِمْ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ لِمَنْ کٰانَ یَرْجُوا اللّٰهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (۱).إن العوامل الأخری لم تتدخل فی صیاغه

۱- ۱) سوره الممتحنه الآیات/(۳-۶).

شخصیه هؤلاء،انما بقی ذکر الآخره وحده خالصا هو الذی یؤثر فیهم،فحینما آمنوا باللّه تعالی،و تحملوا مسئولیاتهم الرسالیه لم یتطلعوا الی مطامع دنیویه من خلالها،و لو تداخلت عوامل أخری فی ذلک لم یرتقوا الی هذه المنزله من الإخلاص.

[۴۷] وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنٰا لَمِنَ الْمُصْطَفَیْنَ الْأَخْیٰارِ أی اصطفاهم اللّه و کانوا من أفضل العباد عنده و أخلصهم له،لان الإخلاص نفسه علی درجات.

[۴۸]و یخلد القرآن أسماء طائفه أخری من الأنبیاء،و یدعونا لذکرهم.

وَ اذْکُرْ إِسْمٰاعِیلَ وَ الْیَسَعَ وَ ذَا الْکِفْلِ وَ کُلٌّ مِنَ الْأَخْیٰارِ و قد یکون السبب فی ضم هؤلاء الثلاثه الی بعضهم،و أولئک إلی بعضهم فی الآیات المتقدمه،هو اختلاف منزله الفریقین عند اللّه،و أن الفریق الاول هم الأفضل و ذلک بدلالتین:

۱-انتماء إبراهیم علیه السلام الی المجموعه الاولی و أفضلیته ظاهره لأنه من أولی العزم.

۲-السیاق القرآنی الذی وصف أولئک بالمصطفین أولا و الأخیار ثانیا،بینما اقتصر فی مدح هؤلاء بکلمه«الأخیار».

[۴۹]و یؤکد القرآن فی نهایه الدرس الذی تختم به القصص الهدف منها، و أهمیتها لمن أراد التقوی.

هٰذٰا ذِکْرٌ

ليشتمل على موعظه،ينتفع بها المؤمنون حيث يتأسون برسل اللّه.الأمر الذى يبلغ بهم الفوز و الفلاح.

وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ و المآب هو المكان الـذى يسـتقر فيه الإنسان فهو يعود اليه كلما خرج منه.و هنا المآب بمعنى العاقبه و النهايه.و فى الآيه تطمين للمؤمنين بأن الأمور فى صالحهم مهما كان ظاهرها معاكسا.

[۵۰]و يبين اللّه هذه العاقبه فيقول:

جَنّاتِ عَدْنٍ و هى أفضل الجنان و فيها الخلود،و مآب المتقين الى أفضل جنان اللّه فى الآخره.

مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ حينما يقـدمون عليها،و الـذى يفتـح أبواب الجنه هو الايمان و الـدعاء و العمل الصالـح،فهى مفتحه للمتقين و المؤمنين فقط لا لغيرهم ممن لم يعملوا الصالحات.

[۵۱] مُتَّكِئِينَ فِيها على الأرائك و هذه دلاله على مدى الاطمئنان الذى يلاقونه فيها.

يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ جزاء لهم على ايمانهم و أعمالهم،و تعويضا عما فاتهم من نعيم الدنيا و لذاتها فى سبيل اللّه.

ص:٣٨٣

[۵۲]و من أعظم ما يستلذ به المؤمنون فى الجنه هم الحور العين،و لعل تركيز القرآن على ذكر الحور فى حديثه عن ثواب المؤمنين،ينطلق من أن أصعب الفتن التى يتعرضون لها فى الحياه الدنيا هى فتنه الشهوه الجنسيه،و لكى يتجاوزوا إغراءها و ضغطها يذكرهم اللّه بعاقبه ذلك،حيث الظفر بالحوريات فى الجنه.

وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ فهن لا ينظرن الى غير أزواجهن،و ينظرن الى الأرض احتراما لأزواجهن و تواضعا.و هن أتراب اى المتماثلات سواء فى السن،أو فى كونهن أبكار غير مطموثات،و يقال فلانه ترب لفلانه إذا أريد التساوى بينهما فى العمر،و هكذا يتساوى عند المؤمن الميل الى كل واحده دون تفضيل واحده على الاخرى لأنهنّ جميعا القمه فى الجمال و الروعه.

[۵۳]ثم أن اللّه يدعونا للعمل و الاستقامه فى سبيله و لكن بطريق غير مباشر و ذلك حينما يعدنا بالجزاء المتقدم الذكر.

هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسٰابِ و لان المسافه بين هذا الثواب و الإنسان تتمثل فى الايمان و عمل الصالحات،فان الآيه تشتمل طبيعيا على الدعوه الى ذلك.و قد استخدم القرآن كلمه الحساب تأكيدا لهذه الحقيقه،و لو كان الجزاء يحصل بلا عمل فلما ذا الحساب إذن؟! [۵۴]و يتميز نعيم الآخره عن نعم الدنيا،ذاتيا بالتنوع و الجوده،و زمنيا بالخلود،فالنعمه تزداد و تتجدد دائما.

إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ و ما دام اللّه باق فان رزقه للمؤمنين لا ينتهى.

ص:۳۸۴

[سوره ص (۳۸): الآيات ۵۵ الى ۷۰]

اشاره

هٰذا وَ إِنَّ لِلطّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ اَلْمِهادُ (۵۶) هٰذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ
(۵۸) هٰذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لاٰ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صٰالُوا اَلنّارِ (۵۹) قٰالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاٰ مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا فَبِئْسَ اَلْقَرٰارُ (۶۰)
قٰالُوا رَبَّنٰا مَنْ قَدَّمَ لَنٰا هٰذٰا فَزِدْهُ عَذٰاباً ضِعْفاً فِي اَلنّٰارِ (۶۱) وَ قٰالُوا مٰا لَنٰا لاٰ نَرىٰ رِجٰالاً كُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ اَلْأَشْرٰارِ (۶۲) أَتَّخَذْنٰاهُمْ سِخْرِيًّا
أَمْ زٰاغَتْ عَنْهُمُ اَلْأَبْصٰارُ (۶۳) إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخٰاصُمُ أَهْلِ اَلنّٰارِ (۶۴) قُلْ إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اَللّٰهُ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ (۶۵) رَبُّ
اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمَا اَلْعَزِيزُ اَلْغَفّٰارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) مٰا كٰانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ اَلْأَعْلىٰ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹) إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلاّٰ أَنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰)

اللغه

۵۷[غساق]:ما يقطر من جلود أهل النار و سمى غساقا لشده سواده فهو يشبه ظلمه الليل،قال تعالى:« إِلىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ »إلى ظلمته.

ص:۳۸۵

إِنَّ ذٰلِکَ لَحَقٌّ تَخٰاصُمُ أَهْلِ النّٰارِ

هدی من الآیات:

الآیات القرآنیه آیات مثانی متشابهات،و من معانی هذه الکلمه انها تجری علی أساس المقابله،الجنه و النار،و الصالح و المفسد،و الخیر و الشر و...و...و لا یعرف الشیء بأبعاده و حدوده إلا بمقارنته مع أضداده،فالنهار یعرف باللیل،و الحیاه تعرف بالموت،و الغنی بالفقر.

و لکی یعرفنا ربنا بنعیم الجنه یحدثنا عن عذاب جهنم التی یستقر فیها ذوی العقائد و الأعمال المناقضه لأصحاب النّعیم،و من خلال الآیات التی وردت فی کل القرآن یتضح ان المسافه بین العاقبتین منعدمه تماما،فلیس ثمه منطقه أخری بینهما،لهذا یکفی الإنسان حتی یدخل الجنه أن یخرج نفسه من النار،و کما قال اللّه: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمٰا تُوَفَّوْنَ أُجُورَکُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّٰارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّهَ فَقَدْ فٰازَ وَ مَا الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا إِلاّٰ مَتٰاعُ الْغُرُورِ (۱)

۱- ۱) آل عمران۱۸۵/

و هنا فی هـذه السوره و بعـد أن یـبین القرآن الحکیـم أمثله واقعیه مـن التاریـخ عـن الـذین أخلصوا للّه فی معتقـداتهم و أعمـالهم،فصـاروا بـذلک قـدوه و أئمه فی الصالحـات، فمنهم من صبر و تجاوز إغراء السـلطه و المال کـداود و سـلیمان(علیهما السـلام)و منهم من صبر علی البلاء حتی صار مضرب المثل کأیوب علیه السلام فنالوا الجنه علی ذلک،بعد ذلک کله یضرب لنا مثلاـ من واقـع أصحاب النـار الـذین عصـوا اللّه،و حـاربوا المـؤمنین،و طغوا فی الأرض.و کمـا أن الأنبیـاء یشـفعون لأتبـاعهم و یـدخلونهم الجنه لا یدخل هؤلاء النار بمفردهم إنّما یجرّون معهم کل من انتمی إلیهم،و اتبع خطهم فی الحیاه،و هناک یتخاصـم التابع و المتبوع تخاصـما عنیفا،یلقی من خلاله کل طرف المسؤولیه علی الطرف الآخر،و کان ینبغی أن یحـدث هذا الصـراع فی الـدنیا،بان یتمرد الإنسان علی أئمه الکفر،و یثور علی الطغاه،أما و هو لم یفعل ذلک فلن ینفعه تخاصـمه فی یوم الحساب شـیئا و قد فوّت علی نفسه فرصه الاختیار السلیم،و العمل الصالح فی دار الابتلاء.

ان السـبب الـذی یـدعو أکثر الناس لأتباع الطغاه،و الانسـجام مع الواقع المنحرف الذی یصـنعونه فی المجتمع لیس عدم معرفتهم بخطئه،انما لا یعارضون و لا یثورون هربا من صـعوبات الصـراع و مسـئولیاته،و إذا اسـتطاعوا ذلک فی الدنیا فإنهم یجدون مراره الصراع فی نار جهنم،حیث الظروف القاسیه،و العذاب الألیم المستمر.

إن ربنا یقسم فی هـذه الآیات بأن الصـراع فی النار حق-کما أکـد ذلک فی الـدنیا فی مواقع أخری من القرآن،و التخاصم الـذی یشب لظاه هناک لهو دلیل علی ترک الإنسان الالتزام بمسؤولیات الصراع فی هذه الحیاه،و الذی لا یختار الحق بإرادته یخضع له علی الرغم منه،و قد ترک هؤلاء مکافحه الظلم،فها هم یکافحونه هناک فی النار.

بینات من الآیات:

[۵۵]کما رکّزت الآیات فی أذهاننا مشهد الجنه و بالتالی جزاء المخلصین تذکرنا فی المقابل بعاقبه الطغاه.

هٰذٰا اسم اشاره یتضمن دعوه للذی یتلو القرآن بالنظر فی عاقبه المتقین،و التفکیر فی جزائهم،و لکن ینبغی أن لا یغفل عما أعدّ للظالمین من العذاب،و ذلک من أجل أن یحفظ توازن نفسه و عقله بین الرجاء و الخوف.

وَ إِنَّ لِلطّٰاغِینَ لَشَرَّ مَآبٍ و تقابل هذه الآیه الآیه[۴۹]التی وردت فی الدرس الماضی،فللمتقین العاقبه الحسنه عند اللّه،و للطغاه عاقبه السوء و الشر،و لیس المقصود من الطاغیه هنا السلطان الجائر وحده،و ان کان هو التجسید الأوضح و الأشمل للطغیان،انما جنوده و أجهزته أیضا،إذ لولا هم لما قدر علی الظلم و الفساد،بل لعلّنا نعمم الحکم علی سائر معانی الطغیان،فکما یطغی الإنسان فی الحیاه السیاسیه فانه یطغی کذلک فی الحیاه الاجتماعیه،فیظلم جاره و أسرته و الناس،و یظهر من أحادیث مستفیضه فی تفسیر الآیه ان المعنی بالطاغین هم سلاطین الجور،بینما المعنی بما یلی هم أتباعهم و من سار علی دربهم.

[۵۶]و تفصل الآیات فی ذکر عاقبه الطغاه،زیاده فی التخویف لعل الإنسان یثوب عن الباطل،و یهتدی للحق رغبه فی الثواب،و رهبه من العذاب.

جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهٰا

قال بعض الفلاسفه القدماء-يتبعهم بعض الجهله اليوم-:إن أهل النار يتعودون على عذابها فلا يعودون يتأثرون به،و جسدوا هذه الفكره المنحرفه فى هيكل حيوان زعموا بأنه يلتهم النار،أما القرآن و هو الحق فانه يخالف هذه الخرافه مؤكدا بان المجرمين يتذوقون العذاب،و كلمه«يصلونها»تعنى انهم تمسهم جهنّم مسا.

فَبِئْسَ الْمِهٰادُ و هو المكان الذى يمهد و يهيّأ لهم و كأنهم مهّدوا لأنفسهم فراشا من النار فى جهنم،بلى.تمهيد الأرضيه لسلطانهم تجسد فى ذلك اليوم فى تمهيد جهنم لهم.

[۵۷] هٰذٰا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّٰاقٌ و الحميم هو الحراره الشديده،اما الغساق فهو كما جاء فى بعض كتب اللغه:

القيح النتن،و

فى الروايه عن الامام أبى جعفر عليه السلام قال :

«الغساق واد فى جهنم فيه ثلاثمائه و ثلاثون قصرا،فى كل قصر ثلاثمائه بيت،فى كل بيت أربعون زاويه،فى كل زاويه شجاع(الحيه العظيمه المخيفه) فى كل شجاع ثلاثمائه و ثلاثون عقربا،فى كل حمّه عقرب(إبره العقرب) ثلاثمائه و ثلاثون قلّه من سم،لو أنّ عقربا منها نضحت سمها على أهل جهنم لوسعهم سمها » (۱)[۵۸] وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوٰاجٌ و لا يقتصر العذاب على هذين النوعين انما هو أنواع و أساليب مختلفه كثيره،

۱- ۱) نور الثقلين ج ۴ ص ۴۶۷.

و نستوحى من هذه الآيه ان أنواع العذاب كثيره جدا،إلّا ان بعضها يتلازم مع بعض،كما يتلازم الحميم مع الغساق و يكمّله.

[۵۹]و بعد أن يدخل الطغاه النار و ينتهى كل واحد إلى موقعه الذى يضيق به،يجدون آخرين من أشباههم و اتباعهم الذين انخدعوا بهم يدخلون معهم إلى جهنم و يقال لهم.

هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ و احتمل ان يكون المراد من الآخر:الفوج الآخر،و هم أزواج و مشابهون للفوج الأول،و يكون ذلك تمهيدا للحديث التالى عنهم،و هذا يتشابه و ما ذكرناه فى تفسير قوله تعالى: اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَعْبُدُونَ (۱)و الاقتحام هو الدخول فى الشيء بشده كالمسمار الذى لا مكان له فى الحائط فتدخله المطرقه قسرا،و لأن الطغاه يتعذبون من ضيق المكان،و

أن النار تضيق عليهم كضيق الزج بالريح (۲)كما جاء فى حديث الرسول(ص) فإنهم ينادون بهم،لهذا و على خلاف ما يقوله صاحب البيت لضيفه فإنهم يقولون:

لاٰ مَرْحَباً بِهِمْ أى لا مكان يسعهم،و لا نفس تقبل بحلولهم،و الرحب هو المكان الوسيع، فكأنهم أرادوا القول:بأن المكان ضيق و يضيق أكثر بهم،و علّلوا لعنهم و سبهم لهم بأنهم أهل جهنم،و هل يرحب بمن سيصلى نارا؟!

۱- ۱) الصافات/۲۲

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۴ ص /۴۶۷و الزج-كما يبدو هو القريه

إِنَّهُمْ صٰالُوا النّٰارِ و هذا ما يؤكده ربنا بقوله تعالى: كُلَّمٰا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهٰا .

[۶۰]و يبدأ حينئذ الصراع العنيف بين الطرفين،و الذى ينتهى إلى التخاصم و التقاتل،و فى البين يلقى البعض المسؤوليه على البعض الآخر.

قٰالُوا الاتباع و هم يردون على كلام الطغاه،حيث تتحول التحيّه و أعراف الاستقبال إلى سباب بينهم.

بَلْ أَنْتُمْ لاٰ مَرْحَباً بِكُمْ لأنكم السبب و منكم الأذى و العذاب،و يواصل التابعون شجارهم مع الطغاه و هم يحاولون تبرير موقفهم، و التهرب من المسؤوليه.

أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا إذ أغريتمونا باتباعكم،و ضللتمونا بمختلف الوسائل حتى صرنا إلى هذا العذاب.

فَبِئْسَ الْقَرٰارُ أى ساء المكان الذى نستقر و نثبت فيه،و يقال:فلان قرّر أن يفعل كذا إذا ثبت فكره على رأى معين فهو غير متردد،بل حاسم و قاطع فى أمره.

و هذه الكلمه تدل على الخلود فى النار،و حين يكون المنزل الأخير سيئا فساء

مصيرا.

[۶۱]و يطلب التابعون من اللّه أن يزيد العذاب على الطغاه،جزاء لهم على جرائمهم التى مارسوها بأنفسهم،و على المعاصى التى مارسها التابعون بضغوطهم و تضليلهم.

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النّٰارِ [۶۲]ثم يلتفتون إلى بعضهم و يتساءلون لماذا لا نجد فلانا و فلانا-يقصدون بعض المؤمنين-فى النار؟! وَ قَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ و هناك تنكشف لهم اخطاؤهم،ففى البدء اكتشفوا ان القياده التى اتبعوها كانت منحرفه،و الآن تبين لهم أيضا ان مقاييسهم فى الحياه و تقييمهم للآخرين هى الأخرى كانت خاطئه،و كان ينفعهم ذلك لو عرفوه فى الدنيا و عملوا على إصلاح أنفسهم،و لكنهم رفضوا الرساله و اتبعوا الأهواء.

[۶۳]و يرد أهل النار عدم رؤيتهم لمن كانوا يتصورونهم أشرارا فى النار إلى أحد سببين،فاما انهم صاروا إلى الجنه و هذا يعنى ان مقاييسهم و بالتالى موقفهم تجاه أولئك كان خاطئا،أو انهم موجودون معهم و لكنهم لا يرونهم.

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا فى الدنيا و تبين الآن سلامه خطهم.

أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ

ص:۳۹۳

فلاـ نراهم؟ و لهذا المقطع تفسير آخر هو:انهم يعنون اللّه،بأنه ربما أدخلهم الجنه غفله و اشتباها مع انهم من أهل النار،و تعالى ربنا أن يضل أو ينسى،بل هم المخطئون فى تقييمهم للمؤمنين.

و يبقى السؤال:من هم أولئك الذين تعنيهم الآيات فى واقعنا الراهن؟ انهم الطغاه بلا ريب،و هم حكام الجور المتسلطون قسرا على رقاب العباد، و الذين يحكمون بغير ما أنزل اللّه،و يتجاوزون حدود اللّه،و يذلون عباد اللّه،أما جنودهم و أزواجهم فهم الذين يتبعون نهجهم،أو يشاركونهم فى ظلمهم.

أما الذين يعدونهم من الأشرار فهم الثائرون ضدهم من عباد اللّه المخلصين، الذين رفضوا عباده غير اللّه،و اتخاذ الآلهه المزيفه أربابا من دون اللّه رب العالمين.

ان الطغاه و جنودهم من قوى القمع،و أبواق الضلاله،يكيلون التهم ضد الثائرين عليهم،و يعتبرونهم شرا من اليهود و النصارى و المجوس،أرأيتم كيف يقبلون أيدى الأعداء و يطبّعون العلاقات معهم،و يفتحون الأبواب أمامهم،و فى المقابل يزجّون بالمؤمنين فى السجون الرهيبه.

و لكن هؤلاء الذين اعتبروهم أشرارا فى الدنيا يفتقدونهم فى النار،و يعلمون أنهم هنالك فى الجنه يحبرون.

و كان اتباع أهل بيت الرساله من هؤلاء،إذ رفضوا سلطات الجور و القمع و الضلال،و طاردتهم قوى الإرهاب،و ألصقت بهم أبشع التهم،و لكن أئمه الهدى من آل الرسول(عليهم السلام)كانوا يسلونهم بأنهم سوف يحبرون فى الجنه بينما

يطلبون فی النار.

يقول(ميسر) و هو أحد الثائرين ضد سلطات الجور:

دخلت علی أبی عبد اللّه(الامام الصادق عليه السلام)فقال:«كيف أصحابك؟» فقلت:جعلت فداك لنحن عندهم أشر من اليهود و النصاری و المجوس و الذين أشركوا.

قال و كان متكئا فاستوی جالسا،ثم قال:«كيف؟» قلت و اللّه لنحن عندهم أشر من اليهود و النصاری و الذين أشركوا،فقال:«أما و اللّه لا يدخل النار منكم اثنان،لا و اللّه و لا واحد انكم الذين قال اللّه عزّ و جل:

وَ قالُوا ما لَنا لا نَریٰ رِجالاً كُنّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ قال لهم طلبوكم-و اللّه-فی النار-و اللّه-فما وجدوا منكم أحدا » (1)هكذا اليوم يتعرض المؤمنون الصادقون للضغوط و لكنهم سوف يحبرون فی الجنه حين يتخاصم الطغاه و جنودهم و أتباعهم فی النار.

[۶۴]بلی.هذا الصراع فی النار من واقع...

إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ [۶۵]و انما جاءت رسالات اللّه لتنقذ الإنسان من هذا المصير الأسوأ.

ص:۳۹۵

۱- ۱) المصدر/ص ۴۶۸.

و التخاصم من خلال دعوتها له لنبذ الآلهه المزيفه،و اتباع التوحيد الخالص فی الحیاه،فنهته عن عباده الطغاه بطاعتهم،و عن عباده الأجیال السابقه باتباع سیرتها الخاطئه.

قُلْ إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ و حتی هذا المنذر یجب أن لا یعبد من دون اللّه و لو بلغ من العظمه ما بلغ.

وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ الـذی یقهر الأعـداء و یغلبهم،و من أبرز شواهـد القهر و وسـائله هـو الموت الـذی یخضع له الجمیع،فلا یقوی أحد علی دفعه عن نفسه،و نقرأ

فی دعاء الصباح لأمیر المؤمنین علیه السـلام قوله :«فیا من توحـد بالعز و البقاء،و قهر عباده بالموت و الفناء » (1)و لا ینحصر قهر اللّه فی الموت و حسب بل یدخل فی تطبیق کل حقّ و سنّه فی الحیاه،و من لا یسـتجیب للّه و للحق الذی تتضـمنه رسالاته،و بما ینذر به الأنبیاء و من یتبعهم باختیاره و إرادته فسوف یقهره اللّه علیه بالرغم منه،فی الدنیا إن شاء ذلک أو فی الآخره.

[۶۶]و حتی لا یستبد بنا الخوف منه تعالی،یذکرنا برحمته و غفرانه.

رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمَا الْعَزِیزُ الْغَفّٰارُ و رب الشیء هو الأرأف به،و الأحرص علیه.

[۶۸-۶۷]و من العوامل النفسیه لارتکاب الخطأ،و الوقوع فی الضلاله التهاون

۱- ۱) مفاتیح الجنان ص ۶۳

بهما،و الاسترسال فيهما،و عدم الجديّه فی مواجهتهما،فان اللّه يقول:

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ أی ان اعراضكم عن عباده اللّه،و توجهكم إلی الشرك أمر عظيم جدّا،و هل أعظم من ترك الإنسان رب السماوات و الأرض إلی الشركاء المزيفين،و نبذه قيم الحق الفطريه إلی الباطل و الضلال؟ إذا لا يجوز أن يستهين الإنسان بالشرك و يسترسل معه،و إلی أين ينحدر به مهوی الشرك؟ الی الجحيم،و هل يمكن أن نستهين بعذابه الخالد؟ و حين يكون الإنسان جدّيا فی مواجهه الشرك يعرف معانيه،و يتبصر مهالكه، أو ليس الخروج عن ولايه أئمه الهدی إلی ولايه أئمه الكفره و الضلاله شركا،أو ليس أتباع الظلمه أو حتی السكوت عنهم شركا عظيما،هكذا

روينا عن الامام الصادق عليه السلام انه قال فی تفسير الآيه :الذين أوتوا العلم الأئمه،النبأ:

الإمامه (۱) مٰا كٰانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلیٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ [۶۹]و يؤكد ربنا علی أهميه التوحيد،و أنه محور الحوار الذی دار فی الملأ الأعلی حين خلق اللّه الإنسان الأول،و اسجد له ملائكته،و رفض إبليس السجود تكبرا، و بالتالی انه هدف خلق البشر،و حكمه سجود الملائكه له،فكيف يجوز التهاون

۱- ۱) تفسير نور الثقلين ج ۴/ص ۴۶۹

فیه؟! [۷۰] إِنْ یُوحیٰ إِلَیَّ إِلاّ أَنَّما أَنَا نَـذِیرٌ مُبِینٌ ان دور الرسول(ص)هو الإنذار بوضوح،و مسئولیته إبلاغ الرساله إلی الناس کما هی بالضبط،و فی هذا تمهید للحدیث الذی سیتطرق له الدرس القادم حول قضیه آدم و إبلیس،التی تمثل جانبا من الغیب،حیث یحتاج التسلیم لما یقوله الرسول فیها لهذه المعرفه بدور الرسول،ذلک أن الجدل الذی دار عند خلق الإنسان فی الملأ الأعلی بین الملائکه و ربهم -سبحانه و تعالی-کان حول حکمه خلق الإنسان الـذی یفسد فی الأرض،و یسفک الدماء،و لکن ربنا قال لهم یومئذ:

إِنِّی أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ و کان من علم اللّه انبعاث الرسل،و ایمان فریق من الناس بهم،و خلوصهم فی عباده ربهم،برغم عواصف الشهوه،و نوازع الکبر و الغفله،و ضغوط الطغاه،مما جعل هذا الفریق هم صفوه الخلق الذین باهی بهم اللّه ملائکته المقربین.

و هکذا نقرأ فی النصوص الاسلامیه:ان ما اختصم به فی الملإ الأعلی الأعمال الصالحه التی بادر إلیها المخلصون من البشر،

فعن ابن عباس عن النبی(ص)قال :

«قال لی ربی أ تـدری فیم یختصم الملأ الأعلی؟فقلت:لا،قال:اختصموا فی الکفّارات و الـدّرجات،فأمّا الکفّارات فإسباغ الوضوء فی السبرات،و نقل الأقـدام إلی الجماعات،و انتظار الصلاه بعـد الصلاه،و أما الدرجات فإفشاء السلام،و إطعام الطعام و الصلاه باللیل و الناس نیام » (۱)

۱- ۱) المصدر ص ۴۷۰.

و تضیف روایه ثانیه

عن النبی(ص) :«و ولا-یتی و ولایه أهل بیتی حتی الممات » (۱)و إذا تدبرنا فی سیاق الآیات لعرفنا أن أعظم أهداف خلق البشر هو توحید اللّه، و لا یتحقق توحید العبد ربه إلاّ بالتسلیم لولایه اللّه و ولایه من عقد اللّه له الولایه، و رفض الأنداد و الآلهه التی تعبد من دون اللّه،أما مجرد الصلاه دون التسلیم للقیاده الشرعیه فإنها فارغه عن جوهر العباده.أ رأیت الطغاه یمنعون عن الصلاه؟کلا...

بل تری بعضهم یبادر إلی بناء المساجد،و إقامه الصلوات الحاشده فیها،و لکنهم یتکبرون فی الأرض بغیر الحقّ،فهل تشفع لهم صلاتهم هذه؟کلا..لأنهم ینازعون اللّه رداءه،و یغتصبون الولایه الالهیه و یدعون الناس إلی عبادتهم من دون اللّه.

۱- ۱) المصدر.

[سوره ص (۳۸): الآیات ۷۱ الی ۸۸]

اشاره

إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ (۷۱) فَإِذٰا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِینَ (۷۲) فَسَجَدَ اَلْمَلاٰئِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۷۳) إِلاّٰ إِبْلِیسَ اِسْتَکْبَرَ وَ کٰانَ مِنَ اَلْکٰافِرِینَ (۷۴) قٰالَ یٰا إِبْلِیسُ مٰا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ اَلْعٰالِینَ (۷۵) قٰالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (۷۶) قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (۷۷) وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلیٰ یَوْمِ اَلدِّینِ (۷۸) قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۷۹) قٰالَ فَإِنَّکَ مِنَ اَلْمُنْظَرِینَ (۸۰) إِلیٰ یَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُومِ (۸۱) قٰالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۸۲) إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِینَ (۸۳) قٰالَ فَالْحَقُّ وَ اَلْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ (۸۵) قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُتَکَلِّفِینَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ لِلْعٰالَمِینَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِینٍ (۸۸)

اللغه

۷۷[رجیم]:طرید مبعّد.

ص:۴۰۰

فَسَجَدَ الْمَلاٰئِكَهُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

هدی من الآیات:

فی الـدرس الأخیر من السوره و کعاده القرآن یؤکـد السـیاق علی الموضوع الاساسـی فیها،و ذلک ضـمن بیان ما جری بین رب العـالمین و الملاـئکه ثمّ بینه و بین إبلیس، و مغزاه الکشف عن طبیعه الإنسـان،و الأسـباب الحقیقیه التی تردیه،فاذا به و قـد کرّمه اللّه علی کثیر من الخلق ینتهی إلی أسوأ مصیر.

فی بـدایه السوره أکـد ربنا علی دور العزه و الشـقاق فی ضـلال الکفار،حیث یغترون بما لدیهم من قوه ظاهریه،فیسـتکبرون علی الحق و یشـقون عصا الطاعه للّه -عز و جل-بینما نجـد فی مقابلهم أنبیاء اللّه(علیهم السـلام)فهم بالرغم من الـدرجه المعنویه التی أعطیت لهم(النبوه)و ما أوتی بعضهم من القوه و الملک،إلاّ انهم فی أعلی درجات التوبه و الانابه إلی ربهم.

و فی نهایه هذه السوره المبارکه یبیّن اللّه لنا صوره أخری لهذه المقابله جرت فی

ص:۴۰۲

الملأ الأعلى،فالعزه بالباطل عند إبليس عليه اللعنه،الذى اعتز بعنصره،و رفض الخضوع للّه فى قضيه،آدم من بين كلّ الملائكه،و برّر ذلک بأنه و هو المخلوق من نار السموم أفضل من آدم الطينى فكيف يسجد له؟و لكن من قال:ان الافضليه للطين؟ثم لو افترضنا ذلک فهل هذا مبرر لمعصيه رب العالمين و اختيار العاقبه السوأى؟بالطبع كلا...و لكن إبليس اختار العزه بالباطل متمثله فى العنصريه،ثم راح يغوى الإنسان و يضله ليكون معه فى غضب اللّه و ناره.

و فى المشهد الآخر من الصوره نجد ملائكه اللّه على جلاله قدرهم يخرّون ساجدين لآدم تعبدا للّه و طاعه و تسليما،و يوصل القرآن بينهم و بين عباد اللّه المخلصين الذين لم يسمحوا لإبليس أن يغويهم.

و لأن سوره«ص»تتشابه و سوره«الصافات»فى نفى الوهيه الملائكه و الأنبياء،فانها تنتهى ببيان سجود الملائكه لآدم عليه السلام الذى خلق من طين و الذى يتعرض لإغواء إبليس،و كيف يكون إلها من يسجد لغيره أو يتعرض لإغواء الشيطان؟!

بينات من الآيات:

[٧١]لما بدا للّه تعالى خلق آدم أطلع الملائكه على هذه الإراده.

إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ و الخطاب هنا يشمل حتى إبليس،لأنه قد رفع جزاء لعبادته للّه إلى مقام الملائكه،فملائكته التى يشمله(إبليس)بموجبها الأمر بالسجود-اعتباريه لا ذاتيه-و يبدو ان متعلق قوله: إِذْ قٰالَ رَبُّکَ هو قوله فى آيه سابقه... إِذْ یَخْتَصِمُونَ .

ص:۴۰۳

و بما أن أصل خلق البشر طين فلا يجوز أن يتفاخر الناس على بعضهم،كما لا ينبغى أن يفتخر أحد بنفسه و هل لمن أصله الطين فخر؟!و الطين عندنا نحن البشر من أرذل العناصر و أقلها قيمه و اعتبارا،و الناس جميعا خلقوا من طين فلا يجوز أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه كالسلاطين،و لا أن يصبغ البعض صبغه الألوهيه على بعض كما فعل النصارى بابن مريم(عليهما السلام).

[۷۲]و لم يطلع ربنا الملائكه على ما بدا له لمجرد اضافه معلومه جديده إليهم بل ليأمرهم بالسجود له عليه السلام .

فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي و قد اتصل الأمر بالسجود بحاله التسويه و نفخ الروح عند البشر،و هى حسب الظاهر كمال الخلق مما يوحى بأن سجود الملائكه(الذى يدل-ضمنا-على تسخير الطبيعه الموكل بها ملائكه اللّه) (۱)يتعلق بكمال الإنسان،فكلما رقى البشر معارج العلم و الإراده و الإيمان و التقوى كلما سخرت له الخليقه أكثر فأكثر.أ رأيت كيف سخر اللّه لداود الجبال و الطير و لسليمان الريح؟ و يوحى نفخ الروح من اللّه فى الإنسان و قبل السجود له تخصص البشر بميزات لا توجد فى سائر الأحياء،و يبدو أن الروح هنا هى العقل الذى قال عنه ربنا سبحانه فى آيه أخرى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (۲)فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ و هكذا أسس ربنا فى حياه البشر مبدأ السجود للّه عبر الخضوع و التسليم لخلفائه

ص:۴۰۴

۱- ۱) راجع تفسير سوره البقره آيه(۳۴).

۲- ۲) الإسراء/(۸۵).

فى الأرض،و هؤلاء الملائكه و هم من أعز خلق اللّه أسجدهم لمن نفخ فيه من روحه و جعله خليفته فى الأرض.

[۷۳]و حيث أمر اللّه بالسجود لآدم استجاب جميع الملائكه ايمانا منهم بوجوب التسليم المطلق له-عزّ و جل-و أن أىّ اجتهاد أو قياس مقابل أمره باطل و لا يرفع المسؤوليه عن صاحبه.

فَسَجَدَ الْمَلاٰئِكَهُ كُلُّهُمْ و كان يكفى أن تنتهى الآيه إلى هذا الحد لتبيّن المطلوب،و لكن ربنا أضاف تأكيدا لذلك قائلا:

أَجْمَعُونَ و انما كانت عظمه الملائكه بخضوعهم للّه و لمن أمر اللّه بالخضوع له.

[۷۴]ثم استثنى ربنا من الساجدين إبليس الذى استكبر و استبدت به العزه و الكبرياء،فشق عصا الطاعه.

إِلاّٰ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كٰانَ مِنَ الْكٰافِرِينَ لقد كان إبليس يسجد للّه سجدات طويله لعل بعضها يمتد أربعه آلاف عام، و قد اقترح على اللّه بأن يسجد له سجده مطوله بدل سجوده لحظات لآدم،فرفض طلبه.لماذا هذا الاقتراح؟و لماذا الرفض؟ أولا:السجود لآدم بأمر اللّه-ذلك الطين اللازب الذى يحتقره إبليس-هو معيار الخضوع للّه و ليس مجرد الوقوع على الأرض باسم السجود للّه،و لعل صاحبه

یکرّس ذاتیاته بذلک،و انما یفعل ما یفعل ریاء،و لا یزیده الا عجبا.

و هکذا نحن البشر لا ـ تنفعنا عامه الصلاه و الصیام ان لم نسلم لمن أمر اللّه بالتسلیم له من خلفائه فی الأرض،و هکذا کانت الولایه سنم الدّین،و عمود الشریعه،و أعظم ما فی میزان العبد یوم القیامه لأنها فی الحقیقه هی التوحید الخالص.

ثانیا:حین لم یسجد إبلیس لآدم اعتبر مستکبرا،و الحق بالکفار بالرغم من انه کان یؤمن باللّه،و لکن ایمانه لم یبلغ درجه التوحید إذ أنه کان یؤمن قبلئذ بذاته و بعنصره الناری،فلم ینفعه الإیمان و لا سجداته الطویله شیئا.

[۷۵]فسأله رب العالمین:

قٰالَ یٰا إِبْلِیسُ مٰا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ و للمفسرین فی کلمه«بیدی»تفاسیر عدیده اما التفسیر الأقرب للسیاق-فی نظری-انها القدره،و إنما أضاف«بیدی»لأنه سبحانه لا یملک یمینا و لا شمالا أو کما

فی الحدیث: «و کلتا یدیه یمین »و

فی حدیث عن الامام الرضا علیه السلام :

«یعنی بقدرتی و قوتی » (۱)و تعبیر الیدین کنایه عن تمام القوه و القدره التی تجلت من خلق آدم.

أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعٰالِینَ هل کان السبب انک تکبرت لمجرد الاستکبار و من دون سبب واقعی،أم أنک

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۴۷۲).

فعلا تجد نفسک جدیرا بعدم السجود،و فوق أوامر اللّه.

و قال البعض أن معناه:هل استکبرت الآن أم کنت أبدا من العالین.

[۷۶]ان عدم سجود إبلیس کان لاستکباره،و الا فجوهره لا یتمیز عن آدم فهو مخلوق مثله،و لا یحق للمخلوق ان یرفض امر الخالق،و لکن إبلیس رأی نفسه متمیّزا،و سبب ذلک أنه اتبع المقاییس الشیئیه لا المقاییس القیمیه فانتهی إلی افضلیه النار علی الطین،و اعتز بعنصره و ذاته،فرفض السجود لآدم و الطاعه للّه سبحانه،و هذا یدل علی بطلان القیاس عموما،ذلک لأن قیمه أی شیء لیست بذاته بل بما یضفی علیه الرب من قیمه و اعتبار،فالصلاه معراج المؤمن لأن اللّه جعلها کذلک،و الحج جهاد الضعفاء لأن اللّه شرع ذلک،و الأنبیاء خلفاء اللّه لأن اللّه حمّلهم رسالاته و جعلهم أئمه و هداه.

و لا یعرف تشریع اللّه الا من عنده اما البشر فإنه إذا أراد أن یتشبث بالقیاس فسوف یهبط إلی مستوی مقاییسه الشیئیه فهذا إبلیس برغم علمه و عبادته هوی إلی أسفل السافلین حین ترک قیمه التوحید إلی الشرک،و مقیاس امر اللّه إلی مقیاس خلق اللّه،و لم یعرف ان عظمه خلق اللّه انما هی بأمر اللّه،فالنار کنار لا تعدو ان تکون خلقا خلقها اللّه بأمره،و أرکز فیها خصائص و میزات من الحراره و الاضاءه، و ان شاء اللّه أعدمها أو اعدم حرارتها،کما فعل لإبراهیم علیه السلام ،أو أزال ضوءها کنار جهنم،إذن الشیء کشیء لا قیمه له،انما قیمته باعتبار أمر اللّه،و هذا هو السبب الجوهری لبطلان القیاس فی الدین،و الحاجه إلی الرسل.

قالَ و هو یبرر موقفه المنحرف.

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فهو أفضل من آدم عليه السلام لا بالعمل الصالح و الطاعه و العباده المخلصه بل بعنصره النارى.

خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ ان المهم فی الخلقه لیس المخلوق بذاته،بل ما یعطیه الخالق له من قیمه و منزله، و ما دام الرب واحد فان قیمه المخلوقین من الناحیه الجوهریه واحده،و انما یتفاضلون بما یحدده الرب من مقاییس للتفاضل،و لیس ثمه قیمه عند اللّه لأحد بذاته،انما تقواه و عمله الصالح.

جاء فی نهج البلاغه :

«الحمد للّه الذی لبس العز و الکبریاء و اختارهما لنفسه دون خلقه،و جعلهما حمی و حرما علی غیره،و اصطفاهما لجلاله،و جعل اللعنه علی من نازعه فیهما فی عباده،ثم اختبر بذلک ملائکته المقربین لیمیز المتواضعین منهم من المستکبرین، فقال سبحانه-و هو العالم بمضمرات القلوب و محجوبات الغیوب-: إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ فَإِذٰا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِینَ فَسَجَدَ الْمَلاٰئِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاّٰ إِبْلِیسَ اعترضته الحمیّه،فافتخر علی آدم بخلقه، و تعصب علیه لأصله،فعدوّ اللّه امام المتعصبین و سلف المستکبرین الذی وضع أساس العصبیه،و نازع اللّه رداء الجبریه،و ادّرع لباس التعزز،و خلع قناع التذلل.الا ترون کیف صغّره اللّه بتکبره،و وضعه بترفعه،فجعله فی الدنیا مدحورا،و أعد له فی الآخره سعیرا،و لو أراد اللّه سبحانه أن یخلق آدم من نور یخطف الأبصار ضیاؤه،و یبهر العقول رواؤه،و طیب یأخذ الأنفاس عرفه، لفعل.و لو فعل لظلتّ له الأعناق خاضعه،و لخفّت البلوی فیه علی الملائکه،

و لكن اللّه سبحانه ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزا بالاختبار لهم،و نفيا للاستكبار عنهم،و ابعادا للخيلاء منهم،فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس إذ أحبط عمله الطويل،و جهده الجهيد،و كان قد عبد الله سته آلاف سنه،لا يدرى أ من سنيّ الدنيا أم من سنى الآخره عن كبر ساعه واحده،فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته.كلا...ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنه بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، ان حكمه فى أهل السماء و أهل الأرض لواحد،و ما بين اللّه و بين أحد من خلقه هواده فى إباحه حمى حرّمه اللّه على العالمين » (۱)ان انحراف إبليس لم يكن بجبر من اللّه انما باختياره هو نفسه،و من الحوار الذى جرى بين اللّه و بينه يتبين انه تعالى أراد هدايته فقد أكثر القول له،و هذا أساس فى القرآن و الرسالات الإلهيه الاخرى،لأن الفلسفات الاخرى القديمه و الحديثه كلها تعتقد بالجبر،و ان الشر من اللّه-تعالى عما يصفون-أو من اله معارض له فى الرأى،مساو له فى القوه،و هذه الثنائيه موجوده بصوره أو بأخرى فى كل الفلسفات كالفلسفه الشيوعيه التى تؤمن بثنائيه الحتميه التاريخيه،أو كفلسفه (فرويد)التى تعتقد بالثنائيه الجنسيه...إلخ،و قد تسربت هذه الفلسفه المنحرفه الى كثير من كتب الديانات و لكن هذه الآيات و أخرى كثيره تلتقى معها فى الموضوع تبيّن أن إبليس كان حرّا فى اطار قضاء اللّه و قدره،فهو غير قادر على مقاومه الإراده الالهيه إذا أراد اللّه ذلك،لكنها من جانب آخر تؤكد بأنه تعالى لم يجبره على المعصيه و الانحراف،بل أعطاه المهله و حاوره فى الأمر اقامه للحجه لعله يهتدى للحق سبيلا.

[۷۷-۷۸]فلما رفض و أصرّ على معصيته و اعتزازه الباطل بعنصريه،طرده اللّه من رحمته،و استرد منه الاعتبار الذى وهبه له من قبل.

۱- ۱) نهج البلاغه/خ(۱۹۱)/ص(۲۸۵).

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ و الرجیم هو المطرود الـذی لاـ أمل فی رجعته،و ربما لو کان ثمه احتمال لعوده إبلیس للحق لما أخرجه اللّه من رحمته،و أمهله أکثر مما أمهله.

و فی القرآن آیه تشیر الی الحکمه الاـلهیه التی مر ذکرها،یقول تعالی فی معرض حـدیثه عن عصـیانه إبلیس: وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ کٰانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (۱)و الآیه تشـیر الی انه کان جنّیا و لکنه استطاع الوصول الی مقـام الملائکه،و ذلک بعبادته و سـعیه-کما فی الروایات-ثم تشـیر الی تردّیه و مسـیرته التنازلیه و ان سـببها المعصـیه للّه،و تأکد الآیه علی کونه من الجنّ یهدف تأکید حریته و اختیاره،و کیف أنه علا الی مقام الملائکه بعمله ثم أهبط بسوء اختیاره.

و هذه الآیه من سوره«ص»و التی تلیها تبیّنان جانبا من العقوبات التی فرضها اللّه علی إبلیس و هی:

أولا:سحب المزایا و الاعتبارات التی حصل علیه بعبادته کدخوله الجنه، و اعتباره من الملائکه،و شمول رحمه اللّه الخاصه له.

ثانیا:رجمه من قبل اللّه،و الرجم هو الطرد الذی لا سبیل للعوده بعده-کما مرّ آنفا-فهو مبعد عن سائر الخلق،و معنی ذلک انهم لا یتفاعلون معه،و هـذه حقیقه علمیه یشـرحها القرآن بعبارات بسـیطه جـدا،یفهمها حتی الطفل الممیّز،لأن هـدف الآیات هو هدایه الإنسان الی الحق التی لا تتحقق بالعبارات الغلیظه المعقده

۱- ۱) الکهف/(۵۰).

التی لو استخدمها فی القرآن لکـان لطبقه معینه،و هـذه الحقیقه العلمیه تتمثـل فی ان عـالم المخلوقات یتفاعل مع الحق و یتعاون معه،أمـا الشـر و الباطـل فهو شـذوذ و شـقاق عن مسـیرته،و حیث طرد إبلیس-و هو رمز الشـرک-بالرجم فانه لا یکون معه ما فی السـماء و الأرض و ما بینهما.إن الأصل فی الخلائق الخیر لا الشـر،و الذی یطیع إبلیس فانما یطیع عنصـرا ضـعیفا،و القرآن یصرح بهذه الحقیقه عند ما یقول: اَلَّذِینَ آمَنُوا یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ الطّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِیاءَ الشَّیْطانِ إِنَّ کَیْدَ الشَّیْطانِ کانَ ضَعِیفاً (۱)و من هـذا المنطلق جاءت حتمیه الانتصار للمؤمنین الصادقین علی أعدائهم،و لهذا أیضا قال ربنا فی مطلع السوره:

بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی عِزَّهٍ وَ شِقاقٍ و قـد فسـرنا ذلک بأن الـذی یخالف مسـیره الکون هم الکفار الذین ینحرفون عن فطرتهم فهم هالکون،و قد حذرهم اللّه فی هذه السوره من ذلک،و قال: کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِینَ مَناصٍ .

کمـا أکـد مخالفه الطبیعه لمسـیرتهم،و هزیمتهم الحتمیه بقوله: أَمْ لَهُمْ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما فَلْیَرْتَقُوا فِی الْأَسْبابِ جُنْدٌ ما هُنالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ .

ثالثا:الحاق اللعنه به الی یوم الدین من قبل اللّه سبحانه،و اللعنه تعبیر عن عدم الرضا بشخص الملعون و عمله.

و هی تعنی أولا:عدم شرعیه أعمال إبلیس و اتباعه مهما أخذت أحجاما کبیره علی الطبیعه مؤقتا،و تعنی ثانیا:ملاحقه الشـیطان و أتباعه بالعذاب،و بالخذلان، و إحباط العمل.

۱- ۱) النساء/(۷۶).

وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلى□ يَوْمِ الـدِّينِ و فى يوم الـدين يكون الحكم خالصـا للقيم،و تنتهى فيه كل السـلطات و الحاكميات الأخرى بإراده اللّه،و هناك يعنى الحكم بعذاب إبليس و تتجلّى اللعنه عليه بأوسع معانيها.

[۷۹]و حيث حبطت أعمال إبليس و لاحقته اللّعنات عرض على اللّه طلبا.

□قالَ رَبِّ ما دمت خسرت الآخره،و حبط عملى.

فَأَنْظِرْنِى إِلى□ يَوْمِ يُبْعَثُونَ لعله طلب ذلك فى مقابل أعماله و عباداته التى قام بها أن يطيل اللّه عمره، و يمهله إلى يوم البعث.

[۸۱-۸۰]فاستجاب اللّه طلبه و لكنه لم يحدد له موعدا معينا.

□قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلى□ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ و قد اختلفت آراء المفسرين حول المده المعينه إلى قولين رئيسين:

الاول:أن إنظار إبليس يمتد إلى يوم القيامه.

الثانيه:انه ينظر إلى يوم ظهور الحجه(عج).

و ربما لم يعلم اللّه إبليس بساعه معينه للمهله التى أعطاها إياه لكى يسلبه الاطمئنان،و لعل هناك حكمه أخرى لعدم إعطاء الرب موعدا محددا لنهايه إبليس

ص:۴۱۲

تتجلی فی إعطاء الرب قدره محاربه الشر،و اقتلاع شأفته للبشر،حیث وهب لهم امکانیه القضاء علی إبلیس نهائیا فی الیوم المعلوم،و ربما تلتقی هذه الحکمه مع ظهور الامام الحجه علیه السلام و ظهور الحق علی یدیه-بإذن اللّه-حیث انه بدوره یعتمد فی جانب منه علی اراده أهل الحق و اللّه العالم.

[۸۲-۸۳]و عندها استشاط اللعین غضبا،اقسم بعزه اللّه علی إغواء أبناء آدم،و إذ یقسم بعزه الرب فهذا دلیل علی ان معصیته لم تکن عن جهل بعظمته و قدرته تعالی،انما مارسها عن وعی و عناد.

قٰالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ* إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ و الناس امام إغواء الشیطان علی ثلاثه أصناف:فمنهم من یحیط به، و یستجیب له فی کل شیء و هم المشرکون و الکافرون،و منهم ممن تکون مسیرتهم العامه فی الحیاه سلیمه و لکنهم یخضعون له،و یضعفون أمامه بعض الأحیان و هم أصحاب الدرجات العادیه من الایمان،و منهم من لا یقدر علی تحریفهم أبدا و هم المخلصون الذین تمحّضوا فی الإیمان کالأنبیاء و الأولیاء،و الذی یحدد انتماء الإنسان لای من هذه الفرق هو مدی إیمانه و عمله و إرادته،و هذا الاستثناء من إبلیس اعتراف واضح بإراده الإنسان،و نسف لجمیع الحتمیات المزعومه،لأن ضغوط الشیطان و اغراءاته مع ذلک یستطیع البشر مقاومتها و قهرها بإرادته.

و هذه هی الفکره المرکزیه فی سورتی«ص و الصافات»إذ تؤکد السورتان:

ان من بین عباد اللّه عباد خلصوا للّه من کل العلاقات المادیه و الشرکیه،فلا سبیل للشیطان علیهم.

[۸۴-۸۵]و فی مقابل قسم إبلیس بإغواء العباد قطع اللّه علی نفسه عهدا ان

یدخله و من تبعه جهنم،و ان یملأها منهم.

قالَ فَالْحَقُّ ان الجزاء حق اولا لأنه یجری أساس سنه الجزاء العادل المنسجمه مع سنن اللّه فی الحکمه فی الخلیقه،و ثانیا لأنه واقع لا ریب فیه.

ثم أکد هذا التعهد بجمله تأکیدیه،و قال:

وَ الْحَقَّ أَقُولُ بلی.کلام الرب تعبیر دقیق عن حقائق الخلیقه بلا أدنی اختلاف.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ و لا تعنی هذه الآیه ان اللّه یدخل العباد إلی النار جبرا،إنما هم الذین یختارون طریق الباطل المنتهی إلیها،و انما أشار اللّه إلی کثره من یدخلها لعلمه الذی أحاط بالمستقبل احاطه تامه،و فی القرآن تتکرر الآیات التی تشبه هذه الآیه،و مع ذلک یبعد الکثیر منا عن نفسه التهمه فیعتقد ان النار خلقت للآخرین،بینما یؤکد اللّه علی امتلاء جهنم بالعاصین حتی لا یصیبنا الغرور و العجب بإیماننا و أعمالنا فنتوقف أو نتوانی فی عمل الصالحات،و حتی نظلّ نسعی جهدنا لإنقاذ أنفسنا من جهنم بدافع الخوف من الخزی و العذاب یوم القیامه،و قد ورد فی تفسیر الآیه الکریمه:

وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلاّ وارِدُها کانَ عَلی رَبِّکَ حَتْماً مَقْضِیًّا (۱)عن أئمه الهدی علیه السلام ان کل العباد یمرون فوق الصراط الذی ینصبه اللّه علی النار،و لا یجوزه الا المخلصون،اما من تمحض فی الکفر و الشرک فانه یخلد فیها أبدا

۱- ۱) مریم/(۷۱).

و يبقى الذين عندهم بعض المعاصى و الذنوب،فيها فتره يطهرون منها بالعذاب و كل يلبث فيها بقدر انحرافه.

و لو بحثنا فى الأسباب التى تؤدى بالإنسان إلى جهنم لوجدناها كثيره جدّا، و علينا باليقظه الشديده حتى نتّقيها،و نتقى بذلك نار جهنم.

[۸۶]و الملاحظ فى هذه السوره المباركه و بالذات عند الحديث عن قصه إبليس،و هكذا فى كثير من موارد القرآن تكرار الابتداء بفعل الأمر«قل»و لعل ذلك للأسباب التاليه:

الاول:لكى يتأكد لنا بأن القرآن ليس من عند الرسول،و انما هو واسطه بين اللّه و عباده،و دوره بالنسبه إلى الآيات ينحصر فى قراءتها على الناس،فهو ليس بمفتر و لا بإله،انما هو مبلغ لرسالات ربه.

الثانى:يتركز هذا الأسلوب عند الحديث عن الأشياء الغيبيه كقصه السجود لآدم عليه السلام و التى وردت فى هذه السوره،و ذلك لكى لا يعتقد الناس بأنها ضرب من الوهم و الخرافه،أو أنها مجرد تصورات إنسان مثلهم محدود العلم فلا يصدقوها.

و لهذا أيضا قدم قول الرسول بأمر من اللّه،حيث أراد الحديث عما جرى فى الملأ الأعلى مٰا كٰانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ثم أكّد أن ما سوف أقوله لكم عن الغيب هو من عند اللّه« إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ »ثم بدأ الحديث عن الغيب، و ضمّنه فى مطلع كل آيه-تقريبا-ما يدل على نزوله من اللّه و هو فعل«قل».

الثالث:ان الأمر بالإعلان عن شيء بصيغه(قل)آكد من بيانه للعلم.أ فلا ترى ان قوله سبحانه: قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ أشد تأكيدا من قول: هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ ذلك لأن من يعلم شيئا قد لا يكلف نفسه أمر الانصياع له أو إبلاغه للآخرين،

ص:۴۱۵

بخلاف ما لو قیل له(قل)فانه یعنی الالتزام بما یقوله،بالاضافه إلی بیانه و تحدی الآخرین به.

و هکذا نجد القرآن هنا یأمر الرسول بالإعلان عن تجرد دعوته من المطامع المادیه،و انه لا یطالبهم بأجر.

قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ و انما یدعوهم إلی الحق،و هذا الإعلان یعکس شخصیته الرسول التی تشهد بصدقه،کما انه یعتبر التزاما ادبیّا أمام الناس بعدم المطالبه بأجر،ثم أمره ببیان أبرز صفاته الحسنی و قال:

وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ و لماذا یتکلف صاحب الحق و هو یحمل للناس رساله تتفق مع فطرتهم،و تؤیدها عقولهم و جمیع سنن الحیاه و قوانینها لأنها رساله رب العالمین،بلی.ان الذی یحتاج الی التکلف هو صاحب الباطل،لأن ما یأتی به لیس سوی شذوذ یرفضه کل ما فی الحیاه،و تأباه النفوس بفطرتها،فلکی یخدع الناس به لا بد أن یتکلف،و یتوسل بأسالیب ملتویه،و کمثال علی ذلک الکاذب،فانه و هو یرید الحدیث عن شیء غیر واقعی لا یصدّقه الناس یضطر إلی زخرفه الکلام،و الحلف بالیمین المتکرره،اما الصادق فهو واضح فی کلامه مطمئن فی نفسه.

و حیاه الرسول تشهد بانسیابه مع الحقائق بالفطره النقیه،و الصراحه البالغه، و البصیره النافذه،فلا یستعجل أمر ربه،و لا یتکلف حکما ما انزل اللّه به قرآنا، و لا یجبر اللّه علی شیء لم یبلغوا مستواه،و لا ینازع أحدا حقّه أو سلطانه،و لا یجزع، و لا یهلع،و لا یستأثر، و لا یتصنع،و لا یغلّ،و لا یغش،و لا یطلب سوی صراح

الحق،و واضح الرأی.

و فی النصوص الاسلامیه بیان لصفات المتکلفین،

فعن الامام الصادق علیه السلام انه قال :

«المتکلف یخطئ و ان أصاب(فهو إن أصاب فی غایته و محتوی کلامه إلاّ أنه مخطئ فی منهجه أو العکس)و المتکلف لا یستحلب فی عاقبه أمره إلاّ الهوان،و فی الوقت الا التعب و العناء و الشقاء(لأنه یتحرک خلاف سنه الحیاه)و المتکلف ظاهره ریاء و باطنه نفاق،و هما جناحان بهما یطیر المتکلف،و لیس فی الجمله من أخلاق الصالحین،و لا من شعار المتقین،و المتکلف فی ای باب کان قال اللّه تعالی لنبیه(و تلی الآیه) » (1)و

قال الرسول الأکرم(ص) :

«للمتکلف ثلاث علامات،ینازع من فوقه،و یتعاطی ما لا ینال،و یقول ما لا یعلم » (2)و

عن أمیر المؤمنین علیه السلام انه قال :

«ان المسلمین قالوا لرسول اللّه(ص)لو أکرهت یا رسول اللّه من قدرت علیه من الناس علی الإسلام لکثر عددنا و قوینا علی عدونا،فقال رسول اللّه(ص):ما کنت لألقی اللّه-عزّ و جلّ-ببدعه لم یحدث إلیّ فیها شیئا و ما انا من المتکلفین » (3)

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)/ص(۴۷۳).

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر.

[۸۷]و تعرف الرساله بالرسول الداعی إلیها، فهو الصادق الأمین،الذی لا یطلب أجرا و لا یتکلّف أمرا،و تعرف الرساله أیضا بمحتواها،کما یعرف الرسول بمثل تلک الرساله.

و من أبرز علامات الصدق فی رساله الإسلام عالمیتها فهی تتجاوز الحدود و الأطر لتکون لجمیع الناس،فلا عشائریه،و لا عنصریه،و لا قومیه،و لا طبقیه،و لا اقلیمیه،و لا...،بلی.ان ما نزل من عند رب العالمین یکون لکل العالمین،اما ما انبعث من فکر الإنسان المحدود فهو محدود بحدود ذلک الإنسان.

إِنْ هُوَ إِلاّ ذِکْرٌ لِلْعالَمِینَ و الإنسان فی کل مکان و زمان فطرته واحده،و القرآن یشیر إلی هذه الفطره بما تنطوی علیه من تسلیم و اعتقاد بالحقائق التی تشتمل علیها،و ذلک عبر التذکیر.

[۸۸]و إذا لم یتذکر البشر و یصدق بما جاء به القرآن فهر قد طمس فطرته، و عطل عقله،و انما یکتشف صدق الرساله بعد الموت،أو أثناء الحیاه عند التجلی الأعظم له.

وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِینٍ و هذا التحذیر المبطن یکفی الإنسان خوفا من عواقب التکذیب بالحق،و ممارسه الانحراف و المعصیه،و یهدی إلی التصدیق بالرساله،و عدم الاسترسال فی الغفله و الضلال.

سوره الزمر

اشاره

ص:۴۱۹

بسم اللّه الرحمن الرحیم

فضل السوره:

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السلام أنّه قال :

«من قرأ سوره الزمر،استخفاها من لسانه،أعطاه اللّه من شرف الدنیا و الآخره،و أعزّه اللّه بلا مال و لا عشیره،حتی یهابه من یراه،و حرّم جسده علی النار،و بنی له فی الجنه ألف مدینه،فی کلّ مدینه ألف قصر،فی کلّ قصر مائه حوراء،و له مع هذا عینان تجریان نضاختان،و عینان مدها متان،و حور مقصورات فی الخیام،و ذواتا أفنان،و من کلّ فاکهه زوجان» (نور الثقلین/ج ۱ ص ۴۷۴) و

روی عن النبی(ص)انه قال :

«من قرأ هـذه السوره لم یبق نبیّ و لا صـدّیق إلاّ صلّوا و استغفروا له،و من کتبها و علّقها علیه أو ترکها فی فراشه،کلّ من دخل علیه و خرج أثنی علیه بخیر، و شکره،و لا یزالون علی شکره،مقیمین أبدا تعطّفا من اللّه عزّ و جل» (تفسیر البرهان/ج ۴ ص ۶۷) .

الإطار العام

من النـاس من ينبهر بتفوّق الأنبيـاء و الأوليـاء على غيرهـم بـالعزم و التقوى و العلم و الاجتهاد،فيزعم أنّهم أبناء اللّه فتهون فى عينه الذنوب اعتمادا على شفاعتهم.

و تتصـدّى سوره الزمر لهـذه العقيـده الفاسده لتكتمل صوره التوحيد النقى لدينا، بعد أن تصدّت سوره الصافات للعقيده الفاسده التى زعمت الملائكه أبناء اللّه، و سوره(ص)لآلهه السلطه و الثروه المزيفين.

و لأنّ محور سائر العقائـد الفاسـده محاوله الهروب من المسؤوليات فإنّ هـذه السوره تعالـج ذلك بحجج تترى،تتخللها صـعقات شديده تهزّ أعماق الضمير.

ص:۴۲۳

[سوره الزمر (۳۹): الآيات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَكِيمِ (۱) إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ اَلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اَللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ اَلدِّينَ (۲)
أَلاٰ لِلّٰهِ اَلدِّينُ اَلْخٰالِصُ وَ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اَللّٰهِ زُلْفىٰ إِنَّ اَللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مٰا هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِى مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ (۳) لَوْ أَرٰادَ اَللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اَللّٰهُ اَلْوٰاحِدُ
اَلْقَهّٰارُ (۴) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اَللَّيْلَ عَلَى اَلنَّهٰارِ وَ يُكَوِّرُ اَلنَّهٰارَ عَلَى اَللَّيْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى
لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاٰ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْغَفّٰارُ (۵) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ يَخْلُقُكُمْ
فِى بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ اَلْمُلْكُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ (۶)

اللغه

۵[يكور]:تشبيه بمن يلفّ شيئا على شيء،فاذا جاء الليل كان كأنه لفّ على النهار حتى سرّه.

أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ

هدى من الآيات:

بعد أن يوجّه القرآن أنظارنا إلى نفسه،و أنّه تنزيل الربّ العزيز الحكيم، ينعطف السياق إلى الموضوع الرئيسى لهذه السوره.

(و الدرس الأول يشير عاده إلى أهم موضوعات السوره)ألا و هو نفى شراكه الأولياء لرب العزه،و ضروره إخلاص العبوديه للّه الذى له الدين الخالص.

و يحتج عليهم أوّلا-:باختلافهم الذى يحكم فيه الرب يوم القيامه،و ثانيا:بأنّ اللّه لا يهديهم لأنّهم قد كذبوا على اللّه و كفروا بأنعمه،و ثالثا:بأنّ اللّه و ليسوا هم الذى يختار ولدا لو أراد أن يتخذ لنفسه ولدا.

و يختم الحديث بتقديس اللّه عمّا ينسب اليه المشركون،لأنه الواحد و دليل وحدته قاهريته لكل شىء و شخص.

بينات من الآيات:

[۱] تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ توحى كلمه التنزيل بنزول القرآن على مراحل،بينما توحى كلمه الإنزال فى الآيه التاليه بنزوله جمله واحده،و لا تناقض فى ذلك لأنّ القرآن نزل مرتين:مره واحده فى ليله القدر،و مره بصوره منسجمه انسجاما مع الحوادث و الظروف المتغيره ليثبت به فؤاد الرسول و يصوغ شخصيه الامه و هو من العزيز الحكيم، الذى بعزته فرض القرآن،قال تعالى: إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّكَ إِلىٰ مَعٰادٍ (۱)و بحكمته جعله قويما، لاٰ يَأْتِيهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ .

[۲] إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ الحق هو وسيله الكتاب و هدفه،و القرآن ينزل بالحق أى أنه يكشف لنا تلك السنن و القيم و الأنظمه الجاريه فى الخليقه كما انه يشرّع التكاليف الحق،و فيما يأتى من آيات نعرف أنّ التذكره بالحق فى هذه السوره تهدف فيما تهدف بيان أنّ المسؤوليه حق،و أنّه لا يجازى البشر إلاّ بما عمله خيرا أو شرا.

فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أى اجعل عبادتك عباده واقعيه و ليست عباده نظريه.

ما هو الدين؟ الدين هو السياده القانونيه على المجتمع،التى يتقبلها الناس طائعين غير مكرهين،و إخلاص الدين للّه هو جعله المصدر الوحيد للسياده و التشريع.

۱- ۱) القصص /(۸۵).

[۳]و لكن لماذا يجب أن نجعل كتاب اللّه هو المصدر الوحيد للتشريع؟ بالاضافه إلى انه لا يجوز أن نشرع من أهوائنا،أو حسب الضغوط النفسيه و الاجتماعيه،فإنّ الدين الخالص هو للّه وحده.

أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ فله السياده و الحاكميه المطلقه على الخلق،فيجب أن تكون العباده له وحده.

إنّ اللّه هو الذى يهيمن على الكون،و يجرى بقوته الأنظمه و القوانين بصوره خارقه،و لا أحد يشاركه فى ذلك لأنه لا يمارس شيئا إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

لماذا إذا يشرك البعض باللّه،هل يعتقدون بأن للّه شريكا فى الأمر؟كلاّ...

هؤلاء يشركون باللّه لأنّهم يعتقدون بأنّ الشركاء سبل إلى اللّه.

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ النفى و الاستثناء دليل الحصر،و إذا كان هدف هؤلاء الوصول إليه فلما ذا يختارون طريقا لم يأمر به؟! و نستوحى من جمله اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أنّهم هم الذين صنعوا الآلهه و اضفوا عليها طابع التقديس دون أن تكون لها قدره مطلقه عليهم أو أن يأمر اللّه سبحانه بعبادتها.

و نستوحى من كلمه«أولياء»أنّهم أحبّوهم و اتبعوهم و تقرّبوا إليهم.

ص:۴۲۸

و الضمير فى كلمه«نعبدهم»يوحى بأنّ الأولياء عقلاء،بينما نجد البعض منهم يعبد الأصنام التى لا عقل لها.لماذا؟ربما لأن تلك الأصنام كانت أيضا تجسيدا لقوى عاقله-فى زعمهم-كالملائكه و الأنبياء أو الأولياء الصالحين، و هذا يظهر من الحديث التالى:

«أقبل رسول اللّه(ص)على مشركى العرب فقال:و أنتم فلم عبدتم الأصنام من دون اللّه؟فقالوا:نتقرب بذلك إلى اللّه تعالى.

فقال لهم:أو هى سامعه مطيعه لربها عابده له حتى تتقربوا بتعظيمها إلى اللّه؟قالوا:لا.

قال:فأنتم الذين نحتموها بأيديكم؟قالوا:نعم.

قال:فلأن تعبدكم هى لو كان يجوز منها العباده أحرى من أن تعبدوها،إذا لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم و عواقبكم و الحكيم فيما يكلفكم.

قال:فلما قال رسول اللّه(ص)هذا القول اختلفوا فقال بعضهم:إنّ اللّه قد حلّ فى هياكل رجال كانوا على هذه الصوره فصورنا هذه الصور نعظمها لتعظيمنا تلك الصور التى حلّ فيها ربنا.

و قال آخرون منهم:إنّ هذه صور أقوام سلفوا كانوا مطيعين للّه قبلنا فمثّلنا صورهم و عبدناها تعظيما للّه.

و قال آخرون منهم:إنّ اللّه لما خلق آدم و أمر الملائكه بالسجود له كنا نحن أحق بالسجود لآدم من الملائكه،ففاتنا ذلك فصوّرنا صورته فسجدنا لها تقربا إلى

اللّه كما تقربت الملائكه بالسجود لآدم إلى اللّه تعالى » (١).

إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِی مٰا هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ قالوا:إنّ ذلک تهدید مبطّن لأولئک القوم حیث إنّهم سوف یسألون عن أفعالهم و أقوالهم و یحاسبون علیها حسابا عسیرا،و لا یجوز لهم-إذا-الاسترسال فی نسبه الأولیاء إلی اللّه و اعتبارهم شفعاء من دون إذنه سبحانه.

و لعل الآیه تشیر إلی ما اشتهر بین الأمم من تقدیس العظماء و نسبتهم إلی ربّ العزه،کالاعتقاد بأنّ هذا الملک أو ذاک السلطان هو ظل اللّه فی الأرض من دون الرجوع إلی القیم الإلهیه،و المقاییس الرسالیه،بینما لیس کل من أوتی فضلا یصیر ولیّ اللّه بل الذی یعبد اللّه حقا و یتبع رسله صدقا.

و نتساءل:ما هی الحکمه فی بیان هذه الحقیقه هنا؟ إنّ الناس یزعمون انهم لو نسبوا إلی اللّه أمرا کذبا وجب علی اللّه ردعهم بصوره غیبیه،کأن ینزل علیهم صاعقه أو لا أقل ملکا ینذرهم،و إذ لم یفعل مثل ذلک فهم علی حق،و لعله لذلک یؤکد ربنا أنه لا یهدی الکذبه و الدجّالین و الذین یکفرون بنعمه و من أبرزها نعمه الرسالات التی أنزلها بمنّه،فلیظلّوا فی ضلالتهم حتی یذوقوا الجحیم جزاء کذبهم و کفرهم بأنعم ربهم.

و هکذا بیّن ربنا أولا:أنّ أهواءهم بعیده عن الحق الذی عند اللّه حیث یحکم بینهم یوم القیامه،و بیّن ثانیا:أنه لا یهدیهم فهم المسؤولون عن ضلالتهم بکذبهم و کفرهم.

ص:۴۳۰

١- ١) الإحتجاج للطبرسی/ص(٢۶).

و لقد اخترعت أهواء الناس أفكارا باطله لتوجيه هذه العقائد،فقالوا بنظريه الفيض و نظريه الحلول و الغنوص،لتبرير تقديسهم لبعض العناصر و تأليههم لبعض الناس،قالوا بأنّ اللّه-سبحانه و تعالى عما يشركون-كالشمس تفيض منها الأشعه،و كالبحر تتصاعد منه السحب،أو الينبوع تجرى منه الروافد،أو أنّه سبحانه يتنزّل إلى مستوى خلقه فيحل فى أوليائه حلولا-حتى يقول أحدهم فى إحدى شطحاته الكفريه:ليس فى جبّتى سوى اللّه.

إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ [۴]و يسفّه اللّه أحلامهم و يؤكد بأنّه لا و لن يتخذ ولدا،و حتى لو اتخذ فإنّه هو الذى يصطفيه اصطفاء.

لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ و نستوحى من الآيه الحقائق التاليه:

أولا:إنّ اتخاذ الولد لو تمّ(و هو لا يتم)فليس عبر أولئك الكذبه،بل اللّه وحده صاحب هذا الحق،إنّه لو تم يكون ولده و ليس ولدهم،فهو يختاره دونهم، و لا يحق لأىّ كافر أن يقول:فلان ابن اللّه و أقرب الناس اليه،من دون سلطان له على ذلك.

ثانيا:إنه لا يتم-لو تمّ إنجاز الولد-بسبب علاقه نسبيه بين اللّه سبحانه و بين بعض خلقه،إذ كل شىء مخلوق للّه،و لا تفاضل فى أصل الخلق بين شىء و شىء،فليس بعض الخلق مارس اللّه حين أنشأه لغوبا،بينما خلق بعض الأشياء بيسر و سهوله،كلاّ...و لا هناك مراتب فى الخلق كما زعمت الفلاسفه بلا حجه، إنما يكون عبر الاصطفاء.

ثالثا:إنّ الاصطفاء الإلهی یکون عبر القیم الإلهیه لا تفاضل الجوهر إذ أن الأشیاء کلّها مخلوقات فلا حاجه له إلی واحد منها لأنّه کان قبل أن یکون أی شیء فکیف یحتاج إلی شیء لم یکن من الأزل،بل کیف یحتاج إلی شیء هو فی وجوده یحتاج إلی خالقه سبحانه؟! و إنما استوحینا هذه البصائر بالترتیب من الکلمات الثلاث فی الآیه«یتخذ»و «اصطفی»و«مما یخلق».

سُبْحٰانَهُ عن نسبه الشریک إلیه أو عن اتخاذ الولد حتی من بین خلقه اصطفاء.

هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ فلا یتجزّأ بالإفاضه و لا بالتنزّل و لا بالحلول،و لا یتجلّی فی الشمس و القمر و النجوم و السهل و الجبل و الشجر و البحر و الأحیاء...کما ادّعاه الضالون من أنصار وحده الوجود.

«قام أعرابی إلی الإمام أمیر المؤمنین فی بحر معرکه الجمل الطاحنه و قال له:یا أمیر المؤمنین:أتقول:أنّ اللّه واحد؟ فحمل الناس علیه و قالوا:یا أعرابی أما تری ما فیه أمیر المؤمنین من تقسّم القلب؟ فقال أمیر المؤمنین:دعوه فان الذی یرید الأعرابی هو الذی نریده من القوم، (أی أنّنا نخوض الحرب من أجل بیان هذه البصائر).

ص:۴۳۲

ثم قال:یا أعرابی أنّ القول فی اللّه واحد علی أربعه أقسام:فوجهان منها یجوزان علی اللّه و وجهان یثبتان فیه،فأمّا اللذان لا یجوزان علیه فقول القائل واحد،یقصد به باب الأعداد فهذا ما لا یجوز،لأنّ ما لا ثانی له لا یدخل فی باب الأعداد الا تری انه کفر من قال ثالث ثلاثه؟،و قول القائل هو واحد من الناس یرید به النوع من الجنس فهذا ما لا یجوز،لأنّه تشبیه و جلّ ربنا عن ذلک.

و أمّا الوجهان اللذان یثبتان فیه فقول القائل هو واحد لیس له فی الأشیاء شبیه،کذلک ربنا،و قول القائل:إنّه عزّ و جلّ أحدیّ المعنی،یعنی به أنّه لا ینقسم فی وجود و لا عقل و لا و هم، کذلک ربنا عزّ و جلّ » (۱)اَلْقَهّارُ و لأنّه قهّار فهو واحد،إذ لا شیء یتحدّی إرادته و یقاوم مشیئته سبحانه.

و کما لا یخضع سبحانه لشیء لا یحتمّ علیه شخص أمرا،فما المسیح بن مریم و العزیز إلاّ عبدان مطیعان له یخضعان لأوامره،و لا یحتمان علیه،و انه سبحانه قد فرض علیهما عبادته إن لم یکن طوعا فکرها.

و من هنا تتبلور فکره الشفاعه الحق و هی إنّ عباد اللّه المکرمین یدعون اللّه لیغفر لبعض المذنبین فإن شاء غفر،و إن شاء عذّب،و قد قال اللّه فی حق بعض المنافقین: سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ (۲)و قال تعالی:

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۴۷۵-۴۷۶).

۲- ۲) المنافقون/(۶).

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (١)و لكن الرسول و اولى الأمر من بعده يملكهم اللّه الشفاعه فى الدنيا و الآخره، فيغفر لمن يشاء كيف يشاء،و يعذب من يشاء كيف يشاء،و مغفره اللّه بواسطه الرسول ممكنه و لكن حسب مقاييس محدوده،فلا يملك الرسول للمذنبين المصرين،أو الكفار شيئا،و يوجز اللّه فى آيه من الآيات فكره الشفاعه فيقول:

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جٰاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّٰهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّٰهَ تَوّٰاباً رَحِيماً (٢).

و خطأ تلك الأدعيه التى يقولها بعض الطوائف فى طوافهم حول الكعبه إذ يقولون:(اغفر اغفر إن لم تغفر جزما تغفر)فلا أحد يحتّم على اللّه سبحانه شيئا.

[۵]و قد سبق فى الآيه الثالثه أن فسّرنا قوله: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ فقلنا بأنها تشير إلى السنن التى تحكم فى الخليقه بتدبير اللّه و هيمنته و إرادته،و يوضح اللّه ذلك بقوله:

خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ و يبدو أنّه سبحانه بعد نفى العقائد التى يتشبث بها المشركون،و نفى كون الولد له،و أنّه لا أحد من الشركاء يقربهم اليه أخذ يذكّرنا بنفسه ذلك أنّ معرفه اللّه حقا كفيله بنفى العقائد الباطله و إزاله الأوهام البشريه التى هى وليده الجهل بالخالق.

و لعل الإشاره إلى«الحق»هنا لبيان أنّ تمنيات القوم بالشفاعه الباطله

ص:۴۳۴

١- ٢) التوبه/(٨٠).

٢- ٣) النساء/(۶۴).

سراب،لأنّ أساس الخلق هو الحق،و أنّه لا أحد يبلغ الثواب و الكمال بالتمنى و التظنى أو الشفاعه الباطله بل بالحق و الحق وحده.

و دليل أحديه الربّ و قاهريته و أنّه خلق السموات و الأرض بالحق ما نراه من اختلاف الليل و النهار.

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهٰارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهٰارَ عَلَى اللَّيْلِ و تكوير هذا يتم بزيادته على حساب ذاك و بالعكس،فاللّه قد قهر السموات و الأرض بحركتهما الدقيقه التى لا يستطيعان مقاومتها قيد شعره،ثم إنّهما يجريان بنظام دقيق مما يهدينا إلى أنّه جعل كل شيء بالحق.

وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ مما يهدينا إلى انه القاهر.

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام :

«أنظر إلى شروقها على العالم كيف دبّر أن يكون،فإنّها لو كانت تبزع فى موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها و منفعتها إلى كثير من الجهات،لأنّ الجبال و الجدران كانت تحجبها عنها،فجعلت تطلع فى أوّل النهار من المشرق فتشرق ما قابلها من وجه المغرب،ثم لا تزال تدور و تغشى جهه بعد جهه حتى تنتهى إلى المغرب،فتشرق على ما استتر عنها فى أوّل النهار،فلا يبقى موضع من المواضع إلاّ أخذ بقسطه من المنفعه و الإرب التى قدرت له » (1)كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۳)ص(۱۱۳).

و کما أنّ اللّه خلق الشمس و القمر،و سخرهما بقدرته،کذلک فإنّ انتهاءهما بیده،و ربما توصل العلماء إلی العمر التقریبی للشمس و القمر بمقدار ما یعطیان من طاقه من النور و الحرکه.

أَلاٰ هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفّٰارُ فبعزته أقام النظم فی کل شیء،و ألزم الشمس و القمر و النجوم أفلاکها، و سخرها لما خلق لها،و بمغفرته فتح أمام عاصیه باب التوبه حتی لا یقنط من رحمته إلاّ القوم الکافرون.

و صفه العزه تبعث الرهبه بینما صفه المغفره تبعث الرغبه،و هما معا ضروریتان لاستقامه النفس البشریه.

و أخطأ من قال-من المتکلمین-أنّ القول بالمغفره مخالف للقرآن لأن ذلک یوجب الإغراء بالقبیح،و هذا مذهب البغدادیین المعتزله،و مذهب البصریین الذی یقول:إنّ عذاب اللّه جائز عقلا،و أیضا فیلزم علیه ان لا یحصل الغفران بالتوبه، لأنه إذا علم أنّه إذا أذنب ثم تاب غفر اللّه له لم ینزجر (۱).

[۶] خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا أی جعل من نفس الإنسان زوجه،و هذا یدل علی تکاملیه الذکر و الأنثی.

وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ هی الأخری تتزاوج،و ثمانیه أزواج هی التی ذکرت فی سوره الأنعام : مِنَ الضَّأْنِ اثْنَیْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَیْنِ وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَیْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَیْنِ .

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج(۲۶)ص(۲۴۰).

و قد اختلف المفسرون فی کلمه«و أنزل»فکیف یمکن أن تنزل الأنعام،و هذا مجمل ما قالوا:

۱-إنّ الإنزال بمعنی الإحداث و الإنشاء کقوله: قَدْ أَنْزَلْنٰا عَلَيْكُمْ لِبٰاساً يُوٰارِي سَوْآتِكُمْ .

و

فی الحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام قال :

«فإنزاله ذلک خلقه إیّاها » (۱)۲-إنّه أنزلها بعد أن خلقها فی الجنه،و فی الخبر الشاه من دواب الجنه،و الإبل من دواب الجنه.

۳-إنّه جعلها نزلا و رزقا،و الرزق یأتی من السماء.

۴-إنّ قضاء اللّه و تقدیره و حکمه موصوف بالنزول من السماء،و إذا عرفنا أنّ برکات الأرض جمیعا-أو لا أقل أکثرها-من السماء سواء من أشعه الشمس أو من الماء الذی ینزله اللّه من السماء،عرفنا أنّ هذه التأویلات غیر ضروریه،و اللّه العالم.

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ لا- أنت و لا زوجک تعلمان ما فی الرحم،و کیف یتکون الجنین،و ما هی أطوار خلقه،حتی یصیر طفلا،و لکن اللّه یخلقک و یصوّرک هناک.

فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین/ج(۳)ص(۴۷۶).

ظلمه البطن،و ظلمه الرحم،و ظلمه المشيمه.

ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ إنّ اللّه الـذى يصوّرك فى الأرحـام فى ظلمـات ثلاـث هو المالك الحق و المليك المقتـدر أحق أن تعبده،و لأنّ له الملك وحده فإنّه:

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ إلى أين تتجهون،و من الذى تعبدون من دونه؟!

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۷ الی ۱۶]

اشاره

إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ وَ لاٰ یَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ اَلْکُفْرَ وَ إِنْ تَشْکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ مَرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۷) وَ إِذٰا مَسَّ اَلْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِیباً إِلَیْهِ ثُمَّ إِذٰا خَوَّلَهُ نِعْمَهً مِنْهُ نَسِیَ مٰا کٰانَ یَدْعُوا إِلَیْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدٰاداً لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِکُفْرِکَ قَلِیلاً إِنَّکَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ (۸) أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اَللَّیْلِ سٰاجِداً وَ قٰائِماً یَحْذَرُ اَلْآخِرَهَ وَ یَرْجُوا رَحْمَهَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی اَلَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ اَلَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ إِنَّمٰا یَتَذَکَّرُ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۹) قُلْ یٰا عِبٰادِ اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا رَبَّکُمْ لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیٰا حَسَنَهٌ وَ أَرْضُ اَللّٰهِ وٰاسِعَهٌ إِنَّمٰا یُوَفَّی اَلصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ (۱۰) قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ اَلدِّینَ (۱۱) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَکُونَ أَوَّلَ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۲) قُلْ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۳) قُلِ اَللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِینِی (۱۴) فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ اَلْخٰاسِرِینَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ أَلاٰ ذٰلِکَ هُوَ اَلْخُسْرٰانُ اَلْمُبِینُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ اَلنّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِکَ یُخَوِّفُ اَللّٰهُ بِهِ عِبٰادَهُ یٰا عِبٰادِ فَاتَّقُونِ (۱۶)

وَ لاٰ یَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ الْکُفْرَ

هدی من الآیات:

یتابع السیاق القرآنی فی هذا الدرس الحدیث عن الشرک باللّه،و أنّ الإنسان إذا مسّه الضر دعا ربه منیبا إلیه دون الأنداد،و یحتجّ الرب علیهم بحجه وجدانیه بالغه هی أنّ الأنداد لا یضرون شیئا و لا ینفعون فلما ذا الشرک بهم،و هم ینسون نسیانا عند الضرورات،مما یدل علی أنّهم لیسوا شفعاء إلی اللّه کما یزعمون،و تکاد آیات القرآن جمیعا تحدثنا عن التوحید و نفی الشرک،و ذلک لأنّ الشرک لیس لونا واحدا،بل ألوان شتی،إذ الشرک هو الاستسلام لجاذبیه الماده بشتی صورها،فقد تکون الماده أرضا أو شخصا أو خوفا أو طمعا،لذلک فإنّ التخلص من الشرک و أغلاله ینبغی أن یکون بالتخلص عن کل جاذبیه تجذب الإنسان نحو الأرض، کی یحلّق بعیدا فی سماء التوحید.

من هنا نجد القرآن العظیم یحدثنا فی قضیه التوحید عن ضروره التخلص من الشرک،و فی کلّ مرّه یحدثنا عن بعض ألوان الشرک،ثم إنّ الناس فی خضوعهم

للمـاده مختلفون،فمنهم من يخضع بكـلّ صـراحه،و منهم من يسـتخدم سـلاح التبرير، و هكـذا كـان نسف قواعـد التبرير من أبرز أهـداف القرآن الحكيم،و بما أنّ التبريرات تختلف من قوم لآخر،بل حتى بين الأفراد أنفسـهم الـذين ينتمون إلى مذهب شـركىّ واحد،لذا يعالج القرآن الحكيم كلّ تبرير بصفه مستقله و مختلفه.

و فى هـذا الدرس يعرض اللّه نموذجين من الناس:الكافرين المشـركين الذين يجأرون للّه بالدعاء حال الشده و الضـر،و المؤمنين الـذين يقنتون للّه آنـاء الليـل ساجـدين قـائمين،فرقين من الآخره،و يعبـدون اللّه مخلصـين،مسـلمين له،لكى ينسف التمنيات التى يعتمد عليها البعض فى ارتكاب المعاصى،فيزعمون-مثلا -أنّ الأنداد يشفعون لهم فلما ذا التقوى من الذنب.

بينات من الآيات:

[۷]يبرّر بعض المشـركين شـركهم بالجبر حين يقولون:بأنّ اللّه لو لم يكن راضـيا عن شركهم إذا منعهم منه،و لأنّه لم يمنعهم فهو راض عنه،و لكنّ اللّه يقول:كلّا...فأنا لا أرضى لعبادى الكفر.

و إذا لم يرض اللّه الشـرك لعباده فلم هم مشركون دون أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟! و يجيب القرآن:لأنّ الدنيا دار ابتلاء فقد خوّل اللّه العباد،و أعطاهم مهله لكى يجرّب إرادتهم.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ فكفر الناس لا يسبّب له خساره،و عبادتهم لا تزيد فى ملكه مثقال ذره.

وَ لاٰ يَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ الْكُفْرَ أی أنّ اللّه يسمح لكم بأن تعبدوا ما شئتم من دون أن يرضه لكم.

و يقسم الحكماء إراده اللّه إلی قسمين:

١-إراده تكوين.

٢-إراده تشريع.

فمن الناحيه التكوينيه و فر اللّه للإنسان الحريه ليفعل بها ما يشاء،فأشرک به سبحانه،و لكن من الناحيه التشريعيه لم يرض له الشرک،و بتعبير آخر لم يجبر اللّه الناس علی التوحيد،و لو فعل ذلک بطل الثواب و العقاب،و لكنّه أمرهم و نهاهم و رغّبهم و أنذرهم و وفّر لهم المشيئه،و لولا المشيئه الإلهيه لم يقدر أحد علی عصيانه، فهو الذی جعلهم مختارين،و أعطاهم القدره.

جاء فی الحديث عن فضيل بن يسار،قال:سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

«شاء و أراد،و لم يحب و لم يرض،شاء أن لا يكون شیء إلاّ بعلمه،و أراد مثل ذلک،و لم يحب أن يقال له:ثالث ثلاثه،و لم يرض لعباده الكفر » (١)و نستطيع أن نشبّه هذه الحاله بمن يعطی ابنه دينارا و يأمره بأن يشتری ما ينفعه فيشتری ما يضره،فهو قد اشتری بمال أبيه ما لم يرض به.

و رضی اللّه أو عدم رضاه ليس كما نحن البشر-كما أسلفنا فی كثير من السور أنّ اللّه تنطبق عليه الغايات لا المبادئ-فرضی اللّه قد يكون بتوفيقه للإنسان،

١- ١) التوحيد/(٣٣٩).

و استجابه الطبیعه من حوله،لأنّ کل ما فی الحیاه یستجیب للتوحید و ینسجم معه، و یتناقض مع الشرک و ینفر منه.

وَ إِنْ تَشْکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ فاللّه یرضی الشکر لعباده،و عند ما یشکر الإنسان ربّه ففی شکره إرادتان:

إراده تکوین،و إراده تشریع،و هناک من یبرّر شرکه بإلقاء المسؤولیه علی غیره، و لکنّ اللّه ینفی ذلک،و یؤکّد أنّ کلّ إنسان یتحمّل مسئولیه عمله،و لا یتحمّل الآباء أو العلماء أو السلطات من وزره شیئا.

وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ الوازره:النفس التی تحمل ثقلا،فکلّ إنسان یحمل حملا، و من عنده حمل لن یرضی أن یحمل حمل الآخرین،إذ له من الحمل ما یکفیه.

و سواء برّرنا أم لم نبرّر فإنّ جزاء أعمالنا یوفّی إلینا یوم القیامه،حین ینبّأ الرب عباده بکلّ صغیره و کبیره عملوها،و لعلّهم نسوا أو تناسوا بعضها و لکنّ کتاب ربّنا لا یضل و لا ینسی.

ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ مَرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و علم اللّه لا یقتصر علی ظواهر العمل بل ینفذ إلی القلب حیث الدوافع و النیّات.

إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ و لعلّ الآیه تشیر إلی فعل القلب و مسئولیه الإنسان عنه،و الوساوس و التبریرات

و العقائد الفاسده و الرضا و البغض كلها من فعل القلب،فمثلا كثيرا ما يزعم الفرد أنّه مجبور على عمل و هو غير مجبور و اللّه يعلم ما فی صدره.

[٨]و بعد أن نسف السياق قواعد التبرير،و مهّد القلب لتلقی الحجه،أبلغنا بأنفذ الحجج و هو دليل الفطره و الوجدان،حيث ينقطع فی أوقات المحنه أمل الإنسان فی أیّ شیء سواه سبحانه،و هنالک يتصل قلبه باللّه،إنّ اللّه هو ذلک الأمل الذی ينجيک حين لا منجی،و يتعلق قلبک به حين لا تجد خشبه خلاص تتعلق بها،و هذه أحد الأدله و الشواهد التی تهدينا إليه سبحانه،ففی أيّام الرخاء تعترينا الغفله،و ننسی اللّه،إلاّ أنّ المصائب تأتی هزات عنيفه ليس لكيان الإنسان و إنّما لضميره و وجدانه حيث يری اللّه،و المؤمنون غير هؤلاء،إنّهم يرون اللّه كما

أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول :

«ما رأيت شيئا إلاّ و رأيت اللّه قبله و معه و بعده » وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ أی يعود إلی اللّه و يترک الشركاء من دونه،و الدعاء و الإنابه حاله الضراعه، فهو من جهه يدعو اللّه كی يخلصه من الضراء و من جهه أخری يتوب إليه عما اقترفت يداه.

و فی ذلک شهاده فطريه علی أنّ الأنداد الذين اتخذهم شفعاء لا يقدرون لا علی كشف الضر عنه و لا علی التوسّط بينه و بين اللّه،و إنما اللّه أقرب إليه من كل تلك الآلهه المزيفه،و إنّ أمره بالرجوع إلی الرسول أو خليفته الشرعی هو المقياس.

ثُمَّ إِذٰا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ

خوّله:ملّكه و جعله متعهدا للنعمه،و فلان مخوّل:أی له حق التصرف،إذا أعطاه اللّه النعمه،و بدّل الضراء نعماء.

نَسِیَ مٰا کٰانَ یَدْعُوا إِلَیْهِ مِنْ قَبْلُ یبدو أنّ المصاب بضر و لا أمل له بالنجاه فینجیه اللّه من ضرّه یکون أسرع فی العوده إلی الذنب من الذی یبلغ النجاه عبر الوسائل المادیه.

و فی التعبیر إشاره إلی أنّه ینسی کلّ شیء عن حالته السابقه،و نستوحی ذلک من کلمه«ما»فی الآیه.

وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدٰاداً فقال لولا صدیقی،لولا الدکتور،لولا الصدفه الحسنه،لولا حظی،لولا ذکائی،لکنت قد هلکت،و ینسی أنّ من أنقذه إنّما کان الذی«یدعو إلیه من قبل»و هو ربّ العزه.

و لعل معنی الجعل هنا اعتبار ذلک للأنداد من خلال اضفاء صبغه القوه الذاتیه علیهم،و بتعبیر آخر جعل الشرعیه لهم مما لا یقتصر أثره فقط علی نفسه،بل یتجاوزه إلی الآخرین فیسبّب ضلالتهم أیضا.

و یشهد علی ذلک التعقیب التالی:

لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ إذ أنّه لم یبیّن للناس أنّ اللّه أنقذه حتی یهتدوا إلیه بل أخبرهم کذبا أنّ غیره هو الذی أنجاه فأضلهم عن سبیل اللّه و هو إخلاص الدین له.

هـذا من جهه و من جهه أخرى قلب الإنسـان يرفض الفراغ،فلاـ بـد أن يتعلـق بشـىء،فـإذا نسـى ربه اخـترع لنفسه إلهـا مزيّفـا من الشركاء،يستعيض به عن ربه.

و الدافع النفسى وراء الكفر بنعمه الخلاص من الهلكه هو التخلص من مسئوليه شكر اللّه،فالذى يقع فى الهلكه يحس بتقصيره فى جنب اللّه و يعقد العزم على تلافيه،و يعاهد اللّه على ذلک إن نجّاه من الهلاک،و لکنّه الآن و قد ذهبت عنه عاصفه البلاء و زعم أنّه استغنى عن ربه عادت إليه عواصف الشهوات تحثّه نحو الموبقات و ترک الفرائض و الخوض فى الإباحيه،لذلک نسى ربه و كفر بنعمته عليه، و نسب النعمه إلى الآلهه المزيّفه،فيقول له الرب:

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِکَ قَلِيلاً فإنّک لن تحصل إلاّ على متاع قليل و فى فتره قليله تنتهى إمّا بالمشاكل التى تتجدّد عليک أو بالموت.

إِنَّکَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ و هل هى متعه تلک التى تنتهى بصاحبها إلى النار؟ و التعبير ب« أَصْحابِ النّارِ »باعتبار أنّ الإنسان يحبّ صاحبه و لا يتركه،فهو و النار قرينان لا يفترقان.

[۹]و فى مقابل هؤلاء الذين يجعلون للّه أندادا هنالک طائفه أخرى هم المخلصون،يقول اللّه عنهم:

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَهَ وَ يَرْجُوا رَحْمَهَ رَبِّهِ

قانت لربه فى ديجور الليل،صافّا قدميه،ساجدا قائما،خائفا راجيا.

و يبدو أن الخوف و الرجاء قد تساويا فى قلبه،فهو يخشى النار و أهوالها،و يرجو رحمه ربه فى الجنه.

إنّ هؤلاء دأبهم الارتياح إلى اللّه و الحنين فى الحالات العاديه،فكيف إذا مسهم الضر.

و هكذا صوّر السياق نمطين من البشر:من يكفر بعد إنقاذه من الهلكه و وعوده بالتوبه،و من هو قانت آناء الليل و أطراف النهار،ليكون الفرق واضحا بينهما، و أنّه لا يجوز أن نجعل هذا كذاك فى الجزاء،و هذا هو الموضوع الأساسى فى هذه السوره التى أوضحت اختلاف مسيره الزمر الصالحه و الزمر التى تساق إلى النار.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أنّ اللّه حق،و أنّ الجزاء حق،و أنّ الرسول صادق.

وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ كلّا...لا يستويان مثلا.فلا يجوز الاتكال على شفاعه الأنداد.و لا الاتكاء على التمنيات و الظنون.

إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ فبالرغم من وضوح الفرق بين العالم و الجاهل،فإنّ أكثر الناس لا يهتدون إلى ذلك لأنّهم أصحاب القشور و الظواهر و أتباع الضجيج،و ليسوا أصحاب العقول المتعمقين فى جوهر الأمور و ألبابها.

ص:۴۴۸

جاء فی الحدیث،عن عمار الساباطی،قال :سألت أبا عبد الله علیه السلام عن قول اللّه عز و جل: وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ قال:نزلت فی أبی الفصیل،أنّه کان رسول اللّه عنده ساحرا،فکان إذا مسه الضر یعنی السقم،دعا ربه منیبا إلیه،یعنی تائبا إلیه من قوله فی رسول اللّه(ص)ما تقول« ثُمَّ إِذٰا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ »یعنی العافیه« نَسِيَ مٰا کٰانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ »یعنی نسی التوبه إلی اللّه عزّ و جلّ مما کان یقول فی رسول اللّه(ص)أنه ساحر،و لذلک قال اللّه عزّ و جلّ: قُلْ تَمَتَّعْ بِکُفْرِکَ قَلِيلاً إِنَّکَ مِنْ أَصْحٰابِ النّٰارِ یعنی أمرتک علی الناس بغیر حق علی اللّه عزّ و جل،و من رسوله(ص)،قال:ثم قال أبو عبد اللّه علیه السلام :ثم عطف القول من اللّه فی علی علیه السلام یخبر بحاله و فضله عند اللّه تبارک و تعالی: أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اللَّيْلِ سٰاجِداً وَ قٰائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أنّ محمدا رسول اللّه وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ أنّ محمدا رسول اللّه،و أنّه ساحر کذّاب إِنَّمٰا يَتَذَکَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ (۱)و

فی الروایه عن أنس قال :«نزلت فی علی علیه السلام أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اللَّيْلِ سٰاجِداً وَ قٰائِماً... الایه»قال:فأتیت علیا-علیه السلام- وقت المغرب فوجدته یصلّی و یقرأ إلی أن طلع الفجر،ثم جدّد وضوءه و خرج إلی المسجد و صلّی بالناس صلاه الفجر،ثم قعد فی التعقیب إلی أن طلعت الشمس، ثم قصده الناس فجعل یقضی بینهم إلی أن قام[الی]صلاه الظهر،فجدّد الوضوء ثم صلّی بأصحابه الظهر،ثم قعد فی التعقیب إلی أن صلّی بهم العصر،ثم کان یحکم بین الناس و یفتیهم إلی أن غابت الشمس.

[۱۰]و بعد أن ینجز السیاق إقرار الإنسان بأنه لا یستوی الذین یعلمون و الذین لا یعلمون،یشرح صفات و جزاء الذین یعلمون و یصوغون شخصیتهم بما یعلمون

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۴۷۸).

و ذلک بالایمان و التقوی و الإحسان و الهجره(عند الضروره)و الصبر.

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللّٰهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ

و التقوی تجنب المهلکات،و عاقبتها الفلاح،و الفوز بالجنه،و أمّا الإحسان فعاقبته السعاده فی الدنیا أیضا،و معناه أن تکون صبغه حیاه الفرد العطاء للآخرین،و قد بلغ الأنبیاء-علیهم السلام-ما بلغوه من شرف الرساله بالإحسان.أمّا الهجره عند الضروره فهدفها المحافظه علی الاستقلال و الحریه، و الصبر من الإیمان بمنزله الرأس من الجسد،فهو لباب التوحید و جوهر الإخلاص، و درع الاستقلال،و أجره عند اللّه لا یبلغه العادون فهو بلا حساب.

هکذا

روی الإمام الصادق-علیه السلام-عن النبی(صلّی اللّه علیه و آله) :

«إذا نشرت الدواوین،و نصبت الموازین،لم ینصب لأهل البلاء میزان، و لم ینشر لهم دیوان،ثم تلا هذه الآیه » (۱) [۱۱]بالرغم من أنّ الهجره قائمه إلی یومنا هذا إذا تعرضنا للضغوط،و افتتنا فی دیننا،إلاّ أنّه یلزم فی بعض الأحیان التحدی.

و هکذا یأمر اللّه نبیّه بأن یعلن للناس جمیعا إخلاصه لربه،و رفضه للأنداد،مما یعنی التمرد علی سلطات الجبّارین و إمره المترفین و قیاده الجهلاء.

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۴۸۱).

قُلْ إِنِّی أَمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ و هـذا أمر اللّه،فلا قـداسه و لا شـرعيه و لا حرمه لهـذه السـلطات الفاسده لأنّ اللّه لم يأمر بها،بل أمر برفضها حيث قال لرسوله:

مُخْلِصاً لَهُ الـدِّينَ مسـلما له وحـده،خاضـعا لمنـاهجه و شـرائعه فقط،و ما دام ذلک أمر اللّه فإنّ المؤمن باللّه يتحمّل کل أذى فی سبيل تطبيق هذا الأمر الإلهی،و اللّه يعينه عليه، و لا يقدر على تجاوزه دون التعرض لغضب اللّه و عذابه.

[۱۲]و مـا دام الأـمر من اللّه فلاـ يسـتمد شـرعيته من الناس فسواء أ آمن الآخرون أم کفروا،وافقونی على تمردی ضـد الأنـداد أم خالفونی فإنّی أواصل دربی.

وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَکُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أسـبقهم إلى التسليم للّه،دون النظر إلى الآخرين،کما قال السحره بعد أن آمنوا: لاٰ ضَيْرَ إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ* إِنّٰا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنٰا رَبُّنٰا خَطٰايٰانٰا أَنْ کُنّٰا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ . (۱)

بـالرغم من أنّهم لم يکونـوا فعلاـ أوّل المـؤمنين،فقـد آمن لموسـى ذريه من قـومه على خـوف من فرعـون و ملئه،و لکنهم فتحوا الطريق لغيرهم کی يؤمنوا.

[۱۳]قُلْ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّی عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و هذا بالغ ذروه الإنذار حيث يخشى رسول اللّه عذابا عظيما فکيف بنا.

۱- ۱) الشعراء/(۵۰-۵۱).

[۱۵-۱۴] قُلِ اللّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِی* فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ أمّا أنا فاعبد اللّه مخلصا له دینی،فاعبدوا ما شئتم.

هکـذا یتحـدی الرسول بـأمر اللّه أولئک الجاهلین الـذین اتخـذوا أهواءهم آلهه فعبـدوا ما شاؤوا،و هـذا هو خلاصه الإخلاص و صفوه التوحید،و حین یبلغ المرء هذا المستوی الأرفع من الإخلاص لا یخشی أحدا و لا یخضع لشیء فإنّه:

أوّلا:یضـمن حریته التامه،و استقلاله الشامل،لأنّ الأعداء لن یجدوا فیه ثغره یستعبدوه من خلالها،فلا المال و الجاه و الثناء یغریه و لا السجن و التهجیر و الإعدام یخیفه.

ثانیا:إنّه یضمن استقامته علی الطریق دون تعب،لأنّ النفس یؤلمها مخالفه الناس،و ملامتهم و جراحات ألسنتهم،أمّا هو فقد تعالی بإذن اللّه عن لومه اللائمین،و لدغات الجاهلین.

ثالثا:لا یکون شنآنه و براءته من الناس بعصبیه أو ظغینه،بل لفرط حبه للّه و حبه للناس فهو یستقبل من یئوب إلی الحق بترحاب،و هکذا لا یستمرئ الاعتزال،و لا یجعل بینه و بین الناس حجابا من الکبریاء و العصبیه.

قُلْ إِنَّ الْخٰاسِرِینَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ أَلاٰ ذٰلِکَ هُوَ الْخُسْرٰانُ الْمُبِینُ نعم.یخسر الإنسان فی ذلک الیوم کلّ شیء،نفسه حیث لا یتمتع شیئا، و یخسر أهلیه فلن یراهم فی ذلک الیوم إذا کانوا مؤمنین،و یحرم من شفاعتهم،لأنّه لا

تنفع الشفاعه إلاّ لمن ارتضى،و إن كانوا معه فى جهنم،فلكل امرء منهم شأن يغنيه،و يا لها من خساره كبرى.

[۱۶]و بعد ذلک یبیّن اللّه لنا عذاب أولئک الذین خسروا أنفسهم و أهلیهم، أنهم یعیشون فی ظلل النار فی أسفل طبقاتها،و لعل فی هذه إشاره إلی ما فی الدنیا فما فی الآخره تجسید للدنیا،فقد کانوا واقعین تحت الحجب،من حجب الشهوات،الی حجب الثقافه الجاهلیه،و الخضوع للطاغوت.

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ إنّه محاط من فوقه و من أسفل منه بالنار،و ربما کان قوله:« وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » دلاله علی أنّ هناک من هم أسفل منهم فی النار مثل أصحاب التابوت و غیرهم.

ذٰلِکَ یُخَوِّفُ اللّهُ بِهِ عِبٰادَهُ یٰا عِبٰادِ فَاتَّقُونِ اتقوا عذابی و غضبی،و تجیب الآیات التالیات کیف نجتنب غضبه.

ص:۴۵۳

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۱۷ الی ۲۱]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ اِجْتَنَبُوا اَلطّاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَی اَللّهِ لَهُمُ اَلْبُشْری فَبَشِّرْ عِبادِ (۱۷) اَلَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ اَلْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِکَ اَلَّذِینَ هَداهُمُ اَللّهُ وَ أُولئِکَ هُمْ أُولُوا اَلْأَلْبابِ (۱۸) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَیْهِ کَلِمَهُ اَلْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِی اَلنّارِ (۱۹) لکِنِ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِیَّهٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ وَعْدَ اَللّهِ لا یُخْلِفُ اَللّهُ اَلْمِیعادَ (۲۰) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّهَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً فَسَلَکَهُ یَنابِیعَ فِی اَلْأَرْضِ ثُمَّ یُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِأُولِی اَلْأَلْبابِ (۲۱)

اللغه

۲۱[یهیج]:یجف الزرع و ییبس،من هاج أی ثار،فکأن البنان یثور عن حاله الأولی.

ص:۴۵۴

هدی من الآیات:

یستمر السیاق فی بیان نموذجین من الناس و یقارن بینهما لنعرف أنهما لیسوا سواء فی الجزاء،و لکی نزداد وعیا بهما فعبر مقارنه النور بالظلام نتبصّر بحقائقهما، و قد نزل القرآن مثانی یفرق أبدا بین الحق و الباطل،الصلاح و الفساد.

و حین شرح اللّه صفات القانتین-و هم أئمه الهدی-و میّزهم عن أصحاب النار من أئمه الکفر،عاد إلی بیان أشیاعهما،فهناک من یجتنب الطاغوت، و یستمع القول فیتبع أحسنه،و هناک من حقّت علیه کلمه العذاب.

و یذکّرنا الدرس بالعقل الذی هو لبّ الإنسان،و الذی یهدی به اللّه قوما فیجعلهم من أصحاب الجنه لهم غرف من فوقها غرف،و یوقظ العقل بآیات اللّه فی الخلیقه حیث یـذکّرنا بالدوره النباتیه التی تبدأ بنزول الغیث،و اختزان الماء فی الینابیع،و إخراج الزروع المختلفه،و تنتهی بالحطام.

بينات من الآيات:

[١٧]من هو الطـاغوت؟ كـلّ من فرض نفسه زورا على الآـخرين يعتبر طاغوتا،إذ قـد يطغى المرء فى حـدود نفسه فلا يعبـد اللّه و يتجبّر و يتكبّر،و يسمّى طاغيا،و يقول عنه الرب:

إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنىٰ .

و قد يتجاوز حدود ذاته إلى الآخرين،فيحاول منع الناس عن عباده اللّه، و يدعوهم إلى عبادته،فيكون قد بالغ فى الطغيان،فيسـمى ب(الطاغوت)لأنّ هذه الصيغه تعنى المبالغه،كما نقول ملكوت مبالغه فى الملك،و جبروت مبالغه فى السيطره،و الرحموت مبالغه فى الرحمه.

و مـا هى عبـاده الطـاغوت؟ قليـل من الشـعوب الخاضـعه لحكم الجبـابره كانت تزعم أنّهم آلهه فيسـجدون لهم تعظيما،إنّما كان يستسلم أكثرهم للطاغوت رهبا و رغبا،أو استرسالا،و هكذا اعتبر طاعتهم لها عباده و خضوعهم سجودا.

قال الإمام الصادق-عليه السلام-(حسب روايه أبى بصير)و هو يخاطب المؤمنين :

«أنتم هم،و من أطاع جبارا فقد عبده » (١)و كيف يجتنب الطاغوت؟

ص:۴۵۶

١- ١) المصدر/ص(۴٨١).

الطاغوت حقيقه قائمه فی کلّ مکان تقریبا،فإنّی تولّیت وجدت سلطه شیطانیه مفروضه،و شبکه فاسده من أنصاره و تابعیه،و المؤمن هو الذی یجتنب هذا الوضع،و یطهّر نفسه من تأثیراته الفاسده،فهو إذا یثور علی الطاغوت،و یتحدّاه حتی لا- تشمله سیئاته،و هذا بعض معانی الاجتناب،و لکن آثار الطاغوت السلبیه تنتشر فی کل مکان،و تصیب المؤمنین برذاذها شاؤوا أم أبوا،فهذه أنظمته الاجتماعیه و الاقتصادیه،و تلک أفکاره الجاهلیه تملأ المحیط الذی یعیشه المؤمنون و لا بد أنهم یخضعون لها حینا من الأحیان.

فما ذا یصنعون؟ إنّ علیهم الإنابه إلی اللّه فی کلّ حین،فکلّما هزمتک ضغوط السلطه الفاسده نفسیّا،و ملت إلیها أو خضعت لقوانینها،أو مالأتها خشیه بطشها أو رغبه عطائها فلا بد أن تعود إلی طهرک،و تتوب إلی اللّه متابا،لتکون لک البشری علی لسان نبیّک المرسل.

وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطّٰاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوهٰا وَ أَنٰابُوا إِلَی اللّٰهِ لَهُمُ الْبُشْریٰ و یدخلک اللّه فی حصن عبودیته.

فَبَشِّرْ عِبٰادِ [۱۸]لا- یفرض الطاغوت علی الناس هیمنته حتی ینشر بینهم فلسفته،فهو کمدخنه کبیره تنفث دائما تیارا من الدخان الأسود فتلوّث الأجواء.

إنّ أجهزه إعلامه السلطویّه تبثّ بین الناس الأفکار الشرکیه التی تبعدهم عن

ربهم،و تشيع فيهم أفكارا باطله تسلبهم ثقتهم بأنفسهم،و تفرّق كلمتهم و تضعهم فى هاله من الأمنيات،و تشيع فيهم أنه مرهوب الجانب،و قراراته صائبه،و هو رجل إلهىّ مقدّس.

كما أنّها تبث فيهم العصبيّات العرقيه و القبليه و القوميه،و تحمد إليهم أصنام التراث و أنصاب المصالح الماديه.

و حول الطاغوت يتحلّق طائفه من تجّار الدين و العلم،يوحون إليه بالمكر، و يزيّنون له باطله،و يلمّعون للناس وجهه.

و هكذا يصبح التخلّص من دائره نفوذ الطاغوت عملا عسيرا يحتاج إلى همه و اجتهاد،و لعلّ هذا ما تشير إليه كلمه«و اجتنبوا»فى الآيه السابقه،و التى تتخصّص فى هذه الآيه باجتناب الثقافه الطاغوتيه إذ يقول ربنا:

اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ و هكذا يصف الذين تجانبوا الطاغوت و تأثيراته الشركيه بأنّهم لا يتبعون أىّ قول بل أحسنه.

و لكن كيف يتم ذلك؟ أولا:إنّ عباد اللّه يتعاملون مع القول الذى يعبّر عن الفكره باهتمام منهم،لا يسمعونه بل يستمعون اليه،و فرق بينهما كبير،فالسماع لا اهتمام فيه بعكس الاستماع،و هكذا

جاء فى الحديث:

«كونوا نقّاد الكلام»

ثانیا:إنّهم یمارسون التعقّل و التفکّر لیعرفوا أحسن الحدیث،و بذلک یمیّزون بین الردیء و الجید و بین الحسن و الأحسن،فلا یکتفون بمعرفه الجید بل یسعون لمعرفه الأحسن وفق قیم العقل و الوحی،ذلک أنّ أحسن القول هو الأصلح لدنیاهم حسب هدی العقل و الأنفع لأخراهم حسب هدی الوحی.

ثالثا:فإذا عرفوا الأحسن اتبعوه،و لم یبحثوا عن العلم للعلم بل للعمل،و لم یتعلّموا العلم لینقلوه الی غیرهم بل لیعملوا به أوّلا.

أُولٰئِکَ الَّذِینَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ إنّهما حجتان فی حجه،حجه الوحی و حجه العقل،و هما تجلّیان لنور اللّه، الذی أودعه بقدر فی ضمیر کل بشر،و أنزله بهیّا عبر رسالاته،و قد تجلّی هذا النور فی ضمیر هؤلاء لأنّهم اتبعوا أحسن القول.و هکذا هدی اللّه یتنزّل علی قلب من یسعی إلیه و یتبعه، أو لم یقل ربنا سبحانه: وَ الَّذِینَ جٰاهَدُوا فِینٰا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنٰا و باطل أمنیه أولئک الذین ینتظرون الهدی من دون سعی و جهاد.

و استوحی من الآیه فکره اعتبرها مفتاحا لغیب الکتاب الحکیم،و هی:إنّ کل کتاب ربنا حسن،إلاّ أنّ الناس یختلفون فی مدی الانتقاع به،فبعضه بالنسبه الی البعض أحسن من غیره لحاجته الملحه إلیه،و مثل القرآن مثل أنواع الطعام متشابه فی فائدته و روعته و لذته إلاّ أنّ الناس یختلفون فی انتفاعهم به.

فمثلا:آیات الجهاد تتجلّی فی عصر التحدیات أکثر من آیات الصبر،بینما تتجلّی آیات الإنفاق للأغنیاء بقدر تجلّی آیات العفاف للفقراء.

و معرفه الظروف الاجتماعیه و الشخصیه تکون بالعقل،فهو لیس دلیلا مستقلا بین الأدله الشرعیه بالإضافه الی الکتاب و السنه و الإجماع،بل هو النور الذی یعرف

ص:۴۵۹

به الكتاب،و به نميّز السنه،و به نثق بالإجماع،فلو لا العقل كيف نهتدى الى معانى الكتاب،و كيف نصدّق أو نكذّب بالرواه الذين نقلوا إلينا السنه،و كيف يعكس الإجماع لنا السنه؟ [١٩]و بعكس المؤمنين،فإنّ غيرهم حين استسلم لضلاله الطاغوت حقّت عليه كلمه العذاب حين أضلّه اللّه،و سلبه هدى عقله بعد أن أساء التصرّف معه.

أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَهُ الْعَذٰابِ و أضلّه اللّه و ألزمه التيه لأنّه لم ينتفع بعقله و لم يتّبع هدى ربه.

أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النّٰارِ إنّه لا يتخلّص من النار أبدا،لأن وسيلته الوحيده للإنقاذ رحمه اللّه و هو محروم منها.

[٢٠]ذلك كان جزاء الذين اتبعوا الطاغوت.أمّا الذين اتقوا فى الدنيا فهم يحبرون فى الجنه.

لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ و هى البيوت المرتفعه.

مِنْ فَوْقِهٰا غُرَفٌ مما يشبه العمارات المبنيه بإتقان ذات طوابق عديده.

مَبْنِيَّهٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ

ص:۴۶۰

و الذی یضمن هذا الجزاء الحسن لهم هو وعد اللّه.أ تری یخلف اللّه وعده؟ وَعْدَ اللّٰهِ لاٰ یُخْلِفُ اللّٰهُ الْمِیعٰادَ و

یشوّقنا الرسول-صلّی اللّه علیه و آله-الی تلک الجنه فی تفسیره للآیه فیقول فی جواب علی-علیه السلام-حین سأله عن تفسیر الآیه:

«بماذا بنیت هـذه الغرف یا رسول اللّه؟فقال:یا علی تلک غرف بناها اللّه لأولیائه بالدر و الیاقوت و الزبرجد،سقوفها الذهب،محبوکه (۱)بالفضه،لکل غرفه منها ألف باب من ذهب،علی کل باب منها ملک موکّل به،و فیها فرش مرّفوعه، بعضها فوق بعض من الحریر و الدیباج بألوان مختلفه،حشوها المسک و العنبر و الکافور،و ذلک قول اللّه: وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَهٍ فإذا دخل المؤمن الی منازله فی الجنه وضع علی رأسه تاج الملک و الکرامه،و ألبس حلل الذهب و الفضه و الیاقوت و الدر منظوما فی الإکلیل تحت التاج،و ألبس سبعین حله حریر بألوان مختلفه،منسوجه بالذهب و الفضه و اللؤلؤ و الیاقوت الأحمر،و ذلک قوله: یُحَلَّوْنَ فِیهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِیهٰا حَرِیرٌ فإذا جلس المؤمن علی سریره اهتز سریره فرحا،فإذا استقرت بولیّ اللّه منازله فی الجنه استأذن علیه الملک الموکل بجنانه لیهنئه بکرامه اللّه إیّاه،فیقول له خدّام المؤمن و وصفاؤه (۲):

مکانک فإنّ ولیّ اللّه قد اتکی علی أریکته و زوجته الحوراء العیناء قد ذهبت الیه فاصبر لولیّ اللّه حتی یفرغ من شغله » (۳)[۲۱]حین نتأمل فی نعم اللّه المبثوثه حولنا نزداد إیمانا بصدق وعد ربنا بنعم الجنه التی هی أنقی و أبقی.

۱- ۱) حبکه:شدّه و أحکمه.

۲- ۲) وصفاء جمع الوصیفه:الجاریه.

۳- ۳) المصدر/ص(۴۸۳).

تعـالوا إلى الروابى لننظر الى الغيث حين ينزل على الأـرض فينشـر اللّه عليهـا بركاته.تـأملوا فى طبقـات الأـرض،و أمعنوا النظر فى القنوات التى جعلهـا اللّه فيهـا و فى الأـحواض الكبيره التى تنتهى إليها فتختزن مياه المطر بعـد تنقيتها فى جوف الأرض ثم تتفجّر ينابيع مستمره على مدار السنه..أو لا تشهدون يد القدره الإلهيه التى نظّمت الخليقه أحسن تنظيم؟! أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً كيف سخّر الرياح لحمل السحب الثقيله من أعالى البحار،و كيف مرّرها بتيارات بارده،و كيف لقّحها بعواصف الرياح الهوج فى جوّ السماء؟!ثم كيف هداها الى حيث أمرها بإلقاء حملها؟!تبارك اللّه ربّ القدره و الرحمه.

و الماء هو الماء،و لكنّه ينقسم الى ما يصرف آنيا،و ما يختزن فى باطن الأرض.

فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ فِي الْأَرْضِ من الربيع الى الخريف،و من الشتاء الى قيض الصيف.

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ فإذا بالماء الواحد يجعله اللّه نباتات مختلفه.

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰاهُ مُصْفَرًّا فحين تينع الثمار،و تيبس الحبوب،لا تستقر فى مواقعها،بل تميل الى الصفره بعد الخضره استعدادا لحصادها.

ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطٰاماً

ص:۴۶۲

یابسا تـذرّه الریاح،و الحطام ما یتفتت من النبت،أو لا ترون آثار القـدره و التـدبیر فی کلّ هـذه الدوره الحیاتیه السـریعه؟! إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَذِکْریٰ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ یعرفون اللّه من خلال آیاته،و یعرفون صـنع اللّه فیما یأتی من خلال صـنعه فیما مضـی،و یعرفون سنه اللّه الواحـده فی الخلق فکمـا تمرّ النباتات بالـدوره الحیاتیه یمر الإنسان بـذات الـدوره،و علیه أن یسـتعدّ للرحیل،و یتزوّد للمسـیر بالتقوی،و یأخذ من دار الغرور لدار الجزاء.

و کلمه أخیره:إنّ هـذه الـدوره النباتیه تعکس النبات فی حالتین:عنـد ما یزهو فی اخضـراره،و حینما یکون حطاما.إنّه ذات النبات یمر بحالتین،کذلک الإنسان قد یکون فی ذروه إیمانه و قد یکون فی حضیض الکفر.هل یستویان مثلا؟!

[سوره الزمر (٣٩): الآیات ٢٢ الی ٢٩]

اشاره

أَ فَمَنْ شَرَحَ اَللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اَللّٰهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٢٢) اَللّٰهُ نَزَّلَ
أَحْسَنَ اَلْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اَللّٰهِ ذٰلِكَ هُدَى اَللّٰهِ
يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (٢٣) أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ اَلْعَذٰابِ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتٰاهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذٰاقَهُمُ اَللّٰهُ اَلْخِزْيَ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ لَعَذٰابُ
اَلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا اَلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكٰاءُ مُتَشٰاكِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيٰانِ مَثَلاً اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ
يَعْلَمُونَ (٢٩)

اللغه

٢٣[مثانی]:جمع مثنی أی أنّ قصص هذا الکتاب و إخباراته و أحکامه تذکر مثنی مثنی فی قوالب مختلفه للترکیز فی الأذهان.

۲۹[متشاكسون]:التشاكس التمانع و التنازع،و أصله من الشكاسه و هو سوء الخلق و الاختصام.

ص:۴۶۵

هدى من الآيات:

من تجلّيات الإعجاز البلاغى فى كتاب ربّنا أنّه مثانى تقشعرّ منه جلود الذين آمنوا،و من معانى المثانى أنّه يتابع سلسلتين من الأفكار متداخلتين يتحدّث عنهما معا فى سياق آياته بنظم دقيق و منهج متين،ذلك أنّه من اللّه الذى لا يشغله شىء عن شىء.

و هنا نجد السياق فى ذات الوقت الذى يتابع الحديث عن فوارق النمطين من الناس:فهناك من شرح اللّه صدره للإسلام،و هناك من قسى قلبه من ذكر اللّه، و يتقى بوجهه سوء العذاب،و يكذب باللّه ليلقى جزاءه خزيا فى الدنيا،فى ذات الوقت يبيّن خصائص القرآن و كيف تتلقّاه النفوس الطيبه،و كيف يضرب اللّه فيه من كلّ مثل للناس لعلّهم يتذكرون.

ص:۴۶۶

بینات من الآیات:

[۲۲]ما هی المعرفه،و کیف یتخلّص البشر من رواسب الجهل،و لماذا نجد البعض یرتفعون الی أعلی درجات الإیمان بینما یهبط الآخرون الی الحضیض فی الکفر؟ للقرآن بصیره واضحه فی المعرفه تتلخص فی أنّ محل العلم القلب،فإذا کان منشرحا ازداد معرفه و إیمانا،بینما القلب القاسی لا یتّسع للمعرفه.

أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ ما هو الصدر المنشرح بالإسلام؟ الإسلام هو التسلیم للّه لسنن اللّه لشرائع اللّه و للحق أنّی کان،فإذا شرح اللّه الصدر خشع له و لان لکلمات اللّه و وسعها کما تخشع الأرض الطیبه لماء السماء، کما تلین التربه الصالحه لنبته مبارکه،کما تستقبل الزهور النسیم العلیل،بینما القلب القاسی کالصخره الصمّاء لا یتسع لمعارف الحق،و لا یهتزّ لوابل السماء، و لا ینبت زهره،و لا یستقبل نسمه.

هکذا

أوصی نبیّنا الأکرم ابن مسعود فقال له:«یا ابن مسعود!فمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو علی نور من ربّه،فإنّ النور إذا وقع فی القلب انشرح و انفتح.

فقیل یا رسول اللّه:فهل لذلک علامه؟فقال:نعم،التجافی عن دار الغرور، و الإنابه الی دار الخلود،و الاستعداد للموت قبل نزول الفوت،فمن زهد فی الدنیا قصر أمله فیها،و ترکها لأهلها » (۱)

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۷۷)ص(۹۳).

فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فبالنور الربّانی یتصل صدر الإنسان بعالم الحقائق،فیتسع لها،و ینشرح بها، و نور اللّه هو العقل المستضیء بالوحی،و لعل التعبیر ب«علی»للإیحاء بأنّ المؤمن ماض علی صراط مستنیر،کقوله سبحانه: أُولٰئِکَ عَلىٰ هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ .

و یمکن أن نستوحی من الآیه:أنّ للقلب حالتین:فهو ینغلق علی ذاته فلا یری إلاّ نفسه فیعیش فقط ضمن مصالحها و تمنیاتها و أوهامها،و یرید العالم المحیط لذاته،فیکون قاسیا و مع الهوی متقلّبا،و بالرین و الطبع متلبّسا،لا یعترف بقانون، و لا یؤمن بسنه،و یکون مثله من یعیش فی بیت و یزعم بألاّ أحد یمکث فیه معه، فیفعل فیه ما یشاء،و یتحلّل من کلّ التزام،و أمّا الحاله الثانیه فهی الخروج من زنزانه الذات الی رحاب الحقیقه،حیث یعیش فی عالم واقعی یعترف بوجوده، و یسعی للتعرف علیه و التکیف معه،ان مثل صاحبها کمن یدخل بلدا و یعلم أنّ فیه أناسا لا بد أن یعایشهم،و أنّ لهم قوانین لا بد من الالتزام بها،و هکذا لا یضیق ذرعا إذا تعرّف علیهم و عرف حقوقهم،بل أنّه یستقبلهم بترحاب،و یخضع لنظامهم بلا تردّد.

و إذا کانت الحاله الأولی تعکس الجمود و التخلّف و الجهل و الفوضی،فإنّ الحاله الثانیه هی ذروه النشاط و الرقی و العلم و الالتزام.

فَوَیْلٌ لِلْقٰاسِیَهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِکْرِ اللّٰهِ اللّه الذی وسعت کلّ شیء آیات رحمته و قدرته و عظمته،مع ذلک تری قلوبهم قاسیه من ذکره،فکیف سائر حقائق الخلق؟أ رأیت من عمی عن ضوء الشمس هل یری شمعه؟!کذلک حین قسی القلب عن ذکر اللّه فلا یرجی أن ینشرح لمعرفه

شیء.

أُولَئِکَ فِی ضَلاَلٍ مُبِینٍ یحیط بهم الضلال المبین کما یحیط بأولئک نور اللّه.

[۲۳]من أبرز معالم شرح الصدر استقبال نور اللّه فی القرآن،فلقد أنزل اللّه أحسن الحدیث،اختصر الجمال و الروعه و البلاغه و العلم و الهدی و النور،و تجلّی فیه الربّ حتی رأت فیه قلوب المؤمنین جمال ربّهم کما رأت أعینهم جمال صنعه.

اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ إنّه مرآه تعکس روعه الخلق و جمال الخالق و أحسن الخلق و أنبل الأعمال..

کِتاباً منتظما فی وحده متماسکه،مجموعا الی بعضه بتماسک لا ثغره فیه و لا فطور، و لا تناقض و لا اختلاف.

مُتَشابِهاً بعضه یشهد علی بعضه و یفسره و یبینه،و فی ذات الوقت لا یرقی الی کنه فهمه عقل،و لا ینفذ فی غور علمه أحد،و کلّما تلوت آیاته استفدت علما جدیدا و هدی طارفا،و ما أوتیت من علم فهو بالنسبه إلیک محکم،و لکن یبقی ما لم تؤت من علم کالمحیط الواسع لا تتناهی عجائبه و لا تنقضی غرائبه.

مَثانِیَ فنجد فیه:

ص:۴۶۹

أوّلا:مفارقات بين الخالق و المخلوق،بين الحق و الباطل،بين المحسن و المسیء،كما يذكّرنا بالمفارقات الظاهره بين النور و الظلام،بين الظل و الحرور، بين الحريه و العبوديه،و.و.

و لعل سوره الزمر قد بلغت الذروه فی هذا التميّز،بالذات بين الناس حيث تجلت فيها صفه(الفرقان)فی معرفه الصالحين و تزيّلهم عمن سواهم.

ثانيا:مقارنات بين أزواج الطبيعه،بين الذكر و الأنثى،بين السماء و الأرض،البر و البحر،الإنسان و الحيوان،الزيتون و الأعناب،الفاكهه و الأب، و هكذا.

ثالثا:شواهد و أمثله،فما من حقيقه يذكّر بها كتاب ربّنا إلا و تثنّى بتفسيرها و دليلها و مثالها، فما تتلو فيه من آيه حتى تجد فی السياق عاده أو فی موقع آخر تبيانا لها،فإذا ذكرت عاقبه المتقين ضربت لها أمثله من جزائهم عند اللّه و انتصارهم فی الدنيا،و إذا ذكرت من صفات المتقين واحده ثنّيت بشواهدها من حياه النبيين- عليهم السلام-،و إذا ذكرت حقيقه من حقائق التوحيد توالت شواهدها.

فمثلا حين ذكر السياق شرح الصدر بالإسلام بين مثله فی خشوع قلب المؤمنين لآيات الذكر.

و هكذا أشارت الآيات التاليه إلى أنّ القرآن ضرب للناس من كلّ شیء مثلا، فيكون المثل تثنيه كلّ حقيقه مذكوره فی القرآن.

هذا بعض معانی المثانی.

و لأنّه مثانی تشفع الحجه بالحقيقه فإنّ قلوب المؤمنين تصعق له،و تسرى فی

أعصابهم رعشه الخشيه،فتهتز تبعا-لذلک-جلودهم.

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ عند ما تواجه النفس حقيقه أكبر من سعتها تندهش بها و تحصل لصاحبها قشعريره،أمّا لاهتزاز الأعصاب أو لتجمع الدم حول القلب كما يحصل فی حالات الخوف الشديد.

و لأنّ هذا الفريق يخشون ربهم،و يعرفون شيئا من عظمته و كبريائه،و يعلمون أنّ الكتاب رساله اللّه إليهم،فلا تكاد قلوبهم تستقر لتجلياته الظاهره فی كتابه، و لولا أنّ اللّه يؤيدهم فی تلک اللحظه بروحه لتصدّعت قلوبهم كما اندک الجبل عند ما تجلّى الربّ له أمام موسى فخرّ موسى عليه السلام صعقا،أ رأيت تجلّى اللّه للجبل كان أعظم من تجلياته فی كتابه للرسول و المؤمنين؟ إنّما المؤمنون توجل قلوبهم بمجرد ذكر اللّه،فكيف لا- تصعق عند ما تتلى عليهم رساله اللّه إليهم،إنّه اللّه يتحدّث إليهم فكيف يصمدون،بلى.أنا و أمثالی الذين أحاطت الشهوات بقلوبنا لا نعرف ذلک،إلاّ إذا رفع اللّه الحجب و اتصل القلب بنور الربّ.

ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ إذا ذهبت آثار الصدمه،و تغلّب العقل بتأييد اللّه على هول المواجهه،لانت الجلود تعبيرا عن خشوع القلب،و استعدادا لاستقبال ضياء الهدى.

و قال المفسرون:إنّ قشعريره الجلد تعبير عن خشيتهم من عذاب اللّه،أما حين يلين فإنّه دليل على طمعهم فی رحمه اللّه،و هكذا يعيش قلب المؤمن بين الخوف

و الرجاء.

و قال الفخر الرازى:إنّ المقامين المذكورين فى الآيه«تقشعر و تلين»لا يجب قصرهما على سماع آيه العذاب و الرحمه،بل ذاك أوّل المراتب،و بعده مراتب لا حد لها و لا حصر فى حصول تلك الحالتين.

ثم تناول هذا المفسر الكبير الفرق بين حاله المؤمنين عند تلاوه الكتاب،و حاله الوجد الصوفيه عند سماع أشعار الهجران و الوصل،و قال:إنّ الشيخ أبا حامد الغزالى أورد مسأله فى كتاب«إحياء علوم الدين»و هى أنّا نرى كثيرا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتمله على شرح الوصل و الهجر،و عند سماع الآيات لا يظهر عليه شىء من هذه الأحوال،ثم إنّه سلم هذا المعنى و ذكر العذر فيه من وجوه كثيره، و أنا أقول:إنّى خلقت محروما عن هذا المعنى،فإنّى كلّما تأمّلت فى أسرار القرآن اقشعرّ جلدى،و وقف علىّ شعرى، و حصلت فى قلبى دهشه و روعه،و كلّما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علىّ،و ما وجدت البته فى نفسى منها أثرا،و أظن أنّ المنهج القويم و الصراط المستقيم هو هذا،ثم ذكر وجوها فى بيان ذلك تتلخّص فيما يلى:

أولا:إنّ تلك الأشعار لا تليق بمقام الخالق،و إن إثباتها فى حقّه كفر.

ثانيا:إنّ قائل القرآن هو اللّه عبر جبرائيل إلى الرسول إلينا،بينما قائل تلك الأشعار شاعر كذّاب مملوء من الشهوه و داعيه الفجور.

ثالثا:إنّ مدار القرآن الدعوه الى الحق،و مدار الأشعار الباطل. (۱)

و أقول:إنّ تلك الأشعار تثير شهوات البعض،و تدغدغ عواطف الهوى المكبوته

۱- ۱) راجع التفسير الكبير/ج(۲۶)ص(۲۷۳).

لديهم،بينما تستثير آيات الذكر دفائن العقول،و تجلى القلوب من رين الشهوات، و كلّ إناء بالذى فيه ينضح.

ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ و أنّ أولئك الذين يبحثون عن سبل الزلفى الى اللّه عبر الأشعار الجاهليه و الطرق غير الشرعيه لا يهديهم اللّه اليه،بل يضلّهم لأنّهم لم يتبعوا الوسيله التى بيّنها لعباده.

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ فمن شاء أن يهتدى إلى ربّه سبيلا فعليه أن يتوسّل به إليه،و بأوليائه الذين جعلهم وسائل رحمته،و ألّا يخترع لنفسه مذهبا فيضلّه اللّه،و أن يعلم أنّ اللّه يدلّ على ذاته بذاته،و لا شىء أظهر دلاله منه و لا شفيع إلّا من بعد إذنه،و هكذا يخلص النيه لربه،و حاشا للّه أن يخيب ظنّ عبده به.

[۲۴]و يعود القرآن الى مفارقته بين من يتقى به فى الدنيا فينجيه اللّه من عذاب النار،و بين من لا يتقى و لا يجد هناك شيئا يحتجز به عن النار،فتراه يضطر الى اتقاء النار بوجهه.

أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذٰابِ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ أىّ عذاب هائل ذلك العذاب،حين تتميّز جهنم غيضا،و تتفجر فيها النيران تفجّرا،و يأتى المجرمون لا يملكون من الثواب ما يقيهم النار،فتتعرض وجوههم لها،تلك الوجوه التى اعتزوا بها و بإثمها فى الدنيا،و صانوها بأيديهم و بما يملكون.

وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

ص:۴۷۳

إنّ الفواحش التی یرتکبها الظالمون فی الدنیا تتجسد فی صوره نیران ملتهبه و عقارب و حیات.أ رأیت الذی یصنع القنبله النوویه بیـده ثم یفجّر نفسه و البلاد کیف أنّه حین یصـنعها لا یتصور بسـهوله هول عـذابها،کـذلک المجرمون حین یزنون أو یغتابون أو یأکلون أموالهم بینهم بالباطل أو یؤیّدون الطاغوت لا یتصوّرون أیّ عذاب شدید یکتسبونه و یعدونه لأنفسهم فی یوم القیامه.

[۲۵]و کما هو فی الآخره کـذلک فی الـدنیا،فمن بنی السدّ و طغی به عذّب به، کما أنهار سد مأرب،و من عبد الحجاره،أو اتخذ من الجبال أکنانا عذّب بها کما عاد و ثمود،و من عبد الماء أغرق فیه کقوم فرعون.

کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَشْعُرُونَ فمن کذّب بآیات اللّه و صدف عنها أتاه العذاب من حیث لا یشعر،و علینا أن نراجع قصـص القرآن کیف عـذب اللّه الأقوام،فهل کان یتصور فرعون أنّ موسـی علیه السـلام الـذی ربّاه فی بیته یکون فنـاء ملکه علی یـدیه؟!کلاّـ..و هل کان یعلم فرعون و ملؤه الـذین عبـدوا الماء،فکانوا یرمون فی النیل بأجمل فتیاتهم لإرضائه،و کـان فرعـون یفتخر بالأنهـار الـتی تجری من تحته،و کـانت حضـارتهم قـائمه علیه،هـل کـانوا یعلمـون بـأنّهم سـوف یغرقون فی معبودهم و أساس تحضّرهم.إنّ الذی یکذّب بآیات اللّه یکون هلاکه بالقوه التی یعتمد علیها(یعبدها).

[۲۶] فَأَذَاقَهُمُ اللّٰهُ الْخِزْیَ فِی الْحَیَاهِ الـدُّنْیَا لأنّهم کانوا یسـتکبرون،و لا یعترفون بشـیء غرورا،و الآن یجب أن یلاحقهم الخزی و العار،هذا فی الدنیا...

وَ لَعَذَابُ الْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کَانُوا یَعْلَمُونَ

ص:۴۷۴

أكبر خزيا و ألما،و الإنسان يهرب من عذاب الدنيا فكيف لا يهرب مما هو أكبر منه؟! [۲۷]و بعد ذلک يذکّرنا الربّ بأنّه ضرب لنا الأمثال،من قصص الأنبياء و أممهم.

و هی وقائع خارجيه جسّدت القيم التی يبشّر بها القرآن و هذا المعنى المثل أی التطبيق الخارجی للحقيقه.

وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِی هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَکَّرُونَ و التعبير«بکل مثل»يدلّ على أنّ فی القرآن إشاره الى کلّ الحقائق،و ذلک عبر أمثله واقعيه لها،فإنّی تفکّرت فيه مما يتصل بالخلق و الخالق و الصله بينهما وصله الخلق ببعضهم و غيرها مذکور فی القرآن و مفصّل بالأمثله التی لا تقتصر على حياه الشعوب السابقين بل و تشمل إشارات الى الطبيعه و أحوالها.

[۲۸]و بعد ذلک يأخذنا الربّ الى صفات ذلک القرآن الذی يضرب فيه من کلّ مثل،و يذکر له صفات ثلاث:

۱-قرآنا:مقروءا،يوصلنا بالماضی،و يفصّل لنا الحاضر،و يرسم خريطه المستقبل.

۲-عربيّا:بلغه مفهومه،فأعرب الکلام أفصح عنه،و يقال أعرب فلان عن أستيائه أی بيّنه،و العربی هو الذی يکون فصيحا بليغا.

۳-غير ذی عوج:ليس به انحراف يمنه أو شمالا،شرقا أو غربا،ذلک أنّ

من أسباب الانحراف الجهل و الهوى و الاستسلام للضغوط،و تعالى اللّه عن كلّ ذلك،و هكذا يفصح القرآن عن الحقائق بصوره مباشره.

قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ و هذا هدف القرآن،إنه يريد منا أن نتقى اللّه و نخافه،و نعمل بمضمون التقوى من إصلاح دنيانا و أخرانا.

[۲۹]و من أمثله القرآن التى تقرّب الى أذهاننا قبح الشركاء اشتراك مجموعه فى امتلاك شخص.

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ هل يستوى عبد يملكه أكثر من مالك و عبد يملكه رجل واحد؟!كلّا...لأنّ فى الثانى كل مالك يريد أن يجيّره لحسابه على حساب الآخرين،و قد بيّن البارى ذلك فى قوله: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ (۱)و قال تعالى: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ (۲)و قال تعالى عن استحاله الأشباه و الأعضاد: مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ (۳).

و هناك مثال من واقعنا:حيث تعيش بعض الدول المستضعفه فى إطار ولاءات مختلفه فتتصارع عليها قوى الشرق و الغرب،و قد يجرى الصراع على أراضيها و بأيديها،و يكون بالتالى الغرم لها و المكاسب للأسياد،و آخر مثال على ذلك ما

۱- ۱) ص/(۲۴).

۲- ۲) الأنبياء/(۲۲).

۳- ۳) المؤمنون/(۹۱).

یجری حتی الیوم فی کمبودیا حیث تتصارع قوی عالمیه عدیده علی أراضیها و بأبنائها و لکن لمصالح الأجانب،و قد هدّمت البلاد و قتل من الشعب الکمبودی زهاء ثلاثه ملایین بشر.

و لیست الآلهه التی تعبد من دون اللّه سوی رموز للقوی السیاسیه و الاجتماعیه التی تتصارع علی استعباد البشر فتجرّ إلیه الویلات،و ما یخلصنا سوی التحرر من عبادتها و التمرّد علی سلطانها للنجاه من مشاکساتها و حروبها التی تطحننا الیوم طحنا.

وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ یَسْتَوِیٰانِ مَثَلاً کلاّ...إنّ الرجل الذی یقوده شخص واحد باسم اللّه و لا تتداخل فیه شهوات الآخرین و لا ضغوطهم و لا مصالحهم یعیش دائما فی حریّه مستقیما فی طریق واحد،لا تعصف به الاختلافات،و لا تتحکّم فیه الفوضی،و لا یواجه مشکله تعدد الولاءات،إنّه لا یخاف الصراعات و لا تنافس القوی علیه،إنّه یعیش بعیدا عن أهواء الشیاطین و أطماع الحکام.

جاء فی الحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال :

و أنا السلم لرسول اللّه(ص)یقول اللّه عزّ و جلّ:«و رجلا سلما لرجل » (1)و

عن أبی جعفر علیه السلام فی الآیه قال :

«سلما هو علی علیه السلام لرجل هو النبی(ص)و شرکاء متشاکسون:أی مختلفون، و أصحاب علی مجتمعون علی ولایته » (2)

ص:477

1- 4) تفسیر البرهان/ج(4)ص(75).

2- 5) المصدر.

اَلْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ فلا يفرّقون بين الذين يوحّد اللّه و يخضع فقط لأوليائه و من تستعبده قوى السلطه و الثروه.

و هكـذا ضـرب اللّه لنـا مثلاـ للتوحيـد من واقع الحيـاه الاجتماعيه و السياسـيه،و ميّز بين نمطين من الحياه،حياه الاسـتقلال و حياه العبوديه،و ذلك تكميلا لبيان المفارقات فى سوره الزمر.

ص:۴۷۸

[سوره الزمر (٣٩): الآيات ٣٠ الی ٤١]

اشاره

إِنَّکَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّکُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَبَ عَلَی اَللّهِ وَ کَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَيْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْکافِرِينَ (٣٢) وَ اَلَّذِی جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِکَ هُمُ اَلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِکَ جَزاءُ اَلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُکَفِّرَ اَللّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ اَلَّذِی عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ اَلَّذِی کانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَ لَيْسَ اَللّهُ بِکافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَکَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَ مَنْ يَهْدِ اَللّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اَللّهُ بِعَزِيزٍ ذِی اِنْتِقامٍ (٣٧) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللّهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ إِنْ أَرادَنِیَ اَللّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ کاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِی بِرَحْمَهٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِکاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِیَ اَللّهُ عَلَيْهِ يَتَوَکَّلُ اَلْمُتَوَکِّلُونَ (٣٨) قُلْ يا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلی مَکانَتِکُمْ إِنِّی عامِلٌ فَسَوْفَ تَع٣٩)Π…ș…řIȩ…) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنّا أَنْزَلْنا عَلَيْکَ اَلْکِتابَ لِلنّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اِهْتَدی فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَکِيلٍ (٤١)

ص:٤٧٩

أَ لَیْسَ اللّهُ بِکٰافٍ عَبْدَهُ

هدی من الآیات:

تهبط آیات القرآن کالصاعقه علی القلب الغافل فتفجّر فیه طاقات الفهم،و تثیر فیه دفائن العقل،من ذلک ما نجده فی هذا الدرس حیث یهدینا الی حقیقه یحاول ابن آدم إنکارها تکبّرا و علوّا حتی أضحت تشبه فی إنکار الناس لها الباطل،و تلک هی الموت الذی ینتظر کلّ حی،و لکنّ الموت هو أهون المراحل التی تنتظرنا،فما بعده أعظم،کالاختصام یوم القیامه،ذلک لأنّ الإنسان لا یستطیع فی ذلک الیوم حین یقف وحیدا أمام محکمه الحق أن یتهرّب من الحقائق،فلا بد إذا أن نهتم بالمعاییر الأخرویه الیوم و قبل ذلک الیوم.و فی بدایه سوره آل عمران قلنا:إنّ الإیمان بالبعث یمثل حجر الزاویه فی کفر الإنسان المسلم،حیث یحافظ علی توازنه، و یدعوه إلی الإیمان بحقائق خارج محیط ذاته و أنّها هی المحور،و إذا آمن الإنسان بوجود محور فی الحیاه بحث عنه،و إذا بحث عنه وجده.

و هذا الدرس امتداد للدرس الماضی،حیث ذکّرنا هنالک أنّ القلب الخاشع للّه

یهـدیه اللّه للإسـلام،فیعـترف بوجود الحق،بعکس القلب القاسـی المنغلق علی ذاته، الـذی لاـ یعـترف إلاّـ بمـا یعیش داخله، فهو یتمحور حول ذاته.

و فی هـذا الـدرس یعرض القرآن مفارقه بین من جاء بالصدق و صدق به،و من یکذب علی اللّه و یکذب بالحق و یدّعی الأنداد للّه،و بعد ذلک یعلن اللّه کفایته لرسوله رغم تخویف المشـرکین له بالذین من دونه،و أنهم لن یسـتطیعوا إضلال من هداه اللّه،و لا یستطیع الذین من دونه کشف الضر عنّا أو منع الخیر.

بینات من الآیات:

[۳۰]من أبرز و أخطر مصـیبات البشـر انغلاق قلبه عن حقائق الخلیقه،و إیمانه بمقاییس ذاتیه،یقیم بها الأحـداث و الأشـخاص من حوله،فکیف یتخلّص الإنسـان من هـذه المصـیبه التی تعمّ سـائر أبناء آدم،و تعبیر آخر کیف یتقی الإنسان شـحّ ذاته،و یخرج من زنزانه نفسه الضـیقه إلی رحاب الحق؟ لا ریب أنّ وعی الموت و النشور ثم الوقوف أمام محکمه الحق أقرب السبل للخلاص من هـذه البلیه،ذلک أنّ اعتقاد الإنسان بوجود مقاییس موضوعیه ثابته عنـد اللّه،و أنّه سوف یعرض علیها بأفکاره و أقواله و أعماله،و سوف یحـاکم وفق تلـک المقاییس شاء أم أبی،کل ذلک یعیـده إلی رشـده،و ینمّی عقله علی حساب هواه، و یجعله یبحث عن تلک المقاییس الیوم و قبل فوات الأوان.

هکـذا یـدعونا الإیمان بالبعث إلی الإیمان بکلّ الحقائق،و هو کما أسـلفنا حجر الزاویه فی بناء صـرح المعرفه عند الإنسان،و قبل الإیمان بالبعث لا بد من وعی الموت.

إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ

ص:۴۸۲

فإذا مات الرسول(ص)رغم عظمته و جلال مقامه فهل يبقى أحد منّا؟!قال تعالى: وَ مٰا جَعَلْنٰا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخٰالِدُونَ (۱)و يبدو لی أنّ الخطاب ليس خاصا برسول اللّه(ص)فكل من يقرأ القرآن معنی بهذا الخطاب،لأنّ القرآن نزل على لغه(إياك أعنى و اسمعی يا جاره).

هكذا تبعث هذه الآيه فی أنفسنا يقظه،و فی أعصابنا رعشه،و فی عقولنا إثاره، و فی أفئدتنا سكينه،فأیّ هيبه عظيمه للموت،هذا الباب الذی لا يعود منه من دخله،و لا ينجو منه من هرب منه،و أين يذهب أعزتنا الذين نحملهم كل يوم إلى المقابر مرغومين،و نقف عند أجداثهم مرهوبين،و يهمس فی آذاننا داعيه الحق آنئذ قائلا:

و إذا حملت إلى القبور جنازه فاعلم بأنّك بعدها محمول...

و

يقول الإمام علی(عليه السلام) :

«لو رأى العبد أجله و سرعته إليه لأبغض الأمل و ترك طلب الدنيا » (۲) [۳۱]و هل تنتهی المشكله عند الموت؟كلاّ...

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ فخلافاتكم فی الدنيا تنتقل إلى الآخره،و ربّنا سبحانه هو الحكم يومئذ، و الموازين و القوانين يومئذ غيرها فی الدنيا،و علينا أن نبحث عنها و أن نطبّق حياتنا

۱- ۱) الأنبياء/(۳۴).

۲- ۲) نور الثقلين/ج(۴)ص(۴۸۹).

و فقها إن أردنا الحياه.

[۳۲]و محور المعايير هنالك الصدق،و أظلم الناس لنفسه من كذب على اللّه و كذّب بالصدق،و لكن كيف يكذب على اللّه؟ يزعم الإنسان حينما يقسو قلبه،و ينغلق عن الحقائق،بأنّ ذاته هى الحق، و يكون مثله مثل ذلك الذى سئل:أين مركز الدنيا؟فقال:حيث يقف حمارى، لقد كان يزعم هو و الكثير من أمثاله بأنّهم مركز الحياه،فالعالم يبدأ من حيث هم، و ليس من حيث هى،و يتصورون أنّ الحقّ ما يرونه،و الباطل ما يرفضونه،و هذا هو الكذب على اللّه،و حين يعرفون دين اللّه تراهم تبعا لهذه الحاله النفسيه يحقّون الباطل و يبطلون الحق،و هكذا يكذبون على اللّه افتراء عليه.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللّٰهِ و بيان الرسول لهذه الحقيقه شاهد على صدقه،إذ من يكذب على اللّه يهوّن على نفسه هذا الذنب ثم يرتكبه،بينما نرى الرسول بالعكس تماما يبيّن مدى جريمه الكذب على اللّه.

و كثير من الناس يمارسون الكذب على اللّه و هم لا يشعرون،و ذلك حين يقولون:هذا حلال و هذا حرام،دون سلطان من اللّه أتاهم.

و جرم الكاذب على اللّه عظيم،و لا يعادله إلاّ تكذيب الصدق الذى يجىء من عند اللّه،إذ الإنسان مسئول عن معرفه الصدق و التصديق به،و لا يجوز أن ينطوى على نفسه و يقول:من أين نعرف صدق هذا الداعيه؟ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جٰاءَهُ

و جزاء هذا و ذاك الإقامه فی جهنم،لأنهما معا كافران.

أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ و يترك السياق الجواب عليهم لكی تقرّ ألسنتهم به.

[۳۳]و فی مقابل هؤلاء يقف الصادقون فحين يخرجون عن ذواتهم يرون الحق بوضوح،لأنّ مشكله الذی لا يری الحق انغلاق نفسه،فهل تدخل الشمس غرفه مغلقه مسدله الستائر؟!كلاّ...فعلی الإنسان أن يفتح صدره،و يزيل الستائر و الحجب عن ذاته،لكی يدخل نور اللّه أرجاء قلبه.

وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ «جاء بالصدق»أی دعا اليه كالرسول،«و صدّق به»أی التزم بما آمن، فلا يكفی الإيمان بصدق شیء من دون العمل بمضمون هذا الإيمان،و الصدّيق هو الذی يؤمن فی الأوقات الحرجه،حيث لا تسمح له السلطات و لا يؤيّده الناس.

و

جاء فی تفسير مجمع البيان:قيل الذی جاء بالصدق محمد(ص)،و صدق به علیّ بن أبی طالب، و هو المروی عن أئمه الهدی من آل محمد عليهم السلام. (۱)

و الصّدّيق يتقی بصدقه عذاب اللّه:

أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ القرآن عاده ما يربط بين الفكر و العمل برباط التقوی،و التقوی حقيقه تدور حولها كل الحقائق،و هذا ما تشير إليه الآيه: إِنَّمٰا يَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . (۲)

۱- ۱) المصدر/ص(۴۸۹).

۲- ۲) المائده/(۲۷).

[۳۴]و فی الجنه:

لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ لأنّهم تركوا ما يشاءونه فی الدنيا،فأهواؤهم كانت تدعوهم للخضوع إلی الطاغوت،و الميل للمجتمع الفاسد،و الانسياق وراء شهوه البطن و الفرج...

و هكذا أعطاهم اللّه ما يشاءون،أو لأنهم أعطوا للمحتاج ما يشاء أعطاهم اللّه ما يشاءون.

و كلمه«ما»تعنی الإطلاق،فهم لا يتمنّون علی اللّه شيئا إلاّ أعطاهم.

و قيل:إنّ ما عند ربهم يشاءونه،فقد أعدّ اللّه لهم نعيما فی الجنه يشاءونه،و لا تعارض فی المعنيين.

ذٰلِكَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِينَ بعد مرحله التقوی يأتی الإحسان،و الإحسان هو العطاء،و نتساءل:هل يمكن أن يعطی الإنسان التقوی شيئا دون أن يخرج من قوقعه ذاته؟ كلاّ...فالذی يعيش فی حدود نفسه و شهواتها لا يستطيع أن يعطی،و إنّما يعطی من يفكّر فی حاجات الآخرين قبل حاجات نفسه،فالإحسان إذن أرفع مراحل التكامل البشری،فقد يكون الإنسان متقيا و لكن لا يعطی إلاّ بحساب، و المحسن موقن بالخلف فيستسهل البذل.

و الظاهر أنّ الإيمان و التقوی يكتمل بالإحسان،و هو أعلی المراحل فی المسيره الإيمانيه.

ص:۴۸۶

[۳۵]و يبقى المتقون خائفين من سيئاتهم التى إن بقيت أكلت جانبا من حسناتهم،و لكنّ اللّه يطمئنهم حين يعدهم بغفرانها:

لِيُكَفِّرَ اللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا إذا كـان الخط العـام للإنسـان فى الحيـاه سـليما فـإنّ هفواته تغتفر له،كما لو كانت إستراتيجيه القائد سليمه فإنّ أخطاءه التكتيكيه لا تؤثر عليه،بعكس ما إذا كانت استراتيجيته خاطئه فإنّ صواب خططه المرحليه لا ينفعه شيئا.

و هكـذا إذا كـان الخـط العـام لحيـاه شـخص سـليما،فتـولّى اللّه و رسـوله و أولى الأمر حقـا،و نهض بواجبـاته فى التحصّن ضـد الانحرافـات السياسـيه و الاجتماعيه و الاقتصاديه،فلم ينصـر ظالما،و لا خـذل مظلوما،و لا أكل أموال الناس بالباطل، و لا أدلى بها إلى الحكام،و بالتالى اجتنب فواحش الذنوب،ثم ارتكب اللمم و هى الصـغائر،أو حتى الكبائر بلا جحود و لا إصرار،ثم تاب إلى ربّه متابا فإنّه ترجى له مغفره اللّه.

أمّا من كان خطّه العام منحرفا فكان وليّا لأعداء اللّه،معينا للظلمه على عباد اللّه،فإنّ كثره صلاته و صومه لا تنفعه،كذلك لو عاش على الحرام حتى نبت لحمه و عظمه منه.

و لعلّ المعيار الأساسى فى ذلك ألاّ تكون السيئه الصادره من منطلق سـىء،إذ قـد يرتكب المرء ذنبا و لكنّ قلبه لا يزال مطمئنا بالإيمـان فيمكن تـدارك الأمر،و لكنّ الـذى يرتكب الموبقات و هو جاحـد بربوبيه الربّ،مسـتحلّ للمحرمات،فإنّ توبته الى اللّه بعيده.

و تشجيعا لحاله الإحسان فى الأمه ألغى الإسلام الضمان عن المحسنين الذين

يقعون فى الخطأ،فقال سبحانه: مٰا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ،و مضت هذه الآيه قاعده فقهيه استنبط العلماء منها أحكاما كثيره حيث أسقطوا بها الضمان من الذين يريدون الإحسان و لكنّهم يخطئون فيلحقون ضررا بالطرف الآخر،كمن أراد إنقاذ غريق فتسبّب جهله بطريقه الإنقاذ إلى المساهمه فى غرقه.

وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كٰانُوا يَعْمَلُونَ [٣۶]و من العقبات التى تعترض طريق المؤمنين المحسنين خشيه الناس، و الخوف من مقاطعتهم و هجرهم،و لكنّ اللّه و عدهم بكفايتهم شرّ الناس،و اللّه سبحانه هو الذى يحفظ السموات و الأرض أن تزولا،فكيف لا يحفظ عبده؟! أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِكٰافٍ عَبْدَهُ بلى.إنّ اللّه يكفى عبده شر جور السلاطين،و كيد الحاسدين،و بغى الظالمين.

وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بإثاره الرعب فى قلبك ممّن هو من دونه سبحانه،أن يضلوك عن سبيله.

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ لا يعلمون أنّ المهيمن هو اللّه،و أنّ الأنداد من دونه،و السلطات الطاغوتيه، و المجتمع الفاسد،و.و.لا تملك أىّ قوه،و لأنّهم توجهوا إلى غير اللّه فقد سلب منهم اللّه نور الهدايه فأضلهم.

[٣٧]و مره اخرى يؤكد اللّه على فكره الكفايه بقوله:

وَ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أی لا توجد قوه قادره علی إضلال امرء إذا أراد اللّه هدایته.

جاء فی الحدیث عن أبی عبد الله(ص)لثابت ابن سعید :

«یا ثابت!ما لکم و للناس؟!کفّوا عن الناس،و لا تدعوا أحدا إلی أمرکم، فو اللّه لو أنّ أهل السموات و الأرضین اجتمعوا علی أن یهدوا عبدا یرید اللّه ضلالته ما استطاعوا علی أن یهدوه،و لو أنّ أهل السموات و أهل الأرضین اجتمعوا علی أن یضلّوا عبدا یرید اللّه هداه ما استطاعوا أن یضلّوه.کفّوا عن الناس،و لا یقول أحد:عمّی،أخی،و ابن عمّی،و جاری،فإنّ اللّه إذا أراد بعبد خیرا طیّب روحه فلا یسمع معروفا إلاّ عرفه،و لا منکرا إلا أنکره،ثم یقذف فی قلبه کلمه یجمع بها أمره » (1)و هذا الحدیث یفسّره قوله تعالی: فَلَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ عَلیٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ یُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِیثِ أَسَفاً . (2)

أَ لَیْسَ اللّٰهُ بِعَزِیزٍ ذِی انْتِقٰامٍ إنّ اللّه عزیز،و من عزّته انتقامه من الکفار،و من مظاهر انتقامه إضلاله للمعاندین کما أنّ من مظاهر عزته هدایته للمحسنین.

[۳۸]و من أمثله عزّه اللّه خلقه السموات و الأرض و تدبیره لهما:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۴۹۰).

۲- ۲) الکهف(۶).

إنّ اللّه هو الـذى خلق السـموات و الأرض،و هما بيـده،فلا تنظر إلى محيط دوله يحكمها قزم،و تقول:هـذا ربى.كلّا...فالذى خلق السموات و الأرض ربک و ربه.و أنتما تحت سيطرته،و ما يملك فهو له سبحانه.

قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ أَرٰادَنِيَ اللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰاشِفٰاتُ ضُرِّهِ فلو اجتمعت كلّ سـلطات العالم لتمنع عن أحد ضرر فيروس بسيط كفيروس الإيدز مثلا أ تراهم يقدرون؟كلّا...

فكلّ أجهزه الطب المتقـدمه فى الولايات المتحـده لم تسـتطع إنقاذ حياه الرئيس الأمريكى كنيدى بعد إصابته برصاصات قاتله،و كذا لم تستطع الاتحاد السوفيتى أن تنقذ حياه طاغوتها ستالين.

أَوْ أَرٰادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكٰاتُ رَحْمَتِهِ فلو شاءت إراده اللّه إنزال الماء من السـماء على بلـد معين،و أراد طاغوت هـذا البلد منعه فهل يستطيع؟!كلّا...إنّ مشكله الإنسان هو خضوعه النفسى للطاغوت،و إذا لم يخضع له نفسيّا فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا.

قُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ فاللّه يكفينى،و عليه توكّلى.

و هـذه الآيات الثلاث تسـليه للرسول و من يحمل رساله ربّه ألّا يهن أو يخاف من الكفّار و ممن يدعون من دونه،فقد ضـمن اللّه ما يلى:

۱-كفايته للرسول و من يحمل رسالته من بعده من تخويف الكافرين له.

۲-إنّه سبحانه يضلّل الكافرين و من يدعون من دونه،و لن يهديهم سواء السبيل.

۳-إنّ اللّه سوف يهدى الذين آمنوا حين يتمسكون بهداه،و لن يضلّهم أعمالهم.

۴- إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ،لا يرد بأسه عن الذين كفروا،فسوف يأخذهم أخذ عزيز منتقم.

۵-إنّ اللّه حين يريد بالمؤمنين خيرا فلن تستطيع قوه أن تهزمهم،و إنّ حمايتهم و حسبهم و كفايتهم على اللّه،لأنّ اللّه أراد ذلك.

[۳۹]و حين يطمئن اللّه الرسول يأمره بتحديهم:

قُلْ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّى عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ هذا التحدى من الرسول(ص)ينبع من روح الاطمئنان بسبب حمايه اللّه و كفايته و حسبه،و هذه الروح يجب أن يتحلّى بها الرساليون، و يقولون كما

قال الرسول(ص): يا قوم!أعملوا ما شئتم،و امكروا ما شئتم،و اظلموا ما شئتم، و اقتلوا ما شئتم،إنّنا ماضون على الطريق فسوف تظهر النتائج سريعا.

[۴۰]و هناک تعلمون:

مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ ففى محكمه العدل الإلهيّه يتقرّر من الصالح و من المفسد،فهناک الميزان الحق،

و المقاييس السليمه..و تذكره القرآن بذلك اليوم تحقّق التعادل فى النفوس السليمه.

فلا تأبه بالمعايير الماديه الخاطئه.

[۴۱]إذا فمن اهتدى بالكتاب فقد آمن يوم الفزع الأكبر،و من ضلّ فقد ضلّ على نفسه،و هو الخاسر الوحيد،إذ يخسرون فى يوم القيامه أنفسهم و أهليهم.

إِنّٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ لِلنّٰاسِ بِالْحَقِّ القرآن هو ذلك المقياس يوم القيامه،و سيأتى مجسدا يوم القيامه،فلا بد من أن نجعله مقياسا لنا فى الدنيا.

فَمَنِ اهْتَدىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا فالهدى له،و الضلاله عليه.

وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ كلّ إنسان لا بد أن يواجه مصيره بنفسه،و يختار طريقه بإرادته،و يتحمّل مسئوليه اختياره،و لا أحد يتحمّل مسئوليه أحد، حتى الرسول ليس وكيلا عن قومه،إنّما هو نذير.

ص:۴۹۲

[سوره الزمر (۳۹): الآيات ۴۲ الى ۵۲]

اشاره

اَللّٰهُ يَتَوَفَّى اَلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ اَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا فَيُمْسِكُ اَلَّتِي قَضىٰ عَلَيْهَا اَلْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ اَلْأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۴۲) أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ شُفَعٰاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَعْقِلُونَ (۴۳) قُلْ لِلّٰهِ اَلشَّفٰاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴) وَ إِذٰا ذُكِرَ اَللّٰهُ وَحْدَهُ اِشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذٰا ذُكِرَ اَلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اَللّٰهُمَّ فٰاطِرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ عٰالِمَ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبٰادِكَ فِي مٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ اَلْعَذٰابِ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۴۷) وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۴۸) فَإِذٰا مَسَّ اَلْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰانٰا ثُمَّ إِذٰا خَوَّلْنٰاهُ نِعْمَةً مِنّٰا قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۴۹) قَدْ قٰالَهَا اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۵۰) فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤُلاٰءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۱) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲)

ص:۴۹۳

قُلْ لِلّٰهِ الشَّفٰاعَهُ جَمِیعاً

هدی من الآیات:

إنّ آیـات اللّه فی الکون و التی یشـیر إلیهـا هـذا الـدرس،لیست فقـط دلیلاـ للإنسان علی وجود اللّه،بل طریقا إلی معرفته المعرفه الأسـمی أیضا.و علی الإنسان أن لا یکتفی بدرجه من الإیمان بل یتابع مسـیرته التکاملیه حتی یصل إلی مرحله العرفان، و للعرفان أیضا درجات،فکلّما تفکّر الواحـد فی آیات اللّه فی الآفاق و فی نفسه، و التحوّلات و التغیّرات التی تحدث عنده،کلّما ازداد یقینا و معرفه،حتی یبلغ الحدّ به أن یقول:

«لو کشف لی الغطاء ما ازددت یقینا» (۱)کما قالها سیّد العارفین الإمام علی علیه السلام .

۱- ۱) غرر الحکم/ص(۶۰۳).

بينات من الآيات:

[۴۲]تقارن الآيه الأولى بين النوم و اليقظه،و بين الموت و الحياه عند الإنسان، فكما لم يكتشف العلم لغز الموت،فإنه لم يكتشف لغز النوم أيضا، و هما أخوان،و لكن بينما ينام الإنسان بخروج جزء من روحه،أو حسب تعبير بعض المفسرين(خروج نفسه و بقاء روحه)،فإنّ كلّ روحه تخرج بالموت.و لو فسرنا كلمه النفس بالعقل،فلا ريب أنّه فى حاله النوم يعيش البشر سباتا عقليا.

و يذكّرنا اللّه بأنّ اللّه هو الذى يسلب نفس الإنسان و يأخذها فى حالتين:

حاله النوم،و حاله الموت،فالتى يسلبها فى حاله النوم يردّها على صاحبها عند اليقظه،بينما يدع تلك الأخرى عنده إلى يوم البعث.

و

فى الحديث عن أبى جعفر عليه السلام أنّه قال :

«ما من عبد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء،و بقيت روحه فى بدنه،و صار بينهما شعاع كشعاع الشمس،فإذا أذن اللّه فى قبض الأرواح أجابت الروح النفس،و إن أذن اللّه فى ردّ الروح أجابت النفس الروح » (۱)و

فى حديث آخر قال الإمام الصادق عليه السلام :

«إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل:اللهمّ إنّى أحبست نفسى عندك، فاحتبسها فى محلّ رضوانك و مغفرتك،فإن رددتها إلى بدنى فارددها مؤمنه عارفه بحقّ أوليائك حتى تتوفّاها على ذلك » (۲)و ربنا فى هذه الآيه يقول:

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۴۸۹).

۲- ۲) المصدر/ص(۴۸۸).

اَللّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِها و فی اللغه توفّی بمعنی أخذ الشیء وافیا.

وَ الَّتِی لَمْ تَمُتْ فِی مَنامِها تلک النفس التی لم تمت یتوفّاها اللّه عند النوم.

فَیُمْسِکُ الَّتِی قَضی عَلَیْهَا الْمَوْتَ و لا یدعها تعود إلی الجسد،و لعلّ الآیه تشیر إلی أنّ للنفس و لها بالجسد و ترید العوده إلیه،و لکنّ اللّه یمسکها إمساکا.

وَ یُرْسِلُ الْأُخْری إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی أما النفس التی لم تمت بل نامت فانه تعالی یأخذها ثم یعیدها إلی صاحبها لفتره معینه هی حلول أجله.فإذا حل سلبها منه دون عوده الا عند البعث.

فما هذه الروح؟هل هی کامل الروح؟أم شعاع منها؟أم شیء آخر؟ فی الواقع أن مسائل الروح لا تزال بعیده عن أفهامنا.و الآیه تشیر بوضوح إلی الموت و طبیعته،و نحن لم نمت و لم یعد إلینا من مات لیخبرنا عن واقع الأمر، و لکننا ننام و حیث یخبرنا الرب بأنّ الموت مثل النوم نستطیع أن نتعرف علیه نسبیا من خلاله.

و

یقتبس لقمان من هذه الفکره حکمه فیقول لابنه و هو یعظه بالموت:

«یا بنی إن تک فی شک من الموت فارفع عن نفسک النوم و لن تستطیع ذلک،

و إن کنت فی شک من البعث فارفع عن نفسک الانتباه،و لن تستطیع ذلک،فانک إذا فکرت فی هذا عرفت ان نفسک بید غیرک،و انما النوم بمنزله الموت،و انما الیقظه بمنزله البعث بعد الموت» (۱) و یقول أبو ذر الغفاری(رضوان اللّه علیه)،مستوحیا فکرته من هذه الآیه الکریمه:«کما تنامون تموتون،و کما تستیقظون تبعثون»فلما ذا نحن نتعجب من البعث و النشور،بینما لا نتعجب من الیقظه بعد النوم؟!أو لیس القادر علی إیقاظ النائم من نومه بقادر علی أن یعید إلی المیت الحیاه؟! إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ و لعل المعنی الحقیقی لکلمه التفکر هو تحریک المعلومات و ربطها ببعضها و تحلیلها،و الذین یفعلون ذلک یصلون إلی مغزی الموت و النوم،و یعرفون من وراء التحول من یحوّل،و من خلال التدبیر من یدبّر و هو اللّه سبحانه و تعالی.

و انهم یعرفون من خلال ذلک الشیء،ان القدره المهیمنه علی نهایه حیاه الإنسان،هی التی یجب أن تعبد حقا.

[۴۳]أما الشفعاء المزعومون من دون اللّه و الذین لا یملکون الموت و لا الحیاه، و هما أهم قضیتین فی حیاه الإنسان،فلا یحق لهم أن یتحکموا فی حیاته،و لا أن یخضع هو لهم أبدا.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ شُفَعٰاءَ

۱- ۱) بح/ج(۱۳)ص(۴۱۷).

و للشفعاء المرفوضين عند اللّه تفسيران:

الأول:انهم الشركاء من دون اللّه،و هم رموز القوى المؤثره فى حياه البشر، كسلطان القوه و المال و الشهره.و ينفى القرآن أيّه قيمه لهذه القوى عند اللّه،فلا يزعم صاحب السلطان و الغنى و الشهره إن ميزته فى الدنيا تستمر إلى الآخره.بل إنه يأتى ربه يومئذ فردا فقيرا مغمورا،و لا يزعم ألواح منهم كما زعم صاحب الجنتين إذ قال لصاحبه و هو يحاوره: مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً* وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهٰا مُنْقَلَباً (1)الثانى:انهم الذين يزعم البشر أن باستطاعته التهرب من المسؤوليه بسببهم، و ذلك بإلقاء مسئوليه ضلاله و انحرافه عليهم،كأن يلقى بمسؤوليه انحرافه و ضلاله على والديه،أو السلطات الحاكمه،أو المجتمع.

و لكن اللّه ينسف فكره الشفاعه عموما فيقول:

قُلْ أَ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَمْلِكُونَ شَيْئاً كالنفع و الضرر أو الموت و الحياه،أو أقلّ من ذلك.لان الملك كله للّه عزّ و جل.

وَ لاٰ يَعْقِلُونَ لأنهم لو كانوا يعقلون لم يكونوا ليأمروا بما يخالف رضى اللّه تعالى.فهم إذن لا قوه لهم و لا علم.و من يكون هكذا لا يكون شفيعا.

[۴۴]ان الشفيع الحقيقى هو اللّه الذى بيده ناصيه كل شيء،و إذا كان ثمه آخرون فانما يشفعون باذنه.

۱- ۱) الكهف/(۳۵-۳۶).

قُلْ لِلّٰهِ الشَّفٰاعَةُ جَمِيعاً فإذا أراد البشر أن يفر من عذاب اللّه،فليهرب اليه تعالى، فليس من ملجإ منه الا اليه كما قال ربنا: فَفِرُّوا إِلَى اللّٰهِ و كلنا يخشى من ذنوبه و لكن لن نجد غافرا للسيئات التى احتطبناها سوى اللّه.

و من عاده البشر انه إذا أذنب ذنبا حاول تبريره،أو اخترع لنفسه شفيعا يزعم أنه سوف يخلصه من ذنبه،و اللّه يقول:لا،لماذا تذهب هنا و هناك؟!تعال اليّ، حتى و لو كنت مذنبا تعال،فانا الذى أخلصك من الذنب،لا أولئك الشفعاء،و لا تلك التبريرات.

لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فاللّه هو الشفيع حقا،لأنه هو السلطان فى السموات و الأرض،فهو الذى يدبر الأمور اليوم و اليه المصير حيث الحساب الدقيق و الجزاء الأوفى.

[۴۵] وَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لأنهم لا يؤمنون بالآخره،و يحاولون التهرب من المسؤوليات،و يعرفون انه إذا كانت الآخره أمرا واقعيا فإنهم سوف يحملون عبأ الأمانه،لكل ذلك تراهم يشمئزون،فحربهم لفكره الآخره انما هى بدافع نفسى،فهم لا يحبون القيامه لأنهم لا يحبون المسؤوليه،و المثال على ذلك: إذا قيل لمجرم:جاء الشرطه يشمأز قلبه، لماذا؟لان الشرطه سيأخذونه إلى المحكمه،و من ثم الجزاء العادل،و أما الرجل المظلوم،الذى يسمع و هو بين يدى من يظلمه،ان جاء الشرطه تراه يحمد ربه، لماذا؟لأنه سوف يتخلص من يد الظالم...و هكذا المؤمنون يشتاقون إلى الآخره،

ص:۵۰۰

لأنهم يعرفون أن هناك الجزاء الأوفى لحسناتهم،بينما الكافرون تشمئز قلوبهم، إذا ذكر اللّه وحده،لأنهم يفتشون عن إله آخر يخلصهم من رب السموات و الأرض،و يخلصهم من ذنوبهم و سيئاتهم.

وَ إِذٰا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ فإذا كانوا يتحدثون عن الآباء،و القيم الفاسده،و الشفعاء الموهومين،فإنهم يرتاحون نفسيا.

و تجد هذه الآيه تطبيقها فى كل إنسان،خصوصا فى العالم المتخلف،حيث لا نحب نحن البشر الاستماع إلى من يحدثنا عن مسئولياتنا،أما إذا تحدثوا إلينا عن تبرير وضعنا الفاسد و إلقاء المسؤوليه على الدول أو على الخطوط،أو على القضاء و القدر،فاننا نستمع مرتاحين،و السبب هو أن مثل هذا الكلام لا يحملنا المسؤوليه.

[۴۶]و فى مواجهه هذا الانحراف الكبير و الضلال البعيد يتوكل المؤمن على اللّه و يدعوه ضارعا ليثبت فؤاده حتى لا يتأثر باشمئزازهم من ذكر اللّه،و فى ذات الوقت يتحداهم بالمزيد من ذكر ربّه.

قُلِ اللّٰهُمَّ فٰاطِرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ عٰالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ حين ينشق شىء يقال انفطر،و اللّه شق العدم بالخلق فإذا بالسموات و الأرض تخرجان من ضميره.

و من معانى الانفطار ان السموات و الأرض لم تكونا فكانتا مره واحده، فابدعهما من غير مثال يحتذى به،و من معانيه انهما كانتا رتقا ففتقهما بقدرته.

أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبٰادِكَ

ان تعميق الإحساس برقابه اللّه فى نفس الإنسان،و انه هو الحاكم بين عباده، يجعله لا يعصيه،لأنه لا يمكن له الكتمان عليه أو الكذب عليه يوم القيامه.

و إذا كان هو الحاكم بين عباده فما هو دور الشركاء الذين يتخذ منهم الكافر شفعاء،و يتشبث بهم هربا من المسؤوليه؟! علما بأن محكمه اللّه آنئذ تحكم بين الناس بالحق.

فِي مٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فهنالك الكلمه الفصل،التى لا ريب فيها،و لا تلبيس،و لا تحيط بها ضلالات الهوى،و تبريرات الشهوات،و كلما تفكر الإنسان فى ذلك اليوم،و فى ميزان الحق الذى ينصب فيه،كلما تباعد عن محوريه ذاته،و تحصن ضد قسوه القلب و انغلاقه دون فهم الحقائق.

[۴۷]فمن كفر باللّه و ظلم نفسه أو الناس هلك و لا تنفعه ثرواته شيئا.

وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذٰابِ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ و فى آيه أخرى يقول اللّه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدىٰ بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ (۱)بلى قد يبيع المرء نفسه بثمن بخس فيشترى جهنم بغيبه أو بكذبه،و ما ابخس هذا الثمن إذا كانت النار عاقبته!

۱- ۱) آل عمران/(۹۱).

و هکـذا يهون علينا القرآن شأن الـدنيا حتى لا تخـدعنا زخارفها و لو کانت الأرض کلها بأيـدينا فهى تعف عنها أنفس المؤمنين بالآخره،لأنّ عـذابها لا يزول بافتـداء کل الأرض و مثلها معها،فما شأن بيت معمور فيها أو زوجه حسـناء أو منصب بسـيط؟! وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مٰا لَمْ يَکُونُوا يَحْتَسِبُونَ لاـن کتـابهم آنـذاک لاـ يغـادر صـغيره و لاـ کبيره الا أحصاها مما لم يکونوا يتوقعونه و لم يحتسبوا أن الأمر بهذه الدقه و بهذه الجديه،و

فى الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال :

«اتقوا المحقرات من الـذنوب فان لها طالبا،يقول أحدکم:أذنب و اسـتغفر اللّه،ان اللّه عز و جل يقول: نَکْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ کُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ و قـال عز و جل: إِنَّهٰا إِنْ تَکُ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰاوٰاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۱)و يبدو من خلال الآيه أن الإنسان قد يتصور أن مجرد ذنوبه البسـيطه قد لا تسـبب له دخول النار،و لکن الحقيقه شیء آخر،إذ تجتمع الذنوب إلى بعضها حتى تکون کالجبل على قلبه.

و

فى الحديث عن الإمام أبى الحسن عليه السلام :

«لا تستکثروا کثير الخير،و لا تستقلوا قليل الذنوب،فان قليل الذنوب يجتمع حتى يکون کثيرا،و خافوا اللّه فى السر حتى تعطوا من أنفسکم النصف » (۲)[۴۸] وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا کَسَبُوا

ص:۵۰۳

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۷۳)ص(۳۲۱).

۲- ۲) بحار الأنوار/ج(۷۳)ص(۳۴۶).

فالسيئات التی مكروها فی الحياه الدنيا بدت لهم علی حقيقتها.إذ ان النفس الاماره و الشياطين من الجن و الانس كل أولئك يزينون للبشر سيئات أعماله،حتی تختفی ظاهر سوءاتها و تبدو لهم انها حسنات،و ذلک بإظهار حسناتها،بيد انها فی القيامه حيث تبلو السرائر تظهر سيئات أعمالهم التی اكتسبوها.

و قد تكون الآيه تشير الی تجسد الأعمال،حيث تصبح السيئات عقارب و حيات و نيران ملتهبه،و الدليل علی ذلک قوله تعالی:

وَ حٰاقَ بِهِمْ أی أحاط بهم.

مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ فذات الرساله التی استهزءوا بها أهلكتهم،فالقرآن فی يوم البعث يقود من اتبعه هنا الی الجنه هناک،و يسوق من تولی عنه هنا الی النار هناک.و هكذا كل رسالات اللّه.

[۴۹]و يمضی السياق قدما فی بيان ان الثروه ليست قيمه مطلقه لأنها ليس فقط لا تغنی شيئا عن عذاب اللّه فی الآخره،بل و لا عن بلائه فی الدنيا حينما تحيط بالإنسان الضراء فتراه يدعو به،و لكنه لا يلبث ان ينسب النعم الی ذاته،و يزعم بأنه انما حصل عليها بعلمه.كلا انها من عند اللّه و لكنها ليست دليلا علی كرامته عنده،بل هی مجرد فتنه يمتحن اللّه بها خلقه.

فَإِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰانٰا ثُمَّ إِذٰا خَوَّلْنٰاهُ نِعْمَةً مِنّٰا قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ

ص:۵۰۴

و هـذه الآيه تكمل الآيه الثامنه من هذه السوره،حيث ان الإنسان هناک نسب النجاه الى الأنداد بينما هنا نسـبها الى نفسه،و الفرق واضح،ففى المره الاولى إلّه غيره،و فى المره الثانيه ألّه نفسه،و اعتقد ان ما خوّله اللّه به من نعمه انما هو من ذاته.

و لان السياق هناک كان فى مقام نفى الأنداد فقد عالج حاله الشرک بهم،بينما السياق هنا-فيما يبدو-ينفى قيمه الثروه فانه عالج عباده الذات و الزعم بأن ما حصل عليه من النعم كانت بعلمه.

و تـذكرنا الآيه بما قـاله قـارون إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ لاٰ تَفْرَحْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَ ابْتَغِ فِيمٰا آتٰاکَ اللّٰهُ الـدّٰارَ الْآخِرَهَ وَ لاٰ تَنْسَ نَصِيبَکَ مِنَ الـدُّنْيٰا وَ أَحْسِنْ كَمٰا أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَيْکَ وَ لاٰ تَبْغِ الْفَسٰادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ* قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِى . (۱)

بَلْ هِىَ فِتْنَهٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ لماذا قال ربنا أولا«نعمه»و هى صـيغه مؤنث حيث استخدم ضمير المذكر ثم عاد إلى صيغه المؤنث؟ لعـل الجواب ان الأصل فى السـياق اسـتخدام صـيغه المؤنث و انما انصـرف عنه فى قوله:«أوتيته»،لبيان ان اللّه انما خوله شيئـا من النعمه ذلـک ان الإنسـان يتصور انه حـاز على النعمه جميعـا بينما لم يخوله اللّه الا شـيئا بسـيطا منها،فإذا هو بهـذا القليل يطغى فكيف بكل النعم.

و يشير السياق إلى انّه ينبغى الا يرى الإنسان ان النعمه خير له...بل قد تكون فتنه و ابتلاء،بل قد تكون استدراجا من اللّه له،

ففى الروايه عن أمير المؤمنين-

ص:۵۰۵

۱- ۱) القصص/(۷۶-۷۸).

عليه السلام :

«يا ابن آدم!إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه و أنت تعصيه فاحذره » (۱)و

قال عليه السلام :

«كم من مستدرج بالإحسان اليه،و مغرور بالستر عليه،و مفتون بحسن القول فيه،و ما ابتلى اللّه أحدا بمثل الاملاء له » (۲)و أمرنا الإسلام بان نكون على حذر شديد من النعم لكى لا تغرنا،

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«أيها الناس!ليراكم اللّه من النعمه وجلين كما يراكم من النقمه فرقين،انه من وسّع عليه فى ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا،و من ضيّق عليه فى ذات يده فلم ير ذلك اختبارا فقد ضيّع مأمولا » (۳)بل يجب ان يكون خوف الإنسان من الغنى أشد من خوفه من الفقر،و من الصحه أشد من خوفه من المرض،فقد وضع اللّه سبحانه الحرج عن المريض، و لم يكلف اللّه نفسا الا بما أتاها بينما صاحب العافيه و الثروه تلزمه مجموعه كبيره من الحقوق لو قصر فيها استحق العذاب،و

فى الحديث :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الفقر أحب اليه من الغنى،و المرض أحب اليه من الصحه(العافيه) »

ص:۵۰۶

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۷۳)ص(۳۸۳).

۲- ۲) بحار الأنوار/ج(۷۳)ص(۳۸۳).

۳- ۳) بحار الأنوار/ج(۷۳)ص(۳۸۳).

[۵۰]و فى التاريخ عبره فلقد أهلك اللّه من القرون من كان يملك الثروات الطائله،و يزعم أنها تمنحه الحريه فى التصرف حيث يشاء،و التهرب من مسئوليه أعماله السيئه،و قد قال مثل قول هؤلاء انه حصل على الثروه بعلمه فهو قادر على دفع الضرر عن نفسه.

قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فأوغلوا فى المعاصى اغترارا بالنعم.

فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ [۵۱]لقد اعتمدوا على مكاسبهم الماديه،و زعموا انها تحلل لهم السيئات،أو لا أقل يقدرون على دفع العقاب عن أنفسهم و لكن هيهات.

فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا و لزمهم عقاب ما اجترحوا من الذنوب و تلك سنه اللّه تجرى فيمن يأتى كما جرت فيمن مضى.

وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤُلاٰءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا جزاء للسيئات التى اكتسبوها.

وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ اى لا يعجزون اللّه إهلاكهم،أو إحضارهم إلى جهنم.

[۵۲]لقد زعموا ان علمهم كان سبب مكاسبهم،فرد عليهم القرآن اولا ماذا

تغنى مكاسبكم عن العذاب،و ثانيا بأن الرزق من عند اللّه.و يبدو ان الرزق يختلف عن الكسب،فالرزق هو ما يعطيه اللّه سواء بسعىّ أو بدون سعى،و الكسب هو الذى يحتاج إلى سعى،فكل كسب رزق،و ليس كل رزق كسبا،و النعم الاوليه الفطريه هى رزق من اللّه مثل السمع،و البصر و الفؤاد،و القوه،و الشباب.

و لو لم يكن رزق اللّه هل كان يقدر الإنسان على الكسب؟ لو لم يعطك اللّه السمع و البصر و الفؤاد هل كنت قادرا على السعى وراء رزقك؟ و لاـ تحصى نعم اللّه التى توفر للإنسان فرصه لكسب و من دون واحده منها لا يقدر عليه فهل بعد ذلك يصح الادعاء بان علم الإنسان هو سبب غناه؟!كلا...

أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أما غير المؤمنين فتراهم ينسبون الرزق لكل شىء سوى اللّه.فترى الواحد منهم يربط رزق اللّه بنفسه،حتى يعتقد انه هو الذى رزق نفسه،أو يربط رزق اللّه بالنجوم،فالنجوم هى التى رزقته،و لكنه ليس مستعدا ان يقول:بأن اللّه هو الذى رزقنى،لأنه لو قال لكان عليه ان يؤدى حقوقه و يلتزم بالمسؤوليات.

ص:۵۰۸

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۵۳ الی ۶۰]

اشاره

قُلْ یٰا عِبٰادِیَ اَلَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ یَغْفِرُ اَلذُّنُوبَ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِیمُ (۵۳) وَ أَنِیبُوا
إِلیٰ رَبِّکُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ اَلْعَذٰابُ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اِتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ
اَلْعَذٰابُ بَغْتَهً وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ (۵۵) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ یٰا حَسْرَتیٰ عَلیٰ مٰا فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اَللّٰهِ وَ إِنْ کُنْتُ لَمِنَ اَلسّٰاخِرِینَ (۵۶) أَوْ
تَقُولَ لَوْ أَنَّ اَللّٰهَ هَدٰانِی لَکُنْتُ مِنَ اَلْمُتَّقِینَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی اَلْعَذٰابَ لَوْ أَنَّ لِی کَرَّهً فَأَکُونَ مِنَ اَلْمُحْسِنِینَ (۵۸) بَلیٰ قَدْ
جٰاءَتْکَ آیٰاتِی فَکَذَّبْتَ بِهٰا وَ اِسْتَکْبَرْتَ وَ کُنْتَ مِنَ اَلْکٰافِرِینَ (۵۹) وَ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ تَرَی اَلَّذِینَ کَذَبُوا عَلَی اَللّٰهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّهٌ أَ
لَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْمُتَکَبِّرِینَ (۶۰)

ص:۵۰۹

هدی من الآیات:

یـذکّرنا ربنا فی آیات هـذا الـدرس برحمته الواسـعه،و إلی أیّ مدی یمکننا الاسـتفاده منها.أو لیس اللّه أنعم علینا برزقه الواسع،و أسـبغ علینا نعمه ظاهره و باطنه؟! أو لیس اللّه دعانا للاسـتفاده من رحمته،و أن لا نقنط منها حین نسـرف علی أنفسـنا بالـذنوب؟! بلی.و لکن طالما تحول بیننا و بین رحمه ربنا العقبات النفسـیه کإسـرافنا علی أنفسـنا بالذنوب،و قنوطنا من رحمته تعالی بسببها،و هکذا بعض العقبات الاجتماعیه التی تنتهی إلی ذات المشکله.

و قد جاء هذا الدرس لیعالج جانبا من المشاکل النفسیه و الاجتماعیه عند الإنسان.

بينات من الآيات:

[۵۳]کانت آیات الدروس الماضیه شدیده علی من اتخذ من دون اللّه ندّا أو شفیعا،أو احتسب الرزق من علمه،حتی تکاد تتفجّر لهبا،و الذین یتلون الکتاب حقّ تلاوته توشک قلوبهم أن تتصدع من وقع آیات الزمر علیها،لیس فقط لنفاذ بلاغتها،و قوه صعقاتها المتتالیه،و إنّما أیضا لبیان جدیه الحساب و مدی دقته مما یضیق الأمر علی البشر بحیث لا تتخلص نفس منها،فحتی الصالحون من عباد اللّه قد یقعون فی خطإ نسبه الرزق إلی علمهم أو الزعم بأنّ هناک من یشفع لهم من دون اللّه أو یشوب قلوبهم ما یتنافی و نقاء نیاتهم.

و لعل خطر الیأس من روح اللّه کان قریبا من قلوبهم عند تلاوتهم لهذه الآیات أکثر من أیّ وقت آخر،فجاءت هذه الآیه التی هی الأرجی بین آیات الرحمه فی الکتاب لإعاده التوازن إلی نفوسهم.أو لیس قلب المؤمن یعیش بین شده الخوف و شده الرجاء؟ قُلْ یٰا عِبٰادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ إنّها قمه فی الرحمه،أن یدعو الربّ المسرفین من خلقه بهذه الکلمه«عبادی» التی تختلف عن کلمه(عبد)حیث یختص الخطاب بها بالعباد الصالحین عاده، لکنها هنا تشمل-کما رحمه اللّه-حتی الذین تجاوزوا الحدود،فلم یلتزموا بالشرائع الإلهیه،بل و أسرفوا فی المعاصی و الذنوب،إلاّ أنّ اللّه لم یطردهم عن باب رحمته التی وسعت کلّ شیء،إنّما فتحه لهم علی مصراعیه،و دعاهم إلی التوبه، کما نهرهم عن القنوط و الیأس.

لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ

قالوا:القنوط بذاته هو اليأس من الرحمه،فلما أضيف إلى الكلمه:«من رحمه اللّه»كان تأكيدا للأمر.

إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعاً كل الـذنوب بلا استثناء،و إذا كان فى آيات الرجاء فى القرآن بعض الاستثناء فإنّ كلمه«جميعا»هنا بعـد كلمه«الـذنوب»التى هى أصـلا للعموم،تزيد الجمله سعه،مما يشـمل الكبائر كالزنا،و الغيبه،أو القتل و خدمه الظالمين،و أظن الآـيه تعنى بـالخصوص الـذنوب القلبيه،التى تقترب من الشـرك بـاللّه،و انعـدام الخلوص فى الـدين،ممـا سـيقت فى آيـات هـذه السوره.

و

فى الحديث عن رسول اللّه(ص)أنّه قال :

«ما أحبّ أنّ لى الدنيا و ما فيها بهذه الآيه » (۱)و

قال أمير المؤمنين عليه السلام و هو يؤكد التفسير المتقدم للآيه :

«ما فى القرآن آيه أوسع من يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ...الآيه » (۲)و فى نهايه الآيه نفسـها نجد تأكيدا على رحمه اللّه،و دليل على سعتها و شمولها إذ يقول تعالى:

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ و قد تأكدت رحمه اللّه فى هذه الآيه ثلاث مرات:

۱- ۱) مجمع البيان/ج(۱)ص(۵۰۳).

۲- ۲) المصدر.

الأولى:عند قوله تعالى ناهيا عن اليأس من الرحمه لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ .

الثانيه:عند تعميمه للغفران بأنه لا ينحصر فى نوع من الذنوب إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً .

الثالثه:عند ما وصف نفسه فى نهايه الآيه بأنّه« اَلْغَفُورُ الرَّحِيمُ ».

و هنا دعنا نقرأ هذه الروايه عن رحمه اللّه لنزداد ثقه و رجاء فى غفرانه تعالى:

فى كتاب نور الثقلين :دخل معاذ بن جبل على رسول اللّه(ص)باكيا فسلّم فردّ عليه السلام ثم قال،ما يبكيك يا معاذ؟فقال:يا رسول اللّه إنّ بالباب شابّا طرى الجسد،نقىّ اللون،حسن الصوره،يبكى على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك،فقال النبى(ص):أدخل علىّ الشاب يا معاذ،فأدخله عليه فسلّم فردّ عليه السلام ثم قال:ما يبكيك يا شاب؟قال:كيف لا أبكى و قد ركبت ذنوبا إن أخذنى اللّه عزّ و جل ببعضها أدخلنى نار جهنم،و لا أرانى إلاّ سيأخذنى بها و لا يغفر لى أبدا فقال رسول اللّه(ص):هل أشركت باللّه شيئا؟قال:أعوذ باللّه أن أشرك بربى شيئا،قال:أقتلت النفس التى حرم اللّه؟قال لا،فقال النبى(ص):يغفر اللّه لك ذنوبك و إن كانت مثل الجبال الرواسى،قال الشاب:

فإنّها أعظم من الجبال الرواسى،فقال النبى(ص):يغفر اللّه لك ذنوبك و إن كانت مثل الأرضين السبع و بحارها و رمالها و أشجارها و ما فيها من الخلق قال:

فإنها أعظم من الأرضين السبع و بحارها و رمالها و أشجارها و ما فيها من الخلق، فقال النبى(ص):يغفر اللّه ذنوبك و إن كانت مثل السموات و نجومها و مثل العرش و الكرسى،قال:فإنّها أعظم من ذلك،قال:فنظر النبى(ص)إليه كهيئه الغضبان ثم قال:ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربّك فخرّ الشاب لوجهه و هو يقول:سبحان ربى ما شىء أعظم من ربى،ربى أعظم يا نبىّ اللّه من كلّ عظيم،

فقال النبی(ص):فهل یغفر لک الذنب العظیم إلاّ الربّ العظیم؟فقال الشاب:

لا و اللّه یا رسول اللّه،ثم سکت الشاب فقال له النبی(ص):ویحک یا شاب ألا تخبرنی بذنب واحد من ذنوبک،قال:بلی أخبرک إنّی کنت أنبش القبور سبع سنین،أخرج الأموات و أنزع الأکفان،فماتت جاریه من بعض بنات الأنصار فلمّا حملت إلی قبرها و دفنت و انصرف عنها أهلها و جن علیهم اللیل،أتیت قبرها فنبشتها،ثم استخرجتها و نزعت ما کان علیها من أکفانها و ترکتها مجرده علی شفیر قبرها،و مضیت منصرفا،فأتانی الشیطان فأقبل یزینها لی و یقول:أما تری بطنها و بیاضها؟أما تری ورکیها؟فلم یزل یقول لی هذا حتی رجعت إلیها و لم أملک نفسی حتی جامعتها و ترکتها مکانها،فإذا أنا بصوت من ورائی یقول:یا شاب ویل لک من دیّان یوم الدین یوم یقفنی و إیّاک کما ترکتنی عریانه فی عساکر الموتی،و نزعتنی من حفرتی،و سلبتنی أکفانی،و ترکتنی أقوم جنبه إلی حسابی، فویل لشبابک من النار،فما أظنّ أنّی أشمّ ریح الجنه أبدا فما تری لی یا رسول اللّه؟ فقال النبی(ص):تنحّ عنی یا فاسق إنّی أخاف احترق بنارک،فما أقربک من النار،ثم لم یزل علیه السلام یقول و یشیر إلیه حتی أمعن من بین یدیه،فذهب فأتی المدینه فتزوّد منها ثم أتی بعض جبالها فتعبّد فیها و لبس مسحا و غلّ یدیه جمیعا إلی عنقه، و نادی: یا ربّ هذا عبدک بهلول بین یدیک مغلول،یا ربّ أنت الذی تعرفنی و زلّ منی ما تعلم،یا سیدی یا ربّ إنّی أصبحت من النادمین و أتیت نبیّک تائبا فطردنی و زادنی خوفا،فأسألک باسمک و جلالک و عظمه سلطانک أن لا تخیّب رجائی سیدی،و لا تبطل دعائی و لا تقنطنی من رحمتک،فلم یزل یقول ذلک أربعین یوما و لیله،فلما تمّت له أربعون یوما،رفع یدیه إلی السماء و قال:اللهمّ ما فعلت فی حاجتی إن کنت استجبت دعائی و غفرت خطیئتی فأوح إلی نبیک،و إن لم تستجب لی دعائی و لم تغفر لی خطیئتی و أردت عقوبتی فعجّل بنار تحرقنی أو عقوبه فی الدنیا تهلکنی و خلّصنی من فضیحه یوم القیامه،فأنزل اللّه تبارک و تعالی علی

نبيّه(ص): وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً يعنى الزنا أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ يعنى ارتكاب ذنب أعظم من الزنا و هو نبش القبور و أخذ الأكفان ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ يقول:خافوا اللّه فعجّلوا التوبه وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ يقول عز و جل:أتاك عبدى يا محمد تائبا فطردته فأين يذهب،و إلى من يقصد،و من يسأل أن يغفر له ذنبا غيرى؟ثم قال عز و جل: وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ يقول:لم يقيموا على الزنا و نبش القبور و أخذ الأكفان أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ فلما نزلت هذه الآيه على رسول اللّه(ص)خرج و هو يتلوها و يتبسم،فقال لأصحابه:من يدلنى على ذلك الشاب التائب؟فقال معاذ:يا رسول اللّه بلغنا أنّه فى موضع كذا و كذا،فمضى رسول اللّه(ص)بأصحابه حتى انتهوا إلى ذلك الجبل فصعدوا إليه يطلبون الشاب،فإذا هم بالشاب قائم بين صخرتين مغلوله يداه إلى عنقه،قد أسودّ وجهه،و تساقط أشفار عينيه من البكاء،و هو يقول:سيدى قد أحسنت خلقى و أحسنت صورتى فليت شعرى ماذا تريد بى،أفى النار تحرقنى أو فى جوارك تسكننى؟اللهم إنّك قد أكثرت الإحسان الىّ فأنعمت علىّ،فليت شعرى ماذا يكون آخر أمرى؟إلى الجنه تزفنى أم إلى النار تسوقنى؟اللهم إنّ خطيئتى أعظم من السموات و الأرض و من كرسيّك الواسع و عرشك العظيم،فليت شعرى تغفر خطيئتى أم تفضحنى بها يوم القيامه،فلم يزل يقول نحو هذا و هو يبكى و يحثو التراب على رأسه،فدنا رسول اللّه(ص)فأطلق يديه من عنقه،و نفض التراب عن رأسه و قال يا بهلول:أبشر فإنّك عتيق اللّه من النار،ثم قال(ص)لأصحابه:هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول،ثم تلا(ص)ما أنزل اللّه عزّ و جل فيه، و بشّره بالجنه. (۱)

۱- ۱) البقره/(۱۰۶).

و نتساءل:بعد هذا هل يصح لنا أن نغلق باب رحمه اللّه عن أنفسنا باليأس؟! و بعد ان فتح اللّه للمذنبين بابا من رحمته الواسعه، و هو باب الرجاء،يفتح لهم بابا آخر،هو باب التوبه و العوده اليه.

وَ أَنِيبُوا إِلىٰ رَبِّكُمْ بترك الشركاء المزعومين من دونه،لأنّه وحده الربّ الحقيقى للخلق.

وَ أَسْلِمُوا لَهُ بالخضوع و الطاعه،لأنّ رضى اللّه و أمره و نهيه هو الذى ينبغى له أن يؤثر فى شخصيه الإنسان،أمّا العوامل الأخرى كالمال و السلطه،و ما يسمى بالحتميات فيجب تجاوزها كلّها،و تلك الإنابه و هذا التسليم يجب أن يكونا عن وعى تام بضرورتهما لا بسبب شخوص العذاب الإلهى لأنّهما حينئذ لا ينفعان.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذٰابُ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ حيث لا تقدر الآلهه المزيفه على ردّ عذاب اللّه عنكم.

[۵۵] وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ و قد اختلف المفسرون كثيرا فى معنى الأحسن،فقال بعضهم:إنّ الأحسن هو الناسخ لقوله تعالى فى سوره البقره: مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَهٍ أَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهٰا أَوْ مِثْلِهٰا ،و قال ابن عباس:«أى من الحلال و الحرام،و الأمر و النهى،و الوعد و الوعيد،فمن أتى بالمأمور به،و ترك المنهى عنه،فقد اتبع الأحسن» (۱)

ص:۵۱۶

۱- ۱) المجمع/ج(۸)ص(۵۰۳).

و ما یبدو لی هو أنّ الآیه تحتمل ثلاثه معانی کلّها هامه:

المعنی الأول:هو معرفه الواجبات و تطبیقها علی أفضل وجه،لقوله تعالی:

اَلَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاهَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

و لتقریب الفکره نقول:إنّ الإنسان الذی یمرض ولده أو شخص عزیز علیه مرضا خطیرا،فإنّه لن یبحث عن أیّ طبیب لعلاجه،إنّما سیبحث عن أفضل طبیب ممکن طمعا فی حصول الشفاء بأسرع وقت و أفضل صوره،و الإنسان فی حیاته العامه یواجه خطرا مصیریا هو النار،و ینبغی له لکی یخلّص نفسه من شرّها أن یتعرّف علی الواجبات و المستحبات و یؤدیها علی أفضل وجه،و کیف لا و

قد ورد فی الحدیث :

«هلک العالمون إلاّ العاملون،و هلک العاملون إلاّ المخلصون،و المخلصون علی خطر عظیم » المعنی الثانی:و قد تقدّمت الإشاره الیه عند تفسیر قوله تعالی فی بدایات هذه السوره: اَلَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (۱)و هو أنّ القرآن کلّه حسن، و لکن بالنسبه إلی ظروف کل شخص و عصره قد یختلف الأحسن،فعلی سبیل المثال:الصلاه و الصیام و الحج و الجهاد و..و..کل ذلک مفروض علی الناس، و لکن یتأکّد علی کلّ شخص أحد هذه الواجبات أکثر من الآخرین،و أکثر من سائر الواجبات الأخری،فالتاجر ینبغی أن یکون أقرب الناس إلی آیات التجاره و المعامله و أعرفهم بها،بینما المقاتل یکون الأحسن له معرفته بآیات الجهاد و القتال، أمّا القاضی فالأحسن له المعرفه بأحکام القضاء و الحدود و ما إلی ذلک،و هکذا

۱- ۱) الزمر/(۱۸).

بالنسبه للظروف التی تحیط بالشخص فإنها تحدد له الأحسن،فمثلا للمجاهد فی ظروف التقیه لیس الإعلان عن نفسه بل الکتمان و السریه،إذن فموقع الإنسان و ظروفه المحیطه هما اللذان یحدّدان الأحسن.

المعنی الثالث:التوحید المخلص و هو أفضل ما أنزله اللّه علی خلقه،و أعظم شیء یتجلّی فیه التوحید هو اتباع القیاده الرسالیه الحقّه و رفض القیادات المنحرفه، و

فی الخبر فی تفسیر الآیه: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ قال:

«من القرآن و ولایه أمیر المؤمنین و الأئمه علیهم السلام » (1)و یبیّن القرآن بعد نهیه لنا عن الیأس،و دعوته بالإنابه و التسلیم للّه،و أخیرا تأکیده علی اتباع الأحسن،خلفیات هذه الموعظه و أهمیتها بالنسبه للإنسان فیقول:

مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ الْعَذٰابُ بَغْتَهً وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ فهذا الإنسان الذی یسدر فی طریق الضلال،و یسرف فی اقتحام الذنوب و الموبقات،رافضا الإنابه و التسلیم للّه،و اتباع الأحسن،سوف یجرّ علی نفسه العذاب بألوانه،و سیفاجأ به،لیس لانعدام النذر و العلامات الداله علیه، بل لأنّ کثره ممارسه الذنوب و الإصرار علیها یسلب الإنسان أدنی أسباب المعرفه و هو الشعور،إذ یعیش عمق الغفله و الضلال.

[56]هذا فی الدنیا أمّا فی الآخره حیث تنکشف الحقائق للإنسان،فإنّه یصل الی أعلی مراحل الوعی و الشعور،فإنّه یکاد یذوب حسره حین یری ما أعدّ اللّه للمؤمنین به الذین استغلوا فرصه الحیاه الدنیا مثل الثواب،بینما أغفل هو الاستفاده من هذه الفرصه الثمینه و حین یری ما أعدّه اللّه من العذاب للکافرین

1- 1) البرهان/ج(4)ص(79).

و المشركين و الظالمين.

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَیٰ عَلَیٰ مَا فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللّٰهِ بالإسراف فی الذنوب و التقصير فی الواجبات و عمل الصالحات.إذن يجب أن نستفيد من فرصتنا فی الحياه،و إنما السعيد من اتعظ بتجارب غيره.

فإذا كان غيرنا قد مضی من الدنيا مقصّرا و بالتالی هلك و تحسّر،فلنتعظ به حين يكون الاتعاظ نافعا،لأنّه إذا جاء الموت فإنّنا لا نستطيع أن نغيّر من واقعنا شيئا بزياده أو نقصان.

و حيث يصل الإنسان بعد الموت إلی أعلی مراحل العلم و هی عين اليقين فإنّه يكتشف مدی ضلالته و انحرافه عن الحق.

وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ أی أنّنی كنت من الساخرين الذين استهزءوا بالحق و بأهله و اتباعه.

[۵۷]و يحمّل اللّه الإنسان مسئوليه هدايه نفسه،بالاستفاده من آياته تعالی، سواء ما تجلّی منها فی الكون، أو الاخری المتجلّيه فی رسالاته للناس.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللّٰهَ هَدٰانِی لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ بلی.إنّ اللّه يوفّر أسباب الهدايه للإنسان كالآيات و كالمصلحين،أمّا إذا رفضهم فلن يجبره علی اختيار الحق،فی الحياه الدنيا،لأنّ الدنيا دار الامتحان و الابتلاء،ثم ليس صحيحا أن ينتظر الإنسان الهدايه تأتيه إلی بيته إنّما يجب عليه هو البحث عنها و تحمّل مسئولياتها.

ص:۵۱۹

و نستوحی من الآیه إشاره إلی أنّ بعضا من الناس سوف یتعذّرون بهذا التبریر، و اللّه یبیّن لهم أنّه مرفوض عنده،إذا کنت ترید الهدایه فهذا هو الطریق،أن تتغلّب علی القنوط،و تنیب و تسلم للّه قبل العذاب أو الموت،و أن تتبع طریق الحق و أحسن ما أنزل،و إذا فعلت ذلک فسوف تکون مهتدیا،أمّا الطرق الأخری کالانتظار الساذج أو اتباع المناهج المنحرفه فی الحیاه،أو الانصیاع لقیاده الطاغوت،أو الإصرار علی الذنب تحدیا أو قنوطا فإنّها کلّها لا تنتهی إلاّ إلی الضلال.

[۵۸]و لا بد أن یعرف الإنسان قضیّه هامه و حاسمه بالنسبه للحیاه الدنیا، و هی أنّها الفرصه الوحیده له و التی یستطیع فیها تجربه نفسه و إرادته،فإن فشل فیها فسوف یفشل فی الآخره،و إن أفلح فسوف یفوز هناک بنسبه فشله و فلاحه هنا.

أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی الْعَذٰابَ الذی لم تره ببصیره الإیمان حیث کفرت بالحق.

لَوْ أَنَّ لِی کَرَّهً فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ و هکذا یکرّر القرآن تأکیده کثیرا علی أهمیه الإحسان لأنّه أرفع درجه یصل إلیها البشر،باعتباره یمثل خروج الإنسان عن ذاتیّاته و أهوائه إلی خدمه الآخرین، وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (۱)

[۵۹]و نعود للسیاق القرآنی فی هذه السوره بعد هذا الاستطراد لنری ردّ القرآن علی تلک الأقوال التی تتکرّر علی لسان أصحاب النار یوم القیامه،یقول تعالی:

بَلیٰ قَدْ جٰاءَتْکَ آیٰاتِی

ص:۵۲۰

۱- ۱) التغابن/(۱۶).

و كان بإمكانك أن تتجاوز الحسره و الملامه،و أن تهتدى للحق،و أن تنتفع من فرصه الحياه الدنيا.

فَكَذَّبْتَ بِهٰا أوّلا.

وَ اسْتَكْبَرْتَ على الحقّ الذى جاءت به ثانيا،و هذه المرحله من أخطر مراحل المعصيه.

وَ كُنْتَ مِنَ الْكٰافِرِينَ حيث أنكرت إنكارا تامّا ما جاءت به،هذا ثالثا.

[۶۰]و أهم ما كان يكذّب به الكافرون هو البعث و يوم القيامه،الأمر الذى جعلهم بعيدين عن تحمل المسؤوليه،و هل يتحمّل المسؤوليه إلاّ من يؤمن بالجزاء؟ و لعلّه من هذا المنطلق جاء ذكر القرآن لهذا اليوم العظيم.

وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّٰهِ فأشاعوا الضلال،و افتروا على اللّه كذبا بأنّه يأمر بالفحشاء و المنكر.

و من أبرز المصاديق العمليه للكذب على اللّه هو أن يدّعى الإمامه من ليس أهلا لها،و فى تفسير هذه الآيه،هناك

حديث مأثور عن سوره بن كليب عن أبى جعفر عليه السلام قال قلت:قوله تعالى عزّ و جلّ اَلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّٰهِ ...الآيه»قال عليه السلام :«من قال إنّى إمام و ليس بإمام»قلت:و إن كان علويّا فاطميا؟قال:«و إن كان

علويّا فاطميا»قلت:و إن كان من ولد على بن أبى طالب؟قال:«و إن كان من ولد علىّ بن أبى طالب» (1)فيجب على الإنسان أن لا يـدّعى شـيئا لا يحقّ له و إلاّ فهو يرتكب الحرام،و إذا كان ادعاء الإنسان المعرفه بالطب قد يتسـبّب فى قتل عشـرات الناس الذين يتعالجون عنده،فإنّ ادعائه الإمامه و الرئاسه كذبا سوف يفسد كل النظام،الاقتصادى و السياسـى و الاجتماعى و الثقافى،فعليه إذن أن يتجاوز مشكله حب الرئاسه،و أن يتواضع للحق و يسلم لأهله.

و الكذبه لا تسعهم رحمه اللّه على سعتها اللامتناهيه،بل يحشرون يوم القيامه فى هيئه مخزيه لهم.

وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ بآثار الكذب و المعاصى،و بالتالى بانقطاع نور اللّه عنها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ . (2)

و يستفهم منا السياق فيقول:

أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ و يتركنـا نحن الـذين نجيب عليه بأنفسـنا فنقول:بلى،لنقرّ بوجود هـذا المثوى فى جهنم،فنخاف ممّا أعدّه اللّه للكاذبين من العذاب فلا نتكبر.

1- 1) البرهان/ج(4)ص(82).

2- 2) النور/(40).

[سوره الزمر (۳۹): الآيات ۶۱ الی ۷۰]

اشاره

وَ يُنَجِّی اَللّٰهُ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا بِمَفٰازَتِهِمْ لاٰ يَمَسُّهُمُ اَلسُّوءُ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۱) اَللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَیْءٍ وَ هُوَ عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ وَكِيلٌ (۶۲) لَهُ
مَقٰالِيدُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَيْرَ اَللّٰهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ أَيُّهَا اَلْجٰاهِلُونَ (۶۴)
وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَيْكَ وَ إِلَی اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۶۵) بَلِ اَللّٰهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ
اَلشّٰاكِرِينَ (۶۶) وَ مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ اَلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ وَ اَلسَّمٰاوٰاتُ مَطْوِيّٰاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا
يُشْرِكُونَ (۶۷) وَ نُفِخَ فِی اَلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اَللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْریٰ فَإِذٰا هُمْ قِيٰامٌ يَنْظُرُونَ
(۶۸) وَ أَشْرَقَتِ اَلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا وَ وُضِعَ اَلْكِتٰابُ وَ جِیءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ اَلشُّهَدٰاءِ وَ قُضِیَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۶۹) وَ وُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا يَفْعَلُونَ (۷۰)

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا

هدى من الآيات:

تـذكرنا آيات هـذا الـدرس بيوم القيامه الـذى لا سبيل للخلاص من عقباته و عذابه الا بالتوحيد و التقوى،أما الشـرك فانه يحبط أعمال الإنسان و لو كانت من رسول اللّه(ص)على عظمته.

كما نجد فى الآيات تأكيدا على هيمنه اللّه على الكون،و التى تدعونا لعبادته و التسـليم له تسـليما مطلقا،و لا يشـرك البشر بشىء الاـ إذا اعتقـد بهيمنته و سـيطرته و لو على جـانب من الحياه،و انما يخضع البعض لانظمه الطواغيت بسـبب هيمنتهم الظاهريه على المجتمع.

بينات من الآيات:

[۶۱]حـدثنا ربنـا فى نهـايه الـدرس السابق عن المتكبرين الـذين يحشـرون بوجوه مسوده،و فى جهنم يخصـص لهم واديا سـحيقا يلقون فيه أشد ألوان العذاب،و هذا مما

يـثير الخوف فى النفس فـأراد اللّه تعـالى أن يـدخل الاطمئنـان و الرجـاء على عبـاده المؤمنين حيث وعـدهم مباشـره بالنجـاه من العذاب،و براحه البال.

وَ يُنَجِّى اللّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ و المفازه من الفوز،و معناها النجاه،و المؤمنون ينجون بتقواهم.

لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ و هو ادنى العذاب.

وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ من طبيعه الإنسان انه إذا وجد جزاء عمله و كان طموحا فانّه غالبا ما يستقله و يعتقد أن عمله كان أكبر منه،أما المؤمنون فإنهم يجدون أن جزاءهم الأوفى فترضى به نفوسهم،و لا يحزنون على ما قدموه من عمل أو أنفقوه من مال أو نفس، ذلك أنهم يرون جزاءهم الأوفى فى يوم القيامه،و هو أكبر بكثير مما كانوا يتوقعونه فإنهم لا يحزنون.

[۶۲]و يعرّفنا ربّنا نفسه من خلال القرآن.

اَللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ اى حافظ و مهيمن و مدبر،و الآيه تنسف فكره التفويض التى تزعم بأنه تعالى خلق الأشياء ثم تركها و شأنها.

[۶۳] لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يتصرف فيهما كيف يشاء،و المقاليد جمع مقليد أو مقلاد،و معناه المفتاح،

ص:۵۲۶

فمفاتيح السموات و الأرض بيده عز و جل،و كون مفاتيح الشيء بيده يدل على انه متصرف فى ذلك الشيء و فيما يحتويه.

و لعل كلمه مفاتيح تدلنا على وجود سنن و انظمه تحكم هذا الكون،و مع أن ربنا فوق السنن و الانظمه،الا انه بحكمته يهيمن على الخلق من خلالهما،و لان المؤمنون يسلمون له تعالى،و يتبعون آياته فإنهم وحدهم الذين يفلحون و يفوزون فى الحياه،و يسخرونها أفضل من غيرهم لصالحهم.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ و الآيه هى العلامه من الشيء،و آيات اللّه هى العلامات الهاديه للحق و الصلاح،و حيث يرفضها الكفار يضلون و لا يبلغون الفوز و الفلاح.

[۶۴]و يأمر اللّه نبيه الأكرم(ص)بتحدى هؤلاء.

قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ أنهم يجهلون باللّه،و لا يعرفون هيمنته على كل شيء و خلقه له،و يرتكزون فى الجهل بصوره أعمق حينما يظنون أن الأنداد التى يزعمونها من دونه تستحق العباده،و يأمرون الناس بالخضوع لها.

و ليس شرطا أن تكون هذه الأنداد من الحجاره،بل هى كل باطل يخضع له الإنسان،سواء تمثل فى فكره يؤمن بها أو طاغوت يخضع له،كما أنّه ليس المقصود من العباده فقط الركوع و السجود أو طقوس عباديه خاصه يقوم بها الإنسان تجاه من يشرك بهم،بل أن اعانتهم و طاعتهم و حتى الرضى النفسى بهم يعد عباده،و يجب على المؤمن أن يرفض ذلك كله.

[۶۵]ثم یبین اللّه الموقف الحاسم من الشرک و المشرکین،فیحذّر نبیه(ص) تهدیدا حقیقیا،بأنه لو افترض أن أشرک باللّه فان جزاءه سیکون کسائر الناس،و إذ یخصص ربّنا الخطاب هنا بأقرب الناس الیه و هو النبی محمد(ص)مع عصمته لکی یبین لنا بان الشرک أعظم الذنوب عنده تعالی.

وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ لان أعمال الإنسان انما تکون مقبوله حینما یکون اطارها العام أطارا توحیدیا، أما لو عملت الصالحات و أنت تشرک فلن تنفعک أبدا.

وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ و هذه نتیجه طبیعیه لإحباط العمل،ذلک أن ما یجلب للإنسان الفلاح و الفوز هو عمله الصالح فاذا أحبط فأنّی له الفوز؟ و لعل هذه الآیه من أخوف آیات القرآن الکریم،و تأتی فی هذا الدرس تقابل أرجی الآیات و هی قوله تعالی: قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (1) و یدخل اجتماع هاتین الآیتین فی سوره واحده فی سیاق التوازن القرآنی الدقیق.حیث یعیش قارءوه معادله دقیقه طرفاها الخوف و الرجاء.

و کیف لا تکون هذه الآیه من أخوف الآیات،و هی تنذر الإنسان بأنه قد یعمل الصالحات عشرات السنین دون نتیجه بسبب شرکه،و من الشرک خضوعه للحاکم

ص:۵۲۸

۱- ۱) الزمر/(۵۲).

الجائر؟! [۶۶]و فی مقابل دعوه اللّه نبیه و بالتالی کل مؤمن لرفض الشرک فی الآیتین المتقدمتین،یدعوه فی هذه الآیه لعباده اللّه وحده و شکره علی توفیقه له لعبادته.لان ذلک من أکبر نعم اللّه علی الإنسان.

بَلِ اللّٰهَ فَاعْبُدْ وَ کُنْ مِنَ الشّٰاکِرِینَ و فی تقدیم کلمه اللّه(المفعول له)علی الفعل و الفاعل(فاعبد)دلاله علی أن العباده یجب أن تکون خالصه منحصره للّه وحده.و هذا یشبه تقدیم الضمیر المنفصل «إیاک»و هو المفعول علی الفعل و الفاعل«نعبد»فی سوره الحمد،أمّا الشکر المأمور به فهو علی عباده اللّه التی لا تتم إلاّ بتوفیق اللّه أو هو علی عموم نعم اللّه.

[۶۷]ثم-و بصوره اخری-یؤکد لنا القرآن ضروره عباده اللّه،التی تأتی نتیجه معرفته عزّ و جل.و المشرکون و الکافرون انما عبدوا غیر اللّه بسبب جهلهم به و بقدرته.الأمر الذی جعل تقدیرهم له دون مقامه مقام الربوبیه.

وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِیّٰاتٌ بِیَمِینِهِ یتصرف فیهما و فیمن علیهما من الخلق کیف یشاء،فهذه الأرض مع حجمها الکبیر فی نظرنا،و السموات السبع التی یعجز العقل عن استیعاب مداها،و الخیال عن تصور سعتها،یشبه هیمنته علی إحداهما بهیمنه الإنسان علی قطعه النقد الصغیره التی تکون فی قبضته،و یشبه الاخری بالورقه الملفوفه فی یمینه،و لا ریب أن قبضته تعالی کما یمینه لیستا بمعنی وجود جارحه للّه سبحانه و انما هما رمز لقدرته و إرادته، تعالی کما الید رمز لقوه الإنسان،و ربّنا انما یستخدم التشبیهات المجازیه لتقریب المعنی

الی أذهاننا و لو وصف لنا قدرته کما هی لما استوعبت ذلک عقولنا.

سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمّا یُشْرِکُونَ إن من أسباب الشرک عند الإنسان هو عدم معرفته باللّه،فیتصوره بعقله المحدود عاجزا محدودا مثله،و یزعم أنّه یحتاج الی الشرکاء لیدبر شؤون الخلق.و ربّنا منزه عن ذلک،فمن هذه قدرته لا یحتاج الی الشرکاء، و لا یجوز لنا بای حال أن نشرک به.

و بخصوص هذه الآیه

قال الإمام الباقر علیه السلام :

إن للّه لا یوصف،و کیف یوصف و قد قال اللّه فی کتابه« وَ ما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »؟فلا یوصف بقدر الا کان أعظم من ذلک (۱)و

عن سلیمان بن مهران قال :سألت أبا عبد الله علیه السلام عن قوله عز و جل ما قَدَرُوا ...الآیه فقال:یعنی ملکه لا یملکه معه أحد،و القبض الی اللّه تعالی فی موضع آخر المنع و البسط منه،و الإعطاء و التوسیع ...وَ اللّهُ یَقْبِضُ وَ یَبْصُطُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ یعنی یعطی و یمنع و القبض منه عز و جل فی وجه آخر الأخذ، و الأخذ فی وجه القبول کما قال:«و یأخذ الصدقات»ای یقبلها من أهلها و یثبت علیها فقوله عز و جل وَ السَّماواتُ مَطْوِیّاتٌ بِیَمِینِهِ ؟قال:الیمین الید،و الید القدره و القوه،لقوله عز و جل وَ السَّماواتُ مَطْوِیّاتٌ بِیَمِینِهِ ای بقدرته و قوته (۲) [۶۸]و یهدینا القرآن الی أحد مظاهر قدره اللّه و هیمنته، و ذلک حینما ینفخ فی

۱- ۱) البرهان/ج(۴)ص(۸۴).

۲- ۲) المصدر.

الصور فيصعق بذلك كل الخلق فى أقل من لحظه،و لا يبقى أحد الا بعض من الناس و الملائكه يحفظهم اللّه من ذلك النفخ و لعل من بينهم الشهداء.

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ و بعد هذه النفخه تكون نفخه اخرى تدب بسببها الحياه فى الجميع.

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرىٰ فَإِذٰا هُمْ قِيٰامٌ يَنْظُرُونَ و النظر هنا ينصرف لأحد معنيين،فاما أن يكون بمعنى النظر المتعارف حيث تموت بالنفخه الاولى كل حواس الإنسان ثم تعود لطبيعتها مره اخرى و من بينها حاسه النظر،و أما يكون بمعنى الانتظار لأنهم فى النفخه الثانيه يستنهضون للجزاء فاما الى الجنه أو الى النار،و هذا ما يجعل الجميع ينتظر الحكم الصادر بشأنه كقوله تعالى: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنٰاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ . (١)

و من هذه الآيه يتبين أيضا أن الناس يموتون مرتين،مره فى الدنيا و مره بعد الحساب عند النفخه الاولى،و هذا بدوره يفسر قوله تعالى حكايه عن المشركين:

قٰالُوا رَبَّنٰا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (٢)كما يحتمل أن الموت فى النفخه الاولى يخصّ الموجودين فى حينها ممن لم يموتوا بعد،بينما تشمل الحياه من النفخه الثانيه الجميع.

[۶۹]و ينقلنا السياق الى جانب آخر من يوم القيامه،إذ تشرق الأرض بنور

١- ٢) النمل/(٣۵).

٢- ٣) غافر/(١١).

اللّه،و توضع الموازين للحساب العدل و توفى الأنفس أعمالها التى أحصاها اللّه بعلمه.

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا الـذى يخلقه و يتجلى من خلالـه جلالـه و عظمته،و قـد يتجلى اللّه فى خلقه الشـمس و القمر،و قد يتجلى فى إبداع نور تشرق به الأرض ذلك اليوم.

و

فى الاخبار عن المفضل بن عمر قال:سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

«إذا قـام قائمنـا أشـرقت الأرض بنور ربّها و ذهبت الظلمه » (١)و لاـ شـك أنّ نهوض إمـام الحق و ما يتبع ذلك من قيام حكومه العـدل الاـلهيه هـو من أبرز تجليـات نـوره تعـالى،أو ليس الأنبيـاء و الرسـل و الأوليـاء هم نـور اللّه فى الأـرض؟ وَ وُضِعَ الْكِتٰابُ ليحـاسب اللّه النـاس على أعمـالهم،و الكتـاب هنا هو الميزان و المقياس، و نسـتوحى من ذلك أن الأشـياء تتحول فى الآخره من صيغتهـا المعنويه الى المـاديه، فالكتـاب الـذى هو ميزان الحق و الباطـل،و فرقان بينهما فى الـدنيا،يتحول الى ميزان محسوس يراه الناس فى الآخره.

وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدٰاءِ و هم ميزان آخر لمعرفه الحق و الباطل و محاسبه الناس،فالأنبياء ميزان بعصمتهم

۱- ۴) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۰۴).

و سلوكهم النموذجى،بينما الشهداء ميزان بمواقفهم و شهادتهم على مجتمعاتهم، حيث كانوا طليعتها،و لعل الشهداء هنا اشمل من أن نحصرها فى أولئك الذين يجاهدون من أجل الحق،و يسقطون مضرجين بدمائهم،انما هم كل من يلتزم بالحق فيصير حجه على الناس.فأيوب عليه السلام حجه على الذين ينهزمون إمام الابتلاء، و يوسف عليه السلام حجه على الذين يغترون بجمالهم،كما إن الذين يثورون و يتجاوزون إرهاب الطغاه حجه على القاعدين و الخانعين.

و حيث يحضر هذان الميزانات يحاسب الناس بهما و فيهما يتجلى الحق.

وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ و عدم الظلم نتيجه مترتبه على كون المقاييس حقانيه و عقلانيه،و انما يجور الحاكم باتباعه الباطل فى قضائه،و ما دام الأمر كذلك فالناس إذن هم الذين يظلمون أنفسهم بمخالفتهم الحق إذا قضى عليهم بالعذاب.و اللّه يقول بهذا الشأن:

إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ النّٰاسَ شَيْئاً وَ لٰكِنَّ النّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١) [۷٠]ثم يؤكد اللّه عدالته فى الحساب.

وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ و السؤال لماذا لم يقل اللّه و فى كل شخص،أو و فى كل إنسان،و الجواب كما يبدو انه تعالى يريد بيان حقيقه هامه،و هى أن الإنسان لا يحاسب على أعماله الظاهره التى يمارسها بأعضائه و حواسه و حسب،بل يلاقى جزاءه خيرا كان أو شرا حتى على أعمال النفس و تصرفاتها،على فكره،و حبه و بغضه،و الحساب الالهى ليس قائما على الجهل أو الظنون،انما يقوم على علم اللّه المطلق.

١- ١) يونس /(۴۴).

وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا يَفْعَلُونَ و علمه تعالى أدقّ من علم الإنسان بنفسه بل حتى من حساب الملائكه الحفظه، لان البشر معرض للزياده و النقصان فى حساباته،و ذلك بسبب وقوعه تحت تأثير عوامل كثيره كالغفله و النسيان و الجهل و.و.و لان اللّه قد يخفى حتى عن ملائكته بعض أعمال الإنسان سترا له.

ص:۵۳۴

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۷۱ الی ۷۵]

اشاره

وَ سِيقَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُهٰا فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا قٰالُوا بَلىٰ وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ اَلْعَذٰابِ عَلَى اَلْكٰافِرِينَ (۷۱) قِيلَ اُدْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَبِئْسَ مَثْوَى اَلْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲) وَ سِيقَ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى اَلْجَنَّةِ زُمَراً حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُهٰا وَ فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِينَ (۷۳) وَ قٰالُوا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا اَلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ اَلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشٰاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ اَلْعٰامِلِينَ (۷۴) وَ تَرَى اَلْمَلاٰئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ اَلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۷۵)

اللغه

۷۱[زمرا]:جمع زمره و هی الفوج،أی یساقون فوجا فوجا،کلّ فوج مشتمل علی متشابهی الأعمال کالزناه و المقامرین و هکذا.

ص:۵۳۵

وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ

هدى من الآيات:

فى هـذا الدرس ترد كلمه الزمر التى سـميت بها السوره،و قد تكررت مرتين، مره عند الحديث عن الكفار،و اخرى عند الحديث عن المؤمنين،ذلك أن كلا الفريقين يحشرون إلى مصيرهم زمرا و جماعات.

و ربما سـميت السوره بهـذا الاسم،و أكّـد القرآن عليه مرتين،من أجل أن يوحى لنا بطبيعه التفاعل بين أبناء المجتمع،فالناس انما يساقون الى النار و الجنه وفق أعمالهم و انتماءاتهم و هـذا المقياس أساسـى فى حياه الإنسان،فهو إذا أراد أن يعرف نفسه،أو أراد الآـخرون أن يعرفوه،فمـا عليه و عليهم الاـ معرفه الـذين ينتمى إليهم اجتماعيـا و عمليـا،فـان كـانوا صالحين كان منهم،و إن كانوا منحرفين فهو كذلك أيضا.

و الأحاديث المرويه تؤكد بأنّ معرفه الرجال تتم بمعرفه الذين يحيطون بهم،

ص:۵۳۷

فمعرفه القائد بحاشيته،و الشاب بأصدقائه،و النظام بالعاملين فيه،و الدوله بالذين يؤيدونها من طبقات المجتمع.

قال سليمان عليه السلام :

«لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا الى من يصاحب،فإنّما يعرف الرجل بأشكاله و أقرانه،و ينسب الى أصحابه و أخدانه» (۱)

و قال الإمام على و هو يوصى ولده الحسين(عليهما السلام) :

«قارن أهل الخير تكن منهم و باين أهل الشر تبن عنهم » (۲)فالحياه إذن ليست احاديه و لا متناثره،و انما تسير كتلا و أجناسا(زمرا زمرا) و إذا لم تعرف شخصا بذاته فانك تستطيع معرفته بالزمره التى ينتمى إليها،و هذه الحقيقه يؤكدها القرآن فى مواضع كثيره منه،و بصيغ مختلفه كمخاطبته الناس بصوره التجمعات: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فى صفه المؤمنين،و وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فى صفه الكافرين،و هكذا المنافقين و المنافقات،و الصابرين و الصابرات...إلخ.

بينات من الآيات:

[۷۱] وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً اى جماعات على أساس تجانس أعمالهم يسوقهم ملائكه العذاب.

حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُهٰا وَ فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا

ص:۵۳۸

۱- ۱) بح/ج ۷۴ ص(۱۸۸).

۲- ۲) المصدر.

السبعه يدخل كل جماعه من باب،و قد يكون معنى الأبواب العذاب الذى يتضمنه كل قسم من جهنم،و

فى الخصال عن الصادق عن جده عليهما السلام :

«إن للنـار سـبعه أبواب،باب يـدخل منه فرعون و هامان و قارون،و باب يـدخل منه المشـركون و الكفار ممن لم يؤمن باللّه طرفه عين،و بـاب يـدخل منه بنو أميه هو لهم خـاصه و هو باب لظى،و هو باب سـقر و هو باب الهاويه يهوى بهم سـبعين خريفا فكلما هوى بهم سـبعين خريفا فار بهم فوره قذف بهم فى أعلاها سـبعين خريفا،ثم هوى بهم هكذا سـبعين خريفا فلا يزالون هكذا أبدا خالـدين مخلـدين،و باب يـدخل منه مبغضونا و محاربونا و خاذلونا،و انه لأعظم الأبواب و أشدها حرا » (1)و عند ما يدخل كل فريق من بابه يتلقاه خزنه النار بالشماته و السؤال.

وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِ رَبِّكُمْ فمن جهه كان الرسل هم الـذين جاؤوا إليكم و هـذه نعمه كبيره إن يبعث اللّه هاديـا فى المجتمع،و من جهه اخرى لم يكونوا غربـاء عنكم فلقـد كـانوا من وسـطكم الاجتماعى و يتكلمون بلسانكم،و من جهه ثالثه كانوا يحملون إليكم رساله ربكم و يهدونكم الى الآيه تلو الآيه.

وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا و كان هذا كافيا لهدايتكم و خلاصكم من النار لو اتبعتموهم.

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۰۴)،و تجـدر الاشاره فى هـذا الحديث الى أن المذكورين عينات لأصـحاب الأبواب السـبعه و الا فهو يدخل معهم كل من جانسهم فى العمل،بل أن السبعه قد تكون للتخصيص و الكثره و ليس للحصر.

و لم يكن يملك أصحاب النار ردا على كل هذه الحجج البالغه الا بأن.

قَالُوا بَلَىٰ إذن فالهدايه ممكنه لو أرادوها فعلا.

وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَهُ الْعَذٰابِ عَلَى الْكٰافِرِينَ إن باستطاعه الإنسان أن يكفر باللّه،باختياره و لكن بعدئذ يغلق عليه باب الاختيار،و يحاول البعض تبرير كفره بأنه سوف يتوب فى المستقبل كعمر بن سعد الذى اختار الكفر بقتل الإمام الحسين عليه السلام ثم انشد:

يقولون إن اللّه خالق جنه و نار و تعذيب و غلّ يدين

فإن صدقوا فيما يقولون إنّنى أتوب الى الرحمن من سنتين

و هذا من أخطر الأشياء على البشر،حين يختار الانحراف ثم يمنى نفسه بالتوبه فى المستقبل دون أن يدرك سنه اللّه فى الحياه،و هى أن الإنسان قد يختار طريقا بحريته و يتخذ قرارا بكامل إرادته،و لكنه بعد ذلك لا يتمكن من العوده عنه و الخروج من المأزق الذى يقع فيه بسبب ذلك الاختيار السيء.كالذى يقرّر أن يلقى بنفسه من جبل شاهق ثم يجد نفسه عاجزا عن الصعود مره أخرى،فالسقوط يكون باختياره و لكنه لا يتمكن من العروج أنّى حاول.

و القرآن يعبر عن هذه الفكره بصيغ عديده فى آياته،فتاره يسميه بالختم على القلوب و الأسماع خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ (1)و تاره يسميه بذهاب النور ذَهَبَ اللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِى ظُلُمٰاتٍ لاٰ يُبْصِرُونَ (2)،و أخرى يسميه

۱- ۱) البقره/(۷).

۲- ۲) البقره/(۱۷).

باستحقاق الضلاله وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاٰلَهُ (۱) أو باستحقاق كلمه اللّه كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۲)و يعبر القرآن أيضا عن ذلک يجعل الغشاوه على الأبصار وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاٰوَهً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّهِ (۳)أو بجعل الاكنه على القلوب وَ جَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّهً أَنْ يَفْقَهُوهُ (۴)و هذه التعابير و تلک كلها تشير الى سلب اللّه الإنسان حينما يصر على الانحراف و الضلال اراده الهدى فيجد نفسه مجبولا على الفساد و الاستمرار فى طريق الباطل.

إن الاختيار،و الاراده،و الحريه من أكبر نعم اللّه على الإنسان،و إذا سلبه ربّه هذه النعمه فبماذا يختار الحق على الباطل،و المستقبل الأخروى على الحاضر الدنيوى؟ و أن استحقاق الكافرين لكلمه العذاب هو بكفرانهم بنعمه الحريه و تضييعهم فرصه الاختيار على أنفسهم.

[۷۲]و لأنهم حقت عليهم كلمه العذاب بانحرافهم فى الدنيا،تحقق ذلک العذاب بواقعه المحسوس فى الآخره.

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا بتمحضكم فى الكفر،و على الإنسان أن لا يغتر بأعماله أبدا لأنّه قد يستطيع أن يغلق عن نفسه باب الزنى من النار، و لكنه يدخلها من باب الاستسلام للطاغوت و التقاعس عن الجهاد،فيجب علينا إذن لكى نزحزح عن النار أن نغلق كل أبوابها

۱- ۱) النحل/(۳۶).

۲- ۲) يونس/(۳۳).

۳- ۳) الجاثيه/(۲۳).

۴- ۴) الانعام/(۲۵).

عن أنفسنا،و ذلك بعمل الصالحات و ترك الذنوب جميعا التی هی مفاتيح أبواب جهنم،و أهم تلك الأبواب و اخطرها باب المتكبرين الذی يخصصه القرآن هنا بالذكر و الذم من بينها كلها.

فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [٧٣]و فی الجانب الآخر يحدثنا ربّنا عن مصير المؤمنين المتقين الذين يزفّون بالترحيب و التحيه الی قصورهم،و حورهم،و عموم جزائهم فی الجنه.

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّهِ زُمَراً حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُهٰا وَ فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا الثمانيه كما فی الروايات (١)،

ففی كتاب الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه قال :

«إن للجنه ثمانيه أبواب،باب يدخل منه النبيون و الصديقون،و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون،و خمسه أبواب تدخل منها شيعتنا و محبونا،و باب يدخل منه ساير المسلمين ممن يشهد أن لا اله الا اللّه و لم يكن فی قلبه مثقال ذره من بغضنا أهل البيت » (٢)

و عنه عليه السلام قال:قال رسول اللّه(ص) :

«للجنه باب يقال له باب المجاهدين يمضون اليه،فاذا هو مفتوح و هم متقلدون بسيوفهم،و الجمع فی الموقف و الملائكه تزجر،فمن ترك الجهاد ألبسه اللّه ذلا و فقرا فی معيشته و محقا فی دينه،إن اللّه اعزّ أمتی بسنابك خيلها و مراكز

١- ۴) راجع التعليق الذی مر فی الروايه المتقدمه عن النار.

٢- ۵) نور الثقلين/ج(۴)/ص(۵٠۵).

رماحها »(۶) و

قال الإمام الباقر علیه السلام :

أحسنوا الظن باللّه،و اعلموا أن للجنه ثمانیه أبواب عرض کل باب منها مسیره أربعمائه سنه (۱)و إذا دخل المؤمنون الجنه استقبلهم الملائکه الموکلون بها،یلقون إلیهم تحیه ربّهم عز و جل.

وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِینَ و لا یطیب الإنسان و بالتالی یدخل الجنه الا إذا اجتنب الذنوب و المعاصی فی الدنیا،فزکی نفسه بذلک و بعمل الصالحات،لان الجنّه دار الطیبین فقط.

[۷۴]و حیث یعتبر المؤمنون دخول الجنه من أکبر نعم اللّه علیهم شکروه علی ذلک.

وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَیْثُ نَشٰاءُ قالوا:المراد بالأرض الجنه،و اللّه العالم.

فَنِعْمَ أَجْرُ الْعٰامِلِینَ و هذه النهایه الحکیمه للآیه تؤکد حقیقه هامه جدا،و هی أن التقوی و إن

۱- ۱) المصدر.

كانت درع الإنسان و حصنه الذى يقيه العذاب،الا انها لا تكفى وحدها من دون العمل،الذى لا ينفك أن يكون جزءا أساسيا منها.

أن الدرع وحدها لا تكفى المقاتل الذى يخوض المعركه،بل لا بد له من سلاح يمارس به عمليه الهجوم و الدفاع،و هكذا بالنسبه للمؤمن فهو يتحصن بالتقوى عن ارتكاب الموبقات،و لكنه من جهه اخرى لا يستغنى عن العمل لكى يقرب نفسه من الجنه و يبنى مستقبله الأبدى.

و لان الجنه لا تحصل الا بالعمل الصالح بعد التقوى،و لان عمر الإنسان قصير و محدود فلا بد أن يزيد من تقواه و من عمله،و أن يستفيد قدر الإمكان من فرصه العمر القصيره،فى سبيل رضى اللّه و شراء الجنه،و ذلك بان يجعل ذلك هدفا امامه يسخّر كل جهوده لبلوغه.

و

عن جابر بن عبد اللّه الانصارى قال:جاء اعرابى الى رسول اللّه(ص)فقال :

يا رسول اللّه هل للجنه من ثمن؟ قال:«نعم» قال:و ما ثمنها؟ قال:«لا اله الا اللّه يقولها العبد الصالح مخلصا بها» قال:و ما إخلاصها؟ قال:«العمل بما بعثت به فى حقه » (۱)

۱- ۱) أمالى ابن الشيخ الطوسى/ص(۲۱).

و

قال رسول اللّه(ص) :«من قال لا اله الا اللّه غرست له شجره فی الجنه. » و

حینما عرج به(ص)الی السماء رأی الملائکه یبنون القصور و ربما أمسکوا(عن العمل و البناء)،فقال:مالکم ربما بنیتم و ربما أمسکتم؟! فقالوا:لا نبنی حتی تأتینا النفقه.

فقال:و ما نفقتکم؟! فقالوا:قول المؤمن سبحان اللّه،و الحمد للّه،و لا اله الا اللّه،و اللّه أکبر. (۱)

و مما

یروی من سیره الإمام زین العابدین علیه السلام انه خرج ذات مره و قد تطیّب و لبس الجدید،فرآه بعض أصحابه فقال له:الی این یا ابن رسول اللّه؟ فقال:اذهب لأخطب.

ثم افترقا بعدئذ.و حینما جاء الصحابی للمسجد رأی الإمام واقفا للصلاه، فسأله مستغربا:الم تقل انک ذاهب لتخطب؟! فقال علیه السلام :بلی اخطب الحور العین من ربها ۲إذن فالذی یقیم الصلاه،و الذی یجاهد فی سبیل اللّه،و الذی یتصدی للمشاریع الاسلامیه و...و...کلهم یبنی مستقبله الأبدی بهذه الأعمال.

[۷۵]و صوره ثالثه من یوم القیامه بالاضافه الی دخول أولئک النار و هؤلاء الجنه،هناک منظر الملائکه الذین یحفون بعرش القدره و العزه یسبحون بحمد اللّه.

ص:۵۴۵

۱- ۱،۲) النصوص منقوله بمضامینها.

وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ و هذا المنظر من أعظم تجليات قدره اللّه و عظمته،ثم يشير القرآن الى انتهاء المحكمه الالهيه العادله باعتمادها مقياس الحق.

وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ و يبقى أهل الجنه يتذكرون نعم اللّه عليهم و من أعظمها نعمه الهدايه فى الدنيا، و النجاه من النار فى الآخره فيحمدون ربّهم،و من جانب آخر يتجلى عدل اللّه لأصحاب النار فيدخلونها و هم معترفون بمسؤوليتهم عن هذا المصير و بان حكم اللّه فيهم حق و صدق،فيحمدون ربهم.

وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

ص:۵۴۶

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ۱۴۲۶ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیهٔ العمل.

نشاطات المؤسسهٔ:

طبع الکتب والملزمات والدوریات

إقامهٔ المسابقات فی مطالعهٔ الکتب

إقامهٔ المعارض الالکترونیهٔ: المعارض الثلاثیهٔ الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمکنهٔ الدینیهٔ والسیاحیهٔ

إنتاج الأفلام الکرتونیهٔ والألعاب الکمبیوتریهٔ

افتتاح موقع القائمیهٔ الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیهٔ وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلهٔ والاستفسارات الدینیهٔ والأخلاقیهٔ والاعتقادیهٔ والردّ علیها

تصمیم الأجهزهٔ الخاصهٔ بالمحاسبهٔ، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ویب کیوسک kiosk، الرسالهٔ القصیرهٔ ((sms

إقامهٔ الدورات التعلیمیهٔ الالکترونیهٔ لعموم الناس

إقامهٔ الدورات الالکترونیهٔ لتدریب المعلمین

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسهٔ وتطبیقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ویمکن تحمیلها علی ۸ أنظمهٔ؛

۱.JAVA

۲.ANDROID

۳.EPUB

۴.CHM

۵.PDF

۶.HTML

۷.CHM

۸.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلکترونیهٔ للکتاب علی موقع القائمیهٔ ویمکن تحمیلها علی الأنظمهٔ التالیهٔ

۱.ANDROID

۲.IOS

۳.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیهٔ والانجلیزیهٔ والفارسیهٔ

الکلمهٔ الأخیرهٔ

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزي
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir
البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir
هاتف المكتب المركزي ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵
هاتف المكتب في طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱
قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.


مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹